نفح الطيب

من غصن الأندلس الرطيب
وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب

تأليف
الشيخ أحمد بن محمد المقري التلمساني
المتوفى سنة ١٠٤١هـ

شرحه وضبطه وعلق عليه وقدم له

الدكتورة مريم قاسم طويل
أستاذة اللغة الإسبانية والتاريخ الأندلسي
بالجامعة اللبنانية

الدكتور يوسف علي طويل
أستاذ الأدب الأندلسي
بالجامعة اللبنانية

الجزء العاشر

دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

نفح الطيب

من غصن الأندلس الرطيب
وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب

تأليف

الشيخ أحمد بن محمد المقري التلمساني
المتوفى سنة ١٠٤١هـ

شرحه وضبطه وعلق عليه وقدم له

الدكتورة مريم قاسم طويل
أستاذة اللغة الإسبانية والتاريخ الأندلسي
بالجامعة اللبنانية

الدكتور يوسف علي طويل
أستاذ الأدب الأندلسي
بالجامعة اللبنانية

الجزء العاشر

دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

الطبعة الأولى
١٤١٥هـ - ١٩٩٥م

دار الكتب العلمية
Dar al-Kotob al-Ilmiyah

بيروت - رمل الظريف - شارع البحتري - ص.ب: ٩٤٢٤ - ١١ بيروت
هاتف وفاكس: (١_٩٦١) ٦٠٢١٣٣ - ٨٦٨٠٥١ - ٣٦٦١٣٥ - ٣٦٤٣٩٨

Beirut, Ramel al-Zarif, Bohtory St. - P.O Box : 11-9424 Beirut
Tel & Fax : (961-1) 602133 - 868051 - 366135 - 364398

Beirut - lebanon بيروت — لبنان



الباب السابع

في ذكر تلامذة لسان الدين

في ذكر بعض تلامذته الآخذين عنه المستدلّين[١] به على المنهاج، المستفيدين[٢] أنواع العلوم منه والمقتبسين أنوار الفهوم من سراجه الوهّاج.

اعلمْ أنَّ تلامذة لسان الدين رحمه اللّٰه تعالى كثيرون، إلاّ أنه لم يُرزق السعادة في كثير منهم، بل بارزوه بالعداوة، واجتهدوا في إيصال المكروه إليه.

فمن أشهرهم الوزير الكاتب أبو عبد اللّٰه ابن زَمْرك[٣]، وارث مرتبته من بعده، ومقتعد أريكة سعده، وقد ألمع به في «الإحاطة» وكان إذ ذاك من جملة أتباعه، إذ قال ما محصّله: محمد بن يوسف بن محمد بن أحمد بن محمد بن يوسف الصريحي، يكنى أبا عبد اللّٰه، ويُعْرَف بابن زَمْرك.

أصله من شرقي الأندلس، وسكن سلفه ربض[٤] البيازين من غرناطة، وبه ولد ونشأ، وهو من مفاخره.

---

(١) في طبعة دار صادر (جـ ٧ ص ١٤٥): «المستهدين».

(٢) في الطبعة نفسها: «المتلقّين».

(٣) ترجمة ابن زمرك في الإحاطة (جـ ٢ ص ٣٠٠) والكتيبة الكامنة (ص ٢٨٢) ونثير فرائد الجمان (ص ٣٢٧) والتعريف بابن خلدون (ص ٢٧٤) والدرر الكامنة (جـ ٤ ص ٤١٢) وجذوة الاقتباس (ص ١٨٤) ونيل الابتهاج (ص ٢٨٢) وأزهار الرياض (جـ ٢ ص ٧ ـ ٢٠٦) ومعظم شعره فيه.

(٤) في طبعة عبد الحميد (جـ ١٠ ص ٥): «روض».

حاله ـ هذا الفاضل صَدْر من صدور طلبة الأندلس، وأفراد نُجَبَائها، مختصر[1] مقبول، هشّ، خلوب، عذب الفكاهة، حلو المجالسة، حسن التوقيع، خفيف الروح، عظيم الانطباع، شَرِه المذاكرة، فطن بالمعاريض[2]، حاضر الجواب، شُعْلة من شعل الذكاء، تكاد تحتدم جوانبه، كثير الرقة، فَكِه، غَزِل مع حياء وحشمة، جواد بما في يده، مشارك لإخوانه. نشأ عفًّا طاهرًا، كَلِفًا بالقراءة، عظيم الدُؤوب، ثاقب الذهن، أصيل الحفظ، ظاهر النُبل، بعيد مدى الإدراك، جيّد الفهم، فاشتهر فضله، وذاع أَرَجُه، وفشا خبره، واضطلع بكثير من الأغراض، وشارك في كثير[3] من الفنون، وأصبح متلقّف كُرة البحث، وصارخ الحلقة، [وسابق الحلبة][4] ومظنّة الكمال. ثم ترقّى في درج[5] المعرفة والاضطلاع، وخاض لجّة الحفظ، وركض قلم التقييد والتسويد والتعليق، ونصب نفسه للناس متكلّمًا فوق الكرسي المنصوب، وفوق[6] المحفل المجموع، مستظهرًا بالفنون[7] التي بَعُدَ فيها شأوه من العربية والبيان، واللغة[8] وما يقذف به في لُج النقل من الأخبار والتفسير، متشوّفًا مع ذلك إلى السلوك، مصاحبًا للصوفية آخذًا نفسه بارتياض ومجاهدة، ثم عانى الأدب فكان أَمْلَك به، وأعمل الرحلة في طلب العلم والازدياد، فترقّى[9] إلى الكتابة عن ولد السلطان أمير المسلمين بالمغرب أبي سالم إبراهيم ابن أمير المسلمين أبي الحسن علي بن عثمان بن يعقوب، ثم عن السلطان، وعُرِف في بابِهِ بالإجادة[10]. ولما جرت الحادثة على السلطان صاحب الأمر بالأندلس، واستقرّ بالمغرب، أنس له، وانقطع إليه، وكرَّ في صحبة ركابه إلى استرجاع حقّه، فلطف منه محلُّه، وخصّه بكتابة سرّه، وثابت الحال، ودالت الدولة، وكانت له الطائلة، فأقرّه على رسمه معروف الانقطاع

---

(١) في الإحاطة: (جـ ٢ ص ٣٠١): «مختصّ».

(٢) المعاريض: أي المعاريض من الكلام، وهو ما عرض به ولم يُصرّح.

(٣) في الإحاطة: «في جملة».

(٤) ما بين قوسين ساقط من طبعة عبد الحميد (جـ ١٠ ص ٦).

(٥) في أصول النفح: «درجة»، والتصويب عن الإحاطة.

(٦) في الإحاطة: «وبين الحفل..».

(٧) مستظهرًا بالفنون: متقوّيًا بها.

(٨) كلمة «واللغة» ساقطة من طبعة عبد الحميد.

(٩) في الإحاطة (ص ٣٠٢): «وترقّى».

(١٠) في الإحاطة: «في باب الإجادة».

والصاغية، كثير الدالَّةِ، مضطلعًا بالخطّة خطًا وإنشاء ولسنًا ونقدًا، فحسن منابُه، واشتهر فضلُه، وظهرت مشاركته، وحسنت وساطته، ووسع الناس تخلّقه، وأرضى للسلطان حمله، وامتدّ في ميدان النظم والنثر باعه، فصدر عنه من المنظوم في أمداحه قصائد بعيدة الشأو في مدى الإجادة، وهو بحاله الموصوفة إلى هذا العهد[١]، أعانه اللَّه تعالى وسدده!.

شيوخه ـ قرأ العربية على الأستاذ رحلة[٢] إلى المغرب في فنّها أبي عبد اللَّه بن الفخار، ثم على[٣] القاضي الشريف إمام الفنون اللسانية أبي القاسم محمد بن أحمد الحسني، والفقه والعربية على الأستاذ المفتي أبي سعيد بن لب، واختصَّ بالفقيه الخطيب الصَّدْر المحدّث أبي عبد اللَّه بن مرزوق فأخذ عنه كثيرًا من الرواية، ولقي القاضي الحافظ أبا عبد اللَّه المقري عندما قدم[٤] من الأندلس، وذاكره، وقرأ الأصول الفقهية على أبي منصور الزواوي، ويروي عن جماعة[٥] منهم القاضي أبو البركات ابن الحاج، والمحدّث أبو الحسين[٦] ابن التلمساني، والخطيب أبو عبد اللَّه ابن اللوشي، والمقرىء أبو عبد اللَّه ابن بييش، وقرأ بعض الفنون العقلية بمدينة فاس على الشريف الرحلة الشهير أبي عبد اللَّه العلوي[٧] التلمساني، واختصّ به اختصاصًا لم يَخْلُ فيه من استفادة مران وحنكة في الصنعة[٨].

شعره ـ وشعره مترام إلى هدف[٩] الإجادة، خفاجي[١٠] النزعة، كَلِفٌ بالمعاني البديعة والألفاظ الصقيلة، غزير المادة، فمن ذلك ما خاطبني به، وهو[١١] من أوّل ما نظمه قصيدة مطلعها: [الطويل]

أما وانصداع النور من مطلع الفجرِ

---

(١) في الإحاطة: «إلى الآن».
(٢) في الإحاطة: «رحلة الوقت في فنّها أبي عبد اللَّه. .».
(٣) في الإحاطة (ص ٣٠٣: «على إمامها القاضي. .».
(٤) في الإحاطة: «عندما قدم رسولاً إلى الأندلس».
(٥) في طبعة دار صادر (ج ٧ ص ١٤٧): «عن جملة». وفي الإحاطة: «وروى عن جملة».
(٦) في الإحاطة: «أبو الحسن.
(٧) في طبعة دار صادر: «العلوني».
(٨) في الإحاطة: «من إفادة مران وحنكة في الصناعة».
(٩) في الإحاطة: «نمط».
(١٠) الخفاجي: نسبة إلى ابن خفاجة، شاعر الطبيعة في الأندلس.
(١١) في الإحاطة (ص ٣٠٥): «وهي من أول نظمه».

وهي طويلة.

ومن بدائعه التي عَقُمَ عن مثلها قياسُ قيس، واشتهرت بالإحسان اشتهار الزهد بأُوَيْس[1]، ولم يحل مُجاريه ومُباريه إلاَّ بوَيْح ووَيْس، قوله في إعذار الأمير ولد سلطانه، المنوَّه بمكانه، وهي من الكلام الذي عُنيت الإجادة بتذهيبه وتهذيبه، وناسب الحسن بين مديحه ونسيبه: [الطويل]

مَعَاذَ الهَوَى أن أصحبَ القلبَ ساليا ... وأن يُشغلَ اللوّامُ بالعذلِ باليا
دعانيَ أُعْطِ الحبَّ فضلَ مَقَادتي ... ويقضي عليَّ الوَجْدُ ما كان قاضيا
ودون الذي رام العواذلُ صَبْوَةٌ ... رَمَتْ بي في شِعْبِ الغرامِ المراميا
وقلبٌ إذا ما البرقُ أومضَ مَوْهِنًا[2] ... قَدَحْتُ به زندًا من الشوق واريا
خليليَّ إني يومَ طارقةِ النوى ... شَقِيتُ بمن لو شاء أنعمَ باليا
وبالخيفِ يومَ النفرِ يا أمَّ مالك ... تخلَّفتِ قلبي في حبالك عانيا[3]
وذي أَشَرٍ عذبِ الثنايا مخصَّرٍ ... يسقّي به ماءُ النعيم الأقاحيا
أَحُومُ عليه ما دَجَا الليلُ ساهرًا ... وأصبح دون الوِرْد ظمآنَ صاديا[4]
يضيءُ ظلامُ الليلِ ما بين أضلعي ... إذا البارقُ النجديُّ وَهْنًا بَدَا ليا
أجيرتَنا بالرَّملِ والرّملُ منزلٌ ... مضى العيشُ فيه بالشبيبةِ حاليا
ولم أرَ رَبْعًا منه أقضى لُبانةً ... وأشجى حماماتٍ، وأحلى مَجانيا
سقتْ طلَّهُ الغرُّ الغوادي ونَظَّمَتْ ... من القطر[5] في جيد الغصون لآليا
أبثكُمُ أني على النأي حافظٌ ... ذِمامَ الهوى لو تحفظونَ ذِماميا
أُناشدكمْ والحُرُّ أوفى بِعَهْدِهِ ... ولن يَعدمَ الإحسانُ والخيرُ جازيا[6]

---

(١) هو أويس القرني أحد أعلام الزهد في العصر الأموي، قُتل في وقعة صفين عام ٣٧ هـ، الأعلام (جـ ٢ ص ٣٢) ومصادر حاشيته.

(٢) المَوْهِنُ من الليل: نصفه أو بعد ساعة منه. لسان العرب (وهن).

(٣) تخلَّفتِ: تركته خلفي. عانيًا: أسيرًا. لسان العرب (خلف) و (عنا).

(٤) في الإحاطة: «ضاريًا».

(٥) في طبعة عبد الحميد (جـ ١٠ ص ٨): «من الطر».

(٦) في الإحاطة (ص ٣٠٦): «ولن يعدم الخير والأحسان جازيًا».

هل الودُّ إلاَّ ما تحاماه كاشحٌ وأَخْفَقَ في مسعاه مَنْ جاء واشيا[1]
تأوّبني والليلُ يُذكي عُيُونَهُ ويسحبُ من ذيل الدُّجُنَّةِ ضافيا[2]
وقد مثلتْ زُهْرُ النجوم بأُفْقه حبابًا على نهرِ المجرّة طافيا[3]
خيالٌ على بُعْدِ المزارِ ألمّ بي فأذكرني من لم أكن عنه ساليا
عجبتُ له كيف اهتدى نحو مضجعي ولم يُبْقِ مني السقمُ والشوقُ باقيا
رفعتُ له نارَ الصبابةِ فاهتدى وخاض لها عرضَ الدُّجُنَّةِ ساريا
ومِمّا أجَدَّ الوَجْدَ سربٌ على النقا سوانحُ يصقلنَ الطُّلا والتراقيا
نزعْنَ عن الألحاظ كلَّ مسدّدٍ فغادرنَ أفلاذَ القلوب دواميا
ولمّا تراءى السِّرْبُ قلتُ لصاحبي وأيقنتُ أنَّ الحبَّ ما عشت دائيا[4]
حذارَكَ من سقمِ الجفونِ فإنه سَيُعْدِي بما يُعْيِي الطبيبَ المداويا
وإنَّ أميرَ المسلمينَ محمدًا لَيُعْدي نداهُ الساريات الهواميا[5]
تضيءُ النجومَ الزاهراتِ خِلالُهُ وينفثُ في روع الزمانِ المعاليا
مَعَالٍ إذا ما النجمُ صوَّبَ طالبًا مبالغها في العزِّ خلَّقَ وانيا
يسابقُ عُلْوِيَّ الرياح إلى النَّدى ويفضحُ جدوى راحتيه الغواديا
ويُغْضي عن العَوْراءِ إغضاءَ قادرٍ ويرجحُ في الحلمِ الجبالَ الرواسيا
همامٌ يروعُ الأسْدَ في حومةِ الوغى كما راعتِ الأسْدُ الظباءَ الجوازيا[6]
مناقبُ تسمو للفخار كأنما تجاري إلى المجد النجومَ الجواريا
إذا اسْتَبَقَ الأملاكُ يومًا لغايةٍ أَبَيْتَ وذاكَ المجدَ إلاَّ التناهيا
بهرتَ فأخفيتَ الملوكَ وذكرها ولا عجبٌ فالشمسُ تخفي الدراريا
جَلَوْتَ ظلامَ الظُّلْمِ من كلِّ مُعْتَدٍ ولا غَرْوَ أن تجلو البدورُ الدياجيا
هَدَيتَ سبيلَ اللّه مَنْ ضَلَّ رُشْدَهُ فلا زلتَ مَهْدِيًّا إليه وهاديا

---

(١) هذا البيت والأبيات التالية غير واردة في الإحاطة.
(٢) الدُّجُنّة: شدّة الظلام. ضافيًا: طويلاً، سابغًا. لسان العرب (دجن) و (ضفا).
(٣) زهر النجوم: النجوم المضيئة. الحباب: الفقاقيع التي تظهر على سطح الماء أو الخمر. لسان العرب (زهر) و (حبب).
(٤) في طبعة عبد الحميد (ج ١٠ ص ٨): «دائيا».
(٥) الساريات: جمع سارية وهي السحابة. الهوامي: الممطرة. لسان العرب (سرى) و (همى).
(٦) الجوازي: جمع جازية وهي الوحش. لسان العرب (جزا).

أقدتَ وَحِيَّ[1] الملكِ مِمّا أفدته وطَوَّقتَ أشرافَ الملوك الأياديا
وقد عَرَفَتْ منها مَرِينٌ سوابقًا تُقِرُّ لها بالفضل أُخرى اللياليا
وكان أبو زيّانَ جِيدًا مُعَطَّلاً فزيّنته حتى اغتدى بكَ حاليا
لكَ الخيرُ لم تقصدْ بما قد أفدته جزاءً ولكن همّة هي ما هيا
فما تُكْبِرُ الأملاكُ غيرَكَ آمرًا ولا ترهبُ الأشرافُ غيرَكَ ناهيا
ولا تشتكي الأيامُ من داءِ فتنةٍ فقد عرفتْ منكَ الطبيبَ المداويا
وأندلسًا أوليتَ ما أنتَ أهلُهُ وأوردتها وردًا من الأمن صافيا
تلافَيْتَ هذا الثغر وهو على شفًا وأصبحتَ من داءِ الحوادثِ شافيا
ومن بعد ما ساءتْ ظنونٌ بأهلها وحاموا على وردِ الأماني صواديا
فما يأملونَ العيشَ إلاّ تعلُّلاً ولا يعرفون الأمْنَ إلاّ أمانيا
عطفتَ على الأيام عطفةَ راحمٍ وألبسْتَها ثوبَ امتنانك ضافيا
فآنَسَ من تلقائك الملكُ رُشْدَه ونالَ بك الإسلامُ ما كان راجيا
وقفتَ على الإسلام نفسًا كريمةً تصدُّ عدوًّا عن حِماه وعاديا
فرأيٌ كما انشقَّ الصباحُ، وعزمةٌ كما صَقَّلَ القَيْنُ[2] الحُسامَ اليمانيا
وكانت رماحُ الخَطِّ خُمصًا ذوابلاً فأنهلتَ منها في الدماء صواديا
وأوردتَ صفحَ السيفِ أبيضَ ناصعًا فأصدرته في الروع أحمرَ قانيا
لك العزمُ تستجلي الخطوبَ بهديه ويُلْفَى إذا تنبو الصوارمُ ماضيا
إذا أنتَ لم تفخرْ بما أنتَ أهلُهُ فما الصبحُ وضّاح المشارق عاليا
ويهنيكَ دون العيدِ عيدٌ شَرَعْتَهُ نبثُّ به في الخافِقَين التهانيا
أقمتَ به من فطرةِ الدينِ سُنَّةً وجددتَ من رسم الهدايةِ عافيا
صنيعٌ تولّى اللّهُ تشييد فخره وكان لما أوليتَ فيه مجازيا
تودُّ النجومُ الزُّهْرُ لو مَثَلَتْ به وقَضَّتْ من الزُّلفى[3] إليكَ الأمانيا
وما زالَ وجهُ اليوم بالشمس مشرقًا سرورًا به والليلُ بالشُّهب حاليا
على مثله فليعقد الفخرُ تاجَهُ ويسمو به فوقَ النجوم مَرَاقيا

---

(١) وَحِيُّ الملكِ: سريعه. لسان العرب (وحي).
(٢) القَيْنُ: صانع السيوف. لسان العرب (قين).
(٣) الزُّلفى: المنزلة، الدرجة. لسان العرب (زلف).

بـه تـغـمـرُ الأنـواءُ كـلَّ مُـفَـوَّهٍ ويحدو به من كان بالقفر ساريا
ويـوسفُ فيـه بـالـجـمـال مُقَنَّعٌ كأنَّ لـه مـن كـلِّ قلبٍ مُنَـاجيـا
وأقبـلَ مـا شـاب الـحياءَ مَـهابَةً يقلِّـبُ وَجْـهَ البـدر أزهـرَ بـاهيـا
وأقـدَم لا هَـيّابَةَ الـحفلِ واجمًـا ولا قـاصرًا فيـه الخُطَا متـوانيـا
شـمـائـلُ فـيـه مـن أبـيـه وجَـدِّه ترى العزَّ فيهـا مستكنًّا وباديـا
فيا علقًا أشجى القلوبَ لو أننا فديناكَ بالأعلاق ما كنتَ غاليـا
جريتَ فأجريتَ الدموعَ تعطُّفًا وأطلعتَ فيها للسرور فواشيا[1]
وكم من وليّ دون بابك مخلص يُفَدِّيه بالنَّفْس النفيسة واقيـا
وصِيدٍ من الحيَّين أبناء قَيْلةٍ[2] تكفُّ الأعادي أو تُبيد الأعاديا
بهاليلُ[3] غُرٌّ إن أعدّوا لغارةٍ أعادوا صباحَ الحيِّ أظلمَ داجيا
فـوالله لـولا أن تـوخّيـتَ سنّـةً رضيتَ بها أن كان ربُّكَ راضيا
ويهني البنودَ الخافقاتِ فإنها سيعقدها في ذمّةِ النصر غازيا
كأني به يُشقي الصوارمَ والظُّبى ويحطمُ في اللأمِ الصلاب العواليا[4]
كأني به قد تَوَّجَ الملكَ يافعًا وجَمَّعَ أشتاتَ المكارمِ ناشيا[5]
وقَضّى حقوقَ الفخرِ في مَيْعَةِ الصِّبَا وأحسن من دَيْن الكمال التقاضيا
وما هو إلا[6] السعد إن رُمْتَ مطلعًا وسدُّدتَ سهمًا كان ربّك راميا
فلا زلتَ يا فخرَ الخلافةِ كافلاً ولا زلتَ يا خيرَ الأئمّة كافيـا
ودُمْتَ قريرَ العينِ منه بغبطةٍ وكـان لـه ربُّ الـبـريّـةِ واقيـا
لـكـان بـهـا لـلأعـوجيَّاتِ جَـوْلَـةٌ تُشيبُ من الغُلْبِ الشبابَ النواصيا
وتـتـركُ أوصـالَ الـوشـيـجِ مُقَصَّدا وبِيضَ الظُّبَا حُمْرَ المتونِ دواميا
ولمّا قضى من سنّةِ اللّهِ ما قضى وقد حسدتْ منه النجومُ المساعيا
أَفَضْنَا نهنّي منكَ أكرمَ منعمٍ أبى لعميمِ الجُودِ إلاّ تواليا
فيهني صفاحَ الهندِ والبأسَ والندى وسُمْرَ العوالي والعتاقَ المذاكيا

(١) في طبعة دار صادر (جـ ٧ ص ١٥٠): «نواشيا».
(٢) أبناء قيلة: الأنصار.
(٣) البهاليل: جمع بهلول وهو السيّد الجامع لصفات الخير. لسان العرب (بهل).
(٤) هذا البيت ساقط من طبعة عبد الحميد (جـ ١٠ ص ١١).
(٥) ناشيا: ناشئًا.
(٦) في طبعة عبد الحميد: «إلى».

نظمتُ له حُرَّ الكلام تمائمًا جعلتُ مكانَ الدُّرِّ فيها القوافيا
لآلٍ بها تبأى[1] الملوكُ نفاسةً وجَلَّتْ لعمري أن تكون لآليا
أرى المالَ يرميه الجديدانِ بالبلى وما إن أرى إلاَّ المحامدَ باقيا

وورد على السلطان أبي سالم ملك المغرب رحمه اللّه تعالى عليه وَفْدُ الأحابيش بهدية من ملك السودان، ومن جملتها الحيوان الغريب المسمَّى «الزرافة»، فأمر من يُعَاني الشعر من الكتّاب بالنظم في ذلك الغرض، فقال وهي من بدائعه[2]: [الكامل]

لولا تألُّقُ بارقِ التذكار ما صابَ واكفُ دمعيَ المِدْرارِ
لكنه مهما تَعَرَّضَ خافقًا قَدَحَتْ يَدُ الأشواق زندَ أُواري[3]
وعلى المَشُوق إذا تذكَّر معهدًا أن يُغْرِيَ الأجفانَ باستعبار
أمذكّري غرناطةً حَلَّتْ بها أيدي السحاب أَزِرَّةَ النُّوّار
كيف التخلُّصُ للحديثِ وبيننا عَرْضُ الفلاةِ وطافحُ الزَّخّار
هذا على أنَّ التغرُّبَ مركبي وتولُّجُ الفِيحِ الفساح شِعاري[4]
فلكم أقمتُ غداةَ زُمَّتْ عِيسُهُم أبغي القرارَ ولاتَ حين قَرار
وطفقتُ أستقري المنازلَ بعدهم يمحو البكاءُ مواقعَ الآثار
إنّا بني الآمالِ تخدعنا المنى فنخادعُ الآمالَ بالتسيارِ
نتجشّمُ الأهوالَ في طلب العُلا ونروعُ سِرْبَ النومِ بالأفكارِ
لا يحرزُ المجدَ الخطيرَ سوى امرىءٍ يمطي[5] العزائمَ صهوةَ الأخطار
إمّا يُفَاخَرْ بالعتادِ فَفَخْرُهُ بالمشرفيّة والقَنا الخطّار
مستبصرٌ مَرْمَى العواقبِ واصلٌ في حمله الإيرادَ بالإصدار
فأشدّ ما قادَ الجهولَ إلى الردى عَمَهُ[6] البصائرِ لا عمى الأبصار
ولربَّ مربدِّ الجوائحِ مزبدٍ سبح الهلالُ بلُجّه الزخّار

(١) تبأى: تفخر.
(٢) القصيدة في الإحاطة (جـ ٢ ص ٣٠٦ - ٣٠٧).
(٣) الأُوار، بضمّ الهمزة: حَرُّ النار، واللَّهَبُ. محيط المحيط (أور).
(٤) هذا البيت والأبيات الخمسة عشر التالية غير واردة في الإحاطة. والفِيْحُ: جمع فيحاء وهي الواسعة، وأراد هنا الصحراء.
(٥) في طبعة عبد الحميد (جـ ١٠ ص ١٢): «يعطي»
(٦) العَمَهُ: عمى العقل والبصيرة. محيط المحيط (عمه).

فُتِقَتْ كمائمُ جنحِهِ عن أنجمٍ سفرتْ زواهرهنَّ عن أزهار
مَثَلَتْ على شاطي المجرّة نرجسًا تصطفُ منه على خليجٍ جاري
وكأنما بَدْرُ التمامِ بِجُنحِهِ وَجْهُ الإمامِ بجحفلٍ جَرّارِ
وكأنما خمسُ الثريّا راحةٌ ذرعتْ مسيرَ الليل بالأشبار
أَسْرَجْتُ من عزمي مصابيحًا بها تهدي السراة لها من الأقطار
وارتاع من بازي الصباح غرابُهُ لَمّا أطلَّ فطارَ كلَّ مَطَار

ومنها:

وغريبةٍ قطعتْ إليك على الوَنَى بِيدًا تبيدُ بها همومُ الساري
تُنسيهِ طِيَّتَهُ[1] التي قد أَمَّها والرَّكْبُ فيها مَيِّتُ الأخبار
يقتادُها من كلِّ مُشْتَمِلِ الدُّجى وكأنما عيناه جذوةُ نار
تشدو بحمدِ المستعينِ حُدَاتها يتعلّلون به على الأكوار[2]
إنْ مَسَّهُمْ لَفْحُ الهجيرِ[3] أَبَلَّهُمْ منهُ نسيمُ ثنائِكَ المعطارِ
خاضوا بها لُجَجَ الفَلا فتخلَّصَتْ منها خلوصَ البَدْرِ بعد سَرَار
سلمتْ بسعدكَ من غوائلِ مثلها وكفى بسعدكَ حاميًا لذمار
وأتتكَ يا ملكَ الزمان غريبةٌ قَيدُ النواظرِ نزهةُ الأبصار
مَوْشِيَّةُ الأعطافِ رائقةُ الحُلى رَقَمَتْ بدائِعَها يَدُ الأقدار
راقَ العيونَ أديمها فكأنه روضٌ تفتَّح عن شقيق بَهَار
ما بين مُبْيَضٍّ وأصْفَرَ فاقعٍ سال اللُّجَيْنُ به خلال نُضَار
يحكي حَدَائِقَ نرجسٍ في شاهقٍ تنساب فيه أراقمُ الأنهار
تحدو قوائمَ كالجذوعِ يَفوقها جَبَلٌ أشَمُّ بنورِهِ متوارِ[4]
وسَمَتْ بجيدٍ مثل جذعٍ مائلٍ سَهْلِ التعطُّف ليّنٍ خَوّارِ
تستشرفُ الجدران[5] منه ترائبًا فكأنما هو قائمٌ بمنار

(١) الطِّيَّةُ: النيّة والوجهة. لسان العرب (طوى).
(٢) هذا البيت والذي يليه غير واردين في الإحاطة.
(٣) الهجير: شدّة الحرّ. لسان العرب (هجر).
(٤) هذا البيت والأبيات التالية غير واردة في الإحاطة.
(٥) في طبعة عبد الحميد (ج ١٠ ص ١٣): «الجدرات».

تاهتْ[1] بكلكلها وأتلعَ جيدُها ... ومشى بها الإعجابُ مشيَ وقارِ
خرجوا لها الجمَّ الغفيرَ، وكلّهم ... متعجّبٌ من لطفِ صنعِ الباري
كلٌّ يقول لصحبه قوموا انظروا ... كيف الجبالُ تُقادُ بالأسيار
أَلْقَتْ ببابكَ رحلها ولطالما ... ألقى الغريبُ به عصا التسيار
علمتْ ملوكُ الأرضِ أنك فخرُها ... فتسابقتْ لرضاك في مضمار
يتبوّأون به وإنْ بَعُدَ المدى ... من جاهكَ الأعلى أعزَّ جوار
فارفعْ لواءَ الفخرِ غيرَ مدافَع ... واسحبْ ذيولَ العسكر الجرّار
واهنأ بأعيادِ الفتوحِ مخوَّلاً ... ما شئتَ من نَصْرٍ ومن أنصار
وإليكها من روضِ فكري نفحةً ... شفَّ الثناء بها على الأزهار
في فصل منطقها ورائقِ رسمها ... مستمتَعُ الأسماعِ والأبصار
وتميلُ مَنْ أصغى لها فكأنني ... عاطَيْتُهُ منها كؤوسَ عُقَار

وأنشد السلطان في ليلة ميلاد رسول اللّه ﷺ عقب ما فرغ من البنية الشهيرة ببابه رحمه اللّه تعالى: [الطويل]

تأمَّلَ أطلالَ الهوى فتألّما ... وسيما الجوى والسقمِ منها تعلّما
أخو زفرةٍ هاجَتْ له نارَ[2] ذكرةٍ ... فأنجدَ في شِعْبِ الغرام وأتهما

وسَرَد لسانُ الدين هذه القصيدة بطولها، وهي تقارب التسعين بيتًا، ثم قال ما نصُّه:
وأنشد السلطانَ في وجهة للصيد أعملها، وأطلق أعنّةَ الجياد في ميادين ذلك الطراد وأرسلها، قوله[3]: [الكامل]

حَيَّاكِ يا دارَ الهوى من دارِ ... نَوْءُ السِّمَاك بديمَةٍ مِدْرَارِ
وأعاد وجهَ رباكِ طَلْقًا مشرقًا ... مُتضاحكًا بمباسم النُّوّار
أمذكِّري دارَ الصبابةِ والهوى ... حيثُ الشبابُ يرفُّ غصنَ نُضار
عاطيتني عنها الحديثَ كأنما ... عاطيتني عنها كؤوس عُقَار[4]

---

(١) في طبعة عبد الحميد (جـ ١٠ ص ١٤): «تاءت».
(٢) في الطبعة نفسها: «منه ذكرة».
(٣) الإحاطة (جـ ٢ ص ٣٠٧) وفيه ثمانية أبيات فقط.
(٤) هو عجز بيت في القصيدة الرائية السابقة الذكر.

إيـهِ وإن أذكـيـت نـارَ صبـابـتـي وقَـدَحـت زَنْـدَ الـشـوقِ بـالـتـذكـار
يـا زاجـرَ الأظـعـانِ وهـي مَـشـوقـةٌ أشـبـهـتـهـا فـي زفـرةٍ وأُوار
حَـنَّـتْ إلـى نـجـدٍ ولـيـسـتْ دارَهـا وصَـبَـتْ إلـى هِـنْـدِيِّـهِ والـغـار[1]
شـاقَـتْ بـه بَـرْقَ الـحِـمـى واعـتـادهـا طـيـفُ الـكـرى بـمـزارهـا الـمـزوار
هـل تُـبـلـغُ الـحـاجـاتِ إن حَـمَّـلْـتَـهـا إنَّ الـوفـاءَ سـجـيَّـةُ الأحـرار[2]
عرّض بذكري في الخيام وقُلْ إذا جئتَ العقيقَ مُبَلِّغَ الأوطار
عارٌ بقومكِ يا ابنةَ الحيين أن تلوي الديونَ[3] وأنتِ ذاتُ يسار
أَمَنَعْتِ ميسورَ الكلام أخا الهوى ويخلتِ حتى بالخيال الساري
وأبانَ جاري الدمعِ عذرَ هيامِهِ لكن أضعتِ له حقوق الجار
هذا وقومُك ما علمتُ خلالهم أَوْفَى الكرام بذمّةٍ وجوار
اللَّهَ في نَفْسٍ شَعَاعٍ[4] كلّما هَبَّ النسيمُ تطيرُ كلَّ مطار
باللَّه يا لمياءُ ما منعَ الصَّبَا أن لا تهبَّ بِعَرْفك المعطار
يا بِنْتَ مَنْ تشدو الحداةُ بذكره متعلِّلين به على الأكوار
ما ضرَّ نسمةَ حاجرٍ لو أنها أَهْدَتْ لنا خبرًا من الأخبار
هل بَانُهُ من بعدنا مُتَأَوِّدٌ متجاوبٌ مترنِّمُ الأطيار
وهل الظباءُ الآنساتُ كعهدنا يصرعنَ أُسدَ الغاب وهي ضَوَارِ
يفتكنَ من قاماتها ولحاظها بالمشرفيّة والقَنَا الخطّار
أشعرتُ قلبي حُبَّهُنَّ صبابةً فَرَمَيْنَنِي من لوعتي بجمار
وعلى الكثيبِ سوانحٌ حمرُ الحلى بِيْضُ الوجوه يُصَدْنَ بالأفكار[5]
أدنى الحجيجُ جمارهنَّ ثلاثةً بِمِنى لَوَ آنّ مِنًى بدار قرارِ[6]
لكنَّ يومَ النَّفرِ جُذْنَ لنا بما عَوَّدْنَنا مِنْ جَفْوَةٍ ونفار

---

(١) في الإحاطة: «والقار».
(٢) من هنا غير وارد في الإحاطة.
(٣) تلوي الديون: تمطلينها. لسان العرب (لوى).
(٤) شَعاع، بالفتح: متناثرة. لسان العرب (شعع).
(٥) الكثيب: ما اجتمع وتراكم من الرمل، يشبّه به الرِّدْف. لسان العرب (كثب).
(٦) في طبعة دار صادر (جـ ٧ ص ١٥٥): «مزارهنّ ثلاثة.. ديار قرارِ».

يا ابن الألى قد أحرزوا خصل العلا وسَمَوْا بطيبِ أرومةٍ ونجار
وتنوبُ عن صوبِ الغمام أكفُّهم وتَنُوبُ أوجُهُهُمْ عن الأقمار
من آلِ سعدٍ رافِعِي علمِ الهدى والمُصْطَفِينَ لنصْرةِ المختار
أصبحت وارثَ مجدهم وفخارهم ومشرِّفَ الأعصارِ والأمصار
وَجْهٌ كما حَسَرَ الصباحُ نقابَهُ ويَدٌ تمدُّ أناملاً ببحار
جَدَّدْتَ دون الدينِ عزمة أروعٍ[٣] جدّدْتَ منها سُنَّةَ الأنصار
حُطْتَ البلادَ ومن حوَتْهُ ثغورُها وكفى بسعدكَ حاميًا لذمار
للّه رحلتكَ التي نلْنا بها أجرَ الجهادِ ونزهةَ الأبصار
أوردتنا فيها لجودكَ موردًا مستعذَبَ الإيرادِ والإصدار
وأَفَضْتَ فينا مِنْ نَدَاكَ مواهبًا حَسُنَتْ مواقعُها على التكرار
أضحكتَ ثَغْرَ الثغرِ لمّا جئته وخَصَصْتَهُ بخصائصِ الإيثار
حتى الفلاةُ تقيم يومَ وردتها سُنن القِرى بثلاثةِ الأثوارِ[١]
وسرتْ عُقابُ الجوّ تهديك الذي تصطادُ من وحشٍ ومن أطيار
والأرضُ تعلم أنك الغوثُ الذي تُضْفِي عليها واقيَ الأستار
ولربّ ممتدّ الأباطحِ موحشٍ عالي الرُّبا متباعدِ الأقطار
هَمَلِ المسارحِ لا يُراعُ قنيصُهُ إلاّ لنبأةِ فارسٍ مِغْوار
سرحتْ عنانُ الريحِ فيه وربما ألقتْ بساحته عصا التسيار
باكرته والأفقُ قد خلع الدُّجى مِسْحًا لِيَلْبَسَ حُلَّةَ الإسفار
وجرى به نهرُ النهارِ كمثل ما سكبَ النديمُ سُلافَةً من قار
عَرَضَتْ به المُسْتَنْفَراتُ كأنها خَيْلٌ عِرابٌ جُلْنَ في مضمار[٢]
أتبعتها غُرَرَ الجِيادِ كواكبًا تنقضُّ رَجْمًا في سماءِ غبار
والهادياتُ يؤمُّها عَبْلُ الشَّوَى[٣] مُتَدَفِّقٌ كتدفُّق التيّار

---

(١) يتحدث هنا عن خروج سلطان غرناطة للصيد ورميه ثلاثة ثيران، فكأنّ فلاة الصيد راعتْ سُنّةَ القِرى بتقديمها الثيران له.

(٢) المستنفرات: الحيوانات التي استنفرت لكي تعدو الجيادُ وراءها فيحرز السلطان لذة في مطاردتها وصيدها. الخيل العِرابُ: الأصيلة الخالية من الهجنة. لسان العرب (نفر) و(عرب).

(٣) الهاديات: المتقدّمات سبقًا. عبل الشوى: كناية عن الثور.

أَزْجَيْتَها شقراءَ رائقةَ الحلى فرميته منها بشعلةِ نار
أثبتَّ فيه الرمحَ ثم تركته خَضِبَ الجوانحِ بالدَّمِ الموّار
حامتْ عليه الذابلاتُ كأنها طيرٌ أوَتْ منه إلى أوكار[1]
طفقتْ أرانبُهُ غداةَ أَثَرْتَها تبغي الفرارَ ولاتَ حين فرار
هل ينفعُ الباعُ الطويلُ وقد غدَتْ يومَ الطِّراد قصيرةَ الأعمار
مِنْ كلِّ منحفزٍ بِلَمْحَةِ بارقٍ فاتَتْ خُطَاهُ مَداركَ الأبصار
وجوارحٍ سَبَقَتْ إليه طلابها فكأنما طالبْنَهُ بالثار
سودٌ وبيضٌ في الطِّراد تتابعتْ كالليلِ طارده بياضُ نهار
ترمي بها وهي الحنايا ضُمَّرًا مثلَ السهامِ نزعْنَ عن أوتار
ظَنَّتْ بأن ينجو لها، كلاَّ! ولو أَغْرَيْتَهُ بأرانبِ الأقمار
وبكلِّ فَتْخاء الجناح إذا ارتمتْ فكأنها نجمُ السماء الساري
زَجِلُ الجناحِ[2] مصفقٌ كمن الردى في مخلب منه وفي منقار
أجلى الطريد من الوحوش وإن رمى طيرًا أتاك به على مقدار
وأريتنا الكسبَ الذي أعدادُهُ ملأتْ جمالاً أعينَ النُّظَّار
بيضٌ وصفرٌ خِلْتُ مَطْرح سَرْجِها رَوْضًا تفتَّحَ عن شقيقٍ بهار
مِنْ كلِّ مَوْشيِّ الأديمِ مُفَوَّفٍ رقمتْ بدائِعَهُ يَدُ الأقدار
خُلِطَ البياضُ بصفرةٍ في لونه فترى اللُّجَيْنَ يشوبُ ذَوْبَ نُضار
أو أشعلٍ[3] راق العيونَ كأنه غَلَسٌ تخالطُ سُدْفَةً بنهار
سرحتْ بمخضرِّ الجوانبِ يانعٍ تنسابُ فيه أراقمُ الأنهار
قد أَرْضَعَتْهُ الساريات لبانَها وخَلَلْنَ فيه أزرَّةَ النوّار
أخذت سعودكَ حذرها فلحكمةٍ أغرتْ جفونَ المزنِ باستعبار
لمّا أرتكَ الشمسُ صفرةَ حاسدٍ لجبينكَ المتألِّقِ الأنوار
نفثتْ عليك السُّحبُ نَفْثَ معوِّذٍ من عينها المتوقِّعِ الإضرار

(١) الذابلات: أراد بها الرماح. الأوكار: جمع وكر وهو عشّ الطائر. لسان العرب (ذبل) و (وكر).
(٢) زجل الجناح: يريد أن لجناحه صوتًا.
(٣) الأشعل من الخيل: الذي في ذنبه أو في مقدّم رأسه أو في مؤخره بياض. لسان العرب (شعل).

فارفعْ لواءَ الفخرِ غيرَ مُدافَعٍ		واسحبْ ذيولَ العسكرِ الجرّار
واهنأْ بمقدمِكَ السعيدِ مُخَوَّلاً		ما شئتَ مِنْ عزٍّ ومِنْ أنصار
قد جئتُ داركَ محسنًا ومؤمّلاً		مُتْعْتَ بالحسنى وعقبى الدار
وإليكها من روضِ فكري نفحةً		شَفَّ الثناءُ بها على الأزهار

ومن شعره في غير المطولات قوله[1]: [الطويل]

لقد زادني وَجْدًا وأغرى بيَ الجوى		ذُبالٌ[2] بأذيالِ الظلامِ قد التفّا
تشيرُ وراء الليلِ منه بَنانةٌ		مُخَضَّبَةٌ والليلُ قد خَجَبَ الكفَّا
تلوحُ سنانًا حين لا تنفحُ الصَّبا		وتُبْدِي[3] سِوارًا حين تَثْني له العِطْفا
قطعتُ به ليلاً يُطارحني الجوى		فآونةً[4] يبدو وآونةً يخفى
إذا قلتُ لا يبدو أشالَ لسانَهُ		وإن قلتُ لا يخفى الضياءُ به كَفّا[5]
إلى أن أفاق الصبحُ من غَمْرة الدُّجى		وأهدى نسيمُ الروض من طيبه عَرْفا
لك اللَّهُ يا مصباح أشبهتَ مهجتي		وقد شفَّها من لوعةِ الحُبِّ ما شفّا

ومِمّا ثبت له صدر رسالة[6]: [الطويل]

أزورُ بقلبي مَعْهَدَ الأُنسِ والهوى		وأنهبُ من أيدي النسيمِ رسائلا
ومهما سألتُ البرقَ يهفو من الحمى		يبادره دمعي مجيبًا وسائلا
فيا ليتَ شعري والأماني تَعَلُّلٌ		أيرعى ليَ الحيُّ الكرامُ الوسائلا
وهل جيرتي الأولى كما قد عَهِدْتُهم		يُوَالونَ بالإحسان مَنْ جاء سائلا

ومن أبياته الغراميات[7]: [الوافر]:

قيادي قد تَمَلَّكه الغَرامُ		ووَجْدي لا يُطاقُ ولا يُرامُ[8]

---

(١) الأبيات في الإحاطة (جـ ٢ ص ٣٠٨).
(٢) الذُّبال: جمع ذُبالة وهي الفتيلة، وأراد المصباح الذي يصفه ابن زمرك في هذه الأبيات.
(٣) في الإحاطة: «وتبدو».
(٤) في طبعة عبد الحميد (جـ ١٠ ص ١٨): «وآونة».
(٥) في الإحاطة: «وإن قلت لا يخبو الصبابة إذ لفّا».
(٦) الأبيات في الإحاطة (جـ ٢ ص ٣٠٨).
(٧) الإحاطة (جـ ٢ ص ٣٠٨ ـ ٣٠٩).
(٨) يُرام: يطلب. لسان العرب (روم).

ودمعي دونَهُ صَوْبُ الغوادي وشجوي فوق ما يشكو الحَمامُ
إذا ما الوَجْدُ لم يبرحْ فؤادي على الدنيا وساكنها السلامُ

وفي غرض يظهر من الأبيات[1]: [الطويل]

ومشتملٍ بالحسنِ أحْوَى مُهَفْهَفٍ قضى رجعُ طرفي من محاسنه الوَطَرْ[2]
فأبصرتُ أشباهَ الرياضِ محاسنًا وفي خَدِّهِ جرحٌ بَدَا منه لي أثرْ
فقلتُ لجلاّسي خذوا الحذرَ إنما به وَصَبٌ[3] من أسهم الغُنج والحورْ
ويا وجنةً قد جاورتْ سيفَ لَحْظِهِ ومن شأنها تَدْمَى من اللمح بالبصرْ
تَخَيَّلَ للعينينِ جرحًا وإنما بَدَا كَلَفٌ منه على صفحةِ القمرْ

ومِمَّا يرجع إلى باب الفخر، ولعَمْري لقد صدق[4]: [الطويل]

ألائمةً في الجود والجودُ شيمةٌ جُبِلْتُ على إيثارها يوم مولدي
ذريني فلو أنّي أُخَلَّدُ بالغنى لكنتُ ضنينًا بالذي ملكتْ يدي

وقال[6]: [المتقارب]

لقد علمَ اللَّهُ أني امرؤ أُجَرِّرُ ذَيلَ العَفافِ القشيبْ
فكم غمَّضَ الدهرُ أجفانَهُ وفازتْ قِدَاحي بوصل الحبيبْ
وقيل رقيبُكَ في غَفْلَةٍ فقلتُ أخافُ الإلهَ الرقيبْ

وفي مدح كتاب «الشفاء» وقد[7] طلبه الفقيهُ أبو عبد اللّه بن مَرْزُوق عندما شرع في شرحه[8]: [الطويل]

ومسرى ركابٍ للصَّبَا قد وَنَتْ به نجائبُ سُحْبٍ للتراب نُزُوعُها

---

(١) الإحاطة (جـ ٢ ص ٣٠٩).
(٢) - الأحوى: الأسمر، ومن كان لونه لون صدإ الحديد. الوطر: الحاجة. لسان العرب (هوى) و (وطر).
(٣) الوَصَبُ: المرض والوجع الدائم. محيط المحيط (وصب).
(٤) الإحاطة (جـ ٢ ص ٣٠٩).
(٥) في الإحاطة: «يا لايمي في.. شيمتي.. على آثارها يوم...».
(٦) الإحاطة (جـ ٢ ص ٣٠٩).
(٧) كلمة «قد» ساقطة من طبعة عبد الحميد (جـ ١٠ ص ٢٠) ومن الإحاطة (جـ ٢ ص ٣١٠). وكتاب «الشفا» للقاضي عياض بن موسى اليحصبي، واسمه كاملاً: «الشفا، بالتعريف بحقوق المصطفى».
(٨) الإحاطة (جـ ٢ ص ٣١٠).

تسلُّ سيوفَ البرقِ أيدي حُذَاتها ... فتنهلُّ خوفًا من سُطاها دموعُها
تعرّضنَ غربًا يبتغينَ مُعَرَّسًا ... فقلتُ لها: مراكشٌ وربوعُها
لتسقيَ أجداثًا بها وضرائحًا ... عِياضٌ[1] إلى يوم المَعادِ ضجيعُها
وأجدرُ مَنْ تبكي عليه يراعةٌ ... بصفحةِ طرسٍ، والمدادُ نجيعُها[2]
فكم من يدٍ في الدين قد سلفتْ له ... يُرَضِّي رسولَ اللّه عنه صنيعُها
ولا مثلَ تعريفِ الشُّفاءِ حقوقَهُ ... فقد بانَ فيه للعقول جميعُها
بمرآةِ حُسْنٍ قد جَلَتْها يَدُ النُّهَى ... فأوصافُهُ يَلْتاحُ فيه بديعُها
نجومُ اهتداء، والمدادُ يجنُّها ... وأسرارُ غَيْبٍ، واليراعُ تُذِيعُها
لقد حُزْتَ فضلاً يا أبا الفضل شاملاً ... فيجزيك عن نصح البرايا شفيعُها
ولِلّه مِمَّنْ قد تصدَّى لشرحه ... فلبّاه من غُرِّ المعاني مُطِيعها
فكم مجملٍ فَصَّلْتَ منه وحكمةٍ ... إذا كتم الإدماجُ منه تُشيعها
محاسنُ والإحسانُ يبدو خلالها ... كما افْتَرَّ[3] عن زهرِ البطاحِ ربيعها
إذا ما أجَلْتَ العينَ فيها تخالَها ... نجومًا بآفاقِ الطروسِ طلوعها
معانيه كالماءِ الزلال لذي صدًى ... وألفاظُهُ دُرٌّ يروّي نصيعها
رياضٌ سقاها الفكرُ صَوْبَ ذكائه ... فأخصبَ للورّاد منها مَريعها
تَفَجَّرَ عن عينِ اليقينِ زلالها ... فَلَذَّ لأربابِ الخلوصِ شروعُها
ألاَ يا ابنَ جارِ اللّه يا ابنَ وَلِيِّه ... لأنتَ إذا عُدَّ الكرامُ رفيعُها
إذا ما أُصُولُ المرءِ طابتْ أرومةً[4] ... فلا عجبٌ أن أَشْبَهَتْها فروعُها
بقيتَ لأعلامِ الزمانِ تُنيلها ... هدًى، ولأحداثِ الخطوبِ تروعُها

مولده رابع عشر شوّال من عام ثلاثة وثلاثين وسبعمائة[5]؛ انتهى كلام لسان الدين في الإحاطة في ترجمة تلميذه أبي عبد اللّه بن زَمْرَك.

---

(١) هو القاضي عياض بن موسى اليحصبي.
(٢) النجيع: الدم. لسان العرب (نجع).
(٣) افترّ: ابتسم. مختار الصحاح (فرر).
(٤) الأَرُومة: الأصل. لسان العرب (أرم).
(٥) الإحاطة (جـ ٢ ص ٣١٤).

قلت: ورأيتُ بخطِّ أبي الحسن علي بن لسان الدين - رحمهما اللّه تعالى! - على هامش هذه الترجمة من «الإحاطة» كلامًا في حقّ ابن زمرك رأيتُ أنْ أذكره بجملته الآن، وإن تقدَّم بَعْضُهُ في هذا الكتاب:

فمن ذلك أنه كتب على حاشية أول الترجمة ما صورته: أتبعه[1] اللّه تعالى خزيًا! وعامله بما يستحقُّه! فبهذا ترجمة والدي مولاه الذي رفع من قدره فيه، ولـم يقتلْه أحد غيره، كفانا اللّه تعالى شرَّ مَنْ أحسنًا إليه! انتهى.

وكتب على قوله «نشأ عفًّا طاهرًا - إلى آخره» ما نصُّه: هذا الوَغْدُ ابن زمرك من شياطين الكتّاب، ابن حداد بالبيازين، قتل أباه بيده، أوجعه ضربًا فمات من ذلك، وهو أخسّ عباد اللّه تربية، وأحقرهم صورة، وأخملهم شكلاً، استعمله أبي في الكتابة السلطانية، فجنينا أيام تحوّلنا عن الأندلس منه كل شَرّ، وهو كان السبب في قتل أبي مصنّف هذا الكتاب، الذي ربّاه وأدّبه واستخدمه، حسبما هو معروف، وكفانا اللّه تعالى شرَّ مَنْ أحسنًا إليه وأساء إلينا! انتهى.

وكتب على قول والده «فترقّى إلى الكتابة إلى آخره» ما صورته: على يد سيدي أبي عبد اللّه بن مرزوق، ولا حول ولا قوة إلاّ باللّه؛ انتهى.

وكتب على قوله[2] «معاذ الهوى أن أصحب القلب ساليا - إلى آخره» ما نصُّه: هذه القصيدة نظم له مولاي الوالد تغمّده اللّه تعالى برحمته منها النسيب كلّه، وهكذا جرت عادته معه في الأمداح السلطانية حضرة الملك، واللّه المطلع على ذلك، قاله ابن المصنف علي ابن الخطيب؛ انتهى.

وكتب على قوله «لولا تألّق بارق التذكار - إلى آخره» ما صورتُه: هذا الرجس الشيطان كثيرًا ما ينظم في هذا الوزن، ويتبع حمارة هذه الراء، حتى لا يتركها جملة، إذ الرجل ابن حمّار مكاري حداد، فالنفس تميل بالطبع؛ انتهى.

وكتب على قوله «حيّاك يا دار الهوى من دار - إلى آخره» ما صورتُه: انظر إلى كثرة تحريكه لحمارة هذه الراء، علقت له بها مالخوليا؛ انتهى.

---

(١) في طبعة عبد الحميد (جـ ١٠ ص ٢١): «اتبه».
(٢) في طبعة دار صادر (جـ ٧ ص ١٦١): «قول».

وكتب على قوله «وجوارح سبقت إليه طلابها. إلى آخره» ما صورتُه: سرق طردية إبراهيم بن خفاجة[1]، فانظرها تجده سرق المعاني والألفاظ، مع أنّ والدي نظم له أكثرها على حسب عادته معه، قاله علي ابن الخطيب؛ انتهى.

وكتب على قوله «يا مصباح» ما نصُّه: كان يحبُّ صبيًّا اسمه مصباح، وهو الآن مجنون العقل بتونس يحترف بالحياكة؛ انتهى.

وكتب على قوله «ألائمةً[2] في الجود. إلى آخره» ما صورتُه: كذبت يا نجس، من أين الفخر لك ولبيتك[3]، لست واللّه من الجود في شيء، نعم سُخنة[4] عين الجود؛ انتهى[5].

وكتب على قوله «لقد علم اللّه أني امرؤ. إلى آخره» ما معناه: لا واللّه، فأنت مشهور بكذا، يا قرد، فمن أين العفاف وأنت بالأندلس كذا وكذا؟ إلى أن قال: وأنحسهم بيتًا، قاله مولاك الذي ربيت في نعمته ونعمة اللّه علي ابن الخطيب بالقاهرة؛ انتهى.

وقد نسبه إلى ما لا يليق، فاللّه أعلم بحقيقة الأمر.

وكتب غيره على قول ابن زمرك «أزور بقلبي. الأبيات المتقدّمة» عند قوله «سائلاً» في موضعين: هما من السؤال، فحصل على الإيطاء المذموم؛ انتهى.

قلت: أمّا ما ذكره ابن لسان الدين من أنّ أباه كان ينظم لابن زمرك فذلك واللّه أعلم كان في ابتداء أمره، وإلاّ فقد جاء ابن زمرك في آخر أيام لسان الدين وبعد موته بالبدائع التي لا تُنكر، كما سنذكره، وأما كونه سعى في قتل لسان الدين مع إحسانه إليه فقد جوزي من جنس عمله، وقُتل بمرأى من أهله ومسمع، وأُزهقت معه روح ابنيه، حسبما نذكره، وهذا قصاص الدنيا، وعفو اللّه تعالى في الآخرة منتظر للجميع.

---

(١) أشار لسان الدين إلى ذلك في أول ترجمة ابن زمرك حين قال: «خفاجيّ النزعة».
(٢) في طبعة دار صادر (جـ ٧ ص ١٦٢): «ألائمتي».
(٣) في الطبعة نفسها: «أو لبيتك».
(٤) في طبعة عبد الحميد (جـ ١٠ ص ٢٢): «سخنته».
(٥) كلمة «انتهى» ساقطة من طبعة عبد الحميد.

ولنذكر ترجمة ابن زمرك من كلام ابن السلطان ابن الأحمر في مجلّد ضخم[1] رأيته بالمغرب جمع فيه شعر ابن زمرك وموشّحاته، وعرّف به في أوله، إذ قال ما نصُّه: أمّا بعدما يجب من حمد اللّه تعالى في كل حال، وشكره على ما أولى ويسر من صلاح الأحوال، والصلاة والسلام على سيدنا محمد صفوة الأنبياء وسيد الأرسال[2]، والرضا عمّن له مِنْ صَحْبِ وأنصار وآل، فإنَّ من المعلوم أنّ الأدب له بالنفس علاقة تؤدّيه إلى الاستحسان، وتؤثر من اشتهر به بالملاحظة[3] بلحظ الحظّ مع تعاقب الأحيان، ولا خفاء أنّ أيام مولانا الجدّ المقدّس الغني باللّه - تولاّه اللّه تعالى برضوانه! - كانت غررًا في وجوه الأيام، ومواسم تجمع الطِّمّ والرِّم[4] من الرؤساء الأعلام، الآخذين بأعِنَّة الكلام، السابقين في حلبة النثار والنظام، وأنّ الفقيه الرئيس المدرك، الناظمَ الناثر أبا عبد اللّه محمد بن يوسف بن زَمْرَك - عفا اللّه تعالى عنه! - وحسبك بمن ارتضاه مولانا الجدّ رحمه اللّه تعالى لكتابته، وصرّفه في الوجوه المتعدّدة من رسالته وحجابته، وكان بذلك خليقًا، لما جمع من أدوات الكمال علمًا وتحقيقًا، وإدراكًا ونبلاً وفقهًا وأُصولاً وفروعًا وأدبًا وتحصيلاً، وبيانًا وتفسيرًا ونظمًا وترسيلاً - لما كان قد أخفتِ الأيامُ سَنَا صبحه، وخابت وسائل نصحه، وعادت بعدوانها بعد فوز قدحه، وعثر بين أقدام أقوام لا يعرفون أيَّ ذخر فقدوا، ولا أيَّ مطلق عن تصريفاته الجميلة قيّدوا، مستبصرين بالجهل في دَيَاجي غيّهم، معجبين بما ارتكبوه من جياد بغيهم، جميعهم يلحظه بمُقَل دامية، وألفاظ حامية، يصاحبونه بأوجهٍ خَلَتْ عن الوجاهة سيماها الحسد، وضميرها السخط بما قدره الواحد الصمد[5]: [الوافر]

فَخَرَّ على الألاَءَةِ[6] لم يوسَّدْ ... كأنَّ جبينَهُ سيفٌ صقيلُ

فيا للّه من أشلاء هنالك ضائعة، وأعلاق غير مصونة، ووسائل مخفورة، وأذِمَّة قُطعت أرحامها، ولم يُرعَ ذمامها، وعاثت الأيدي الفاتكة حينئذ على بنيه، وارتكبوها شنعاء في أهله وذويه[7]: [البسيط]

---

(١) اسم هذا الكتاب الضخم هو: «البقية والمدرك، من شعر ابن زمرك».

(٢) الأرسال: الرُّسُل، مفردها رَسَل. لسان العرب (رسل).

(٣) في طبعة عبد الحميد (ج ١٠ ص ٢٣): «من الملاحظة».

(٤) الطِّمُّ: البحر. الرِّمُّ: التراب. لسان العرب (طمم) و (رمم).

(٥) البيت لابن عنمة الضبي في رثاء بسطام بن قيس، وهو في شرح الحماسة للمرزوقي (رقم ٣٥٥).

(٦) الألاءة: شجرة دائمة الخضرة لها ثمر مرٌّ. محيط المحيط (ألا).

(٧) الأبيات لابن الأحمر.

هل كان إلاَّ حَيًا تحيا العبادُ به؟ هل كان إلاَّ قَذًى في عين ذي عوَرِ
إن قال قولاً ترى الأبصارَ خاشعةً لما يخبِّر من وحي ومن أثر
يا لهفَ قلبيَ لو قد كنتُ حاضرَهُ غداةَ جَرَّعَهُ أدهى من الصَّبِرِ
لما تركتُ له شلوًا بمَضْيَعَةٍ ولا تولّى صريعَ الناب والظُّفُر
«وكان ما كان مِمّا لستُ أذكره فَظُنَّ خيرًا ولا تسأل عن الخبرِ»

وإن سأل سائلٌ عن الخبر الذي ألمعنا بذكره، وضمَّنّا هذا البيت ذرو[1] من فظيع أمره، فذلك عندما نَسَبَ صاحبُ الأمر إليه ما راب، وتَلَّه[2] وابنيه للجبين مُعَفَّرين بالتراب، وصدمه في جنح الليل والمصحف بين يديه يتوسّل بآياته، ويتشفّع بعظيم بركاته، فأخذته السيوفُ، وتعاورته الحتوف[3]، وأذهبه سليبًا قتيلاً، مُصَيَّرًا مصراع منزله كثيبًا مَهِيلاً، وكنّا على بعد من هذه الآزفة التي أورثت القلوب شَجَنًا طويلاً، وذكرتنا بعناية مولانا الجدّ الغني بالله لجانبه أعظم ذكرى، فأغرينا برثائه خَلَدًا وفكرًا، وارتجلْنا عند ذكره الآن هذه الأبيات إشارةً مقنعة، وكناية في السلوان مُطْمعة، وأرضينا بالشفقة أوِدَّاءه، وأرغمنا بتأبينه أعداءه، ولما تبلّج الصبح لذي عينين، وتلقَّيْنا راية الفرَج بالراحتين، عطفتنا على أبنائه عواطفُ الشفقة، وأطلقنا لهم ما عاثت الأيدي عليه صلةً لرحمٍ طالما أضاعها مَنْ جهل الأذِمّة، وأخفر عهود تخدُّمه لمن سَلَفَ من الأئمة، وصرفنا للبحث والتفتيش وجوه آمالنا، وجعلنا ضمَّ ما نثرته الحوادث من منظوماته من أكِيدِ أعمالنا، وكان تعلَّقَ بمحفوظنا جملةٌ وافرةٌ من كلامه، مشتملةٌ على ما راق وحَسُنَ من نثاره ونظامه، فأضفْنا ذلك إلى ما وقع عليه اجتهادُنا من رقاعه الحائلة[4] المنتهبة بأيدي النوائب، الدائرة المستلبة بتعدي النواصب، فخلص من الجملة قلائد عِقْيان، وعقود دُرّ ومرجان، ترتاح النفوسُ النفيسة لإنشادها، وتحضر الأبصارُ والأسماع عند إيرادها، إلى ما يتخلّلها من تخليد مآثر سلفنا، والإشادة بعظيم ملكنا، فشرعنا في تقييد أوابدها الشاردة، وإحياء رسومها البائدة، كلفًا بالأدب لوضوح فضله، وتأدية لما يجب من رعاية أهله. ولنبدأ بالتعريف بحال هذا الرئيس المنبه عليه، ونظهر ما كنّا نضمره من الميل إليه، في كل ما له أو عليه، فنقول:

---

(١) في طبعة عبد الحميد (ج ١٠ ص ٢٤): «رزأ».
(٢) تلّه للجبين: أوقعه على وجهه. لسان العرب (تلل).
(٣) تعاورته: تداولته. الحتوف: جمع حتف وهو الموت. لسان العرب (عور) و (حتف).
(٤) الرقاع: جمع رقعة وهي الصحيفة التي يكتب فيها. الحائلة: المتغيّرة. لسان العرب (رقع) و (حيل).

هو الفقيه الكاتب، الفذّ الأوحد، أبو عبد اللّه محمد بن يوسف بن محمد بن أحمد بن يوسف الصريحي، ويعرف بابن زَمْرك.

أصله من شرق الأندلس، وسكن سلفه بالبيازين من غرناطة، وبها وُلد، فنشأ ضئيلاً كالشهاب يتوقَّد، مختصر الجرم والأعينُ بإطالة فواضله تشهد، ومكتب الفئة القرآنية يؤثره بالجناب الممهّد، فاشتغل أوّل نشأته بطلب العلم والدؤوب على القراءة، وأخذ نفسه بملازمة حلقات التدريس، ولم يبلغ حدّ وجود المفترضات إلاّ وهو متحمّل الرواية، وملتمس لفرائد[1] الدراية، ومُصَابحٌ كلَّ يوم أعلام العلوم، ومستمدّ بمصابيح الحدود العلمية والرسوم، فافتتح أبواب الكتب النحوية بالإمام أبي عبد اللّه بن الفخار الآية الكبرى في فنّ العربية، وتردّد الأعوامَ العديدة إلى قاضي الجماعة أبي القاسم الشريف فأحسن الإصغاء، وبذ النحاة البلغاء، بما أوجب رثاءه عند الوقوف على ضريحه بالقصيدة الفريدة التي أوّلها: [الرجز]

أغرى سَرّاة الحيِّ بالإطراقِ

واهتدى في طريق الخطبة ومناهج الصوفية بالخطيب المعظم أبي عبد اللّه بن مرزوق الوافد على مولانا الجدّ أبي الحجاج، رضي اللّه تعالى عنه، في عام ثلاثة وخمسين وسبعمائة، وإليه جنحَ، وإياه قصد عند تغرّبه إلى المغرب في دولة السلطان أبي سالم، فتوَّجه بالعمامة التي ارتجل بين يديه فيها: [المجتث]

تَوَّجْتَني بعمامَهْ   تُوِّجْتَ تاجَ الكرامَهْ
فَرَوْضُ حمدِكَ يُزْهَى   مني بسجع الحمامَهْ

وأخذ علم الأصلين عن الحافظ الناقد أبي علي منصور الزواوي، وبرع في الأدب، أثناء الانقطاع وأوّلَ الطلب لأبي عبد اللّه بن الخطيب، ولكن لم يحمدْ بينهما المآل، واقتدى في العلوم العقلية بالشريف أبي عبد اللّه التلمساني قدوة الزمان، وحصلت له الإجازة والتحديثُ بقاضي الجماعة وشيخ الجملة أبي البركات بن الحاج، وبالخطيب البليغ أبي عبد اللّه ابن[2] اللوشي، وبالخطيب الورع أبي عبد اللّه بن بيبش العبدري، رضي اللّه

(١) في طبعة دار صادر (ج ٧ ص ١٦٥): «الفوائد».
(٢) كلمة «ابن» ساقطة من طبعة عبد الحميد (ج ١٠ ص ٢٦).

تعالى عنه وعن جميعهم، وبواجب محافظتنا على عهودهم، إذ نحن وردنا بالإجازة التامة عَذْبَ وِرْدهم[1]، وصَل سببنا بهم الكثير من شيوخنا مثل الإمام المعظم أبي محمد عبد اللّه بن جزي، ومعلمنا الثقة المجتهد أبي عبد اللّه الشريشي، والقاضي الإمام أبي عبد اللّه محمد بن علي بن علاق، وغيرهم، رحمة اللّه تعالى عليهم! لذلك صار صدرًا في نوادي طلبة الأندلس وأفراد نجبائها، فما شاءه المحاضر يجده في خضله[2]، ويتلقّاه من باهر فضله، فكاهة ومجالسة أنيقة ممتعة ومحادثة أريضة مزهرة، وجوابًا شافيًا للمعضل[3]، وذهنًا سابقًا لإيضاح المشكل، مع انقياد الطبع، وإرسال الدمعة في سبيل الخشوع والرّقة، ورشح الجبين[4] عند تلقّي الموعظة، وصون الوجه بجلباب الحياء، ومقابلة الناظر إليه بالاحتشام، والمبادرة للاستدعاء، على طهارة وبذل وسع وكرم نفس، لم يعهد أجمل مشاركة منه لإخوانه، ولا أمتع منه بجاهه، إلى مبالغة في الهَشَّة والمبرّة والإيثار بما منح، وجُنوحٍ إلى حبّ الصالحين، وذلك بالانضواء إلى شيخ الفرق الصوفية الولي أبي جعفر بن الزيات، وأخيه الفاضل الناسك شيخنا أبي مهدي، قدّس اللّه تعالى مغناه! وسواهما من أهل الأندلس والعُدْوة، وحمله أشدّ الحمل على كل ملبّس[5] كأبي زكريا البرغواطي وسواه.

ومن تنديراته . زعموا . على أبي الحسن المحروق لميله عنه: [الخفيف]

وَلَدُ الفقرِ والرباطِ ولكنْ نَفْسُهُ للسلوكِ ذاتُ افتقارِ

وخطب الأدبَ يافعًا وكهلاً، وحاز علمه إدراكًا ونهلاً[6]، ولما كانت الحادثة على مولانا الجدّ . رحمه اللّه تعالى! . واجتاز إلى المغرب كما تقرّر في غير هذا، كلف به، وأنس إليه؛ لحلاوة منطق ورفع استيحاش ومراوضة خُلُق، ثم كَرَّ في صحبة ركابه فَعَلَتْ منزلتُه، ولَطُفَ محلُّه.

---

(١) في طبعة عبد الحميد (ج ١٠ ص ٢٧): «وورودهم».
(٢) الخضل: اللؤلؤ الجيد أو الدرُّ الصافي. لسان العرب (خضل).
(٣) في طبعة دار صادر (ج ٧ ص ١٦٦): «للمفصل».
(٤) رشح جبينه: عرق. لسان العرب (رشح).
(٥) المُلَبِّس: المخلّط. لسان العرب (لبس).
(٦) في طبعة عبد الحميد: «ونبلاً».

وقفنا على رقعة من رقاعه وهو يبدىء فيها ويعيد، ويقول: خدمته سبعًا وثلاثين سنة: ثلاثًا[1] بالمغرب، وباقيها بالأندلس، أنشدته فيها ستًا وستين قصيدة في ستة وستين عيدًا، وكلُّ ما في منازله السعيدة من القصر والرياض والدشار[2] والسبيكة من نظم رائق، ومدح فائق، في القباب والطاقات والطرز وغير ذلك فهو لي، وكنت أُواكله وأواكل ابنه مولاي أبا الحجاج، وهما كبيرا ملوك أهل الأرض، وهنأته بكذا وكذا قصيدة، وفوّض لي في عقد الصلح بين الملوك بالعُدْوتين، وصلح النصارى عقدته تسع مرات، ألخسَّةٍ فوّض إليَّ ذلك؟

قلنا: صدق في جميع ما ذكره، والعقود بذلك شاهدة له. وخصّه عام ثلاثة وسبعين بكتابة سرّه، واستعمله بعد أعوام في السفارة بينه وبين ملوك عصره، فحُمِد مَنَابُه[3]، ونمت أحواله ورَغِدَ جنابه، وكان هنالك بعض تقوّلات تشين وجه اجتهاده، وتومىء بما احْتَقَبه[4] من سوء مقاصده وما صرفه من قبيح أغراضه، وهاجت الفتنة، فكانت سفارته أعظم أسبابها.

وعند الأشُدِّ من عُمُره عرضتْ لأفكاره تقلّبات، وأقعدته عن قِداح السياسة آفاتٌ مختلفات، وأشعرته حدّة ذهنه أن يتخبّط في أشراك رقعات، فقعد بجامع مالَقَة ثم بمسجد الحمراء ملقيًا على الكرسي فنونًا جمّة، وعلومًا لم يزل يتلقّاها عن أولياء التعظيم والتجلة، فانحاز إلى مادة أُمم بمالقة طما منهم البحر، وتراءى لأبصارهم وبصائرهم الفخر، وكان التفسير أغلبَ عليه لفرط ذكائه، وما كان قيده وحصله أيام قراءته وإقرائه، فما شئت من بيان، وإعجاز قرآن، وآيات توحيد وإخلاص، ومناهج صوفية تؤذن بالخلاص، يوم الأخذ بالنواص[5]، ومرارًا عدة سمع ما يلقيه وليُّ الأمر، ويا شدةَ البلوى التي أذاقه مُرَّها، وأمطاه إلى طِيَّةِ الهلاك ظَهْرَهَا، ويا قرب ما كان الفوت، والحسام الصُّلْت، من متباعد هذه[6] القُرَبِ التي أُلْغيت.

---

(١) في طبعة عبد الحميد (جـ ١٠ ص ٢٨): «ثلاثة».
(٢) الدشار: القرية، والجمع دشر ودشائر.
(٣) المناب: مصدر ميمي من الفعل: ناب عنه ينوب. لسان العرب (نوب).
(٤) احتقب فلانٌ الإثم: ارتكبه. لسان العرب (حقب).
(٥) النواصي: جمع ناصية وهي مقدم الرأس، وقوله: يوم الأخذ بالنواصي: يريد يوم القيامة. يقول اللّه تعالى: ﴿يُعْرَفُ المُجْرِمُونَ بِسِيْماهُمْ فَيُؤْخَذُ بالنواصي والأقدامِ﴾. سورة الرحمن ٥٥، الآية ٤١.
(٦) في طبعة عبد الحميد (جـ ١٠ ص ٢٩): «هذا».

قلنا: لقد جمح جواد القلم فأطلقنا[1] ونحن نشير إلى هذا الرئيس وتبدل طباعه، بعد انقضاء أعوام شاهدة باضطلاعه، وإحراز شيم أدّت إلى علوّ مقداره، واستقامة مَدَاره، فآل عمر مولانا جدّنا إلى النفاد، ورمت رئيسَ كتّابه هذا أسهمُ الحساد، فظهر الخفيّ، وسقط به الليل على سِرْحَان، وقد طالما جَرَّبَ الوفيَّ والصفيّ[2]. وكان من شأنه الاستخفاف بأولياء الأمر من حُجَّاب الدولة، والاسترسال في الردّ عليهم بالطبع والجِبِلَّة، مع الاستغراق في غمار الفتن أندلسًا وغَرْبًا، ومراعاة حظوظ نفسه استيلاء وغصبًا، أما الجراءة فانتضى سيوفها، وأما إكفاء السماء على الأرض فقواصم نوّع صنوفها، وأما المجاهرة فوقف بميدان الاعتراض صفوفها، وأما المجاملة فنكّرَ معروفها، أداه هذا النبأ العظيم إلى سكنى المعتقل بقصبة ألمرية، وعلى الأثر كان الفرج قريبًا، وسطور المؤاخذة قد أوسعها العفو تضريبًا، ونالته هذه المحنة عند وفاة مولانا الجدّ الغني بالله، وكانت وفاته غرة شهر صفر عام ثلاثة وتسعين وسبعمائة؛ لأسباب يطول شرحها أظهرُها شَرَاسة في لسانه، واغترار بمكانه، وتضريب بين خدام السلطان وأعوانه، فكَبًا لليدين والفم، إلى أن مَنَّ الله تعالى بسَرَاحه، وأعاده إلى الحضرة في أول شهر رمضان المعظم من عام أربعة وتسعين وسبعمائة، فكان ما كان من وفاة مولانا الوالد رحمه الله تعالى! وقيام أخينا محمد مقامه بالأمر، فاستمرَّ الحالُ أيامًا قلائل، وقدم للكتابة الفقيهَ ابن عاصم لمدة من عام، ثم أعاد المذكور إلى خُطته وقد دَمِثَتْ بعضُ أخلاقِه، وخمدت شراسته وحلا بعض مذاقه، فما كان إلاَّ كلا وليت وإذا به قد ساء مشهدًا وغَيْبًا، وأوسع الضمائر شكًّا ورَيْبًا، وغلبت الإحَنُ[3] عليه، وغلت مراجلها لديه، فصار يتقلّب على جمر الغَضَا، ويتبرَّم بالقضا، ويُظْهر النصح وفي طيّه التشفّي، ويَسِمُ نفسَه بالصلاح، ويعلن بالخشوع، ويشير بأنه الناصح الأمين، ويتلو قوله تعالى ﴿ولكن لا تُحِبُّونَ الناصِحِينَ﴾[4] ورتب على المشتغلين كبيرهم وصغيرهم[5] ذنوبًا لم يقترفوها، ونسب إليهم نِسَبًا من التضييع لم يعرفوها، وأنهم احتجنوا[6] الأموال، وأساءوا

(١) أي: فأطلقنا له العنان.

(٢) في طبعة عبد الحميد: «والصوفي».

(٣) الإحن: جمع إحنة وهي الحقد والضغينة. لسان العرب (أحن).

(٤) سورة الأعراف ٧، الآية ٧٩.

(٥) كلمة «وصغيرهم» ساقطة من طبعة عبد الحميد (ج١٠ ص ٣٠).

(٦) احتجنوا الأموال: ضمّوها إلى أنفسهم.

الأعمال والأقوال، فلم يظفر من ذلك بكبير طائل، ولا حَصَل على تفاوت أعداده على حاصل، هذا على قلّة معرفته بتلك الطريقة الاشتغالية، وعدم اضطلاعه بالأمور الجبائية، فمن نفس يروّع سِرْبُها، ويكدر بالامتحان والامتهان شربها، ومن ضارعة خاشعة للّه تعالى سُلبت، وطُولبت بغير ما اكتسبت، وتعدّت الأيدي إلى أقوام جلّة سعدوا بشقائه، وامْتُحِنوا وهم المبرّأون من تزويره واعتدائه، وسيسألون يوم لا يغني مال ولا بنون. وصار يصرف أغراضه، ويُظهر أحقاده، بين إفصاح بما كان الإعجامُ خيرًا من إلقائه، وإن عمر المسكين المستضعف لا حاجة في طول بقائه، إلى مجاهرةٍ عُهد منه أيام شبيبته نقيضُها، وانعكس في شاخته تصريحُها المنغص وتعريضُها، لا يريح نفسه من جَهْد، ولا يقف من اللجلجة[1] عند حدّ، وقد كان ثقل سمعه فساءت إجابته، وطغت أخلاقه فَسُئِمَتْ[2] وساطتُه، وربما استحلف فلم يكن بين اللازمة واللازمة إلاّ الحنث عن قصد وغير قصد، ودعا على نفسه وأبنائه بإنجاز وَعْد، وأن يقيض اللّه له ولهم قاتل عمد، فسبحان القاهر فوق عباده، الرحيم بهذا الشخص وبالأموات من شيعته وأولاده، فاستمرّ على ذلك إلى إحدى الليالي، فهلك في جنح الليل في جوف داره على يد مخدومه، تلقّاه - زعموا - عند الدخول عليه، وهو بالمصحف رافع يديه، فجدلته السيوف، وتناولته الحتوف، فقضي عليه، وعلى من وجد من خدّامه وابْنَيْهِ، كل ذلك بمرأى عين من أهله وبناته، ولم يتّقوا اللّه فيه حَقَّ تُقَاته، فكانت أنكى الفجائع، وأفظع الوقائع، وساءت القالة، وعظم المصاب، وكل شيء إلى أجل نافذ وكتاب. انتهى كلام ابن الأحمر في مقدمة كتابه.

وقد اطلعت منه على تصاريف أحوال ابن زَمْرَك، وقتله على الوجه الذي يُعلم منه أنَّ ثأر لسان الدين بن الخطيب لديه لا يترك، بل قتلته أفظع من قتلة لسان الدين؛ لأنَّ هذا قتل بين عياله وأهله، وقُتل معه أبناه ومن وجد من خدمه، ولسانُ الدين رحمه اللّه تعالى خُنق بمفرده، وعند اللّه تجتمع الخصوم، وهو العفوُّ الغفور.

وقد فُهم من مضمون ما سبق أنَّ قتل ابن زمرك بعد عام خمسة وتسعين[3] وسبعمائة، ولم أقف من أمره على غير ما تقدّم.

---

(١) اللجلجة: ترديد الكلام. لسان العرب (لجلج).

(٢) في طبعة دار صادر (جـ ٧ ص ١٧٠): «فسئم الناسُ وساطته».

(٣) في طبعة عبد الحميد (جـ ١٠ ص ٣١): «وسبعين».

ولا بأس أن نلم بشيء من نظمه البارع مِمّا كنت انتقيْتُه بالمغرب من تأليف ابن الأحمر المذكور، وأوردت كثيرًا منه في «أزهار الرياض».

فمن ذلك قوله في ذكر غَرْنَاطة العلية، وتهنئة سلطانه الغني باللّه ببعض المواسم العيدية، ووَصْف كرائم جِياده، وآثار ملكه وجهاده: [البسيط]

يا من يحنُّ إلى نجدٍ[1] وناديها ... غرناطةٌ قد ثَوَتْ نَجْدٌ بواديها
قِفْ بالسبيكةِ[2] وانظرْ ما بساحتها ... عَقِيْلَةٌ والكثيبُ الفَرْدُ جاليها
تَقَلَّدَتْ وشاحِ النهرِ وابتسمتْ ... أزهارُها وَهْي حَلْيٌ في تراقيها[3]
وأعينُ النرجسِ المطلولِ[4] يانعةٌ ... ترقرقُ الطلّ دمعًا في مآقيها
وأفتَرَّ ثغرُ أقاحٍ من أزاهرها ... مُقَبِّلاً خَدَّ وَرْدٍ من نواحيها
كأنما الزهرُ في حافاتها سَحَرًا ... دراهمٌ والنسيمُ اللُّدْنُ[5] يُجبيها
وانظرْ إلى الدَّوْح والأنهارُ تكنفُها ... مثل الندامى سواقيها سواقيها
كم حولها من بدورٍ تجتني زَهَرًا ... فتحسبُ الزهرَ قد قَبَّلْنَ أيديها
حصباؤها لؤلؤ قد شفّ جوهرها ... والنهرُ قد سال ذَوْبًا من لآليها
نهرُ المجرّة[6] والزهرُ المطيفُ به ... زُهرُ النجوم إذا ما شئت تشبيها
يزيدُ حسنًا على نهرِ المجرَّة قد ... أغناهُ درّ حَبَاب عن دراريها
يدعى المُنَجِّمَ رائيه وناظرُه ... مسمّيات أبانتها أساميها
إنّ الحجاز مَغانيه بأندلسٍ ... ألفاظُها طابقتْ منها معانيها
فتلك نجدٌ سقاها كلُّ منسجمٍ ... من الغمامِ يحيّيها فيحييها
وبارقٌ وعُذَيبٌ كلُّ مبتسمٍ ... من الثغور يحلّيها مجلّيها
وإن أردتَ ترى وادي العقيق فَرِدْ ... دموعَ عشّاقها حمرًا جواريها

---

(١) نجد: متنزه في غرناطة، مطلّ على بسيط غرناطة، تغنى به الشعراء.
(٢) السبيكة: موضع خارج غرناطة، وقد تغنّى به الشعراء.
(٣) التراقي: جمع ترقوة وهي العظم الذي يصل بين ثُغْرة النحر والعاتق من الجانبين. محيط المحيط (ترقو).
(٤) المطلول: الذي أصابه الطّلّ وهو خفيف المطر. لسان العرب (طلل).
(٥) النسيم اللدن: الرطب الذي لا حَرّ فيه. لسان العرب (لدن).
(٦) في طبعة عبد الحميد (جـ ١٠ ص ٣٢): «المنجم».

وللسبيكةِ تاجٌ فوق مفرقها تودُّ درُّ الدراري لو تحلِّيها
فإنَّ حمراءها واللهُ يكلؤها ياقوتةٌ فوق ذاك التاجِ يعليها
إنَّ البدورَ لَتِيجانٌ مُكَلَّلَةٌ جواهرُ الشُّهب في أبهى مجاليها
لكنها حسدتْ تاجَ السبيكة إذ رأتْ أزاهِرَهُ زَهْرًا يجلّيها
بروجها لبروج الأفقِ مخجلةٌ فشُهبها في جمال لا تضاهيها
تلك القصورُ التي راقتْ مظاهرُها تهوي النجومُ قصورًا عن معاليها
للّه للّه عَيْنَا مَنْ رأى سَحَرًا تلك المنارةَ قد رَقَّتْ حواشيها
والصبحُ في الشرق قد لاحتْ بشائره والشهبُ تَسْتَنُّ[1] سبقًا في مجاريها
تهوي إلى الغرب لمّا غالها سَحَرٌ وغَمَّضَ الفجرُ من أجفانِ واشيها
وساجع العود في كَفِّ النديم إذا ما استوقف الطير يدنيها ويقريها[2]
يُبْدي أفانينَ سحرٍ في ترنّمه يُصبي العقولَ بها حُسْنًا ويسبيها
يجسُّه ناعمُ الأطرافِ تحسبها لآلئًا وَهْيَ نورٌ في تلاليها
مقاتلٌ بلحاظٍ قوسُ حاجبها ترمي القلوبَ بها عَمْدًا فتُصْميها[3]
فباكر الروض والأغصان مائلة يثني النفوسَ لها شوقًا تَثَنّيها
لم يرقص الدوح بالأكمام من طرب حتى شدا من قيانِ الطيرِ شاديها
وأسْمَعَتْها فنونَ السحرِ مبدعةً وُرْقُ الحمام وغنّاها مغنّيها
غرناطةٌ آنسَ الرحمنُ ساكنَها باحتْ بسرِّ معانيها أغانيها
أعدى نسيمُهُم لطفًا نفوسَهم فرقّةُ الطبعِ طبعٌ منه يعديها
فَخَلَّد اللّهُ أيامَ السرورِ بها صُفرًا عَشِيّاتها بيضًا لياليها
وروّضَ المحلَ منها كلُّ منبجس إذا اشتكتْ بغليل الجدب يرويها
يحكي الخليفةَ كفًّا كلّما وكفتْ بالجُودِ فوق مَوَاتِ الأرضِ يُحْييها
تغنى العفاةُ وقد أمَّتْ مكارمهُ عن السؤال وبالإحسان يُغْنيها
لها بنانٌ فلا غيثٌ يساجلها جودًا ولا سُحبه يومًا تدانيها

---

(١) تستنُّ: تعدو نشيطة. القاموس المحيط (سنن).

(٢) رواية عجز البيت في طبعة دار صادر هي:

ما استوقفت ساجعات الطير يغريها

(٣) أصماه: أصاب منه مقتلاً. لسان العرب (صما).

فإن تَصُبْ سُحْبُه بالماء حين هَمَتْ بعسجدٍ ولُجَينٍ صابَ هاميها
يا أيها الغيثُ أنتَ الغوثُ في زمنٍ ملوكه تلفتْ لولا تلافيها
إنَّ الرعايا جزاكَ اللّه صالحةً ملكتَ شرقًا وغربًا من يراعيها
إنَّ الخلائقَ في الأقطار أجمعها سوائمٌ أنتَ في التحقيق راعيها
فكلُّ مصلحةٍ للخلقِ تحكمها وكلُّ صالحةٍ في الدين تنويها
إذا تيمّمتَ أرضًا وهي مجدبةٌ فرحمةُ اللّه بالسقيا تحيّيها
يا رحمةً بَثَّتِ الرُّحمى بأندلسٍ لولاكَ زلزلتِ الدنيا بمن فيها
في فضلِ جودك قد عاشتْ مشيختها في ظلِّ أمنك قد نامتْ ذَراريها
في طول عمركَ يرجو اللّه آملُها بنصرِ مُلْكك يدعو اللّه داعيها
عوائدُ اللّه قد عُوِّدْتَ أفضلها لتبلغَ الخلق ما شاءت أمانيها
سُلَّ السعود وخَلِّ البِيضَ مُغمَدةً واضرب بها فريةَ التثليث تفريها[1]
للّه أيامُكَ الغُرُّ التي أطردتْ فيها السعودُ بما ترضى ويرضيها
للّه دولتُكَ الغرّاء إنَّ لها لكافلاً من إله العَرْش يكفيها
هيهاتَ أن تبلغَ الأعداءُ مأربةً في جريها وجنودُ اللّه تحميها
هذي سيوفُكَ في الأجفان نائمةٌ والمشركونَ سيوفُ اللّه تُفنيها
سريرةٌ لك في الإخلاص قد عرفتْ حُسْنى عواقبها حتى أعاديها
لم يحجب الصبح شهب الأفق عن بصر إلاَّ وهَذيْك للأبصار يبديها
يا ابنَ الملوكِ وأبناء الملوك إذا تدعو الملوكُ إلى طَوْعٍ تلبّيها
أبناءُ نصرٍ ملوكٌ عزَّ نصرهُمُ وأوسعوا الخلقَ تنويهًا وترفيها
همُ المصابيحُ نور اللّه موقدها تضيء للدين والدنيا مَشاكيها[2]
همُ النجومُ وأفقُ الهدى مطلعها فوزًا لمهديِّها عزًّا لهاديها
همُ البدورُ، كمالٌ ما يفارقُها هُمُ الشموسُ، ظلامٌ لا يواريها

---

(١) البِيضُ: السيوف. الفرية: الكذب. تفريها: تقطعها. لسان العرب (بيض) و (فرا).

(٢) المشاكي: جمع مشكاة وهي الكوة غير النافذة يوضع فيها المصباح ونحوه، أو هي العمود الذي يوضع المصباح على رأسه. يقول اللّه تعالى: ﴿مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾. سورة النور ٢٤، الآية ٣٥ ولسان العرب (شكا).

قَضَتْ قواضبُها أن لا انقضاء لها   وأمْضَتِ الحكمَ في الأعدا مواضيها[1]
وخلّدت في صفاح الهندِ سيرتها   وأسندتْ عن عواليها معاليها[2]
وأورثتكَ جهادًا أنتَ ناصره   والأجرُ منك يُرَضّيها ويُخطّيها
كم موقفٍ ترهب الأعداءُ موقعه   والخيل تزدي ووقع السيف يُرْدِيها
ثارتْ عجاجتُهُ واليومُ محتجبٌ   والنقعُ يؤثرُ غيمًا من دياجيها[3]
وللأسنّة شُهبٌ كلّما غربتْ   في الدارعينَ تجلّتْ من عواليها
وللسيوف بروقٌ كلّما لَمَعَتْ   تزجي الدماء وريح النصر يُزْجِيهَا[4]
أطلعتَ وجهًا تريك الشمسَ غرّتُه   تباركَ اللّهُ ما شمسٌ تُساميها
من أين للشمسِ نُطْقٌ كلُّه حِكَمٌ   يفيدها كلَّ حينٍ منكَ مبديها
لكَ الجيادُ إذ تجري سوابقها   فللرياحِ جيادٌ ما تجاريها
إذا انبرتْ يومَ سَبْقٍ في أعنّتها   ترى البروقَ طِلاحًا لا تباريها
من أشهبٍ قد بَدَا صبحًا تراع له   شهبُ السماء فإنَّ الصبحَ يخفيها
إلاَّ التي في لجامٍ منه قيّدها   فإنه سامها عزًّا وتَنْويها
أو أشقرٍ مَرَّ عن[5] شقر البروق وقد   أبقى لها شفقًا في الجوّ تنبيها
أو أحمرٍ جمرُهُ في الحرب متّقدٌ   يعلو لها شررٌ من بأسٍ مذكيها
لونُ العقيقِ وقد سال العقيقُ دمًا   بِعِطْفِهِ من كُمَاةٍ كاد[6] يدميها
أو أدهمٍ ملء صَدْر الليل تنعله   أهلّة فوق وجه الأرض يبديها
إن حارتِ الشُّهبُ ليلاً في مُقَلَّده   فَصُبْحُ غُرّته بالنور يهديها
أو أصفرٍ بالعَشِيّات ارتدى مرحًا   وعَرْفه بتمادي الليل ينبيها
مُمَوّهٌ بنضارٍ تاهَ من عجبٍ   فليس يعدمُ تنويهًا ولا تيها
وربَّ نهرِ حسامٍ رقّ رائقُهُ   متى تَرِدْهُ نفوسُ الكفر يرديها

---

(١) القواضب: السيوف، واحدها: قاضب. المواضي: السيوف الحادة القاطعة. لسان العرب قضب) و (مضى).

(٢) صفاح الهند: السيوف المهندة. العوالي: الرماح، واحدها: عالية. لسان العرب (صفح) و (علا).

(٣) العجاجة: الغبار. النَّقْعُ: الغبار المتناثر من حوافر الخيل في المعركة. لسان العرب (عجج) و (نقع).

(٤) يُزْجيها: يسوقها ويدفعها. لسان العرب (زجا).

(٥) في طبعة عبد الحميد (ج ١٠ ص ٣٥): «أشقر مرعب».

(٦) في طبعة دار صادر (ج ٧ ص ١٧٤): «كرًّا».

تجري الرؤسُ حبابًا فوق صفحته ... وما جرى غيرَ أنَّ البأسَ يجريها
وذابلٍ من دمِ الكُفّار مَشْرَبُهُ ... يجني الفتوحَ وكفُّ النصر تَجنيها
وكم هلالٍ لقوسٍ كلّما نبضتْ ... ترى النجومَ رجومًا في مراميها
أئمةُ الكفرِ ما يَمَّمْتَ ساحتَها ... إلاّ وقد زُلزلتْ قسرًا صَيَاصيها[1]
يا دولةَ النصر هل من مُبْلغٍ دولاً ... مَضَيْنَ أنك تحييها وتنسيها
أو مبلغٍ سالفَ الأنصار مألُكَةً[2] ... واللّه بالخلدِ في الفردوس يجزيها
إنَّ الخلافةَ أعلى اللّهُ مَظْهَرَها ... أبقتْ لنا شرفًا واللّه يُبقيها
يا ابنَ الذين لهم في كلِّ مكرمةٍ ... مفاخرٌ ولسانُ الدهر يمليها
أنصارُ خير الورى، مختارُ هجرته ... جيرانُ روضته، أكْرِمْ بأهليها
سمّتهمُ الملّةُ السمحاءُ تكرمةً ... أنصارَها، وبهمْ عَزّتْ أواليها
ففي حُنَينٍ وفي بَدْرٍ وفي أُحُدٍ ... تُلْفي مفاخرهم مشهورةً فيها[3]
ولتسألِ السِّيَرَ المرفوعَ مُسْنَدُها ... فعن مواقفهم تُروَى مغازيها
مآثرُ خَلَّدَ الرحمنُ أثرتَها ... ينصُّها من كتاب اللّه قاريها
ماذا يجيدُ بليغٌ أو يُنَمِّقُهُ ... من الكلام ووحيُ اللّه تاليها
له الجهادُ به تسري الرياحُ إلى ... ممالكِ الأرضِ من شتّى أقاصيها
تُحْدَى الركاب إلى البيت العتيق به ... فمكّةُ عمرتْ منه نواديها
بشائرٌ تسمعُ الدنيا وساكنها ... إذا دعا باسمكَ الأعلى مناديها
كفى خلافتَكَ الغرّاءَ منقبَةً ... أنَّ الإلهَ يوالي مَنْ يواليها
وقد أفادَ بنيه الدهرُ تجربَةً ... أنَّ السعودَ تعادي من يعاديها
إذا رميتَ سهامَ العزمِ صائبةً ... فما رَمَيْتَ، بل التوفيقُ راميها
شكرًا لمن عظمتْ منّا مواهبُهُ ... وإن تُعَدّ فليس العدُّ يحصيها
عمّا قريبٍ ترى الأعيادَ مقبلةً ... من الفتوح ووَفْدُ النصر حاديها
وتبلغُ الغايةَ القصوى بشائرها ... فقد أظلّتْ بما تَرْضَى مباديها

---

(١) الصياصي: جمع صيصة وهي الحصن. لسان العرب (صيص).
(٢) المألكة: الرسالة. محيط المحيط (ألك).
(٣) في طبعة عبد الحميد (جـ ١٠ ص ٣٦): «تيها».

فأهنأ بما شئتَ من صنعٍ تُسَرُّ به | وأنـو الأمـانـيَّ فـالأقـدارُ تُـدْنـيـهـا
مولاي، خُذْها كما شاءت بلاغتها | ولـو تُبَـاعُ لـكـان الحُسْنُ يَشْرِيها
أرسلتها حيثما الأرواحُ مرسلةٌ | نـوادرًا تـنـشـرُ البشرى أمـالـيـهـا
جاءت تُهَنِّيك عيدَ الفطرِ معجبةً | بحسنها ولسانُ الصدق يُطريها
البِشْرُ في وجهها، واليُمْنُ في يدها، | والسحرُ في لفظها، والدُّرُّ في فيها
لو رَصَّعَ البدرُ منها تاجَ مَفْرِقِهِ | لم يرضَ دُرَّ الدراري أن تحلِّيها
فإن تكن بنتَ فكري وهو أوجدها | نعماكَ في حجره كانت تربيها
في روض جودك قد طوّقتني مِنَنًا(١) | طوقَ الحمام فما سجعي مُوَفِّيها
ولو أعرتُ لسانَ الدهرِ يشكرها | لكان يقصرُ عن شكر يوفِّيها
بقيتَ للدين والدنيا إمامَ هدًى | مبلّغ النفس ما ترجو أمانيها
والسعدُ يجري لغاياتٍ تؤمّلها | ما دامَتِ الشُّهبُ تجري في مجاريها

وقال رحمه اللّه تعالى شاكرًا لنِعَمٍ وصلته من المذكور في عاشوراء: [الكامل]

مولاي يا ابن السابقين إلى العلا | والرافعين لواءها المنشورا
إن لوحظوا في المَعْلَواتِ(٢) فإنهم | طلعوا بآفاقِ العلاء بدورا
أو فوخروا في المكرمات فإنهم | نظموا بأسلاك الفخار شذورا
أبناءُ أنصارِ النبيِّ وصحبه | في الذكر أصبحَ فخرهم مذكورا
والمؤثرين، وربُّنا أثنى بها | في الحشر خَلَّدَ وَصْفَهم مسطورا
فاضتْ علينا من نداكَ غمائمٌ | وتفجَّرتْ من راحتيكَ بحورا
من كَفُّ شفّافِ الضياء تخالُه | لصفاء جوهره تَجَسَّدَ نُورا
نِعَمَ منوّعَةٌ تعدَّدَ وَفْرُها | أعجزتَ عنها شكريَ الموفورا
في موسمٍ للدين قد جَدَّدْتَهُ | وأَقَمْتَ فينا عِيدَهُ المشهورا
أضعاف ما أهديتنا من مِنَّةٍ | تُهدي إليك ثوابَها عاشورا
وعلى الطريق بشائرٌ محمودةٌ | ألقاكَ جذلانًا بها مسرورا

---

(١) المِنَنُ: جمع مِنّة وهي الإحسان. لسان العرب منن.
(٢) المَعْلُوات: المعالي. لسان العرب (علا).

وقال يصف زهر القرنفل الصعب الاجتناء بجبل الفتح، وقد وقع له السلطان الغني بالله المذكور بذلك، فارتجل قطعًا منها: [الطويل]

أتـونـي بـنـوّارٍ يـروقُ نـضـارةً ... كخدِّ الذي أهوى وطيبِ تنفُّسِهْ
وجاءوا به من شاهقٍ متمنّعٍ ... تمنُّعَ ذاك الظبي في ظلّ مكْنِسِهْ[1]
رعى اللّه مني عاشقًا متقنّعًا ... بزهرٍ حكى في الحسن خَدَّ مؤنسهْ
وإن هَبَّ خفّاقُ النسيمِ بنفحةٍ ... حكتْ عَرْفَهُ طيبًا قضى بتأنّسهْ

ومنها:

رعى اللّه زهرًا ينتمي لقرنفلٍ ... حكى عَرْفَ مَنْ أهوى وإشراقَ خَدِّهِ
ومَنْبِتُه في شاهقٍ متمنّعٍ ... كما امتنع المحبوبُ في تيهِ صدِّهِ
أميل إذا الأغصانُ مالتْ بروضةٍ ... أُعانقُ منها القُضبَ شوقًا لقدِّهِ
وأهفو لخفّاقِ النسيمِ إذا سرى ... وأهوى أريجَ الطيب من عَرْفِ نَدِّهِ[2]

ومنها:

يقرُّ[3] بعيني أن أرى الزهرَ يانعًا ... وقد نازع المحبوبَ في الحسن وَصْفَهُ
وما أبصرتْ عيني كزهرِ قَرَنْفُلٍ ... حكى خَدَّ مَنْ يَسْبي الفؤادَ وعَرْفَهُ
تَمَنَّعَ في أعلى الهضاب لمجتَنٍ ... تَمَنُّعَهُ مني إذا رمتُ إلْفَهُ
وفي جبل الفتح اجْتَنَوْهُ تفاؤلاً ... بفتحٍ لبابِ الوصلِ يمنحُ عَطْفَهُ
وما ضَرَّ ذاك الغصنَ وهو مرنَّحٌ ... إذا ما ثنى نحو المتيّم عِطْفَهُ[4]

قال ابن الأحمر في الكتاب المذكور فيما مَرَّ: ومن قصائده التي يودّ الصبح سَنَاها، والنسيم اللدن رقّة معناها، يهنىء مولانا الجَدَّ رضي اللّه تعالى عنه عند وصول خالصة مقامه، وكبير خدّامه، القائد خالد رحمه اللّه تعالى من تلمسان بالهديّة، وتجديد المقاصد الوُدِّية، ووافق استئناف راحة من الذات العليّة، ومن بعض فروع دَوْحتها الزكية: [الطويل]

أَدِرْهَا ثلاثًا من لحاظِكَ واحْبِسِ ... فقد غالَ منها السكرُ أبناءَ مجلسِ

---

(١) الشاهق: أراد به الجبل الشديد الارتفاع. المَكْنِسُ: مسكن الظبي. لسان العرب (شهق) و (كنس).
(٢) النَّدُّ: عود يُتبخَّر به. لسان العرب (ندد).
(٣) في طبعة عبد الحميد (ج ١٠ ص ٣٨): «أقرّ».
(٤) العِطْف، بكسر العين: الجانب. لسان العرب (عطف).

إذا ما نهاني الشيبُ عن أكؤس الطلا		تديرُ عليَّ الخمرَ منها بأكؤس
عذيريَ مِنْ لحظٍ ضعيفٍ وقد غدا		يحكِّمُ منّا في جسومٍ وأنفُس
وروضٍ شبابٍ ماسَ غصنُ قوامِهِ		وفتّحَ فيه اللحظُ أزهارَ نرجس
وما زال وَرْدُ الخَدِّ وهو مضعَّفٌ		يعيرُ أقاحَ الثغرِ طيبَ تَنَفُّس
وكم جال طِرْفُ الطَّرف في روض حُسْنِهِ		يقيِّدُهُ فيه العِذارُ بسندس
أما وليالي الوصل في روضةِ الصِّبا		ومألفِ أحبابي وعهد تأنُّسي
لئن نسيَتْ تلك العهودَ أحبتّي		فقلبيَ عَهْدَ العامريّةِ ما نسي
وحاشا لنفسي بعدما افترَّ فَوْدُها[1]		من الشَّيب عن صبحٍ به متنفّس
وألبسها ثوبَ الوقار خليفةٌ		به لبسَ الإسلامُ أشرفَ ملبس
وجَدَّدَ للفتح المبينِ مواسمًا		أقامَ بها الإيمانُ أفراحَ معرس
وأروثه العلياءَ كلُّ خليفةٍ		نماهُ إلى الأنصار كلُّ مُقَدَّس
فيا زاجرَ الأظعانِ وهي ضَوَامرٌ		بغيرِ الفلا والوحشِ لم تتأنَّس
إذا جئتَ من دارِ الغنيِّ بربِّه		مُنَاخَ العُلا والعِزِّ فاعْقِلْ وعرِّسِ[2]
فإن شئتَ من بحرِ السماحةِ فاغترفْ		وإن شئتَ من نور الهدايةِ فاقبسِ
أمولاي إنَّ السّعدَ منكَ لآيةٌ		أنارتْ بها الأكوانُ جذوةَ مقبس
إذا شئتَ أن ترمي القَصِيَّ من المنى		تدورُ لكَ الأفلاكُ مرفوعةَ القسي
فترمي بسهمٍ من سعودكَ صائبٍ		سديدٍ لأغراضِ الأماني مُقَرْطِسِ[3]
أهنيكَ بالإبلالِ مِمَّنْ شفاؤه		شفاؤكَ فاشكرْ مَنْ تلافى وقدِّس
ودَعْني أرِدْ يُمناكَ فهي غمامةٌ		تُبَخِّلُ صَوْبَ العارض المتَبجِّس
أُقَبِّلُ منها راحةً إثر راحةٍ		أتتكَ بها الركبانُ من بيت مقدس
ومن نَسَبَ الفتحَ المبينَ ولادةً		إليه بغير الفخرِ لم يتأسَّسِ
فيا أيها المولى الذي بكماله		خلائفُ هذا العصر في الفخر تأتسي[4]

(١) فَوْدُ الرأس: جانباه. مختار الصحاح (فود).
(٢) عَقَلَ دابّتَهُ: ربطها. عَرَّس: نزل ليلاً ليستريح. لسان العرب (عقل) و (عرس).
(٣) مُقَرطِسٌ: مُصِيبٌ للهدف. لسان العرب (قرطس).
(٤) تأتسي به: تتخذه أسوة وقدوة. لسان العرب (أسا).

لآمَنْتَ موسى من عوادي سميّه ولولاكَ لم يبرحْ بخيفةِ مُوجِسِ
بعثتَ بميمونِ النقيبةِ في أسمه خلودٌ لعزّ ثابتٍ متأسِّس
فجاءك بالمالِ العريضِ هديّةً بها الدينُ أثوابَ المسرّة يكتسي
وشفّعها بالصافنات كأنها وقد راقَ مرآها جآذرُ مكنس
تنصُّ من الإشراف جِيدَ غزالةٍ وترنو من الإيجاس عن لحظِ أشْوَسِ[1]
لك الخيرُ موسى مثل مُوسى، كلاهما بغير شعارِ الودِّ لم يتلبَّس
فلا زلتَ في ظلّ النعيم وكلُّ مَنْ يُعاديكَ لا ينفكُّ يشقَى بأبؤس
عليكَ سلامٌ مثلُ حَمْدِكَ عاطرٌ تنفّسَ وَجْهُ الصبح عنه بمعطس

وقال في مولد عام سبعة وستين وسبعمائة وألمَّ في أخرياتها بوصف المشْوَرِ الأسنى، الرفيع المبنى: [الكامل]

زار الخيالُ بأيمَنِ الزوراءِ فجلا سناهُ غياهبَ[2] الظلماءِ
وسَرَى مع النسمات يسحبُ ذيلهُ فأتتْ تنمُّ بِعَنْبَرٍ وكِبَاء[3]
هبذا وما شيءٌ ألذُّ من المنى إلاَّ زيارتُهُ مع الإغفاء
بِتْنا خَيَالَيْنِ التحفْنَا بالضنى والسقمِ ما تخشى من الرقباء
حتى أفاقَ الصبحُ من غَمَراته وتجاذبتْ أيدي النسيم ردائي
يا سائلي عن سِرِّ مَنْ أحْبَبْتُهُ السِّرُّ عندي ميّتُ الأحياء
تاللّه لا أشكو الصبابةَ والهوى لسوى الأحبّةِ أو أموتَ بدائي
يا دينَ قلبي لستُ أبرحُ عانيًا أرضى بسقمي في الهوى وعنائي
أبكي وما غيرُ النجيعِ مدامعٌ أذكي، ولا ضرمٌ سوى أحشائي
أهفو إذا تهفو البروقُ، وأنثني لسُرى النواسم من رُبَا تَيْماء
باللّه يا نفسَ الحمى رفقًا بمن أغريته بتنفّس الصُّعَداء
عجبًا له يندى على كبدي وقد أذكى بقلبي جمرةَ البُرَحَاء[4]

(١) الأشوس: من ينظر بمؤخر عينه تكبُّرًا أو تغيُّظًا. محيط المحيط (شوس).
(٢) الغياهب: جمع غيهب وهو الظلمة الشديدة. لسان العرب (غيهب).
(٣) الكِباء، بكسر الكاف: ضرب من عود البخور. لسان العرب (كبا).
(٤) البُرَحاء: الحمّى والشدّة. لسان العرب (برح).

يا ساكني البطحاءِ أيّ إبانةٍ لي عندكم يا ساكني البطحاء
أترى النوى يومًا تخيبُ قِداحُها ويفوزُ قِدْحي منكمُ بلقاء
في حيّكمْ قَمَرٌ فؤادي أفْقُهُ تفديه نفسي من قريبٍ نائي
لم تُنْسني الأيامُ يومَ وداعِهِ والركبُ قد أوفى على الزَّوْرَاء
أبكي ويبسمُ والمحاسنُ تجتلى فعلقتُ بين تبسُّم وبكاء
يا نظرةً جادت[1] بها أيدي النوى حتى استهلّتْ أدمعي بدماء
من لي بثانيةٍ تنادي بالأسى (قَدْكَ اتَّئِدْ أسرفت في الغُلَواء)[2]
ولربَّ ليلٍ بالوصابِ قطعْتُهُ أجلو دجاهُ بأوجُهِ الندماء
أَنْسَيْتُ فيه القلبَ عادةَ حلمِهِ وحشتُ فيه أكؤسَ السرّاء
جاريت[3] في طلق التصابي جامحًا لا أنثني لمَقَادَةِ النُّصحاء
أطوي شبابي للمشيب مراحلاً بِرواحِلِ الإصباح والإمساء
يا ليت شعري هل أُرى أطوي إلى قبرِ الرسولِ صحائفَ البيداء
فتطيبَ في تلك الربوعِ مدائحي ويطولَ في ذاك المقام ثَوَائي[4]
حيثُ النبوّةُ نُورها متألّقٌ كالشمس تُزْهَى في سَنًا وسَنَاء
حيثُ الرسالةُ في ثنيّة قُدْسها رَفَعَتْ لهدي الخلقِ خيرَ لواء
حيثُ الضريحُ ضريحُ أكرمِ مرسَلٍ فخرِ الوجودِ وشافعِ الشُّفعاء
المصطفى والمرتضى والمجتبَى والمنتقّى من عنصرِ العلياء
خيرِ البريّة مجتباها ذخرها ظِلُّ الإلهِ الوارفِ الأفياء
تاجِ الرسالةِ ختمها وقوامها وعِمَادها السامي على النُّظراء
لولاه للأفلاكِ ما لاحتْ بها شُهبٌ تنيرُ دياجيَ الظُّلْماء
ذو المعجزاتِ الغُرِّ والآيِ الأُلى أُكبرنَ عن عَدّ وعن إحصاء
وكفاكَ ردُّ الشمسِ بعد مغيبها وكفاكَ ما قد جاء في الإسراء

---

(١) في طبعة دار صادر (جـ ٧ ص ١٨٠): «جاذبتها أيدي النوى».
(٢) صدر هذا البيت هو صدر بيت لأبي تمام، والبيت بتمامه هو:
قَدْكَ اتَّئِبْ أربيت في الغُلواء كم تعذلون وأنتمُ سُجَرائي
ديوان أبي تمام (ص ١٠).
(٣) في طبعة دار صادر (جـ ٧ ص ١٨٠): «وجريت».
(٤) الثَّواء: الإقامة. لسان العرب (ثوى)

والبدرُ شُقَّ له وكم من آية ... كأناملٍ جاءَتْ بنبعِ الماء
وبليلةِ الميلاد كم من رحمةٍ ... نشر الإلهُ بها ومن نعماء
قد بَشَّرَ الرُّسلُ الكرامُ ببعثه ... وتَقَدَّمَ الكهّانُ بالأنباء
أكرم بها بشرى على قَدَم سَرَتْ ... في الكون كالأرواح في الأعضاء
أمسى بها الإسلامُ يُشرقُ نورُه ... والكفرُ أصبحَ فاحِمَ الأرجاء
هو آيةُ اللّه التي أنوارُها ... تجلو ظلامَ الشَّكِّ أيَّ جلاء
والشمسُ لا تخفى مزيّةُ فضلها ... إلاّ على ذي المُقْلة العمياء
يا مصطفى والكونُ لم تغلَقْ به ... من بَعْدُ أيدي الخلقِ والإنشاء
يا مُظْهِرَ الحَقِّ الجليِّ ومطلعَ الـ ... ـنورِ السنيِّ الساطعِ الأضواء
يا ملجأَ الخلقِ المشفَّعِ فيهمُ ... يا رحمةَ الأمواتِ والأحياء
يا آسيَ[1] المرضى ومنتجعَ الرضا ... ومواسِيَ الأيتامِ والضعفاء
أشكو إليكَ وأنتَ خيرُ مؤمّل ... داء الذنوب وفي يديكَ دوائي
إني مددتُ يدي إليكَ تضرُّعًا ... حاشا وكلاّ أن يخيبَ رجائي
إن كنتُ لم أُخلص إليكَ فإنما ... خلصتْ إليكَ محبتي وندائي
ويسعدِ مولايَ الإمامِ محمدٍ ... تَعِدُ الأماني أن يُتاحَ لقائي
ظِلُّ الإلهِ على البلادِ وأهلها ... فخرُ الملوك السادةِ الخلفاء
غوثُ[2] العبادِ وليثُ مُشْتَجَرِ القَنَا ... يومَ الطعان وفارجُ الغمّاء
كالدهرِ في سَطَواته وسماحِهِ ... تجري صَبَاه بِزَعزعٍ ورُخَاء[3]
رَقَّتْ سجاياه وراقتْ مجتلى ... كالنهر وسطَ الروضة الغنّاء
كالزَّهر في إيراقه، والبدرِ في ... إشراقه، والزُّهْرِ في لألاءِ
يا ابنَ الألى إجمالهم وجمالهمْ ... فَلَقُ الصباح وواكفُ الأنواء
أنصارُ دينِ اللّه حِزبُ رسولِهِ ... والسابقونَ بِحَلْبَةِ العلياء

---

(١) الآسي: الطبيب، والجمع أساة. لسان العرب (أسا).
(٢) في طبعة عبد الحميد (ج ١٠ ص ٤٣): «غيث».
(٣) الزّعزع: الريح الشديدة الهبوب. الرُّخاء، بضم الراء: الريح اللينة الناعمة. لسان العرب (زعزع) و (رخا).

يا ابنَ الخلائفِ مِنْ بني نَصْر ومَنْ حاطوا ذِمار المِلّة السمحاء
من كلِّ مَنْ تقفُ الملوكُ ببابه يستمطرونَ سحائبَ النعماء
قومٌ إذا قادوا الجيوشَ إلى الوغى فالرعبُ رائدهم إلى الأعداء
والعِزُّ مجلوبٌ بكلِّ كتيبةٍ والنصرُ معقودٌ بكلِّ لواء
يا وارثًا عنها مناقبها التي تسمو مراقيها[1] على الجوزاء
يا فخرَ أندلسٍ وعِصْمَةَ أهلها يجزيكَ عنها اللّه خيرَ جزاء
كم خُضْتَ طوع صلاحها من مَهْمَهٍ لا تهتَدي فيه القَطَا للماء[2]
تهدي بها حادي السُّرى بعزائم تهدي نجومَ الأفقِ فَضْلَ ضياء
فارفعْ لواء الفخرِ غيرَ مدافَعٍ واسْحَبْ ذيولَ العزّةِ القَعْساء
واهنأ بمبناكَ السعيدِ فإنه كَهْفٌ ليوم مشورةٍ وعطاء
للّه منه هالةٌ قد أصبحتْ حَرَمَ العُفَاة[3] ومصرعَ الأعداء
تنتابُها طيرُ الرجاء فتجتني ثمرَ المنى من دَوْحةِ الآلاء
للّه منه قُبّةٌ مرفوعةٌ دون السماء تفوتُ لحظَ الرائي
راقتْ بدائعُ وَشْيها فكأنها وَشْيُ الربيعِ بمسقطِ الأنداء
عَظَّمْتَ ميلادَ النبيِّ محمدٍ وشَفَعْتَهُ بالليلةِ الغَرّاء
أحييتَ ليلَكَ ساهرًا فأفدْتَنا قوتَ القلوبِ بذلك الإحياء[4]
يا أيها الملكُ الهمامُ المجتبى فاتتْ عُلاكَ مداركَ العقلاء
من لي بأن أُحصي مناقبَكَ التي ضاقتْ بهنَّ مذاهبُ الفصحاء
وإليك مني روضةً مطلولةً أرِجَتْ أزاهرُها بطيب ثناء
فافسح لها أكنافَ صفحك إنها بكرٌ أتت تمشي على استحياء

وقال ابن الأحمر: ومن إعذاريات ابن زَمْرَك المحكمة نَسْقًا ورَصْفًا، المتناهية في كلّ فنٍّ حسن تحلية غريبة ووصفًا، حسبما اقتضته ملاحظة النسبة الرفيعة مولانا رحمة اللّه تعالى

---

(١) المراقي: جمع مرقاة وهي كل ما تصعد به إلى أعلى. لسان العرب (رقى).

(٢) المَهْمَهُ: الفلاة الواسعة التي لا ماء فيها ولا إنسان. القطا: طائر كالحمام، وهو مضرب المثل في الاهتداء إلى مواضع الماء. لسان العرب (مهمه) و (قطا).

(٣) العفاة: جمع عافٍ وهو طالب المعروف. القاموس المحيط (عفى).

(٤) يورّي هنا بكتابَيْ «قوت القلوب» و «إحياء علوم الدين».

عليه واحتفاله المناسب لعزِّ ملكه من تعميم الخلق بالجَفَلى[1] في دعواهم، واستدعاء أشراف الأمم من أهل المغرب وسواهم، تفنّنًا في مكارم متعدّدة أيامها عن أصالة المجد معربة، وإغراء لهمم الملك بما لتتميم الأنس من أوضاع مغرية، ومباهاة بعَرْض الجيوش والكتائب للعدوّ الكافر، وتكاثرًا من مماليك دولته بالعَدَد الوافر، مِمّا ألجم اللسن الذكي عيًا[2]، وغادر الإعذار الذنُّوبيّ منسيًا، كافأ اللّه سبحانه أبوّته المولوية عنّا وعن آبائنا، وتلقّى بالقبول الكفيل بتجديد الرضوان ما يَصِلُ[3] له من خالص دعائنا، إنه مُنْعم جواد. قولُه في الصنيع المختصّ من ذلك بمولانا الوالد قدّس اللّه تعالى روحه! وذلك سنة أربع وستين وسبعمائة: [الطويل]

معاذ الهوى أن أصحب القلب ساليا

القصيدة، وقد تقدمت بتمامها فراجعها.

ثم قال: ومن ذلك ما أنشد في الصنيع الثاني المخصوص بعمينا السيدين الأميرين سعد ونصر، رحمة اللّه تعالى عليهما! وأجاد في وصف الجند والجرد[4] والطلبة وغرائب الأوضاع: [الكامل]

ألِلَمحةٍ من بارقٍ متبسّمِ أرسلْتَهُ دمعًا تَضَرَّجَ بالدمِ
ولِلَمحةٍ تهفو ببانات[5] اللِّوى يهفو فؤادُكَ عن جوانح مغرم
هي عادةٌ عذريّةٌ من يوم أن خُلِقَ الهوى تعتادُ كلَّ متيّم
قد كنتُ أعذلُ ذا الهوى من قبل أن أدري الهوى، واليومَ أعذلُ لوّمي
كم زفرةٍ بين الجوانحِ ما ارتقتْ حَذَرَ الرقيبِ ومدمعٍ لم يُسْجَمِ
إن كان واشي الدمع قد كتم الهوى هيهاتِ واشي السقم لمّا يكتم
ولقد أجدَّ هوايَ رَسْمٌ دارسٌ قد كاد يَخْفَى عن خفيّ توهُّم
وذكرتُ عهدًا في حماه قد انقضى فأطلتُ فيه ترددي وتلوُّمي

---

(١) الجَفَلَى، بالفتح: الدعوة العامة؛ يقال: دعاهم الجَفَلَى أي بجماعتهم وعامّتهم. محيط المحيط (جفل).
(٢) العيّ: العجز. لسان العرب (عيي).
(٣) في طبعة عبد الحميد (جـ ١٠ ص ٤٥): «نصل».
(٤) الجرد: الخيل. لسان العرب (جرد).
(٥) البانات: جمع بانة وهي ضرب من الشجر. لسان العرب (بون).

ولـربـمـا أشـجـى فـؤادي عـنـده ورقـاءُ تَـنـفـثُ شـجـوهـا بـتـرنّـم

لا أجدبَ الـلّـه الـطـلـول فـطـالـمـا أشجى الفصيحَ بها بكاءُ الأعجم[1]

يـا زاجرَ الأظـعـان يـحفزها السُّرَى قِـفْ بي عـلـيها وقفة المتلوّم[2]

لـتـرى دمـوعَ الـعـاشـقـيـنَ بـرسـمـهـا حُـمْـرًا كـحـاشـيـةِ الـرداءِ الـمُـعْـلَـم

دِمَـنٌ عـهـدت بـهـا الـشـبـيـبـة والـهـوى سَـقْـيًا لـهـا ولـعـهـدهـا الـمـتـقـدّم

وكـتـيـبـة لـلـشـوق قـد جَـهَّـزْتـهـا أغزو بها السُّلوان غَزْوَ مُصَمّم

ورفعتُ فـيـها القلبَ بندًا خافقًا وأريـتُ لـلـعـشّـاق فـضـل تـهـمّـمـي

فأنا الذي شاب[3] الحماسة بالهوى لـكـن مـن أهـواه ضـايـقَ مـقـدمـي

فَـطُـعِـنْـتُ مـن قـدّ الـقـوام بـأسـمـرٍ ورُمِيْتُ من غُنج اللحاظ بأسهم

يـا قـاتـلَ الـلّـه الـجـفـون فـإنـهـا مهما رمت لم تخطِ شاكلة الرمي

ظـلـمـتْ قـتـيـلَ الـحـبّ ثـم تـبـيّـنـتْ لـلـسّـقْـم فـيـهـا فـتـرةُ الـمـتـظـلّـم

يـا ظـبـيـةً سَـنَـحَـتْ بـأكـنـافِ الـحـمـى سُقيَ الحمى صوبَ الغمام المسجم

مـا ضـرَّ إذ أرسـلـتِ نـظـرة فـاتـكٍ أن لـو عـطـفـتِ بـنـظـرة الـمـتـرحّـم

فـرأيـتِ جـسـمًـا قـد يـصـيـب فـؤاده من مقلتيك وأنتِ لم تتأثمي[4]

ولـقـد خـشـيـتِ بـأنْ يـقـاد بـجـرحِـهِ فوهبتِ لحظك ما أحلَّك من دمي

كم خضتُ دونك من غمار مفازةٍ لا تـهـتـدي فـيـهـا الـلـيـوثُ لـمـجـثـم

والـنـجـمُ يـسـري مـن دُجَـاه بـأدهـم[5] رَحْـب الـمـقـلَّـد بـالـثـريّـا مـلـجـم

والـبـدرُ فـي صـفـح الـسـمـاء كـأنّـه مـرآةُ هـنـدٍ وسـط لُـجّ تـرتـمـي

والـزهـرُ زهـرٌ والـسـمـاءُ حـديـقـةٌ فتقتْ كمائمَ جنحها عن أنجم

والـلـيـلُ مُـرْبَـدُّ الـجـوانـحِ قـد بَـدَا فـيـه الـصـبـاحُ كـغـرّةٍ فـي أدهـم

فـكـأنـمـا فـلـقُ الـصـبـاحِ وقـد بَـدَا مـرأى ابـن نـصـر لاح لـلـمـتـوسّـم

---

(١) الأعجم: الذي لا ينطق. لسان العرب (عجم).

(٢) في طبعة عبد الحميد (جـ ١٠ ص ٤٦): «وقعة المتلوّم». والأظعان: جمع ظعينة وهي الهودج، وأراد بها الإبل. زاجر الأظعان: سائقها. لسان العرب (ظعن) و (زجر). .

(٣) شاب: خلط. لسان العرب (شوب).

(٤) في طبعة عبد الحميد (جـ ١٠ ص ٤٦): «تتأثمِ».

(٥) في الطبعة نفسها: «بأسهم».

مَلِكٌ أفاضَ على البسيطةِ عدلَه فالشاة لا تخشى اعتداء الضيغم[1]
هو منتهى آمال كلّ موفقٍ هو مَوْرِدُ الصادي وكنزُ المُعْدِمِ[2]
لاحتْ مناقبه كواكبَ أسعُدٍ فرأتْ ملامحَ نوره عينُ العَمِي
ولقد تراءى بأسُهُ وسماحُهُ فأتى الجلالُ من الجمال بتوأم
مثل الغمامِ وقد تضاحك برقه فأفاد بين تجهّمٍ وتبسّم
أنسى سماحة حاتم، وكذاك في يوم اللقاء ربيعةَ بن مُكَدَّم[3]
سِيَرٌ تسيرُ النّيّرات بهديها وتعيرُ عرفَ الروض طيبَ تنسّم
فالبدرُ دونك في عُلاً وإنارةٍ والبحرُ دونك في ندى وتكرُّم
ولكَ القبابُ الحمرُ تُرْفَعُ للندى فترى العمائم تحتها كالأنجم
يذكي الكِبَاءُ بها كأنَّ دخانَهُ قِطَعُ السحاب بجوّها المتغيّم
ولك العوالي السمرُ تُشْرَعُ للعدا فتخرُّ صَرْعَى لليدين وللفم
ولك الأيادي البيضُ قد طوقتها صِيدَ الملوك ذوي التلاد الأقدم
شيَمٌ يُقرُّ الحاسدون بفضلها والصبحُ ليس ضياؤه بمكتَّم
ورثَ السماحةَ عن أبيه وجدِّه فالأكرمُ ابن الأكرم ابن الأكرم
نَقَلوا المعالي كابرًا عن كابرٍ كالرمح مُطَّرِدَ الكعوب مقوَّم
وتسنّموا رتبَ العلاء بحقّها ما بين جَدٍّ في الخلافة وابنم
يا آل نصر أنتمُ سُرُجُ الهدى في كلّ خطبٍ قد تجهَّم مظلم
الفاتحونَ لكلّ صعب مُقْفَلٍ والفارجون لكلّ خطبٍ مبهم
والباسمون إذا الكُمَاةُ[4] عوابسٌ والمقدمون على السواد الأعظم
أبناء أنصارِ النبيِّ وحزبه وذوي السوابق والجوارِ الأعصم

---

(١) الضيغم: الأسد. لسان العرب (ضيغم).

(٢) المورد: مكان ورود الماء. الصادي: العطشان. المعدم: الفقير. لسان العرب (ورد) و (صدا) و (عدم).

(٣) هو ربيعة بن مُكَدَّم بن عامر بن خُويلد بن جذيمة الكناني، وهو فارس العرب. جمهرة أنساب العرب (ص ١٨٨).

(٤) الكُماة: جمع كميّ وهو الرجل الشجاع. محيط المحيط (كمى).

سَلْ عنهُم أُحدًا وبَدْرًا تَلْقَهم أهلَ الغَنَاء[1] بها وأهلَ المغنم
ويفتح مكةَ كم لهم في يومه بلواء خيرِ الخَلْقِ من مُتَقَدِّم
أقسمتُ بالحرمِ الأمينِ ومكةٍ والركنِ والبيتِ العتيقِ وزمزم
لولا مآثرهم وفضلُ علاهمُ ما كان يُعْزَى الفضل للمتقدّم
ماذا عسى أُثني وقد أثنتْ على عليائهمْ آيُ الكتاب المحكم
يا وارثًا عنها مآثرها التي قد شَيّدتْ للفخر أشرفَ معلم
يا فخرَ أندلسٍ لقد مُدّتْ إلى علياكَ كَفُّ اللائذِ المستعصم
أمّا سعودك في الوغى فتكفَّلَتْ بسلامةِ الإسلام فاخْلُدْ واسلم
وافيتَ هذا الثغرَ وهو على شَفًا فشفيتَ مُعْضِلَ دائِهِ المستحكم
ورعيتهُ بسياسةٍ دارتْ على مختطِّهِ دَوْرَ السُّوارِ بمعصم
كم ليلةٍ قد بِتَّ فيها ساهرًا تهدي الأمانَ إلى العيون النوّم
يا مظهرَ الألطافِ وهي خفيَّةٌ ومُهِبَّ ريح النصرِ للمتنسّم
للّه دولتَكَ التي آثارُها سير الركاب لمنجدٍ أو مُتْهِمِ[2]
ما بعد يومكَ في المواسم بعد ما أتعبتَ عيدَ الفطر أكرمَ موسم
وافتك أشرافُ البلادِ ليومه من كلِّ نَدْبٍ للعُلا متسنّم
صرفوا إليك ركابهمْ وتيمّموا من بابكَ المنتاب خيرَ مُيَمَّمِ
وتبوّأوا منه بدار كرامةٍ فالكلُّ بين مقرّبٍ ومنعّم
ودَّتْ نجومُ الأفق لو مثلتْ به لتفوزَ فيه برتبةِ المستخدم
والروضُ مختالٌ بحليةِ سندسٍ من كلِّ مَوْشيِّ الرقوم منمنم
ورياحُهُ نسمتْ بنشرِ لطيمةٍ وأقاحُهُ بسمتْ بثغرِ ملثم[3]
وأريتنا فيه عجائبَ جمّةً لم تَجْرِ في خَلَدٍ ولم تُتَوهَّمِ
أرسلتَ سرعانَ الجيادِ كأنها أسرابُ طيرٍ في التَّنُوفَةِ حُوّم[4]

(١) الغَناء، بالفتح: الكفاية والنَّفع والفائدة. لسان العرب (غنا).
(٢) المنجد: الذاهب إلى نجد. المتهم: الذاهب إلى تهامة. لسان العرب (نجد) و (تهم).
(٣) في طبعة عبد الحميد (جـ ١٠ ص ٤٨): «مسلم». واللطيمة: المِسْك. لسان العرب (لطم).
(٤) سرعان الجياد: الخيل السريعة وأوائل الخيل. التَّنُوفة: الصحراء. لسان العرب (سرع) و (نوف).

مـن كـلّ مـنـحـفـزٍ بـخَـطْـفـةِ بـارقٍ ... قـد كـاد يـسـبـقُ لـمـحـة الـمـتـوهّـم
طِرْفٌ(١) يشكُّ الطّرفُ في استشباته ... فـكـأنـه ظـنٌّ بِـصَـدْرِ مـرجّـم
ومـسـافـرٍ فـي الـجـوّ تـحـسـبُ أنـه ... يـرقـى إلـى أوْجِ الـسـمـاء بـسـلّـم
رام اسـتـراق الـسـمـع وهـو مـمـنّـعٌ ... فأُصيبَ من قُضُبِ العصيّ بأسهم
رجمتْه من شُهب النصال حواصبٌ ... لـولا تـعـرّضـه لـهـا لـم يُـرْجَـمِ
ومـدارة الأفـلاكِ أعـجـز كـنـهُـهـا ... إيـداعَ كـلِّ مـهـنـدسٍ ومـهـنـدم
يمشي الرجالُ بجوفها وجميعهم ... عـن مـسـتـوى قَـدَمـيـه لـم يـتـقـدّم
ومـنـوّعِ الـحـركـاتِ قـد ركـبَ الـهـوا ... يـمـشـي عـلـى خـطّ بـه مـتـوهّـم
فـإذا هـوى مـن جـوّه ثـم اسـتـوى ... أبـصـرتَ طـيـرًا حـول صـورة آدم(٢)
يـمـشـي عـلـى فـنـنِ الـرشـاء كـأنـه ... فـيـه مُـسَـاورُ ذابـلٍ أو أرقـم
وإلـيـكَ مـن صـونِ الـعـقـولِ عـقـيـلـةً ... وقـفـتْ بـبـابـكَ وقـفـة الـمـسـتـرحـم
تـرجـو قـبـولـك وهـو أكـبـر مـنـحـةٍ ... فـاسْـمَـحْ بـه خُـلِّـدْتَ مـن مـتـكـرّم
طـاردتُ فـيـهـا وصـفَ كـلِّ غـريـبـةٍ ... فـنـظـمـتُ شـارده الـذي لـم يُـنْـظَـم
ودعـوتُ أربـابَ الـبـيـان أريـهُـمُ ... (كـم غـادر الـشـعـراءُ مـن مـتـردّم)(٣)
مـا ذاكَ إلاّ بـعـضُ أنـعـمـكَ الـتـي ... قـد عـلّـمْـتَـنـا كـيـف شـكـر الـمـنـعـم

ثم قال: وأنشد من ذلك في الصنيع المخصوص بعمّنا الأمير أبي عبد اللّه - رحمة اللّه تعالى عليه! - وأطنب في وصف دار الملك وغير ذلك من ضخامة آثار مولانا رضي اللّه تعالى عنه: [الطويل]

سَلِ الأُفُق بالزُّهر الكواكب حاليا ... فـإنـيَ قـد أودعـتـه شـرح حـالـيـا
وحَـمـلْـتُ مـعـتّـلَّ الـنـسـيـم أمـانَـةً ... قـطـعـتُ بـهـا عـمـرَ الـزمـان أمـانـيـا
فيا من رأى الأرواح وهي ضعيفةٌ ... أُحَـمِّـلُـهـا مـا يـسـتـخـفُّ الـرواسـيـا(٤)

---

(٢) الطِّرْف، بكسر الطاء وسكون الراء: الفرس الكريم. لسان العرب (طرف).
(٣) في طبعة عبد الحميد (جـ ١٠ ص ٤٩): «آدمي».
(٣) عجز البيت مطلع معلقة عنترة، والبيت بتمامه هو:
هـل غـادرَ الـشـعـراءُ مـن مـتـردّم ... أم هل عَرَفْتَ الدارَ بعد توهّمِ؟
المعلقات العشر (ص ١٩١).
(٤) الرواسي: الجبال، مفردها راسية. لسان العرب (رسا).

وساوسُ كم جدَّت وجدّ بيَ الهوى فَعُدّ به القلبُ المقلَّبُ هازيا
ومن يطع الألحاظ في شِرْعة الهوى فلا بُدَّ أن يعصي نصيحًا ولاحِيَا
عدلتُ بقلبي عن ولاية حكمه غداة ارتضى من جائر اللحظ واليا
وما الحبُّ إلاّ نظرةٌ تبعثُ الهوى وتُعْقِبُ ما يعيي الطبيبَ المداويا
فيا عجبًا للعين تمشي طليقة ويصبحُ من جرّائها القلبُ عانيا[1]
ألاَ في سبيل اللّه نفسٌ نفيسةٌ يرخِّصُ منها الحبُّ ما كان غاليا
ويا ربّ عهدٍ للشباب قضيْتُهُ وأحسنتُ من دَينِ الوصال التقاضيا
خلوت بمن أهواه من غير رِقْبَةٍ ولكن عفافي لم أكن عنه خاليا
ويوم بمستنٍّ[2] الظباء شهدْتُهُ أجدُّ وصالاً باليًا فيه باليا
ولم أصْحُ من خمر اللحاظ وقد غدا به الجوُّ وضّاحَ الأسرّةِ صاحيا[3]
وجَرّدَ من غمدِ الغمامة صارمًا من البرق مصقولَ الصفيح يمانيا[4]
تَبَسَّمَ فاستبكى جفونيَ غمرةً ملأتْ بدرِّ الدمعِ منها ردائيا
وأذكرني ثغرًا ظمئتُ لِوِرْدِهِ ولا والهوى العُذْريِّ ما كنت ناسيا
وراح خَفوقَ القلب مثلي كأنما ببرق الحمى من لوعة الحبِّ ما بيا
وليلَةً باتَ البدرُ فيها مضاجعي وباتتْ عيون الشُّهب نحوي رَوَانيا
كرعتُ بها بين العذيب وبارقٍ بموردِ ثغرٍ بات بالدرِّ حاليا
رشفتُ به شهدَ الرضابِ سُلافةً وقَبّلْتُ في ماء النعيمِ الأقاحيا
فيا بَرْدَ ذاك الثغرِ رَوَّيْتَ غلّتي ويا حَرَّ أنفاسي أذبتَ فؤاديا
وروضةِ حسنٍ للشباب نضيرة هَصَرْت[5] بغصنِ البان فيها المجانيا
وبتُّ أُسَقِّي وردةَ الخَدِّ أدمُعِي فأصبحَ فيها نرجسُ اللحظِ ذاويا
ومالتْ بقلبي مائلاتٌ قدودِها فما للقدود المائلاتِ وما ليا

---

(١) عانيا: أسيرًا. لسان العرب (عنا).
(٢) مستنّ الظباء: النافرات السريعات. لسان العرب (سنن).
(٣) في طبعة عبد الحميد (جـ ١٠ ص ٥٠): «ضاحيًا».
(٤) في الطبعة نفسها: «الصفيحة اليمانيا».
(٥) في طبعة عبد الحميد (جـ ١٠ ص ٥١): «بصرت».

جزى اللّه ذاك العهدَ عَوْدًا فطالما أعاد على ربع[1] الظباء الجوازيا
وقلْ لليالِ في الشباب نعمْتُها وقَضَّيْتها أُنسًا: سُقِيتِ لياليا
ويا واديًا رفَّتْ عليَّ ظلاله ونحن نُدِيرُ الوصلَ فدّيتَ واديا[2]
رمتني عيونُ السِّرب فيه وإنما رمينَ بقلبي في الغرام المراميا
فلولا اعتصامي بالأمير محمدٍ لما كنتُ من فتك اللواحظ ناجيا
فقلْ للذي يبني على الحسنِ شِعْرَهُ عليه مَعَ الإحسانِ لا زلتَ بانيا
فكم من شكاة في الهوى قد رفأتُها ورفَّعتها بالمدح إذ جاء تاليا
وكم ليلةٍ في مدحه قد سهرْتُها أُباهي ببدرٍ النظمِ فيه الدراريا
ولاح عمودُ الصبحِ مثلَ انتسابه رفعتُ عليه للمديح المبانيا
إمامٌ أفادَ المكرماتِ زمانُهُ وساكنه[3] فوق النجوم العواليا
وجاوز قَدْرَ البَدْرِ نورًا ورفعةً ولم يَرْضَ إلاَّ بالكمال مُوَاليا
هو الشمسُ بثت في البسيطة نفعَها وأنوارها أهدت قريبًا وقاصيا
هو البحرُ بالإحسان يزخُرُ موجُهُ ولكنه عذبٌ لمن جاء عافيا
هو الغيث مهما[4] يمسكِ الغيث سُحبه يُرَوِّ[5] بسُحْب الجودِ من كان صاديا
شمائلُ لو أنَّ الرياضَ بحسنها لما صار فيها زهرها الغَضُّ ذاويا
فيا ابن الملوك الصِّيدِ من آل خزرجٍ وذا نسبٌ كالصبحِ عزَّ مُسَاميا
ألستَ الذي ترجو العفاةُ نوالَهُ فتُخْجِلُ جَدْواه السحابَ الغواديا
ألستَ الذي تخشى البغاةُ صِيالَهُ فتوجل علياهُ الصعابَ العواديا
وهَدْيُكَ مهما ضلت الشّهب قصدها تولته في جنحِ الدجنّة هاديا
وعزمك أمضى من حسامك في الوغى وإن كان مصقول الغِرَارين[6] ماضيا
فكم قادحٍ في الدين يكفر ربّه قدحتَ له زندَ الحفيظةِ واريا[7]

---

(١) في طبعة دار صادر (جـ ٧ ص ١٨٩): «ربعي».
(٢) في طبعة دار صادر: «قُدِّسْتَ واديًا». ورَفَّتْ ظلالُه: اهتزّت. لسان العرب (رفف).
(٣) في طبعة دار صادر (جـ ٧ ص ١٩٠): «وشاد له فوق النجوم..».
(٤) في طبعة عبد الحميد (جـ ١٠ ص ٥١): «يهمي».
(٥) في طبعة عبد الحميد: «يروِّي».
(٦) غِرارُ السيف: حدُّه. لسان العرب (غرر).
(٧) وَرَى الزند: أخرج نارًا عند القدح. لسان العرب (ورى).

وما رَاعَهُ إلاّ حسامٌ وعزمةٌ يضيئان في ليلِ الخطوبِ الدواجيا
فلولاك يا شمس الخلافةِ لم يبنْ سبيلُ جهادٍ كان من قبلُ خافيا
ولولاك لم ترفعْ سماء عجاجَةٍ تلوحُ بها بيضُ النصول دراريا
ولولاك لم تنهلْ غصونٌ من القَنَا وكانت إلى وِردِ الدماء صواديا[1]
فأثمر فيها النصلُ نصرًا مؤزّرًا وأجنى قطاف الفتح غضًّا ودانيا
ومهما غدا سَفَّاحُ سيفك عاريًا يغادرُ وجهَ الأرضِ بالدم كاسيا
قضى اللّهُ من فوق السموات أنه على من أبى الإسلام في الأرض قاضيا
فكم معقلٍ للكفرِ صَبَّحْتَ أَهْلَهُ بجيشٍ أعادَ الصبحَ أظلمَ داجيا
رقيتَ إليه والسيوفُ مشيحةٌ وقد بَلَغَتْ فيه النفوسُ التراقيا
فَفَتَّحْتَ مرقاه الممنَّعَ عنوةً وبات به التوحيدُ يعلو مناديا
وناقوسه بالقسرِ أمسى معطَّلاً ومنبره بالذكرِ أصبحَ حاليا
عجائبُ لم تخطرْ ببالٍ وإنما ظفرنا بها عن همّةٍ ما هيا
فمنك استفادَ الدهرُ كلَّ عجيبةٍ يباهي بها الأملاك أخرى لياليا
وعنك يروّي الناسُ كلَّ غريبةٍ تخطُّ على صفح الزمانِ الأماليا
ولله مبناكَ الجميلُ فإنه يفوقُ على حكم السعود المبانيا
فكم فيه للأبصار من متَنَزَّهٍ تجدُّ به نفسُ الحليمِ الأمانيا
وتهوى النجومُ الزُّهْرُ لو ثبتتْ به ولم تَكُ في أُفُقِ السماء جواريا
ولو مثلتْ في سابقيه لسابقتْ إلى خدمةٍ ترضيك منها الجواريا
به البَهْوُ قد حاز البهاءَ وقد غدا به القصرُ آفاقَ السماء مُبَاهيا
وكم حُلَّةٍ جَلَّلَتْه بحليِّها من الوشي تُنسي السابِرِيَّ[2] اليمانيا
وكم من قسيّ في ذراه تَرَفَّعَتْ على عمد بالنور باتت حواليا
فتحسبها الأفلاكُ دارتْ قسيّها تظلّ عمود الصبح إذ بات باديا
سواري قد جاءت بكلّ غريبةٍ فطارت بها الأمثالُ تجري سواريا
به المرمرُ المجلوّ قد شفَّ نوره فيجلو مِن الظَّلْماء ما كان داجيا

(١) الصوادي: جمع صادٍ وهو العطشان. لسان العرب (صدا).
(٢) السابريّ: ثوب رقيق جيد، نسبةً إلى سابور وهي كورة في بلاد فارس على غير القياس. محيط المحيط (سبر).

إذا ما أضاءت بالشعاع تخالها ... على عِظَمِ الأجرامِ منها لآليا
به البحرُ دفّاع العبابِ تخاله ... إذا ما انبرى وفد النسيم مباريا
إذا ما جلت أيدي الصَّبا متن صفحهِ ... أرتنا دروعًا أكسبتنا الأياديا
وراقصة في البحر طوع عنانها ... تراجع ألحانَ القيانِ الأغانيا
إذا ما عَلَتْ في الجوِّ ثم تحدَّرَتْ ... تحلِّي بمرفَضِّ الجُمَان النواحيا
بذَوْبِ[1] لجينٍ سالَ بين جواهرِ ... غدا مثلها في الحسن أبيض صافيا
تشابَهَ جارٍ للعيون بجامدٍ ... فلم أدرِ أيًا منهما كان جاريا
فإن شئتَ تشبيهًا له عن حقيقةٍ ... تصيبُ بها المرمى وبوركتَ راميا
فقلْ أرقصتْ منها البحيرة متنها ... كما يُرقص المولودَ مَنْ كان لاهيا
أرتنا طباعَ الجودِ وهي وليدةٌ ... ولم ترض في الإحسان إلاَّ تغاليا[2]
سقت ثغر زهر الروض عذب برودها[3] ... وقامتْ لكي تهدي إلى الدهر ساقيا
كأن قد رأت نهر المجرّة ناضبًا ... فقامت بأن تجري إليه السواقيا
وقامت بنات[4] الدَّوْح فيه مواثلاً ... فرادى ويتلو بعضهنّ مثانيا
رواضع في حجر الغرامِ ترعرعتْ ... وشبَّتْ، فشبَّتْ[5] حبّها في فؤاديا
بها كلُّ ملتفُّ الغدائرِ مسبل ... تجيلُ به أيدي النسيم مَدَاريا[6]
وأشرفَ جِيدُ الغصنِ فيها معطَّلاً ... فقلَّدَتِ النُّوّارَ منه التراقيا
إذا ما تحلَّتْ دُرَّ زهرٍ غروسُهُ ... يبيتُ لها النَمّامُ بالطيبِ واشيا
مصارفة النقدين فيها بمثلها ... أجاز بها النقدين منها كما هيا
فإن ملأتْ كفَّ النسيم بمثلها ... دراهمَ نورٍ ظلَّ عنها مُكَافيا
فيملأ حجر الروض حول غصونها ... دنانيرَ شمسٍ تتركُ الروضَ حاليا
تغَرّد[7] في أفنانها الطيرُ كلّما ... تجسُّ به أيدي القيان الملاهيا

---

(١) في طبعة عبد الحميد (ج ١٠ ص ٥٣): «يذوب».
(٢) تغاليا: زيادة. لسان العرب (غلا).
(٣) البَرُود، بفتح الباء وضمّ الواو: البارد. لسان العرب (برد).
(٤) بناتُ الدوح: الحَمام.
(٥) شَبَّت الأولى: كبرت. شَبَّت الثانية: أوقدت. لسان العرب (شبب).
(٦) المداري: جمع مِدْرَى وهو المشط. محيط المحيط (درى).
(٧) في طبعة عبد الحميد (ج ١٠ ص ٥٤): «تعوّد».

تراجعها سجعًا فتحسبُ أنها بأصواتها تُملي عليها الأغانيا
فلم نَدْرِ روضًا منه أنعمَ نضرةً وأعطرَ أرْجاءً، وأحلى مجانيا
ولم نَرَ قصرًا منه أعلى مظاهرًا وأرفع آفاقًا، وأفسح ناديا
معاني من نفسِ الكمالِ انتقيتَها وزيَّنتَ منها بالجمالِ المغانيا
وفاتحتَ مبناه بعيدِ شرعته تبثُّ به في الخافقين التهانيا
ولمّا دعوتَ الناس نحو صنيعِهِ أجابوا لهم من جانب الغور داعيا
وأمُّوه من أقصى البلاد تقرُّبًا وما زال منك السعد يدني الأقاصيا
وأذكرْتَ يوم العرضِ جودًا ومنعةً بموقفِ عرضٍ كنتَ فيه المجازيا
جزيتَ به كلاً على حالِ سعيه فما غَرَسَتْ يمناهُ أصبحَ جانيا
وأطلعتَ من جزل الوقود هوادجًا تذكّر يوم النَّفْرِ من كان ساهيا
وحين غدا يذكى ببابك للقرى فلا غرو أن أجريتَ فيه المذاكيا[1]
وطامحةٍ في الجوّ غيرِ مطالةٍ يردُّ مداها الطرفَ أحْسَرَ عانيا[2]
تمدُّ لها الجوزاءُ كفَّ مُسارعٍ ويدنو لها بدرُ السماء مُناجيا
ولا عجبٌ أن فاتتِ الشُّهبَ بالعلا وأن جاوزتْ منها المدى المتناهيا
فبين يَدَيْ مثواك قامتْ لخدمةٍ ومَنْ خَدَمَ الأعلى استفاد المعاليا
وشاهِدُ ذا أني ببابك واقفٌ وقد حَسدتْ زُهرُ النجوم مكانيا
وقد أرضعتْ ثدي الغمائم قبلها بحجرِ رياضٍ كُنَّ فيه نواشيا
فلمّا أُبينَتْ عن قرارةِ أصلها أرادتْ إلى مرقى الغمامِ تعاليا
وعَدَّتْ لقاء السُّحب عيدًا وموسمًا لذاك اغتدتْ بالزَّمْرِ تلهي الغواديا
فأضحكتِ البرقَ الطروبَ خلالها وبات لأكواس الدراري مُعَاطيا
رأت نَفْسَها طالتْ فظنَّتْ بأنها تفوتُ على رغم اللحاقِ المراميا
فَخَفَّتْ إليها الذابلات[3] كأنها طيورٌ إلى وكرٍ أَطَلْنَ تهاويا
حكت شَبَهًا للنحل والنحلُ حوله عصيٌّ إلى مثواهُ تهوي عواليا

---

(١) في طبعة عبد الحميد (ج ١٠ ص ٥٥): «غدا يذكي منائر للقرى..». والمذاكي: الخيل التي تمَّ سنُّها وكملت قوتها. محيط المحيط (ذكا).

(٢) في طبعة عبد الحميد: «أَحْسَرَ عاريا». والأحسر: المتعب والكليل. لسان العرب (حسر).

(٣) في طبعة عبد الحميد: «الزائلات».

فمن مثبتٍ منها الرميّةَ مدركٍ ... ومن طائشٍ في الجوِّ حَلَّق وانيا
وحصنٍ منيع في ذراها قد ارتقى ... فأبعد في الجَوِّ الفضاء المراقيا
كأنَّ بروقَ الجوِّ غارتْ وقد أرتْ ... بروجَ قصورٍ شُذْتَهُنَّ سواميا
فأنشأتَ برجًا صاعدًا متنزلاً ... يكونُ رسولاً بينهنَّ مداريا
تطوَّرَ حالات أتى في ضروبها ... بأنواعِ حَلْيٍ تستفزُّ الغوانيا
فحجْلٌ برجليها وِشَاحٌ بخصرها ... وتاجٌ إلى ما حلَّ منها الأعاليا
وما هو إلاَّ طيرُ سعدٍ بذروةٍ ... غدا زاجرًا من أشهَبِ الصبح بازيا
أمولايَ، يا فخرَ الملوك ومَنْ به ... سيبلغُ دينُ اللَّهِ ما كان راجيا
بَنُوكَ على حكم السعادةِ خمسةٌ ... وذا عددٌ للعينِ ما زال واقيا
تَبِيتُ لهم كَفُّ الثُّرَيّا معيذةً ... ويصبحُ معتلُّ النواسم راقيا(1)
أسَامِ عليها السعادة مِيْسَمٌ(2) ... ترى العِزَّ فيها مستكنًا وباديا
جعلتَ أبا الحجاج فاتحَ طِرْسهم ... وقد عرفتْ منك الفتوحُ التواليا
وحَسْبُكَ سعدٌ ثم نصرٌ يليهمُ ... محمدٌ الأرضى، فما زلتَ راضيا
أقمتَ به من فطرةِ الدينِ سنّةً ... وجددتَ من رسم الهداية عافيا
وجاءوا به ملءَ العيونِ وَسَامةً ... يقبِّلُ وَجْهَ الأرضِ أزهرَ باهيا
فيا عاذرًا(3) ما كان أجرأ مثله ... فمثلكَ لا يدمي الأسود الضواريا
وجاءتكَ من مصرَ التحايا كرائمًا ... فما فتقتْ أيدي التُّجار الغواليا
ووافتكَ من أرضِ الحجازِ تميمةٌ ... تتمم صُنْعَ اللَّه لا زال باديا
وناداكَ بالتمويل(4) سلطانُ طيبةٍ ... فيا طيبَ ما أهدى إليك مناديا
وقام وقد وافى ضريحَ محمدٍ ... لسلطانكَ الأعلى هنالكَ داعيا
سريرتكَ الرحمى(5) جزاكَ بسعيها ... إلهٌ يوفِّي في الجزاء المساعيا
فواللَّه لولا سُنَّةٌ نَبَوِيَّةٌ ... عهدْناه مهديًّا إليها وهاديا

---

(1) في طبعة عبد الحميد (ج ١٠ ص ٥٦): «معتلّ النسيم رواقيا».
(2) المِيْسَمُ: العلامة. لسان العرب (وسم).
(3) في طبعة عبد الحميد: «عاذلاً». وهنا يخاطب من يقوم بالختان.
(4) في طبعة عبد الحميد: «بالتهويل». والتمويل: قوله: «يا مولاي».
(5) الرحمى: الرحيمة: لسان العرب (رحم).

وعـذرٌ مـن الأعـذار قـرّر حـكـمـه ... مـن الـشـرع أخـبـارٌ رفـعـنَ عـوالـيـا
لراعَتْ بها للحرب أهوالُ موقفٍ ... تشيبُ بمبيضِ النصولِ العواليا[1]
لكَ الحمدُ فيه من صنيعٍ تعدّه ... فثالثهُ في الفخر عزز ثانيا
تشدّ له الجوزاءُ عِقْدَ نطاقها ... لتخدمَ فيه كي تنالَ المعاليا
وهُنِّيتَ بالأمداحِ فيه وقد غدا ... وجودكَ فيه بالإجادة وافيا
ودونكَ من بحرِ البيانِ جواهرًا ... كرمنَ فما يُشْرَيْنَ إلاَّ غواليا
وطاردْتُ فيها وصفَ كلِّ غريبةٍ ... فأعجزت مَنْ يأتي ومن كان ماضيا
فيا وارثَ الأنصارِ لا عن كلالةٍ[2] ... تراثَ جلالٍ يستخفُّ الرواسيا
بأمداحِهِ جاء الكتابُ مفصّلاً ... يرتِّله في الذكر مَنْ كان تاليا
لقد عرف الإسلامُ مِمّا أفدته ... مكارمَ أنصاريةً وأياديا
عليكَ سلامُ اللّٰهِ فاسلمْ مخلَّدًا ... تجدُدُ أعيادًا وتُبلي أعاديا

ثم قال: ومن ذلك في الصنيع المختّص بالأمراء الجِلّة: أخينا المعزّ لدولتنا أبي الحسن، وأخينا أبي العباس، وابن عمنا أبي عبد اللّٰه، وَصَلَ اللّٰه تعالى سعودهم! ولقد أبدع في تشييده وتأسيسه، وبسط يَدَ الحسن من براعته وتخميسه، وذلك على أثر عودة مولانا رحمة اللّٰه تعالى عليه من سبتة لمّا عادت إلى ملكهِ: [الطويل]

أرقتُ لبرقٍ مثلِ جفنيَ ساهرا
ينظِّم من قَطْرِ الغمامِ جواهرا
فيبسمُ ثغرُ الروضِ عنه أزاهرا
وصبحٍ حكى وجهَ الخليفةِ باهرا ... تَجسَّم مِنْ نور الهدى وتجسّدا
شفانيَ معتلُّ النسيم إذا انبرى

---

(١) في طبعة عبد الحميد: «للجزر أهوال موقفٍ..». والعوالي: جمع عالية وهي الرمح. لسان العرب (علا).

(٢) الكلالة في الميراث: كل من ليس من عمود النسب من أصل أو فرع؛ يقال: ورث فلان المجد لا عن كلالة، أي ورثه عن آبائه. لسان العرب (كلل).

وأسند[1] عن دمعي الحديثَ الذي جرى

وقد فَتَقَ الأرجاءَ مسكًا وعنبرا

كأنَّ الغني بِاللَّه في الروض قد سرى   فَهَبَّتْ به الأرواحُ عاطرةَ الرِّدَا

عذيريَ من قلبٍ إلى الحسنِ قد صَبَا

تهيِّجُهُ الذكرى ويصبو إلى الصِّبَا

ويُجْرِي جيادَ اللهو في ملعبِ الصِّبا

ولولا ابنُ نصرٍ ما أفاق وأعتبا   رأى وجهه صبحَ الهدايةِ فاهتدى

إليكَ أميرَ المسلمين شكايَةٌ

جَنَى الحُسْنُ فيها للقلوب جنايَةً

وأعظم فيها بالعيون نكايةً

وأطلع في ليلٍ من الشَّعْر آيَةً   محيًّا جميلاً بالصباح قد ارتدى

بِهَدْيِكَ تُهْدَى النَّيِّرَاتُ وتهتدي

وأنواؤها جَدْوَى يمينكَ تجتدي

وعدلكَ للأملاك أوضَحُ مرشدِ

بآثاره في مشكلِ الأمرِ تقتدي   فما بالُ سلطانِ الجمالِ قد اعتدى

تحكَّم منّا في نفوسٍ ضعيفةٍ

وسَلَّ سيوفًا من جفونٍ نحيفةٍ

ألم يَدْرِ أنّا في ظلالِ خليفةٍ

ودولةِ أمْنٍ لا تُرَاعُ مُنيفةٍ   بها قد رَسَا دينُ الهُدَى وتمهَّدَا

خذوا بدمِ المشتاقِ لحظًا أراقَهُ

---

(١) أسند: نقل، والأصل أن ينقل الرجلُ الحديثَ عن رجل سمعه عن رجل غيره، وهكذا حتى يروى عن النبي الكريم ﷺ. لسان العرب (سند).

ويـرقًـا بـأعـلام الـثـنـيّـة شـاقَـهُ

وإن كـلـفـوه فـوق مـا قـد أطـاقَـهُ

يـبـثُّ حـديـثًـا مـا ألـذَّ مـسـاقَـهُ   خليفَتنا المولى الإمامَ محمدا

تـقـلَّـد حكـمَ الـعـدلِ ديـنًـا ومـذهـبا

وجَـوْرَ الـلـيـالـي قـد أزاح وأذهـبـا

فـيـا عـجبًـا لـلـشـوقِ أذكـى وألـهـبا

وسَلَّ صباحًا صارمَ البرقِ مذهبا   وقد بات في جَفْنِ الغمامة مغمدا

يـذكّـرنـي ثـغـرًا لأسـمـاء أشـنـبـا[1]

إذا ابتسمتْ تجلو من الليلِ غَيْهَبا[2]

كعزمِ أميرِ المسلمين إذا احْتَبَى[3]

وأجرى به طِرْفًا من الصبح أشهبا   وأَصْـدَرَ فـي ذاتِ الإلـهِ وأوردا

فسبحانَ من أجرى الرياح بنصرِهِ

وعَـطَّـرَ أنـفـاسَ الـريـاضِ بـشـكـرِهِ

فبرد الصّبا يطوى على طيب نشرِهِ

ومهما تجلّى وَجْهُهُ وسطَ قصرِهِ   ترى هالةً بدرُ السماء بها بَدَا

إمـامٌ أفـادَ الـمَـعْـلَـوَاتِ زمـانَـهُ

فـمـا لحقتْ زُهـرُ الـنـجـومِ مكـانَـهُ

ومَـدَّ عـلـى شـرقٍ وغـربٍ أمـانَـهُ

ولا عَـيـبَ فـيـه غـيـرَ أنَّ بـنـانَـهُ   تُغَرِّقُ مستجديهِ في أبحرِ النَّدَى

هـو الـبـحـرُ مـدَّ الـعـارضَ الـمـتـهـلّلا

---

(١) الأشنب: البارد الأسنان، العذب. لسان العرب (شنب)

(٢) الغيهب: الظلمة. لسان العرب (غيهب).

(٣) احتبى: التفّ بالثوب. لسان العرب (حبا).

هو البدرُ لكنْ لا يزالُ مكمَّلا

هو الدهرُ لا يخشى الخطوبَ ولا ولا

هو العَلَمُ الخَفَّاقُ في هضبة العُلا هو الصارمُ المشهورُ في نصرةِ الهدى

أما والذي أعطى الوجودَ وجودَهُ

وأوسعَ من فوق البسيطة جودَهُ

لقد أصحبَ النصرَ العزيز بُنُودَهُ[1]

ومَدَّ بأملاكِ السماء جنودَهُ وأنجزَ للإسلام بالنصر موعدا

أمولايَ، قد أنجحتَ رأيًا ورايةً

ولم تُبْقِ في سبقِ المكارمِ غايةً

فتهدي سجايا كابن رشدٍ نهايةً

وإن كان هذا السعدُ منك بدايةً سيبقى على مَرِّ الزمانِ مُخَلَّدا

سعودك تُغْنِي عن قراع الكتائبِ[2]

وجودكَ يُزْرِي بالغمام السواكبِ

وإن زاحمتها شُهبها بالمناكبِ

ووجهكَ بَدْرُ المُنْتَدَى والمواكبِ وقد فسحتْ في الفخر أبناؤكَ المدى

بنوكَ كأمثالِ الأناملِ عِدَّةً

أُعِدَّتْ لما يُخْشَى من الدهر عُدَّةً

وزيدَ بهمْ بُرْدُ الخلافةِ جِدَّةً

أطالَ لهم في ظلِّ ملككَ مدّةً إلهٌ يطيلُ العمرَ منك مؤبَّدا

بدورٌ بأوصافِ الكمالِ استقلَّتِ

---

(١) البُنُودُ: جمع بند وهو العلم. لسان العرب (بند).

(٢) الكتائب: جمع كتيبة وهي القطعة من الجيش. لسان العرب (كتب).

غـمـامٌ بـفـيّـاض الـنـوالِ اسـتـهـلّـتِ

سيوفٌ على الأعداء بالنصرِ سُلّتِ

نـجـومٌ بـآفـاقِ الـعـلاء تـجـلّـتِ ولاحتْ كما شاءتْ سعودك أسْعُدَا

وإنَّ أبا الحجاج سيفكَ منتضى[1]

ويَـبْـدُرُ بـآفـاقِ الـجـمـالِ تَـعَـرُّضـا

بنوركَ يا شمسَ الخلافةِ قد أضا[2]

وراقتْ على أعطافه حُلَل الرضا فحلَّ محلاً من عُلاك ممهَّدا

مليكٌ له تعنو[3] الملوكُ جلالةً

يـجـرّرُ أذيـالَ الـفـخـارِ مـطـالـةً

وتَفْرَقُ[4] أُسدُ الغاب منه بسالةً

وترضاه أنصارُ الرسولِ سُلالةً فأبناؤه طابوا فروعًا ومَحْتِدا[5]

أزاهـرُ فـي روضِ الـخـلافـةِ أيـنـعـت

زواهـرُ فـي أُفـقِ الـعـلاء تـطـلّـعَـتْ

جواهرُ أغيتْ[6] في الجمال وأبدعتْ

وعن قيمةِ الأعلاقِ قَدْرًا ترفّعتْ يسرُّ بها الإسلامُ غيبًا ومشهدا

بـعـهـدِ ولـيِّ الـعَـهْـدِ كُـرِّمَ عَـهْـدُهُ

وأُنْـجِـزَ فـي تـخـلـيـدِ مـلـكـكَ وَعْـدُهُ

تـنـظّـمَ مـنـهـم تـحـت شـمـلـكَ عِـقْـدُهُ

---

(١) منتضى: مسلول. لسان العرب (نضا).

(٢) أضا: أصل القول: «أضاء» وقد حذف الهمزة للضرورة الشعرية.

(٣) تعنو: تخضع. لسان العرب (عنا).

(٤) تفرق: تخاف. لسان العرب (فرق).

(٥) المَحْتِدُ: الأصل. لسان العرب (حتد).

(٦) أَغْيَتْ: بلغت الغاية. لسان العرب (غيي).

وأورثـهـم فـخـرًا أبـوه وجَـدُّهُ   فأعلى عليًا حين أحمدَ أحمدا

تـحـوطُ بـهـمْ مـلـكًـا عـزيـزًا ومـلّـةً

وتـلـحظُ عـينُ السَّـعْـدِ منهـم أهِـلَّةً

ستبـدو عـلـى أُفـقِ الـعُـلا مـسـتـقـلّةً

وسُحبًا بفيّاض العُلا مستهلّةً   تـفـجُرُ بـحـرًا لـلـسـمـاحـةِ مُـزْبـدا

ونـجـلُكَ نـصـرٌ يـقـتـفـي نـجـلَ رَسْـمِـهِ

أمـيـرٌ يـزيـنُ الـعـقـلَ راجـحُ حِـلْـمِـهِ

أتـاكَ بـنـجـلٍ يُـسْـتـضـاءُ بـنـجـمِـهِ

لحبِّ رسولِ اللّه سمّاه باسمِهِ   وباسمكَ في هذي الموافقةِ اقتدى

أقـمـتَ بـإعـذارِ الإمـارةِ سُـنَّـةً

وطَـوَّقْـتَ مـن حـلـيٍ بـفـخـركَ مـنّـةً

وأسْـكَـنْـتَـهـا فـي ظـلِّ بـرِّكَ جَـنَّـةً

وألْـحَـفْـتَـهـا بُـرْدَ امـتـنـانـكَ جُـنَّـةً[1]   وعَـمَّـرْتَ مـنـهـا بـالـتـلاوةِ مـسـجـدا

فـلـلّـه عـيـنـا مَـنْ رآهـم تـطـلّـعـوا

غصونًا بروضِ الجود منك ترعرعوا

وفي دوحـةِ الـعـلـيـاءِ مـنـكَ تـفـرّعـوا

ملوكٌ بجلبابِ الحياء تقنّعوا   أضاءَ بهمْ من أُفْقِ قصرك منتدى

وقد أشعروا الصبرَ الجميلَ نفوسهمْ

وأضـفَـوْا بـه فـوقَ الـحـلـى لـبـوسـهـمْ

وقـد زَيَّـنـوا بـالـبـشـرِ فـيـه شـمـوسـهـمْ

(١) الجُنّة، بضمّ الجيم وتشديد النون: الدّرع. لسان العرب (جنن).

وعاطَوْا كؤوس الأنس فيه جليسهمْ وأبْدَوْا على هَوْلِ المقامِ تجلُّدا

شمائلُ فيهم من أبيهم وجَدِّهمْ

تفصِّل آيُ الفخرِ فيها بحمدهمْ

وتنسبها الأنصارُ قِدمًا لسعدهم[1]

تضيءُ بها نورًا مصابيحُ سعدهمْ ولم لا ومن صَحْبِ الرسولِ توقَّدا

فوالله لولا سُنَّةٌ قد أقَمْتَها

وسيرةُ هدي للنبيِّ علمتَها

وأحكامُ عَدْلٍ للجنودِ رسمْتَها

لجالتْ بها الأبطالُ تَقْصدُ سَمْتَهَا وتتركُ أوصالَ الوشيجِ مُقَصَّدا[2]

ويا عاذرًا أبدى لنا الشرعُ عُذْرَهُ

طرقتَ حمًى قد عَظَّمَ اللهُ قَدْرَهُ

وأجريتَ طيبًا يحسدُ الطيبُ نَشْرَهُ

لقد جئتَ ما تستعظمُ الصِّيدُ أمْرَهُ وتفديه إن يقبل خليفتها فدا

رعى اللهُ منها دعوةً مستجابةً

أفادتْ نفوسَ المخلصينَ إنابةً

ولم تُلْفِ من دون القبولِ حجابةً

وعاذرُها لم يُبْدِ عذرًا مهابةً فأوجبَ عن نقصٍ كمالاً تَزَيُّدا

فنقصُ كمالِ المالِ وفرُ نصابِهِ

وما السيفُ إلاّ بعد مَشقِ ذبابِهِ[3]

وما الزهرُ إلاّ بعد شَقِّ إهابِهِ

---

(١) هو سعد بن عبادة بن دُلَيم بن حارثة بن أبي خزيمة بن كعب بن الخزرج، نقيب، سيّد الأنصار. جمهرة أنساب العرب (ص ٣٦٥).

(٢) السَّمْتُ: الطريق والمحجّة. الوشيج: شجر الرماح. لسان العرب (سمت) و (شج).

(٣) مَشَقَ السَّيْفَ: استلّه. ذباب السيف: طرفه الذي يضرب به. لسان العرب (مشق) و (ذبب).

بقَطْعِ يراعِ الخَطِّ حسنُ كتابِهِ وبالقصِّ يزدادُ الذبالُ توقُّدا

ولَمَّا قَضَوْا من سُنَّةِ الشرعِ واجبا

ولم نَلْقَ من دون الخلافةِ حاجبا

أَفَضْنا نهنّي منكَ جَذْلاَنَ واهبا

أفاضَ علينا أَنْعُمًا ومواهبا تَعَوَّدَ بذل الجودِ فيما تعوَّدا

هنيئًا هنيئًا قد بلغتَ مؤمّلا

وأَطْلَعْتَ نورًا يبهرُ المتأمّلا

وأحرزتَ أجرَ المنعمينَ مكمّلا

تباركَ مَنْ أعطى جزيلاً وأجملا وبَلّغَ فيك الدينَ والملْكَ مقصدا

ألاَ في سبيل العِزِّ والفخرِ موسمُ

يظلُّ به ثغرُ المسرّةِ يبسمُ

وعَرْفُ الرضا من جَوِّهِ يتنسّم

وأرزاقُ أربابِ السعادة تُقْسَمُ ففي وصفه ذهنُ الذكيِّ تبلَّدا

وجَلَلْتَ في هذا الصنيعِ مصانعا[1]

تمنى بدورُ التمِّ منها مطالعا

وأبديتَ فيها للجمالِ بدائعا

وأجريتَ للإحسان فيها مشارعا[2] يودُّ بها نهرُ المَجَرَّةِ موردا

وأجريتَ فيها الخيلَ وهي سوابقٌ

وإن طَلَبَتْ في الروع فهي لواحقٌ

نجومٌ وآفاقُ الطّرادِ مشارقٌ

(١) الصنيع: الإحسان والفعل الحسن. المصانع: القرى والمباني والقصور والحصون، مفردها مصنع. لسان العرب (صنع).

(٢) المشارع: جمع مشرع وهو مورد الماء. لسان العرب (شرع).

يفوتُ التماحَ الطَّرف منها بوارقٌ إذا ما تُجَارِي الشُّهبَ تَسْتَبِقُ المدى

وتـطـلـعُ فـي لـيـلِ الـقـتـامِ كـواكـبـا

وقـد وردتْ نـهـرَ الـنـهـارِ مـشـاربـا

تـقـودُ إلـى الأعـداء مـنـهـا كـواكـبـا

فترسمُ مِنْ فوق الترابِ محاربا تحوزُ رؤوسُ الرومِ فيهنَّ سُجَّدا

سوابحُ بالنصرِ العزيزِ سوانحُ

وهـنَّ لأبـوابِ الـفـتـوحِ فـواتـحُ

تـقـودُ إلـيـكَ الـنـصـرَ والـلّـه مـانـحُ

فما زلتَ بابَ الخيرِ واللّهُ فاتحُ وما تَمَّ شيء قد عدا بعد ما بَدَا[١]

ريـاحٌ لـهـا مـثـنـى الـبـروقِ أعـنَّـةٌ

ظـبـاءٌ فـإنْ جـنَّ[٢] الـظـلامُ فـجِـنَّـةٌ

تـقـيـهـا مـن الـبـدرِ الـمـتـمِّـمِ جُـنَّـةٌ

وتـشـرعُ مـن زُهـر الـنـجـومِ أَسِـنَّـةٌ فتقذفُ شُهْبَ الرَّجْم في أثغرِ العدا

فأشهبُ من نسلِ الوجيه[٣] إذا انتمى

جرى فشأى شُهْبَ الكواكب في السما

وخَـلَّـفَ مـنـهـا فـي الـمـقـلَّـدِ أنـجـمـا

تـردَّى جـمـالاً بـالـصـبـاح وربـمـا يقول له الإصباح: نفسي لك الفدا

وأحـمـرُ قـد أذكـى بـه الـبـأسُ جـمـرةً

---

(١) أخذه من المثل: «ما عَدَا مِمّا بَدَا؟» أي ما مَنَعك مِمّا ظهر لك أولاً، قاله علي بن أبي طالب، رضي اللّه عنه، للزبير بن العوام يوم الجمل، يريد: ما الذي صَرَفك عمّا كنت عليه من البيعة. مجمع الأمثال (جـ ٢ ص ٢٩٦).

(٢) جَنّ الليلُ: أظلم. لسان العرب (جنن).

(٣) الوجيه: خيل من الخيول العربية المشهورة. لسان العرب (وجه).

وقد سَلَبَ الياقوتَ والوردَ حمرةً
أدارَ به ساقٍ من الحرب خمرةً
وأبدى حبابًا فوقها الحسنُ غُرّةً يزينُ بها خدًّا أسيلاً مُورَّدا
وأشقرُ مهما شعشع الركضُ بَرْقَهُ
أعارَ جوادَ البرقِ في الأفقِ سَبْقَهُ
بَدَا شَفَقًا قد جَلّلَ الحُسْنُ أُفْقَهُ
ألم تَرَ أنَّ اللَّه أبدعَ خَلْقَهُ فسال على أعطافه الحُسْنُ عَسْجَدَا
وأصفرُ قد ودَّ الأصيلُ جمالَهُ
وقد قَدَّ مِنْ بُرْدِ العشيِّ جلالَهُ
إذا أسرجوا جنحَ الظلامِ ذبالَهُ[1]
فغُرَّتُهُ شمسٌ تضيء مجالَهُ وفي ذيله ذيلُ الظلامِ قد ارتدى
وأدهمُ في مسحِ الدُّجى متجرّدُ
يجيشُ بها بحرٌ من الليلِ مُزْبِدُ
وغُرَّتُهُ نجمٌ به تَتَوَقَّدُ
له البدرُ سُرْجٌ والنجومُ مُقَلَّدُ وفي فَلَقِ الصبحِ المبينِ تقيَّدا
وأبيضُ كالقرطاسِ لاحَ صباحُهُ
على الحُسْنِ مَغْدَاهُ وفيه مَرَاحُهُ
وللظَّبَيَاتِ الآنساتِ مِراحُهُ
تراهُ كنَشْوَانٍ أمالته[2] راحُهُ وتحسبُهُ وسطَ الجمالِ معربدا
وذاهبةٌ في الجوّ ملءَ عنانِها

---

(١) أسرجوا: أوقدوا السراج. الذُّبالة، بضمّ الذال: فتيلة السراج، وأراد بها المصباح. لسان العرب (سرج) و (ذبل).
(٢) في طبعة عبد الحميد (ج ١٠ ص ٦٦): «أنالته».

وقد لفعتها السُّحبُ بُرْدَ عنانِها

يفوتُ ارتدادَ الطَّرْفِ لمحُ عيانِها

وخَتَّمَتِ الجوزاءُ سَبْطَ بنانِها وصاغَتْ لها حَلْيَ النجومِ مقيَّدا

أراها عمودُ الصبحِ عُلْوَ المصاعدِ

وأوهمها قُرْبَ المدى المتباعدِ

ففاتته سَبْقًا في مجالِ الرواعدِ

وأتحفتِ الكَفُّ الخضيبَ بساعدِ فطوّقتِ الزُّهْرَ النجومَ بها يَدَا

وقد قذفتها للعصيّ حواصِبُ[1]

قد انتشرتْ في الجوِّ منها ذَوَائبُ

تزاور منها في الفضاء حبائبُ

فبينهما من قبل ذاكَ مَنَاسِبُ لأنهما في الروض قبلُ تولَّدَا

بناتٌ لأمّ قد حُبِينَ لروحِها

دعاها الهوى من بعد كتمٍ لِبَوْحِها

فأقلامُهَا تهوي لخطٍّ بلوحِها

فبالأمس كانت بعضَ أغصان دَوْحِها فعادتْ إليها اليومَ من بَعْدُ عُوَّدا[2]

ويا رُبَّ حصنٍ في ذراها قد اعتلى

أنارتْ بروجُ الأفقِ في مظهر العلا

بروجَ قصورٍ شِدْتَها متطوِّلاً

فأنشأتَ برجًا صاعدًا متنزلاً يكونُ رسولاً بينها مترددا

وهل هي إلاّ هالةٌ حولَ بَدْرِها

(١) الحواصب: جمع حاصب وهو الريح الشديدة التي تحمل التراب وتثير الحصباء وتجيء بالحصباء. محيط المحيط (حصب).

(٢) العُوَّدُ: جمع عائدة وهي الزائرة. لسان العرب (عود).

يصوغُ لها حليًا يليقُ بنحرِها

تطوَّرَ أنواعًا تُشيدُ بفخرِها

فحجْلٌ برجليها وشاحٌ بخصرها   وتاجٌ بأعلى رأسها قد تنضَّدا[1]

أرادَ استراقَ السمعِ وهو مُمَنَّعُ

فقامَ بأذيالِ الدُّجى يتلفَّع[2]

وأصغى لأخبار السما يَتَسَمَّعُ

فَأَتْبَعَهُ منها ذوابلُ شُرَّعُ   لِتَقْذِفَهُ بالرُّعْبِ مَثْنى ومَوْحَدَا

وما هو إلاَّ قائمٌ مَدَّ كَفَّهُ

ليسألَ من ربِّ السمٰواتِ لطفَهُ

لمولًى تولاّه وأحْكَمَ رَصْفَهُ

وكلَّفَ أربابَ البلاغةِ وصفَهُ   وأكرمَ منه القانتَ المتهجّدا

ملاقيَ ركبٍ في وفودِ النواسمِ

مُقَبِّلَ ثَغْرٍ للبروقِ البواسمِ

مُخَتِّمَ كَفٍّ بالنجومِ العواتمِ

مبلّغَ قصدٍ من حضورِ المواسمِ   تجدّده مهما صنيعٌ تجدَّدا

ومضطربٌ في الجوِّ أثبتَ قامةً

تقدّمَ يمشي في الهواء كرامةً

تطلَّعَ في غصنِ الرشاء كمامةً

وتحسبُهُ تحتَ الغمامِ غمامَةً   يسيلُ علىٰ أعطافها عَرَقُ النَّدَى

هوى واستوى في حالةٍ وَتَقَلُّبا

---

(١) تقدم ذلك في القصيدة السابقة بقوله:

فَحَجْلٌ برجليها وِشاحٌ بخصرها   وتاجٌ إلى ما حَلَّ منها الأعاليا

والحَجْلُ: الخلخال. لسان العرب (حجل).

(٢) يتلفَّع: يتغطّى. لسان العرب (لفع).

كخاطفِ برقٍ قد تألّقَ خُلَّبَا[1]

وتحسبُهُ قد دار في الأفقِ كوكبا

ومهما مشى واستوقف العقلَ مُعْجَبَا   تقلّبُ فيه العينُ لحظًا مردّدا

لقد رام يرقى للسماء بسلّمِ

فيمشي على خَطٍّ به متوهّم

أَجِلْ في الذي يبديه فِكرَ توسُّمِ

ترى طائرًا قد حَلّ صورةَ آدمي   وجِنًّا بمهواةِ الفضاء تمرُّدا

ومنتسبٍ للخالِ سمَّوه ملحما

له حَكَماتٌ حكمها فاه ألْجَمَا

تَخَالَفَ جنسًا والداه إذا انتمى

كما جنْسُهُ أيضًا تخالفَ عنهما   عجبتُ له إذ لم يلدْ وتولّدا

ثلاثتها في الذكر جاءت مبيّنَةً

من اللاء سمّاها لنا اللّه زينةً

وأنزلَ فيها آيةً مستبينةً

وأودعَ فيها للجَهُولِ سكينةً   وآلاءه فيها على الخلقِ بَدَّدَا

كسوه من الوشيِ اليمانيّ هودجا

يمدُّ على ما فوقَهُ الظِّلُّ سَجْسَجا[2]

وكم صورةٍ تجلى به تبهرُ الحِجا

وجزل وقودٍ نارهُ تصدع الدجى   وقلب حسودٍ غاظ مُذْكِيه موقدا

وما هي إلاَّ مَظْهَرٌ لجهادِهِ

---

(١) البَرْقُ الخُلَّبُ: المُطْمع المُخْلِف. محيط المحيط (خلب).

(٢) الظِّلُّ السَّجسج: المعتدل الطيب الذي لا حَرٌّ فيه ولا برد. لسان العرب (سجسج).

أَرَتْنا بِها الأفراحُ فضلَ اجتهادِهِ
مَلاَعِبُها هَزَّتْ قدودَ صِعَادِهِ
وأذكرَتِ الأبطالَ يومَ طرادِهِ فما ارتبْتَ فيه اليومَ صَدَّقْتَهُ غدا
ألاَ جَدَّدَ الرحمنُ صنعًا حَضَرْتَهْ
ودَوْحَ الأماني في ذراه هَصَرْتَهْ
بقصرِ طويلِ الوصفِ فيه اخْتَصَرْتَهْ
يقيّد طَرْفَ الطرف مهما نَظَرْتَهْ «ومن وَجَدَ الإحسانَ قَيْدًا تقيَّدا»[1]
دَعَوْتَ له الأشرافَ مِنْ كلِّ بلدةٍ
فجاءوا بآمالٍ لهم مستجدَّةٍ
وخَصُّوا بألطافٍ لديه معدَّةٍ
أيادٍ بفيّاضِ الندى مستمدَّةٍ فكلُّهُمُ من فضلِهِ قد تزوَّدا
وجاءتك من آل النبيِّ عصابَةٌ
لها في مرامي المكرماتِ إصابةٌ
أحبّتكَ حبًّا ليس فيه استرابةٌ[2]
ولَبَّتْ دواعي الفوزِ منها إجابةٌ وناداهُمُ التخصيصُ فابتدَرُوا النّدا[3]
أجازوا إليكَ البَحْرَ والبحرُ يَزْخَرُ
لبحرِ سماحٍ مَدُّه ليس يجزرُ
فروّاهُمُ من عذبِ جودك كوثرُ
ووالَيتَ من نَعْمَاكَ ما ليس يحصرُ وعظمتهمْ ترجو النبيَّ محمدا
عليه صلاةُ اللّه ثم سلامُهُ

---

(١) ما بين شولتين عجز بيت للمتنبي، والبيت بتمامه هو:
وقَيَّدْتُ نفسي في ذُراكَ مَحَبَّةً ومَنْ وَجَدَ الإحسانَ قَيدًا تقيَّدا
ديوان المتنبي (ص ٣٨٩).

(٢) الاسترابة: الشك؛ يقال: استراب إذا وقع في الشكّ. لسان العرب (ريب).

(٣) ابتدروا النداء: سارعوا إلى إجابته. لسان العرب (بدر).

به طابَ من هذا النظام اختتامُهُ

وجاء بحمدِ اللّهِ حُلْوًا كلامُهُ

يعزُّ على أهلِ البيانِ مَرَامُهُ وتمسي له زُهرُ الكواكبِ حُسَّدَا

أبثُّ به حادي الركابِ مشرِّقا

حديثَ جهادٍ للنفوسِ مشوِّقا

رميتُ به مَنْ بالعراق مفوّقا

وأرسلتُ منه بالبديع مطوّقا حَمامًا على دوحِ الثناء مغرّدا

ركضتُ به خيلَ البيانِ إلى مَدَى

فأحرزْتُ خَصْلَ السبقِ في حَلْبة الهدى

ونظمتُ مِنْ نظمِ الدراري مقلّدا

وطوَّقْتُ جِيدَ الفخرِ عِقْدًا منضَّدا وقمتُ به بين السماطينِ منشدا

نسقتُ في الإحسان فيه فرائدا

وأرسلتُ في روضِ المحاسن رائدا

وقَلَّدْتُ عِطْفَ[1] الملكِ منه قلائدا

تَعَوَّدْتُ فيه للقبولِ عوائدا فلا زلتَ للفعل الجميلِ معوّدا

ولا زلتَ للصنعِ الجميلِ مجدِّدا

ولا زلتَ للفخرِ العظيمِ مخلّدا

وعُمِّرْتَ عمرًا لا يزالُ مجدّدا

وعَمَّرْتَ بالأبناء أَوْحَدَ أَوْحَدا وقَرَّتْ بهم عيناكَ ما سائقٌ حدا

وقال في عيد: [الكامل]

بشرى كما وضحَ الزمانُ وأجملُ يُغشِي سَنَاها كلُّ من يتهلَّلُ

أبدى لها وجهُ النهار طلاقةً وآفترَّ عن ثَغْرِ الأقاح مقبَّلُ

---

(١) العِطْف، بكسر العين وسكون الطاء: الجانب. لسان العرب (عطف).

ومنابرُ الإسلام يا ملكَ الورى بحلاكَ أو بحليُها تتكلّل
تجلو لنا الأكوانُ منكَ محاسنًا تُروى على مَرّ الزمانِ وتُنْقَل
فالشمسُ تأخذُ من جبينكَ نورها والبِشْرُ منكَ بوجهها يَتَهَلَّل
والروضُ ينفحُ من ثنائكَ طيبَهُ والوُرْقُ[1] فيه بالممادح تَهْدِلُ
والبرقُ سيفٌ من سيوفكَ منتضى والسُّحبُ تهمي من يديك وتهمل
يا أيها الملكُ الذي أوصافُهُ دُرٌّ على جيدِ الزمان يُفَصَّلُ
اللهُ أعطاكَ التي لا فوقها وحَبَاكَ بالفضل الذي لا يُجْهَلُ
وَجْهٌ كما حَسَرَ الصباحُ نقابَهُ لضيائه تعشو البدورُ الكُمَّلُ
تلقاهُ في يوم السماحةِ والوغى والبِشْرُ في جَنَباته يتهلَّل[2]
كَفٌّ أبتْ أن لا تكفَّ عن الندى أبدًا فإن ضنَّ الحَيَا تسترسل
وشمائلٌ كالروضِ باكَرَه الحَيَا وسَرَتْ بريَّاهُ الصَّبَا والشَّمْألُ
خُلُقُ ابنِ نَصْرٍ في الجمال كخَلْقِهِ ما بعدها من غايةٍ تُسْتَكْمَلُ[3]
نورٌ على نورٍ بأبهى منظرٍ في حُسْنِهِ لمؤمِّلٍ ما يأمُل
فاقَ الملوكَ بسيفِهِ وبسيبِهِ[4] فبعدلِهِ وبفضلِهِ يُتَمَثَّلُ
وإذا تطاولَ للعميدِ عميدهم فله عليه تطاولٌ وتطوُّلُ[5]
يا آيةَ اللهِ التي أنوارُها يُهدى بها قَصْدَ الرشادِ الضُّلَّل
قُلْ للذي التبستْ معالمُ رشدِهِ هيهات قد وَضَحَ الطريقُ الأمثل
قد ناصحَ الإسلامَ خيرُ خليفة وحمى عزيزَ الملكِ أغلبُ مُشْبل[6]
فلقد ظهرتَ من الكمالِ بمستوًى ما بعده لذوي الخلافة مأمل
وعنايةُ اللهِ اشتملتَ رداءها وعلقت منها عروةً لا تُفصل
فالجودُ إلاَّ من يديك مقتّرٌ والغيثُ إلاَّ من نَداكَ مبخَّلُ

---

(١) الوُرْقُ: جمع ورقاء وهي الحمامة. لسان العرب (ورق).
(٢) يتهلّلُ: يشرق ويتلألأ. لسان العرب (هلل).
(٣) في طبعة عبد الحميد (جـ ١ ص ٧٢): «ما بعده.. تتكمل».
(٤) السَّيبُ: العطاء. لسان العرب (سيب).
(٥) التطوّل: التفضّل. لسان العرب (طول).
(٦) في طبعة عبد الحميد: «أشمل.

والعمرُ إلاَّ تحت ظلِّكَ ضائعٌ والعيشُ إلاَّ في جنابك مُمْحِلُ
حيثُ الجهادُ قد اعتلت راياتُهُ حيثُ المغانمُ للعُفَاة تنفَّل
حيثُ القبابُ الحمرُ تُرفعُ للقِرى قد عام في أرجائهنَّ المَنْدَلُ[1]
يا حجَّةَ اللَّهِ التي برهانها عَزَّ المحقُّ به وذلَّ المُبْطِل
قُلْ للذي ناواك يرقب يومُه[2] فوراءهُ ملكٌ يقولُ ويفعل
واللَّه جلَّ جلاله إن أمهلت أحكامُهُ مستدرجًا لا تهمل
يا ناصرَ الإسلام وهو فريسةٌ أُسْدُ الفلا مِنْ حولها تتسَلَّلُ
يا فخرَ أندلسٍ وعصمةَ أهلها لكَ فيهمُ النعمى التي لا تُجهل
لا يهملُ اللَّه الذين رعيتَهمْ فلأنتَ أكفى والعنايةُ أكفل
لا يبعدُ النصرُ العزيزُ فإنه آوى إليكَ وأنتَ نِعْمَ الموئل
لولا نَدَاك لها لما نفع الندى ولجفَّ من وِرْدِ الصنائعِ مَنْهل
لولاكَ كان الدينُ يُغْمَطُ حقه[3] ولكان دَينُ النصرِ فيه يُمطل
لكن جنيتَ الفتح من شجرِ القنا وجنى الفتوحِ لمن عداكَ مؤمَّلُ
فلطالما[4] استفتحتَ كلَّ مُمَنَّعٍ من دونه بابُ المطامعِ مُقْفَلُ
ومتى نزلتَ بمعقلٍ متأشبٍ فالعُصْمُ من شَعفاتِهِ تُستنزلُ
وإذا غزوتَ فإنَّ سعدكَ ضامنٌ أن لا تخيبَ وأنَّ قصدك يكمل
فمن السعودِ أمام جيشكَ موكبٌ ومن الملائك دون جندك جَحْفَلُ
وكتيبةٍ أَرْدَفْتَها بكتيبةٍ والخيلُ تمرحُ في الحديد وترفل
من كلّ منحفزٍ كلمعةِ بارقٍ بالبَدْرِ يُسْرَجُ والأهلَّةِ يُنعل
أوفى بهادٍ كالظليم وخلفه كَفَلٌ كما ماجَ الكثيبُ الأَهْيَلُ
حيٌّ إذا مَلَّكَ الكميُّ عِنانَهُ يهوي كما يهوي بجوّ أَجْدَلُ[5]

---

(١) المندل: العود الطيب الرائحة. لسان العرب (ندل).
(٢) في طبعة عبد الحميد: «يدفع نومه».
(٣) يُغْمَطُ حقُّه: ينتقص. لسان العرب (غمط).
(٤) في طبعة دار صادر (جـ ٧ ص ٢٠٨): «ولقبلُ ما..».
(٥) الأجدل: الصقر. لسان العرب (جدل).

حملتْ أُسودَ كريهةٍ يومَ الوغى ... ما غابُها[1] إلاَّ الوشيجُ الذُّبَّلُ
لبسوا الدروعَ غدائرًا مصقولةً ... والسُّمرُ قُضبٌ فوقها تتهدَّلُ
من كلِّ معتدلِ القَوامِ مُثَقَّفٍ ... لكنه دون الضريبةِ يعسل
أذكيتَ فيه شعلةً من نصلِهِ ... يهدى بها إن ضلَّ عنه المقتل
ولربَّ لمّاعِ الصقالِ مُشَهَّرٍ ... ماضٍ، ولكنْ فِعْلُهُ مُسْتَقْبَلُ
رَقَّتْ مضاربُهُ وراقَ فِرِنْدُهُ ... فالحُسْنُ فيه مُجْمَلٌ ومُفَصَّلُ
فإذا الحروبُ تَسَعَّرَتْ أجزالُها ... ينسابُ في يمناكَ منها جدول
وإذا دَجا ليلُ القَتّام رأيتَهُ ... وكأنه فيه ذُبَالٌ مشعَل[2]
فأعجبْ لها من جذوةٍ لا تنطفي ... في أبحرٍ زخرتْ وهنَّ الأنمل
هي سُنَّةٌ أُحَيِّتَها وفريضةٌ ... أَدَّيْتَها قرباتها تُتَقَبَّلُ
فإذا الملوكُ تفاخرتْ بجدودها ... فلأنتَ أحفى بالجهادِ وأحفل
يا ابنَ الذين جمالهم ونوالهمْ ... شمسُ الضحى والعارضُ المتهلِّل[3]
يا ابن الإمام ابن الإمام ابن الإما ... م ابن الإمام، وقدرها لا يُجهل
آباؤك الأنصارُ تلك شعارهمْ ... فلحيِّهمْ آوى النبيُّ المُرْسَلُ
فهمُ الألى نصروا الهدى بعزائمٍ ... مصقولةٍ وبصائرٍ لا تخذل
ماذا يحبّر شاعرٌ في مدحهمْ ... وبفضلهمْ أثنى الكتابُ المُنْزَلُ
مولاي لا أُحصي مآثرَكَ التي ... بحديثها تُنْضَى المطيُّ الذُّلَّلُ
وإذا الحقائقُ ليس يدرَكُ كنهُها ... سيّانِ فيها مكثرٌ ومُقَلِّل
فإليكَ من شوّال غُرّةَ وجهِهِ ... أهداكها يومٌ أغرُّ مُحَجَّلُ
عذراء راقَ العيدَ رونقُ حُسْنِها ... فغدا بنظمِ حليِّها يتجمّل
رضعتْ لبانَ العلمِ في حِجْرِ النُّهى ... فَوَفَتْ لها منه ضروعٌ حُفَّلُ[4]
سلكَ البيانُ بها سبيلَ إجادةٍ ... لولا صفاتُكَ كان عنها يعدل

---

(١) في طبعة عبد الحميد (ج ١٠ ص ٧٣): «عابها» بالعين المهملة.
(٢) القَتام، بالفتح: الغبار الأسود. الذُّبال: جمع ذبالة وهي الفتيلة، ويريد المصباح. لسان العرب (قتم) و (ذبل).
(٣) العارض: السحاب المعترض في الأفق. المتهلّل: الممطر. لسان العرب (عرض) و (هلل).
(٤) الحُفَّلُ: المليئة باللبن. لسان العرب (حفل).

جاءت تهني العيدَ أيمنَ قادم | وافى بشهرِ صيامِهِ يتوسّل
وطوى الشهورَ مراحلاً معدودةً | كيما يُرى بِفِناء جودك يَنْزِل
وأتى وقد شفَّ النحولُ هلاله | ولشوقه للقاء وجهكَ ينحل
عقدتْ بمرقبه العيونُ مسرَّةً | فَمُكَبِّرٌ لطلوعِهِ ومُهَلِّل
فاسلَمْ لألفِ مثله في غبطةٍ | ظلُّ المنى من فوقِهِ يتهدَّلُ
فإذا بقيتَ لنا فكلُّ سعادةٍ | في الدين والدنيا بها تتكفَّلُ

وقال ابن الأحمر: ومن جياد أناشيده المتميّزة بالسبقية، وبارقات تهانيه في المواسم العقيقية، قولُه يهنّئه ـ رضوان اللّه تعالى عليه! ـ بطلوع مولانا الوالد قدّس اللّه تعالى روحه: [الكامل]

طَلَعَ الهلالُ وأُفْقُهُ متهلِّلُ | فمكبِّرٌ لطلوعِهِ ومُهَلِّلُ[(١)]
أوفى على وَجْهِ الصباح بغرَّةٍ | فغدا الصباحُ بنورها[(٢)] يتجمّل
شمسُ الخلافةِ قد أَمَدَّتْ نوره | ويسعدها يرجو التمامَ ويكمل
للّه منه هلالُ سعدٍ طالعٌ | لضيائه تعشو البدورُ الكُمَّل
وألحتَ يا شمسَ الهدايةِ كوكبًا | يُغْشِي سَناهُ كلَّ من يتأمَّل
والتاجُ تاجُ البَدْرِ في أفقِ العُلا | ما زالَ بالزُّهْرِ النجومِ يكلَّل[(٣)]
ولئن حوى كلَّ الجمالِ فإنه | بالشُّهبِ أبهى ما يكونُ وأجمل
أطلعتَ يا بدرَ السماحِ هلالَهُ | والملكُ أُفقٌ والخلافةُ منزل
يبدو بهالاتِ السروج وإنه | من نور وجهكَ في العلا يستكمل
قلّدتَ عطفَ الملك منه صارمًا | بغَنائِهِ ومضائِهِ يُتَمَثَّل
حَلَّيْتَهُ بحُلى الكمالِ وجوهر الـ | ـخُلُقِ النفيس وكلّ خُلقٍ يجمل
يغزو أمامَكَ والسعودُ أمامه | وملائكُ السبعِ العلا تتنزَّل
مَنْ مبلغُ الأنصارِ منه بشارةً | غُرُّ البشائر بعدها تسترسل[(٤)]

---

(١) مُكَبِّرٌ: قائل: «اللّه أكبر». مُهَلِّلٌ: قائل: «لا إله إلاّ اللّه».
(٢) في طبعة دار صادر (جـ ٧ ص ٢١٠): «بنوره».
(٣) الزهر النجوم: النجوم المنيرة. يكلَّل: يضع الإكليل على رأسه. لسان العرب (زهر) و (كلل).
(٤) في طبعة عبد الحميد (جـ ١٠ ص ٧٥): «منه بشأنه غرر البشائر».

أحيا جهادَهُم وجدَّدَ فخرهم ... بعد المئين فملكهم يتأثّل
فبه إلى الأجرِ الجزيلِ توصّلوا ... وبهم إلى ربّ السما يُتَوَسَّلُ
مَنْ مبلغٌ الأذواءِ من يَمنٍ وهُمْ ... قد تُوِّجوا وتملّكوا وتقيّلوا[1]
أنَّ الخلافةَ من[2] بنيهمْ أطلعتْ ... قمرًا به سعدُ الخليقةِ يكمل
مَنْ مبلغٌ قحطانَ آسادَ الشرى ... ما غابُهَا إلاّ الوشيجُ الذُّبَّلُ[3]
أنَّ الخلافةَ وهو شبلُ ليوثهمْ ... قد حاط منها الدينَ ليثٌ مُشْبِلُ[4]
يهني بني الأنصارِ أنَّ إمامهم ... قد بَلَّغَتْهُ سعودُهُ ما يأمل
يهني البنودَ فإنها ستظلّه ... وجناحُ جبريل الأمين يظلّل
يهني الجيادَ الصافناتِ فإنها ... بفتوحه تحت الفوارس تهدل
يهني المَذَاكي والعوالي والظُّبَا ... فبها إلى نَيْلِ المُنَى يُتَوَصَّلُ
يهني المعالي والمفاخرَ أنه ... في مرتقى أوجِ العلا يَتَوَقَّل[5]
سبقتْ مقدمةُ الفتوحِ قدومَهُ ... وأتاكَ وَهْوَ الوادعُ المتمهّل
وبَدَتْ نجومُ السعدِ قبلَ طلوعِهِ ... تجلو المطامعَ قَبْلَهُ وتؤثِّلُ
وروتْ أحاديثَ الفتوحِ غرائبًا ... والنصرُ يُمْضي ما تقولُ وتفعل[6]
فالفتحُ بين معجَّلٍ ومؤجَّلٍ ... يُنْسيكَ ماضيه الذي يستقبل
أوَ ليس في شأن المشير دلالةٌ ... أنَّ المقاصدَ من طلابكَ تكمل
ناداهُمُ داعي الضلال فأقبلوا ... ودعاهُمُ داعي المنون فَجُدِّلوا
عَصَوا الرسولَ إبايةً وتحكَّمَتْ ... فيهمْ سيوفُكَ بعدها فاستمثلوا
كانوا جبالاً قد عَلَتْ هضباتها ... نسفتهُمْ ريحُ الجِلاد فزلزلوا
كانوا بحارًا من حديدٍ زاخرٍ ... أذْكَتْهُمْ نارُ الوغى فتبسَّلوا[7]

(١) تقيّلوا: صاروا أقيالاً، والأقيال: جمع قَيْل وهو المَلِك. محيط المحيط (قول).
(٢) في طبعة دار صادر (جـ ٧ ص ٢١١): «في».
(٣) الوشيج الذُّبَّل: الرماح. والوشيج في الأصل: شجر الرماح. محيط المحيط (وشج).
(٤) المُشْبِلُ: ذو الأشبال، والأشبال: جمع شبل وهو ولد الأسد. لسان العرب (شبل).
(٥) يتوقّل: يصعد. لسان العرب (وقل).
(٦) في طبعة دار صادر (جـ ٧ ص ٢١٢): «ويفعل».
(٧) في طبعة دار صادر: «فتسيّلوا».

ركبتَ أرجلَها الأداهمَ كلّما	يتحرّكون إلى قيام تصهل
كان الحديدُ لباسهم وشعارهم	واليومَ لم تلبسْهُ إلاَّ الأرجلُ[1]
اللّه أعطاك التي لا فوقها	فَتَحَا به دِينُ الهدى يتأثّل
جَدَّدْتَ للأنصارِ حَلْيَ جهادها	فالدينُ والدنيا به تتجمَّلُ
من يتحفُ البيتَ العتيقَ وزمزمًا	والوفدُ وفدُ اللّهِ فيه ينزل
متسابقينَ إلى مَثَابةِ رحمةٍ	من كلِّ ما حَدَبٍ إليه تنسل[2]
هِيمًا كأفواجِ القطا قد ساقها	ظمأ شديدٌ والمطافُ المنهل
من كلِّ مرفوعِ الأكُفِّ ضراعةً	والقلبُ يخفقُ والمدامعُ تهمل
حتى إذا رَوتِ الحديثَ مسلسلاً	بيضُ الصوارم والرماحُ العُسَّلُ
من فتحك الأسنى عن الجيش الذي	بثَبَاتِهِ أهلُ الوغى تتمثّل
أهدتهُمُ السّراءَ نصرةُ دينهم	واستبشروا بحديثها وتهلّلوا
وتناقلوا عنكَ الحديثَ مسرّةً	بسماعه واهتزَّ ذاك المحفل
ودعَوْا بنصرك وهو أعظم مفخرًا	إنَّ الحجيجَ بنصر ملكك يحفل
فاْهْنَأْ بملكِكَ واعتمدْ شكرًا به	لطفَ الإلَهِ وصُنْعَهُ تتخوَّلُ
شرفتَ منه باسمٍ والدكَ الرضا	يحيا به منه الكريمُ المفضل
أبديتَ من حسنِ الصنيعِ عجائبًا	تُروى على مَرِّ الزمان وتُنقَلُ
خَفَقَتْ به أعلامُكَ الحمرُ التي	بخفوقها النصرُ العزيزُ موكَّل
هَدَرَتْ طبولُ العزِّ تحت ظلالها	عنوانَ فتحٍ إثرها يستعجل
ودعوتَ أشرافَ البلادِ وكلُّهم	يثني الجميلَ وصُنْع جودك أجملُ
وردوا ورودَ الهِيم[3] أجهدها الظما	فصَفَا لهم من وِرْدِ كفِّك مَنْهَلُ
وأثرتَ فيه للطرادِ فوارسًا	مثلَ الشموس وجوههم تتهلّلُ

(١) لم تلبسه إلاَّ الأرجل: أي إنه صار قيودًا لهم.

(٢) المثابة: المكان الذي يرجع الناس إليه. وقد أخذ عجز البيت من قول اللّه تعالى: ﴿وهُمْ مِنْ كلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ﴾. سورة الأنبياء ٢١، الآية ٩٦.

(٣) الهيمُ: جمع الهائم وهو الشديد العطش. يقول اللّه تعالى: ﴿فَشَارِبُونَ شُرْبَ الهِيْمِ﴾. سورة الواقعة ٥٦، الآية ٥٥.

مـن كـلِّ وضّـاحِ الـجـبيـنِ كـأنـه نجمٌ وجنحُ النَّقْع ليلٌ مسبلُ[1]
يـردُ الـطـرادَ عـلى أغرَّ مُـحَـجَّـلٍ في سرجه بطلٌ أغرُّ مُـحَـجَّـلُ
قد عُوِّدوا قَنَصَ الكماةِ كأنما عقبانُه ينقضُّ منها أجْدَلُ
يـسـتـتـبـعـونَ هـوادجًا مَوْشِيَّةً مـن كلِّ بدعٍ فوق ما يُتَخَيَّلُ
قد صُوِّرَتْ منها غرائبُ جَمَّةٌ تنسي عقولَ الناظرينَ وتذهل
وتضمَّنَتْ جَزْلَ الوقود حمولها والنصرُ في التحقيق ما هي تحمل
والعادياتُ[2] إذا تَلَتْ فرسانها آيَ القتال صفوفها تترتَّلُ
لـلَّـه خـيـلـكَ؛ إنـهـا لَسَوَابحٌ بحرَ القتامِ وموجُهُ متهيّل
مـن كـلِّ برقٍ بـالـثُّرَيّا مُلْجَمٍ بالبدرِ يُسْرَجُ والأهلّةِ يُنعل
أوفى بـهـادٍ كـالـظـليـمِ وخلفه كفلٌ كما لاح الكثيبُ الأهيل
هُنَّ البوارقُ غيرَ أنَّ جيادها عن سَبْقِ خيلك يا مؤيّدُ تَنْكُلُ
من أشهبٍ كالصبح يعلو سرجَهُ صبحٌ به نجمُ الضلالةِ يأفل
أو أدهمٍ كالليلِ قُلِّدَ شُهبه خاضَ الصباحَ فأثبتته الأرجل
أو أشقرٍ سال[3] النضارُ بعطْفِهِ وكساهُ صِبْغَةً بهجة لا تنصل
أو أحمرٍ كالجمر أضمر بأسه بالركض في يوم الحفيظةِ يشعل
كالخمرِ أُترِعَ كأسها لندامها ويها حبابةُ غرّةٍ تتَسَيَّل
أو أصفرٍ لبسَ العشيِّ مُلاءَةً ويذيله لليل ذيلٌ مُسْبَلُ
أجملتَ في هذا الصنيع عوائدًا الجودُ فيها مُجْمَلٌ ومُفَصَّلُ
أنشأتَ فيها من نداكَ غمائمًا بالفضل تنشأ والسماحةِ تهمل
فَجَّرْتَ مِنْ كَفَّيْكَ عشرةَ أَبْحُرٍ تزجي سحاب الجودِ وهي الأنمل
من قاس كفَّك بالغمام فإنه جَهِلَ القياسَ ومثلها لا يجهل
تسخو الغمامُ ووجهها متجهِّمٌ والوَجْهُ منه مع النَّدَى يتهلَّلُ
والسُّحبُ تسمحُ بالمياه وجودُهُ ذهبٌ به أهلُ الغنى تتموّل
من قاس بالشمس المنيرةِ وَجْهَهُ أَلْفَيْته في حكمه لا يعدل

(١) النَّقْعُ: الغبار. مسبلٌ: مُرْخًى. لسان العرب (نقع) و (سبل).
(٢) العاديات: الخيول الغازية. محيط المحيط (عدا).
(٣) في طبعة عبد الحميد (جـ ١٠ ص ٧٨): «صال».

من أين للشمسِ المنيرة منطقٌ ببيانِهِ درُّ الكلامِ يُفَصَّلُ
من أين للشمس المنيرةِ راحةٌ تسخو إذا بخل الزمانُ المُمْحِلُ
مَنْ قاس بالبدرِ المنيرِ كمالَهُ فالبدرُ ينقصُ والخليفةُ يكمل
من أين للبدرِ المنيرِ مناقبٌ بجهادِها تُنْضَى المطيُّ الذُّلَّلُ
يا مَنْ إذا نفحتْ نواسمُ حَمْدِهِ فالمِسْكُ يعبقُ طِيْبُهُ والمندل[1]
يا من إذا لمحتْ محاسنُ وَجْهِهِ تعشو العيونُ ويبهر المتأمِّل
يا من إذا تُليتْ مفاخرُ قومه آيُ الكتابِ بذكرها تتنزّل
كفل الخلافةَ منكَ يا ملكَ العلا واللّهُ جَلَّ جلالُهُ بك[2] أكفل
ميمونُها وأمينُها ورشيدُها منصورُها مَهْدِيُّها المتوكّل
حَسْبُ الخلافة أن تكون وليَّها ومجيرها من كلِّ من يتحيّل[3]
حَسْبُ الزمانِ بأن تكونَ إمامَهُ فله بذلكَ عزَّةٌ لا تُهْمَلُ
حَسْبُ الملوك بأن تكون عميدَهَا ترجو الندى من راحتيك وتأمل[4]
حَسْبُ المعالي أن تكون إمامَها فعليك أطنابُ المفاخر تُسدل
يا حجَّةَ اللّهِ التي برهانُها عَزَّ المحقُّ به وذَلَّ المبطل
أنتَ الإمامُ ابنُ الإمامِ ابنُ الإما مِ ابنُ الإمام وفَخْرُها لا يُعْدل
عَلَّمْتَ حتى لم تَدَعْ من جاهلٍ أعطيتَ حتى لم تدعْ مَنْ يسألُ
وعنايةُ اللّهِ اشتملتَ رداءها وعلقتَ منها عُروةً لا تُفْصَلُ

ومنها:

أَخَذَتْ قلوبَ الكافرينَ مهابَةٌ فعقولهم من خوفها لا تَعْقِلُ
حسبوا البروقَ صَوَارِمًا مسلولةً أرواحهم من بأسها تتسلّل
وترى النجومَ مناصلاً مرهوبةً فيفرُّ منها الخائفُ المتنصّل
يا ابنَ الألى إجمالهم وجمالهم شمسُ الضحى والعارضُ المتهلّلُ[5]

---

(١) المندل: عود يتبخّر به. لسان العرب (ندل).
(٢) في طبعة دار صادر (ج ٧ ص ٢١٤): «لك».
(٣) في طبعة عبد الحميد (ج ١٠ ص ٧٩): «يتخيّل» بالخاء المعجمة.
(٤) في طبعة عبد الحميد: «وتكمل».
(٥) العارض: السحاب المعترض في الأفق. المتهلّل: الممطر. لسان العرب (عرض) و (هلل).

مولايَ لا أحصي مآثرَك التي بجهادها يتوصَّلَ المتوسّل
أصبحتُ في ظلِّ امتداحك ساجعًا طلٌ[1] المنى من فوقه يتهدَّل
طَوَّقْتَهُ طوقَ الحمائم أَنْعُمًا فغدا بشكرِكَ في المحافل يهدل
فإليك من صَوْن[2] العقول عقيلةً أهداكها صَنَعٌ أغرُّ محجَّلُ
عذراء راق الصنعُ رونَقَ حُسْنِها فغدا بِنَظْمِ حليِّها يتكلّل
خيرتها بين المنى فوجدتها أقصى مناها أنها تُتَقَبَّلُ
لا زلتَ شمسًا في سماء خلافةٍ وهلالك الأسمى يتمُّ ويكمل

قال: ومن رقيق منازعه في بعض نُزَه مولانا رضوان اللّه عليه بالقصر السلطاني من شنيل[3] قوله: [الكامل]

نفسي الفداء لشادنٍ مهما خَطَرْ فالقلبُ من سهم الجفونِ على خَطَرْ
فَضَحَ الغزالةَ والأقاحةَ والقَنَا مهما تثنّى أو تبسّمَ أو نَظَرْ
عجبًا لليلِ ذوائبٍ مِنْ شَعْرِهِ والوَجْهُ يُسْفِرُ عن صباحٍ قد سَفَرْ
عَجَبًا لِعقْدِ الثغرِ منه منظَّمًا والعِقْدُ من دمعي عليه قد انتثرْ
ما رِمْتُ أن أجني الأقاحَ بثغره إلاَّ وقد سَلَّ السيوفَ من الْحَوَرْ
لم أَنْسَهُ ليلَ ارتقابِ هلالِهِ والقلبُ من شك الظهور على غَرَرْ[4]
بِتْنا نراقبُهُ بأوّلِ ليلةٍ فإذا به قد لاح في[5] نصف الشّهَرْ
طالعْتُهُ في روضةٍ كخِلالِهِ والطِّيبُ من هذي وتلك قد اشتهرْ
وكلاهما يبدي محاسنَ جمّةً ملء التنسّم والمسامعِ والبصر
والكأس تطلع شمسها في خدِّه فتكادُ تُغشِي بالأشعةِ والنظر
نوريةٌ كجبينهِ، وكلاهما يجلو ظلامَ الليل بالوجه الأغرّ
هي نسخةٌ للشيخِ فيها نسبةٌ ما إن يزالا يرعشان من الكبر
أفرغتَ في جسم الزجاجة روحها فرأيتُ روحَ الأنسِ منها قد بَهَرْ

---

(١) في طبعة دار صادر (ج ٧ ص ٢١٥): «ظلّ» بالظاء المعجمة.
(٢) في طبعة عبد الحميد (ج ١٠ ص ٨٠): «صوغ».
(٣) في طبعة عبد الحميد: «في شينيل».
(٤) الغَرَر، بالفتح: التعرّض للهلاك. لسان العرب (غرر).
(٥) في طبعة عبد الحميد (ج ١٠ ص ٨١): «من».

لا تسقِ غير الروض فَضْلةَ كأسها | فالغصنُ في ذيل الأزاهرِ قد عَثَرْ
ما هَبَّ خفّاقُ النسيمِ مَعَ السَّحَر | إلاَّ وقد شاق النفوسَ وقد سَحَرْ
ناجى القلوبَ الخافقاتِ كمثله[1] | ووَشَى بما تُخْفي الكمام من الزهر
وروى عن الضحاك عن زهر الرُّبا | ما أسند الزهريُّ عنه عن مَطَرْ
وتَحَمَّلَتْ عنه حديثَ صحيحِهِ | رُسُلُ النسيمِ وصدَّق الخُبْرُ الخَبَرْ
يا قصر شنيل[2] ورَبْعُكَ آهِلٌ | والروضُ منك على الجمال قد اقتصرْ
للَّه بحركَ والصَّبا قد سَرَّدَتْ | منه دروعًا تحت أعلام الشَّجَرْ
والآسُ حَفَّ عِذاره من حوله | عن كل من يهوى العذار قد اعتذرْ
قَبِّلْ بثغرِ الزهرِ كَفَّ خليفةٍ | يغنيكَ صَوْبُ الجود منه عن المطر
وافرشْ خدودَ الوردِ تحت نعالِهِ | واجعلْ بها لون المُضَاعف عن خَفَرْ
وانظمْ غناء الطيرِ فيه مدائحًا | وانثرْ من الزهرِ الدراهمَ والدُّرَرْ
المنتقى من جوهرِ الشرفِ الذي | في مدحه قد أُنزِلَتْ آيُ السُّوَرْ
والمجتبى من عنصرِ النورِ الذي | في مطلع الهَدْي المقدَّس قد ظَهَرْ
ذو سطوةٍ مهما كفى، ذو رحمة | مهما عفا، ذو عفّةٍ مهما قدرْ
كم سائلٍ للدهر أقسمَ قائلاً: | واللَّهِ ما أيامُهُ إلاَّ غُررْ
مولاي سعدكَ كالمهنَّدِ في الوَغَى | لم يُبْقِ من رسم الضلال ولم يَذَرْ
مولاي وجهُكَ والصباحُ تَشَابها | وكلاهما في الخافقين قد اشتهرْ
إنَّ الملوكَ كواكبٌ أخفيْتها | وطلعتَ وحدك في مظاهرها قمرْ[3]
في كلِّ يوم من زمانكَ موسمٌ | في طَيِّه للخلقِ أعيادٌ[4] كبرْ
فاستقبِلِ الأيامَ يندى روضُها | ويرفُّ والنصرُ العزيزُ له ثَمَرْ

---

(١) في طبعة عبد الحميد: «المثله». يقول: إنَّ القلوب تخفق كما يخفق النسيم المذكور في البيت السابق.
(٢) في طبعة عبد الحميد: «شينيل».
(٣) يشير إلى قول النابغة الذبياني في مدح النعمان بن المنذر: [الطويل]
فإنك شمسٌ، والملوكُ كواكب | إذا طَلَعَتْ لم يَبْدُ منهنَّ كوكبُ
ديوان النابغة الذبياني (ص ٤٧).
(٤) في طبعة عبد الحميد (جـ ١٠ ص ٨٢): «أغناء».

قد ذَهَبَتْ منها العشايا ضعفَ ما ... قد فَضَّضَتْ منها المحاسنُ في السَّحَرْ
يا ابنَ الذين إذا تُعَدُّ خلالهم ... نَفِدَ الحسابُ وأعجزتْ منها القدرْ
إن أوردوا هِيمَ[1] السيوفِ غدائرًا ... مصقولةً فلطالما حمدوا الصدرْ
سائلْ ببدرٍ عنهمُ بَدْرَ الهدى ... فبهمْ على حزب الضلال قد انتصرْ
واسألْ مواقفهم بكلِّ مشهَّرٍ ... واْقرَ المغازي في الصحيح وفي السيرْ
تجدِ الثناءَ ببأسهم وبجودهم ... في مصحفِ الوحي المنزَّل مستطرْ
فبمثل هديك فلتنر شمسُ الضحى ... وبمثلِ قومك فليفاخرْ من فخرْ
ماذا أقولُ وكلُّ وصفٍ معجزٌ ... والقولُ فيكَ مع الإطالةِ مختصرْ
تلك المناقبُ كالثواقبِ في العُلا ... مَنْ رامها بالحَصْرِ يدركه الحَصَرْ[2]
إن غابَ عبدُكَ عن حماكَ فإنه ... بالقلبِ في تلك المشاهد قد حضرْ
فاذكر فإن[3] الذكرَ منك سعادةٌ ... وبها على كل الأنامِ قد افتخرْ
ورضاكَ عنه غايةٌ ما بعدها ... إلاَّ رضا اللّه الذي ابتدع البَشَرْ
فاشكرْ صنيعَ اللّهِ فيكَ فإنه ... سبحانَهُ ضمنَ المزيد لمن شَكَرْ
وعليكَ من رَوْحِ الإلّه تحيَّةٌ ... تهفو إليكَ مع الأصائل والبُكَرْ

ثم قال: وفي أغراضه الوقتية ـ استرسالاً مع الطبع البديهي في الشكر عن ضروب من التحف التي يقتضيها التحفِّي السلطاني بأولياء خدمته ـ نبذ متعدّدة فيما يظهر فيها، فمنها قوله: [الكامل]

يا خَيْرَ مَنْ مَلَكَ الملوكَ بجوده ... وبفضلِهِ قد أشْبَهَ الأملاكا[4]
واللّهِ ما عرفَ الزمانُ وأهلُهُ ... أَمْنًا ويُمْنًا دائمًا لولاكا
وافيتُ أهلي بالرياضِ عشيَّةً ... في روضٍ جاهك تحت ظل ذَرَاكا
فوجدْتُهُ قد طَلَّهُ صَوْبُ الندى ... بسحائبٍ تنهلُّ من يمناكا
وسفائنٍ مشحونةٍ ألقى بها ... بحرُ السماح يجيشُ من نعماكا

---

(١) الهِيم: جمع هائم وهو العطشان. لسان العرب (هيم).
(٢) الحَصَرُ، بالفتح: العجز في النطق وعدم القدرة على الكلام. لسان العرب (حصر).
(٣) في طبعة دار صادر (جـ ٧ ص ٢١٨): «فاذكره إنَّ. .».
(٤) الأملاك: الملائكة. لسان العرب (ملك).

رُطَبٌ من الطلْعِ النضيدِ كأنها | قد نُظِّمَتْ من حُسْنها أسلاكا
من كلِّ ما كان النبيّ يحبّها | وأحَبَّهَا الأنصارُ من أولاكا
وبدائع التُّحَفِ التي قد أطلعتْ | مثلَ البدورِ أنارتِ الأحلاكا(1)
نُطَفٌ من النور المبينِ تَجَسَّمَتْ | حتى حسبنا أنهنَّ هُدَاكا
يحلو على الأفواه طيبُ مذاقها | لولا التجسُّدُ خلتهنَّ ثناكا
طافَتْ بها النَّشأ الصغارُ كأنها | سِرْبُ القطا لمَّا وردن تَداكا
نجواهُمُ مهما سمعتَ كلامهمْ | ونداؤهمْ: مولايَ، أو مولاكا
بَلَّغتَ في الأبناء عَبْدَكَ سُؤْلَهُ | لا زلتَ تبلغُ في بَنيكَ مُنَاكا
يتدارسونَ من الدعاء صحائفًا | كيما يطيلُ اللَّهُ في بقياكا
فبقيتَ شمسًا في سماء خلافةٍ | وهُمُ البدورُ أَمَدَّهُنَّ سناكا

ومنها وقد أهداه نعمة اللَّه أطباقًا من حَبِّ الملوك: [الكامل]

كَتَبَ الإلَهُ على العباد محبّةً | لك كان فرضٌ كتابها موقوتا
وأنا الذي شَرَّفْتَهُ من بينهمْ | حتى جعلتَ له المحبّةَ قوتا
ما زلتَ تُتْحِفُهُ بكلِّ ذخيرةٍ | حتى لقد أَتْحَفْتَهُ الياقوتا
وإلى الملوك قد اعْتَزَى مِنْ عزِّهِ | فغدا له ياقوتُها ممقوتا

ومنها في مثل ذلك: [مجزوء الكامل]

يا خيرَ مَنْ مَلَكَ الملوكْ | أَهْدَيْتَني حَبَّ الملوكْ
فكأنَّمَا ياقوتُها | نظمتْ لنا نَظْمَ السلوكْ
إنَّ الملوكَ إذا لَجَوْا | فغياثُهُمْ أنْ أَمْلُوكْ
وكذا العُفَاةُ إذا شَكَوْا | فلغناهُمُ أنْ يسألوكْ
فاللَّهُ يقبلُ مَنْ دعا | لِعُلاكَ من أهلِ السلوكْ
لا زلتَ تطلعُ غُرَّةً | كالشمسِ في وقتِ الدُّلوكْ(2)

---

(1) الأحلاك: جمع حَلَك وهو الظلام. لسان العرب (حلك).

(2) دُلُوك الشمس: ميلها للغروب. قال اللَّه تعالى: ﴿أَقِمِ الصلاةَ لِدُلُوكِ الشمسِ إلى غَسَقِ الليلِ﴾. سورة الإسراء ١٧، الآية ٧٨. ولسان العرب (دلك).

ومنها، وقد أهداه صيدًا مِمّا صاده أولاده: [الكامل]

يا خيرَ مَنْ ورثَ السماحَ عن الأُلى ... نصروا الأُلى وتبوّأوا الإيمانا[1]
في كلِّ يومٍ منكَ تحفةُ منعمٍ ... وَالَى الجميلَ وأجزلَ الإحسانا
قد أذكرتْ دارَ النعيمِ عبيدَهُ ... وتضمَّنَتْ من فضله رضوانا
تهدي مَوَالِيَّ الذين تفرّعوا ... عن دَوْحِ فخرِك في العلا أغصانا
لجلالكَ الأعلى قنيصًا أتعَبوا ... في صيدِهِ الأرواحَ والأبدانا
فتخصُّني منه بأوفرِ قسمَةٍ ... فَسَحَتْ لعبدك في الرضا ميدانا
للّهِ مِنْ مَوْلًى كريمٍ بالذي ... تُهدي الموالي يُتحفُ العبدانا[2]
تدعو بنيَّ إلى الغنى بربِّهِ ... يا ربّنا أغنِ الذي أغنانا
وعليكَ من قدسِ الإلّه تحيَّةٌ ... تهديكَ منه الرَّوْحَ والريحانا

ومنها، وقد أهداه أصنافًا من الفواكه: [الكامل]

يا مَنْ له الوجهُ الجميلُ إذا بَدَا ... فاقَتْ محاسنُهُ البدورَ كمالا
والمنتقى من جوهرِ الفخرِ الذي ... فاقَ الخلائفَ عزَّةً وجمالا[3]
ما أبصرتْ عينايَ مثلَ هديّةٍ ... أبْدَتْ لنا صنعَ الإله تعالى
فيها من التفاحِ كلُّ عجيبةٍ ... تذكي بريّاها صَبًا وشمالا
تهدي[4] لنا نهدَ الحبيبِ وخدَّهُ ... وتري من الوردِ الجنيِّ مثالا
وبها من الأترجِّ شمسٌ أطلعتْ ... من كلِّ شطرٍ للعيون هلالا
ويحفُّها ورقٌ يروقُ كأنه ... وَرِقُ النُّضار وقد أجادَ نِبَالاَ
لون العشيّة ذَهَّبَتْ صفحاتها ... رَقَّتْ وراقتْ بهجةً وجمالاً
وبها من النُّقْل الشهيِّ مُذَكِّرٌ ... عهدًا تولّى ليته يتوالى
للّه منها خُضْرَةٌ[5] من خَضْرَةٍ ... تغني العُفَاةَ وتُحسِبُ الآمالا

---

(١) في طبعة دار صادر (ج ٧ ص ٢٢٠): «إيمانا».
(٢) العبدان: جمع عبد. لسان العرب (عبد).
(٣) في طبعة عبد الحميد (ج ١٠ ص ٨٥): «فات الخلائف.. وجلالا».
(٤) في طبعة عبد الحميد: «يهدي».
(٥) في طبعة عبد الحميد: «حضرة» بالحاء المهملة.

أذكرتني العهدَ القديم ومعهدًا كانتْ شموسُ الراحِ فيه تَلالا
فأردتُ تجديدَ العهودِ وإنما كتبَ المشيبُ على عذاريَ لا لا
فأدرتُ من ذكراك كأسَ مُدامةٍ وشربتُ من حبي لها جِزيَالاَ(1)
فبقيتَ شمسًا في سماء خلافةٍ لا يستطيعُ لها الزمانُ زوالا

ومنها يوم عاشوراء: [الكامل]

يا أيها المولى الذي بركاتُهُ رفعتْ لواءَ للندى منشورا
لكَ راحةٌ تُزْجي(2) الغمامَ بأنملٍ فَجَّرْتَ منها بالنوالِ بحورا
واليومَ موسمُ قربةٍ وعبادةٍ وغدًا، ظفرتَ بأجره، عاشورا
راعيتَ فيه سُنّةً نبويّةً تروي الثقاتُ حديثَهُ المشهورا
لا زلتَ عامَكَ كلَّه في غبطةٍ لُقّيتَ منها نَضْرةً وسرورا

ومنها في بعض قطعة: [الكامل]

واليتَ ما أوليتَ يا بحرَ الندى ووحَقِّ جودك ما رأيتُ كهٰذِهِ
فإذا يهزّ لها اللسانُ حُسامَهُ فصفاتُ فخرك قد قَضَتْ بنفاذِهِ
عَلَّمْتَ فرسانَ الكلامِ نظامَها كتعلّمِ التلميذِ من أُستاذِهِ
والبحرُ تمتارُ(3) السحائبُ ماءه فتجودُهُ مِنْ غيثها برَذَاذِهِ

ومنها، وقد أهداه باكورًا: [الكامل]

يا وارثَ الأنصارِ وَهْي مزيَّةٌ بفخارها أثنى الكتابُ المُنْزَلُ
أَهْدَيْتَني الباكورَ وَهْي بشارةٌ ببواكرِ الفتحِ الذي يُسْتَقْبلُ
وولادةٌ لهلالٍ تِمّ طالعٍ وَجْهُ الزمان بوجهه يتهلّلُ
هو أوّلُ الأنوارِ في أُفقِ الهدى وترى الأهلّةَ بعده تسترسلُ
مولايَ صِدْقُ الفالِ قد جرَّبته من لفظِ عبدكَ، والعواقبُ أجملُ

---

(1) الجِزْيال: الخمر. لسان العرب (جريل).
(2) تزجي الغمامَ: تسوقه. لسان العرب (زجا).
(3) تمتارُ: تجمع الميرة، وهنا بمعنى: تأخذ. لسان العرب (مير).

ومنها في جفنة[1]: [الطويل]

طعامكَ من دارِ النعيمِ بَعَثْتَهُ ... فَشَرَّفْتَهُ من حيثُ أدري ولا أدري
بهَضْبة نعمى قد سمونا لأوْجِهَا ... فصدْنا بأعلاها الشهيَّ من الطير
وقوراءَ قد دُرْنَا بهالةِ بدْرِها ... كما دارتِ الزُّهرُ النجومُ على البدرِ
وقد حُمِلَتْ فوق الرؤوسِ لأنها ... هديَّةُ مولًى حلَّ في مفرق الفخرِ
فما شئتَ من طعمٍ زكيٍ مُهَنّأٍ ... وما شئتَ من عَرْفٍ ذكيٍ ومن نَشْرِ
فلو أنها قد قدمتْ لخليقةٍ ... لأعظمها قدرًا وبالغَ في الشكر
وكم لكَ من نعمى عليَّ عميمةً ... يقلُّ لأدناها الجميلُ من الذكر
فلا زلتَ يا مولى الملوكِ مبلَّغًا ... أمانيَّ ترجوها إلى سالفِ الدهر

ومنها شكرًا عن كتاب: [مجزوء الرجز]

مولاي يومُ الجُمُعَهْ ... سُعُودُهُ مُجْتَمِعَهْ
فَانْعَمْ صباحًا واغتنمْ ... أوقاتَهُ المجتمعَهْ
وابشرْ بصنعٍ عاجلٍ ... أعلامُهُ مرتفعَهْ
وانتظرِ الفتحَ الذي ... يأتيكَ بالنصر مَعَهْ
وبِيضُهُ وسُمْرُهُ ... إلى العُداةِ مُشْرَعَهْ[2]
واللطفُ مرجوٌّ فَرِدْ ... بفضل ربي مَشْرَعَهْ[3]
فاتَحْتَني شَرَّفْتَني ... برقعةٍ مرفَّعَهْ
بل روضةٍ ممطورةٍ ... أزهارُها منوَّعَهْ
حديقةٌ قد جُذْتَها ... بصوبِ[4] جودٍ مُتْرَعَهْ
ورايةٌ منشورةٌ ... وآيةٌ مستبدعَهْ
كم حِكَمٍ لطيفةٍ ... في طَيِّها مستودَعَهْ

---

(١) الجفنة: القصعة. لسان العرب (جفن).

(٢) البيض: السيوف. السُّمْرُ: الرماح. مشرعة: موجهة نحو صدور الأعداء. لسان العرب (بيض) و (سمر) و (شرع.).

(٣) رِدْ: أمر لفعل ورد. المَشْرَعُ: موضع ورود الماء. لسان العرب (شرع).

(٤) الصوب: العطاء الكثير. لسان العرب (صوب).

عقيلةٌ صورتها   من الجمال مبدَعَة
سقيتني من فضلها   بفضلِ كاسٍ مُتْرَعَة
قدْمُ وأملاكُ الورى   على علاكَ مُجْمِعَة

ومنها شكرًا على خِلْعَة: [الكامل]

يا بَدْرَ تِمّ في سماء خلافةٍ   حَفَّتْ نجومَ السَّعْدِ هالةُ[1] قَصْرِهِ
ألبستَ عبدَكَ من ثيابكَ ملبسًا   قد قَصَّرَتْ عنه مَدارِكُ شُكْرِهِ
ورضاكَ عنه خيرُ ما ألبسته   فلقد أشادَ بجاهِهِ وببرِّهِ
ألبستني، أركبتني، شرَّفتني   أهديتني ما لا أقوم بِحَضْرِهِ
نظري لوجهكَ وَهْوَ أجملُ نَيِّرٍ   يزري على شمسِ الزمانِ وبَدْرِهِ
أعلى وأعظم مِنَّةً لا سيّما   وأنا المنعَّمُ في الحضور بِبِشْرِهِ
لا زلتَ مولًى للملوكِ مؤمَّلاً   وحلاكَ للإسلام مفخرُ دهره

ومنها، وقد خلع ـ رضوانُ اللّه تعالى عليه! ـ على رسول من أرسله: [الطويل]

أبحرَ سماحٍ مَدَّ عشرةَ أبحرٍ   تُفيضُ غمام الجودِ وَهْيَ الأناملُ
بكفِّكَ غَيْثٌ للبلاد وأهلها   يروِّضُ مَحْلَ الأرض والعامُ ماحلُ
لكَ الخير[2] إن أصبحتَ بحرَ سماحةٍ   يعمُّ نداه فالمواهبُ ساحلُ
خلعتَ على هذا الرسولِ ملابسًا   بها تَتَسَنَّى في علاكَ المآملُ
وبَلَّغْتَهُ آماله كيف شاءها   فَبُلِّغْتَ يا مولاي ما أنتَ آملُ

ومنها، وقد مرض بعضُ أبنائه رحمة اللّه تعالى على الجميع، قولُه سائلاً عن حاله: [الطويل]

أُسائلُ بَدْرَ التمِّ كيف هلالُهُ   وأدعو له الرحمن جلَّ جلالُهُ
وأسألُهُ تعجيلَ راحتِهِ التي   وسِيلَتُنا فيها النبيُّ وآلُهُ
ستبلغُ فيه ما تؤمِّلُ من مُنًى   ويرضيكَ يا بَدْرَ الكمالِ كمالُهُ

---

(١) الهالة: الدارة حول القمر. محيط المحيط (هول).
(٢) كلمة «الخير» ساقطة من طبعة عبد الحميد (ج ١٠ ص ٨٨).

وفي مثله: [الطويل]

أقولُ لبدرِ التّمّ كيف هلالكا نعمتَ صباحًا بالسعودِ وآلكا
وبُلِّغْتَ في النجلِ الكريمِ سعادةً تقرُّ بها عَيْنَنا وينعمُ بالكا
وخُصِّصْتَ بالبشرى من اللّه ربِّنا كما عَمَّ أقطارَ البلادِ نَوَالُكَا

ومن التورية باسم قائد ولاّه على جماعة من الجند: [الكامل]

يا أيها المولى الذي أيامُهُ تهمي بِسُحبِ الجودِ مِنْ آلائِهِ
أَبْشِرْ لجيشكَ بالسعادةِ كلّما يغزو ونَصْرُ اللّهِ تحت لوائِهِ

وأنشده في ملبس اتّخذه: [الطويل]

أمولاي يا ابن السابقينَ إلى العلا ومَنْ نَصروا الدينَ الحنيفيَّ أولا
غَنيتَ بنورِ اللّهِ عن كلِّ زينةٍ وأُلبستَ من رضوانه أشرفَ الحُلَى
وقاركَ زاد الملكَ عزًّا وهيبةً وسَوَّغَهُ من رحمةِ اللّهِ منهلا
ويا شمسَ هَدْيٍ في سماء خلافةٍ وأبناؤه الزُّهْرُ المنيرةُ تجتلى
تباركَ مَنْ أبداكَ في كلِّ مظهرٍ جميلاً جليلاً مستعاذًا مؤمَّلا
فتخجل منك الشمسَ شمسُ هدايةٍ ويحسدُ منكَ البدرُ بدرًا مكمَّلا
إذا أنتَ ألبستَ الزمانَ وأهله[1] ملابسَ عزّ ليس يدركُها البلى
وطَوَّقْتَ أجيادَ الملوكِ أياديًا وتوَّجْتهم بالفخر تاجًا مكلَّلا
فما شئتَ فالبس في المشاهد كلها[2] تباركَ ما أبهى وأسنى وأجملا
ألاَ كلُّ مَنْ صَلَّى وضحَّى ومَنْ دعا ومَدَّ يديه ضارعًا متوسّلا
وجُودُكَ شرطٌ في حصول قَبُوله وجُودُكَ أثرى كَفَّهُ فتنفَّلا[3]

وقال برسم ما يرسم على ثوب في بعض هدايا مولانا رحمه اللّه تعالى للسلطان أبي العباس: [مجزوء الكامل]

أُهدي أبا العباسِ مَلِكَ النَّدَى والباسِ

---

(١) في طبعة دار صادر (ج ٧ ص ٢٢٥): «وآله».

(٢) في طبعة دار صادر: «فالمشاهد قائلٌ».

(٣) تَنَفَّلَ: أعطى النافلة، وهي هنا ما يزيد عن الحاجة. لسان العرب (نفل).

ثـوبَ الـسـمـاءِ لأنـه ... بَـدْرٌ بَـدَا لـلـنـاسِ
فَـلَـقُ الـصـبـاحِ بـوجـهـه ... عَـوَّذْتُـهُ بـالـنـاس[1]
يـكـسـو إمـامًـا لـم يـزلْ ... بِحُلَى المحامد كاسي
فـيـا لـه مـن مُـرْتَـدٍ ... ثـوبَ الـتُّـقـى لَـبَّـاسِ
أذيـالُـهُ مِـنْ حَـمْـدِهِ ... مـسـكـيَّـةُ الأنـفـاس
ويـطـرزه مـدحٌ زَرَى ... بـالـمـدح في الـقـرطـاس
إن كـنـتَ في لـون الـسـما ... ءِ بـنـسـبـةٍ وقـيـاس
فـلأنـتَ يـا بَـدْرَ الـعُـلا ... شـرّفـتـنـي بـلـبـاس
أنـا مـنـشـدٌ (مـا في وقـو ... فـك سـاعَـةً مـن بـاسِ)[2]
لـتـرى ريـاضًـا أطـلـعـتْ ... زَهَـرًا عـلـى أجـنـاسِ
أوراقُـهـا تـوريـقـهـا ... بـقـضـيـبـهـا الـمـيَّـاسِ
ومـن الـمـديـحِ مُـدامـتـي ... ومـن الـمـحـابـرِ كـاسـي
فـالـلّـه يـمـتـع لابـسـي ... بـالـبِـشْـرِ والإيـنـاس

وقال في مثل ذلك: [مجزوء الكامل]

إنَّ الإمـام مـحـمـدا ... أهـدى الـخـلـيـفـةَ أحـمـدا
لـلـبـاسِـهِ ثـوبًـا، وقـد ... لـبـس الـمـحـامـدَ وارتـدى
وعـمـامـةَ الـشـفـقِ الـتـي ... مـن فـوقـهـا شـمـس الـهـدى
يـا حُـسْـنَـهـا إذ أرسـلـتْ ... مـن كَـفِّـه غَـيـثَ الـنَّـدى
وكـأنَّ وَشْـيَ رقـومـهـا ... بـالـبـرقِ طُـرِّزَ عـسـجـدا
ويـطـرزه لـونُ الـسـمـا ... ءِ ووجـهـه قـمـرٌ بَـدَا
لـلّـه مـنـه نَـيِّـرٌ ... حـلَّ الـمـنـازلَ أسـعـدا
مـسـتـنـصـرٌ، أعـلـى لـه ... فـوقَ الـمـنـازلِ أسْـعُـدَا

---

(١) بالناس: أي بسورة الناس من القرآن الكريم.
(٢) ما بين قوسين صدر بيت لأبي تمام، والبيت بتمامه هو: [الكامل]
ما في وقـوفـك سـاعـةً مـن بـاسِ ... نـقـضـي ذِمـام الأَرْبُـعِ الأدراسِ
ديوان أبي تمام (ص ١٥٢).

ثم قال: وأنشده وهو على جواد أدهم: [الطويل]

تَجلّى لنا المولى الإمامُ محمدٌ ... على أدهم قد راقَ حُسْنُ أَديمِهِ[1]
فأبصرتُ صبحًا فوق ليل وقد حكى ... مقلَّد ذاكَ الطِّرْفِ بعضَ نجومِهِ

وكتب له مع هديّة زَهْر: [الطويل]

أمولايَ تقبيلي ليمناكَ شاقني ... ولا ينكرُ الظمآنُ شوقًا إلى البحرِ
ولمَّا رأيتُ الدهرَ ماطَلَنِي بها ... وشوّقني من حيث أدري ولا أدري
بعثتُ لكَ الزَّهرَ الجنيَّ لعلَّهُ ... يُقَبِّلُها عني ثغورٌ من الزهرِ

وكتب إليه أيضًا متشوّقًا: [الطويل]

كتبْتُ ودمعي بلَّل الركبَ قَطْرُهُ ... وأجرى به بين الخيام السواقيا
حنينًا لمولًى أتْلَفَ المالَ جودُهُ ... ولكنه قد خَلَّدَ الفَخْرَ باقيا
وما عشتُ بعد البينِ إلاّ لأنني ... أُرجّي بفضلِ اللّهِ منه التلاقيا

وأنشده أيضًا وهو بحال تألّم: [الطويل]

كأني بلطف اللّه قد عمَّ خَلْقَهُ ... وعافى إمام المسلمينَ وقد شفى
وقاضي القَضَاءِ الحَتْم سَجَّل ختمه ... وخَطَّ على رسم الشفاء له «اكتفى»

وله في مثل ذلك: [الطويل]

لكَ الخيرُ يا مولايَ أبشرْ بعصمةٍ[2] ... عَقَدْتَ مع الأيام في حفظها صُلْحا
وعافيةٍ في صحّةٍ مُسْتَجَدَّةٍ ... تجدِّد للدين السعادةَ والنُّجحا
ووجهُ التهاني مُشْرقٌ مُتَهلِّلٌ[3] ... وجَوُّ التهاني بعد ما غام قد أضحى
وقد ظهرتْ للبرء منكَ علامةٌ ... علامتُكَ العليا تقول لنا «صحّا»[4]

---

(١) الأديم: الجلد. لسان العرب (أدم).

(٢) العصمة: المنع، وهي في اصطلاح علماء الكلام: ملكة اجتناب المعاصي مع التمكن منها. لسان العرب (عصم).

(٣) في طبعة عبد الحميد (ج ١٠ ص ٩١): «متهلهل».

(٤) هذا البيت ساقط من طبعة عبد الحميد.

وفي مثل ذلك: [مجزوء الرمل]

يـا إمـامًـا قـد تـخـذنـا ... هُ مـن الـدهـر مَـلاذا
خَـطُّ يـمـنـاكَ يـنـادي ... صـحَّ هـذا صـحَّ هـذا

وقال مهنئًا بالشفاء: [السريع]

الحـمـدُ لـلّـهِ بَـلَّـغَـنَـا الـمُـنَـى ... لـمّـا رأيـنـاكَ، وزالَ الـعَـنَـا
وفُزْتَ بالأجر وكَبْتِ[1] العدا ... وفُـزْتَ بـالـعزِّ وطـيـب الـثـنـا
فـالـحـمـدُ لـلّـه عـلـى مـا بـه ... مَـنَّ عـلـيـنـا من ظـهـورِ الـسـنـا

وقال أيضًا في نحوه: [الطويل]

نعم قَرَّتِ العينان وانشرحَ الصدرُ ... وقد لاح من وجه الإمامِ لنا البَدْرُ
سرينا بليلِ التيه[2] يكذبُ فجره ... فلمّا تجلّى فجرُهُ صدقَ الفجرُ
أغـرّ الـمُـحَـيَّـا بـالـحـيـاء مُـقَـنَّـعٌ ... زهاه الكلامُ الحرُّ والنسبُ الحرُّ
إمـامُ الـهـدى قـد خَـصَّـهُ بـخـلافـةٍ ... إلَهٌ له في خَلْقِهِ النهيُ والأَمْرُ

وقال في مثله، وقد ركب رحمه اللّه تعالى لمعاهد حضرته: [الطويل]

هـنـيـئًـا هـنـيـئًـا لا نَـفَـادَ لـعَـدِّهِ ... وبـشـرى لـديـن الـلّـه إنـجـازُ وَعْـدِهِ
فقـد لاحَ بَـدْرُ الـتـمِّ فـي أُفُـقِ الـعُـلا ... وحـلَّ كـمـا يـرضـى مـنـازلَ سَـعْـدِهِ
وطـاف أمـيـرُ الـمـسـلـمـيـن مـحـمـدٌ ... بـحـضـرتـه الـعَـلْـيـا مـبـلَّـغَ قَـصْـدِهِ
ولاحتْ بـهـا الأنوارُ من بِشْرِ وَجْهِهِ ... وفـاح بـهـا الـنـوّارُ مِـنْ نَـشْـرِ حَـمْـدِهِ
وأبـصـرتِ الأبـصـارُ شـمـسَ هـدايـةٍ ... وأشـرقـتِ الأرجـاءُ مـن زهـر رِفْـدِهِ
ولَـوَّحَـتِ الأعـلامُ فـيـهـا بـنـصـره ... كـمـا لَـوَّحَ الـصـبـحُ الـمـنـير[3] ببنـدِهِ
سـتـهـدي لـك الأيـامُ كـلَّ مَـسَـرَّةٍ ... ويـحـيـي بـه الـرحـمـنُ آثـارَ جـدِّهِ
فَسُلَّ حسامَ السعد واضرب به العدا ... وخَلِّ حُسام الهندِ في كنز غِمْدِهِ
فسيفُكَ سيفُ اللّه مهما سَلَلْتَهُ ... يـقـيـمُ حـدودَ الـلّـه قـائـمُ حَـدِّهِ

(1) كَبَتَ عدوّه: أخزاه وأذلّه. لسان العرب (كبت).
(2) التيه: الضياع. لسان العرب (تيه).
(3) في طبعة دار صادر (ج ٧ ص ٢٢٨): «المبين».

وقال، وقد عاد رحمه اللّه تعالى من بعض متوجّهاته الجهاديّة لجبل الشوار: [الطويل]

على الطائر الميمون والطالع السَّعْدِ قدمتَ مع الصُّنع الجميل على وَعْدِ
وقد عُذْتَ من جَبْلِ الشوار لتجتلي عقائلَ للفتح المُبين بلا عَدِّ

وقال مِمّا رسم في طيقان الأبواب بالمباني السعيدة التي ابتناها رحمه اللّه تعالى: [مجزوء الرمل]

أنا تاجُ كهلالِ أنا كرسيُّ جمالِ
يَنْجَلِي الإبريقُ فيه كعَرُوسٍ ذي اختيال
جودُ مولانا ابنِ نصرٍ قد حباني بالكمال

وفي مثله: [مجزوء الرمل]

من رأى التاجَ الرفيعا قد حوى الشكرَ البديعا
تحسدُ الأفلاكُ منه قَوْسَهُ السهلَ المَنيعا
دمتُ رَيْعًا للتهاني أنظمُ الشملَ الجميعا

وفيه: [مجزوء الرمل]

للغَني باللّه قصرٌ للتَّهاني يصطفيهِ
فيه محرابُ صلاةٍ يقفُ الإبريقُ فيهِ
تاليًا سورةَ حُسْنٍ والمعالي تقتفيهِ

وفيه: [مجزوء الرمل]

أيُّ قوسٍ ذي جمالٍ سَهْمُهُ سهمُ السعادَهْ
مَلِكُ الإبريقِ فيه عَوَّدَ الإحسانَ عادَهْ
ذي صلاة من صِلاتٍ كلّها دأبًا مُعادَهْ

وقال في المعنى مِمّا كتب لعمّنا الأمير «سعد» رحمة اللّه تعالى عليه: [المجتث]

أُنْظُرْ لأُفْقِ جمالٍ به الأباريقُ تَصْعَدْ
حُسْنٌ بديعٌ حَبَاه به الأميرُ المُمَجَّدْ
فخرُ الإمارة سعدٌ به الخليفةُ يَسعدْ

وكـــيـــف لا وأبـــوه فـخـرُ الـمـلـوك مـحـمـدْ
عــلــيــه حَـلْـيُ رضــاه فــي كـلِّ يـومٍ يُـجَـدَّدْ

وقال فيه أيضًا: [المجتث]

رفـعـتُ قـوسَ سـمـائـي يُـزْهَـى بـتـاجِ الـهـلالِ
قـد قَـلَّـدَتْـهُ نـقـوشـي دُرَّ الـدراري الـعـوالـي
تـرى الأبـاريـقَ فـيـه تـهـديـك عـذبَ الـزلال
قـد زان قَـصْـريَ سـعـدٌ بـسـعـدِهِ الـمـتـوالـي
فـدام يـعـمـرُ رَبْـعِـي في كَلْءٍ[1] مولى الموالي

وفي الغرض: [الخفيف]

ما ترى في الرياض أشباهي يسحرُ العقلَ حسنيَ الزاهي
زانَ روضـي أمـيـره سـعـدٌ وهـو نـجـلُ الـغـنـيِّ بـاللّـهِ
دامَ مـنـه بـمـرتـقـى عـزّ آمـرٌ بـالـسـعـود أو نـاهـي

وقال في غرض الشكر عن مغطى[2] صنهاجي أهداه إياه: [الطويل]

لـمـن قـبّـةٌ حـمـراء مُـدَّ نُـضَـارُهـا تَـطَـابَـقَ مـنـهـا أرضُـهـا وسـمـاؤهـا
ومـا أرضـهـا إلاّ خـزائـنُ رحـمـةٍ وما قد سما من فوقِ ذاك غطاؤها
وقـد شَـبَّـهَ الـرحـمـنُ خـلـقـتـنـا بـه وحسبك فخرًا بَانَ منه اعتلاؤها
ومـعـروشـةِ الأرجـاء مـعـروشـةٍ بـهـا صنوفٌ من النعماءِ منها وطاؤها
ترى الطيرَ في أجوافها قد تصفّفتْ عـلـى نِـعَـمٍ عـنـد الإلّه كـفـاؤهـا
ونـسـبـتـهـا صـنـهـاجـةٌ غـيـرَ أنـهـا تُـقَـصِّـرُ عـمّـا قـد حـوى خـلـفـاؤهـا
حـبـتْـنـي بـهـا دون الـعـبـيـدِ خـلافـةٌ على اللّه في يوم الجزاء جزاؤها

وفي مثله: [الكامل]

ما للعوالم جمّعَتْ في قبّةٍ قد شادها كرمُ الإمام محمدِ

---

(١) الكَلْءُ: مصدر كلأه، أي حفظه ورعاه. لسان العرب (كلأ).
(٢) يفهم من المقطوعة الشعرية أنّ المغطّى نوع من الصناديق.

في صفحِ صرحٍ بالزجاج مموَّهٍ ويجود مولاي الإمام مُمَهَّدِ[1]
ما إن رأيتُ ولا سمعت كطائرٍ عن ثوب مَوْشِيِّ الرياش مجرَّدِ
إن لم تكنْ تلك الطيورُ تَغَرَّدَتْ فلشكر هذا العبدِ سجعُ مغرِّدِ
صُفَّتْ عليها للفواكه كلُّ ما قد عاهدته بدوحها المتعوِّد
لو شاهدت[2] صنهاجةٌ أوضاعَهُ دانَتْ له أملاكها بتعبُّدِ
عوّدتني الصنعَ الجميلَ تفضُّلاً لا زلتَ خيرَ معوِّدٍ ومُعَوِّد
ويسورة الأنعامِ كم من آيةٍ فيها لقارٍ بالنوال مُجَوِّدِ

وقال تذييلاً لبيتي ابن المعتز[3]: [الطويل]

سقتنيَ في ليلٍ شبيهٍ بشعرها شبيهَةَ خدّيها[4] بغيرِ رقيبِ
«فأمسيتُ في ليلين للشَّعْر والدُّجى وشمسين من خمرٍ وخدِّ حبيب»
إلى أن بَدَا الصبحُ المبينُ كأنه مُحَيَّا ابن نصرٍ لم يُشَنْ[5] بغروبِ
شمائلُهُ مهما أُديرَتْ كؤوسها قلائدُ أسماعٍ وأُنْسُ قلوبِ

وقال مذيّلاً على بيت ابن وكيع: [الخفيف]

«هي في أَوْجُهِ الندامى عقيقٌ وهي مثلُ النضار في الأقداح»
كابن نصر تراه في الحرب ليثًا وهو بدرُ الندى وغيثُ السماحِ[6]
ذكره قد ثَنَى قُدُودَ الندامى وأعادَ الحياةَ في الأرواحِ

وقال مِمّا يرسم للغني بالله: [مجزوء الرمل]

للغني بالله مُلْكٌ بُرْدُهُ بالعزِّ مُذْهَبْ
دامَ في رفعةِ شانٍ ما جَلاَ الإصباحُ غَيْهَبْ[7]

---

(١) هذا البيت ساقط من طبعة عبد الحميد (جـ ١٠ ص ٩٥).
(٢) في طبعة دار صادر (جـ ٧ ص ٢٣١): «لو أبصرت».
(٣) الشعر في أشعار أولاد الخلفاء وأخبارهم (ص ١٧٩).
(٤) شبيهة خدَّيها: أي إن الخمر ضاربة إلى الحمرة كلون خدَّيها.
(٥) لم يُشَنْ: لم يصبه شين وهو القبح. لسان العرب (شين).
(٦) السماح: الجود والعطاء. لسان العرب (سمح).
(٧) الغيهب: الظلام الشديد. لسان العرب (غيهب).

وقال أيضًا: [مجزوء الرمل]

يـا ابـنَ نـصـرٍ لـك مُـلْـكٌ ... لـيـس تـعـدوه الـفـتـوحُ
دمـتَ رُوحًـا لـلـمـعـالـي ... ما سرى في الجسم روحُ

ومن مقطوعاته: [الخفيف]

وابنُ نصر له محيًا كصبحٍ ... إن تجلّى جَلالُنا كلَّ كَرْبِ
ذو حسـامٍ كـأنّـهُ لـمـعُ بَـرْقٍ ... في بنانٍ كأنها غيثُ سُحْبِ

ومن أخرى: [الخفيف]

وكأنَّ النجومَ في غَسَقِ[1] الليـ ... ـلِ جُـمَـانٌ يـلـوحُ فـي آبـنـوسِ
وكأنَّ الصباحَ في الأفق يجلى ... بحليِّ النجومِ مثل العروس
وكـأنَّ الـريـاضَ تـهـدي ثـنـاءً ... للغنيِّ[2] باللّه فوق الطروس

وقال من قصيدة أولها: [الكامل]

أضـيـاءُ هَـدْيٍ أم ضـيـاءُ نـهـارِ ... وشَذَا المحامدِ أم شذا الأزهارِ
قَسَمًا بهديك في الضياء، وإنه ... شـمـسٌ تـمـدُّ الـشُّـهـبَ بـالأنـوارِ

ومنها:

كم من لطائفَ للهُدَى أوضحتها ... خَفِيَتْ لطائفها على الأفكارِ
كم من جرائِمَ قد غفرتَ عظيمها ... مـسـتـنـزلاً مـن رحـمـةِ الـغـفّـارِ
علمتْ ملوكُ الأرضِ أنك فَخْرُها ... فتسابقتْ لرضاكَ في مضمار

ومنها يصف الجيش:

سالَتْ به تحتَ العَجَاج سفينة ... لقحت[3] بريح العِزِّ من أنصارِ
أَرْسَتْ بجودي[4] الجود في يوم الندى ... وجَرَتْ بيومِ الحربِ في تيّارِ

(١) الغسق: ظلمة آخر الليل. لسان العرب (غسق).
(٢) في طبعة عبد الحميد (جـ ١٠ ص ٩٦): «الغني».
(٣) في طبعة عبد الحميد (١٠ ص ٩٧): «نفحت».
(٤) الجودي: جبل بالجزيرة، وأصله بتشديد الياء كما في القرآن الكريم: ﴿واسْتَوَتْ على الجُوْدِيِّ﴾. سورة هود ١١، الآية ٤٤. والروض المعطار (ص ١٨١). ومعجم ما استعجم (ص ٤٠٣).

ومنها:

ألقى بأيدي الريح فَضْلَ عنانِهِ ... فيكادُ يسبقُ لمحةَ الأبصارِ

ومنها:

فهي العِرَابُ[1] متى انبرتْ يومَ الوَغَى ... قد أعربتْ عن لطفِ صُنْعِ الباري

ومنها:

إن خاض في ليل العجاجِ رأيْتَهُ ... يجلُو دُجُنَّتَهُ بوجهِ نهارِ

ومنها:

كم فيهمُ من قارِ ضيفِ طارقٍ ... وضحتْ شواهدُ فضلِهِ للقارِ

ومنها:

يا أيها الملكُ الذي أيامُهُ ... غُرَرٌ تلوحُ بأوجُهِ الأعصارِ
قد زاركَ العيدُ السعيدُ مبشّرًا ... فاسمحْ لألفٍ منهمُ بمزار
لَمَّا ازْدَهَتْهُ عواطفٌ ألطفتها ... عَطَفَ الإلَهُ عليك عَطْفَ سِوارِ
فأتى يؤمـمُ منك هَدْيًا صالحًا ... كي يستمدَّ النورَ بعد سَرَار[2]
وأتاكَ يسحب ذيلَ سُحب أغدقتْ ... تغري جُفُونَ المزنِ باستعبار
جادت بجاري الدمعِ من[3] قَطْرِ الندى ... فرعى الربيعُ لها حقوقَ الجار
فأعاد وَجْهَ الأرضِ طَلْقًا مشرقًا ... مُتضاحِكًا بمباسم النوّارِ
لمَّا دعاكَ إلى القيامِ بسنَّةٍ ... حَكَّمْتَ داعي الجود والإيثار
فأَفَضْتَ فينا من نداك مواهبًا ... حَسُنَتْ مواقعُها على التكرار
فاهنأْ بعيدٍ عاد يشتملُ الرضا ... جَذْلانَ يرفلُ في حلى استبشار

ومنها:

لا عُذْرَ لي إن كنتُ فيه مقصِّرًا ... سَدَّتْ صفاتُك أَوْجُهَ الأعذارِ

---

(١) العِراب، بكسر العين: الخيل العربية الأصيلة الخالية من الهجنة. لسان العرب (عرب).

(٢) السَّرار، بالفتح: آخر ليلة في الشهر. لسان العرب (سرر).

(٣) كلمة «من» ساقطة من طبعة عبد الحميد.

فإذا نظمتُ من المناقب دُرَّها شَرَّفْتَني منها بنَظْمِ دراري
فلذاك أنظمها قلائدَ لؤلؤ لألاؤها قد شَفَّ بالأنوارِ

وأنشد على لَحْدِهِ المقدَّس رحمه الله تعالى[1]: [الطويل]

ضريحَ أميرِ المسلمين محمدٍ يخصُّكَ ربّي بالسلام المردَّدِ
وحَيَّتْكَ[2] من رَوْح الإلَهِ تحيَّةٌ مع الملإِ الأعْلىٰ تروحُ وتغتدي
وشقَّتْ جيوبَ الزهر فيك كمائمٌ يرفُّ بها الريحانُ عن خَضِلٍ[3] ندي
وصابَتْ من الرحْمٰى عليك غمائمٌ تروِّي ثرى هذا الضريح المنجَّدِ
وزارتك من حُور الجنان أوانسٌ نواعمُ في كلِّ النعيم المخلَّدِ
وجاءتك بالبشرى ملائكةُ الرضا كما جاء في الذكر الحكيم الممجَّد
وصافَحَ منك الروضُ أطيبَ تربةٍ وعاهد منكَ المزنُ أكرمَ معهدِ
رضا اللّٰه والصفحُ الجميلُ وعَفْوُهُ يُوَالَى على ذاك الصفيح المنضَّدِ
ويا صَدَفًا قد فاز[4] من جوهر العُلا بكلِّ نفيسٍ بالنفاسة مُفْرَدِ
أعندك أنَّ العلمَ والحلمَ والحِجا وزهرَ الحلى قد أُدرجتْ طَيَّ مَلْحَدِ
وهل أنت إلاَّ هالةُ القمرِ الذي بنورِ هداه الشهبُ تَهْدي وتهتدي
ويا عَجَبًا من ذلك الترب كيف لا يفيضُ ببحرٍ للسماحة مُزْبدِ
لقد ضاقتِ الأكوانُ وَهْيَ رحيبةٌ بما حُزْتَ من فخرٍ عظيمٍ وسُودَدِ
قدمتَ على الرحمن أكرم مقدم وزُوِّدْتَ من رحماه خير مزوَّد
أقام بكَ المولى الإمام محمد مؤمِّل فوز بالشفيع محمد
فجاء كما ترضى وترضى به العُلا وأنجز للآمال أكرمَ موعد
ومدّ ظلال العدل في كل وجهة وكفَّ أكفَّ البغي من كلِّ معتدِ
وقام بمفروض الجهاد عن الورى وعَوَّد دين الله خير معوَّد
قَضَى بعد ما قَضَّى الخلافة حقَّها وعاملَ وَجْهَ الله في كلِّ مقصد
وفَتَّحَ بالسيفِ الممالكَ عنوةً ومدّت له أملاكُهَا كَفَّ مجتدِ[5]

---

(١) القصيدة في أزهار الرياض (جـ ٢ ص ١٥٢).
(٢) في أزهار الرياض: «وحيّاك».
(٣) الخَضِلُ: المبتلّ.
(٤) في أزهار الرياض: «قد حاز . . لكل نفيسٍ . .».
(٥) المجتدي: طالب الجدوى، والجدوى: العطاء. لسان العرب (جدا).

وكسَّر تمثالَ الصليب وأُخرِسَتْ نواقيسُ كانت للضلال بمَرْصَدِ
وطَهَّرَ محرابًا وجدَّدَ منبرًا وأعلن ذكر اللّه في كلِّ مسجد
ودانَتْ له الأملاكُ[1] شرقًا ومغربًا وكلهمُ ألقى له الملكَ باليَدِ
وطَبَّقَ معمورَ البسيطةِ ذكرُهُ وسارتْ به الركبانُ في كلِّ فَدْفَدِ[2]
وسافر عن دارِ الفناء ليجتلي بما قَدَّمَ اليومَ السعادةَ في غد
وقامَ بأمرِ اللّه حقَّ قيامِهِ بعزمةٍ لا وانٍ ولا مترَدّد
لئن سار للرحمن خيرَ مودع وحَلَّ من الفردوس أشرفَ مقعد
فقد خلّف المولى الخليفةَ يوسفًا يعيدُ له غُرَّ[3] المساعي ويبتدي
سبيلَكَ في سبل المكارم يقتفي وهَدْيَكَ يا خيرَ الأئمة يقتدي
محمدُ جلَّ الخطب من بَعْد يوسف ويوسفُ جلَّ الخطبُ بعد محمدِ[4]
ولو وجد الناسُ الفداءَ مسوَّغًا فَدَاكَ ببذلِ النفسِ كلُّ موحِّدِ
ستبكيك أرضٌ كنتَ غيثَ بلادها وتبكيك حتى الشُّهبُ في كلِّ مشهد
وتبكي عليك السحبُ ملءَ جفونها بدمع يروّي غُلَّة المجدِبِ الصَّدِي[5]
وتلبسُ فيك النيراتُ ظلامَها حدادًا ويذكي النجمُ جَفْنَ مسهَّدِ
وما هي إلاَّ أعْيُنٌ قد تسهَّدتْ فكحَّلها نجمُ الظلام بإثمد
فلا زلتَ في ظلِّ النعيمِ مخلَّدًا ونجلُكَ يحيا بالبَقاء المُخَلَّدِ
وأوردك الرحمنُ حَوْضَ نبيّه وأصدر مَنْ خَلَّفت من خير موردِ
عليك سلامٌ مثلُ حمدك عاطرٌ يفضُّ ختام المِسْكِ عن تربك الندي
وصلّى على المختار من آلِ هاشمٍ صلاةً بها نرجو الشفاعةَ في غَدِ

وقال يستعطف الوالد السلطان أبا الحجاج[6]: [الوافر]

بما قد حزتَ من كرمِ الخلالِ بما أدركتَ من رُتَبِ الجلالِ

(١) الأملاك: جمع ملك. لسان العرب (ملك).
(٢) الفَدْفَدُ: الأرض الواسعة التي لا ماء فيها. لسان العرب (فدفد).
(٣) في طبعة عبد الحميد (ج ١٠ ص ٩٩): «عزّ».
(٤) في طبعة عبد الحميد: «محمد جلّ الخطب... ويوسف جلّى..».
(٥) الصَّدِيُّ: العطشان. لسان العرب (صدا).
(٦) الأبيات في أزهار الرياض (ج ٢ ص ١٥٧).

بما خُوِّلْتَ مِنْ دينٍ ودنيا بما قد حزتَ من شرفِ الجمال[1]
بما أوليتَ من صنعٍ جميلٍ يطابقُ لفظه معنى الكمال
تغمّدني بفضلك، واغتفرها ذنوبًا في الفَعال وفي المَقال

وقال أيضًا: [الطويل]

أَتُعْطِشُ أولادي وأنتَ غمامةٌ تعمُّ جميعَ الخلق بالنفع والسقيا
وتظلمُ أوقاتي ووَجْهُكَ نَيِّرٌ تفيضُ بها الأنوارُ للدين والدنيا
وجَدُّكَ قد سَمَّاك ربُّكَ باسمه وأورثك الرحمنُ رتبته العليا
وقد كان أعطاني الذي أنا سائلٌ وسوَّغني من غير شرط ولا ثُنْيَا
وشِعريَ في غُرِّ[2] المصانع خالدٌ يُحَيِّيه عني في الممات وفي المَحْيا
وما زلتُ أُهدي المدحَ مِسْكًا مُفَتَّقًا فَتَحْمِلُهُ الأرواحُ عاطرةَ الريَّا
وقد أكثر العبدُ التشكِّي وإنه وحَقِّك يا فخرَ الملوكِ قد استحيا
وما الجودُ إلاَّ مَيِّتٌ، غير أنه إذا نفختْ يمناك في روحه يحيا
فمن شاء أن يدعو لدينِ محمدٍ فيدعو لمولانا الخليفةِ بالبُقْيَا

وقال أيضًا فيه وقد نزل بالولجة من مرج الحضرة: [الخفيف]

منزلُ اليُمْنِ والرضا والسعودِ أنجزَتْ فيه صادقاتُ الوعودِ
كلَّ يومٍ نزاهةٌ إن تَقَضَّتْ أنشدتها السعودُ: باللّه عودي
جمع المستعين[3] وصفَ كمالٍ بين بأس عمَّ الملوك وجُودِ
فاهْنَ في غبطةٍ وعزَّةِ مُلكٍ أنت واللّه فخرُ هذا الوجودِ

وقال أيضًا مشيرًا لتوليته[4] العلامة: [الكامل]

لك غُرَّةٌ وَدَّ الصباحُ جمالَها ومحاسنٌ تهوى البدورُ كمالَها
وشمائلٌ تحكي الرياضُ خلالها وأناملٌ تزجو[5] الأنامُ خلالها

---

(١) في أزهار الرياض: «شرف المعالي».
(٢) في طبعة عبد الحميد (ج ١٠ ص ١٠٠): «غير».
(٣) في طبعة عبد الحميد (ج ١٠ ص ١٠١): «المسلمين».
(٤) في طبعة عبد الحميد: «التولية».
(٥) في طبعة عبد الحميد: «تزجي».

لـلـمـسـتـعـيـن خـلافـةٌ نـصـريّـةٌ عرفَتْ ملوكُ العالمين جَلالَها
وأنا الذي قد نالَ منك معاليًا تهدي النجوم الزاهرات منالها
تهديه ما قد نلته من بعضها فالفخرُ كلُّ الفخر فيمن نالها
في كلِّ يوم منكَ منّةُ منعم لو طاولَتْ[1] سَمْكَ السما ما طالها
بَلَّغتَ آمال العبيدِ فبُلِّغَتْ فيك العبيدُ من البقا آمالها

وقال أيضًا وكتبها إليه مع خمسة أقلام: [الطويل]

أيا مالكًا لم يَبْدُ للعين حُسْنُهُ سوى ملكٍ قد حلَّ من عالم القدسِ
لك الخير خُذْها كالأنامل خمسةً تُعَوِّذُ مرآكَ المكمَّلَ بالخمس
فمن أبصرت عيناك مرآه فليقلْ أعوذُ بربِّ الناسِ أو آيةِ الكرسي

ثم قال ابن الأحمر: وقال يخاطب مولانا الوالد رحمة اللّه تعالى عليه وقد مَرَّ معه بفَحْص رَيَّة، والثلج قد عَمَّ أنديته، وبسط أرديته، في وجهة توجهها مولانا الجدّ تغمّده اللّه تعالى إلى مالقة: [الكامل]

يا من به رُتَبُ الإمارة تعتلي ومعالمُ الفخرِ المشيدة تَبْتَني
ازجرْ بهذا الثلجِ فألاً[2] إنه ثلجُ اليقينِ بنصرِ مولانا الغني
بسطَ البياضَ كرامةً لقدومهِ وافْتَرَّ ثغرًا عن مسرّة معتني
فالأرضُ جوهرةٌ تلوحُ لمجتلٍ[3] والدوحُ مَزْهَرَةٌ تفوحُ لمجتني
سبحانَ من أعطى الوجودَ وجودَهُ ليدلَّ منه على الجوادِ المحسِنِ
وبدائعُ الأكوانِ في إتقانها أثرٌ يشيرُ إلى البديعِ المتقن

ثم قال: ومن أوليات نظمه يخاطب شيخه الوزير أبا عبد اللّه بن الخطيب مادحًا قوله: [الطويل]

أَمَا وانصداعِ النورِ من مَطْلَعِ الفجرِ[4]

إلى آخره، وقد تقدّمت.

(١) طاولته: غالبته في الطول والفضل. لسان العرب (طول).
(٢) في طبعة عبد الحميد (ج ١٠ ص ١٠٢): «حالاً».
(٣) في طبعة عبد الحميد: «المعتلّ».
(٤) تقدم هذا الشطر في هذا الجزء (ص ٥).

ثم قال: وقال يراجع الكاتب أبا زكريا بن أبي دلامة[1]: [الطويل]

على الطائرِ الميمونِ والطالع السَّعْدِ أتتني مَعَ الصنع الجميل على وَعْدِ
وأحييتَ يا يحيىٰ بها نَفْسَ مغرمٍ يجيلُ جيادَ الدمع في ملعبِ السهدِ
نسيتُ وما أنسى وفائي وخلّتي وأقفر رَبْعُ القلبِ إلاّ من الوَجْدِ
وما الطلُّ في ثغرٍ من الزهرِ باسمٍ بأزكى وأصفى من ثنائي ومن وِدّي
فأصدقتها من بحر فكري جواهرًا تنظّم من دُرِّ الدراريِّ في عقد
وكنتُ أطيلُ القولَ إلاّ ضرورةٌ دعتني إلى الإيجاز في سورة الحمد

وأنشد السلطان أبا العباس المرسي في غراب[2] من إنشائه: [الطويل]

أإنسانَ عينِ[3] الدهرِ جَفْنُكَ قد غدا يحفُّكَ منه طائرُ اليُمْنِ والسَّعْدِ
إذا ما هَفَا فوق الرؤوسِ شراعُهُ أراكَ جناحًا مُدَّ للجزر والمَدِّ

وأنشد فيه أيضًا: [الطويل]

لك الخيرُ شأنُ الجفنِ يحرسُ عَيْنَهُ وهذا بعينِ اللّه يحرسُ دائما
تبيتُ له خمسُ الثُّريّا معيذةً تُقَلِّدُهُ زُهْرُ النجومِ تمائما
فيا جَفْنُ، لا تنفكُّ في الحفظِ دائمًا وإن كنتَ في لُجِّ من البحرِ عائما

انتهى ما لخّصته من كلام ابن الأحمر في حقِّ ابن زَمْرَك، وذلك جملة من نظمه.

وقد رأيت أن أعزِّز ذلك ببعض موشحات ابن زَمْرَك المذكور مِمّا انتقيته من كلام ابن الأحمر.

فمنها قوله متشوّقًا إلى غرناطة ويمدح الغني باللّه[4]:

باللّه يا قامةَ القضيبِ ومخجلَ الشمسِ والقَمَرْ
مَنْ مَلَّكَ الحُسْنَ في القلوبِ وأيّدَ اللحظَ بالحوَرْ

* * *

من لم يكنْ طبعه رقيقا لم يَدْرِ ما لذَّةُ الصَّبَا

(١) الأبيات في أزهار الرياض (جـ ٢ ص ١٧٥).
(٢) في طبعة عبد الحميد (جـ ١٠ ص ١٠٣): «غرائب». والغراب: نوع من السفن.
(٣) إنسان العين: بؤبؤ العين. لسان العرب (أنس).
(٤) تتكون هذه الموشحة من ثمانية أقفال وسبعة أبيات، وهي على وزن البسيط المخلع.

فـربَّ حُـرّ غَـدَا رقـيـقـا   تـمـلـكـه نـفـحـةُ الـصَّـبَـا
نشوانَ لـم يـشربِ الرحيقا[1]   لكنْ إلى الحُسْنِ قد صَبّا
فَعَذِّبَ القلبَ بالوجيبِ[2]   ونَـعِّـمَ الـعـيـنَ بـالـنـظـرْ
ويـات والـدمـعُ فـي صـبـيـبِ   يـقـدحُ مـن قَـلْـبِـهِ الـشَّـرَرْ

* * *

عـجـبـتُ من قـلـبيَ المعنَّى   يـهـفـو إذا هَـبَّـتِ الـريـاحْ
لـو كـان لـلـصَّـبِّ مـا تـمـنَّـى   لَـطـارَ شـوقًـا بـلا جناحْ[3]
ويُـلـبـلُ الـدَّوْحِ إن تـغـنَّـى   أسْـهَـرُ لـيـلـي إلى الـصـبـاحْ
عـسـاكَ إن زُرْتَ يـا طـبـيـبـي   بـالـطَّـيْـفِ فـي رقـدة الـسَّـحَـرْ
أن تـجـعـلَ الـنـومَ من نـصـيـبي   والـعـيـنَ تـحـمـي مـن الـسَّـهَـرْ

* * *

كـم شـادنٍ قـاد لـي الـحـتـوفـا   بـمـربـعِ الـقـلـبِ قـد سَـكَـنْ
يَـسُـلُّ مـن لـحـظِـهِ سـيـوفـا   فـالـقـلـبُ بـالـروعِ ما سَكَنْ[4]
خُـلِـقْـتُ مـن عـادتـي أَلُـوفـا   أحـنُّ لـلإلـفِ والـسَّـكَـن
غـرنـاطـةٌ مـنـزلُ الـحـبـيـبِ   وقُـرْبُـهَـا السؤلُ[5] والـوَطَـرْ
تَـبْـهـرُ بـالـمـنـظـرِ الـعـجـيـبِ   فـلا عـدا رَبْـعَـهَـا الـمَـطَـرْ

* * *

عـروسـةٌ تـاجُـهـا الـسـبـيـكَـةْ   وزهـرُهـا الـحـلـيُ والـحُـلَـلْ
لـم تَـرْضَ مِـنْ عِزِّها شريكَةْ   بِـحُـسْـنِـهـا يُـضْـرَبُ الـمَـثَـلْ
أَيَّـدَهـا الـلَّـهُ مِـنْ مـلـيـكَـةْ   تـمـلـكـهـا أشـرفُ الـدولْ
بـدَوْلـة الـمـرتـجـى الـمـهـيـبِ   الـمـلـكِ الـظـاهـرِ الأغـرّ
تـخـتـالُ مـن بُـرْدهـا الـقـشـيـبِ   فـي حُـلَّـةِ الـنـورِ والـزَّهَـرْ

* * *

(١) الرحيق: الخمر. لسان العرب (رحق).   (٢) الوجيب: خفقان القلب. لسان العرب (وجب).
(٣) في طبعة دار صادر (جـ ٧ ص ٢٤١): «شوقًا إلى البطاح».
(٤) يتأثر هنا بقول المتنبي [الطويل]:

خُلِقْتُ أَلُوفًا لو رَجَعْتُ إلى الصِّبا   لَفارَقْتُ شَيْبي موجَعَ القلبِ باكيا

ديوان المتنبي (ص ٤٧٣).
(٥) في طبعة عبد الحميد (جـ ١٠ ص ١٠٤): «السؤال».

كرسيُّها جنّةُ العريفِ[1] مرآتُها صفحةُ الغديرْ
وجوهرُ الطَّلِّ عن شنوفِ تحكمها صنعة القديرْ
والأنسُ فيها على صنوفِ فمن هَديلٍ ومِنْ هَديرْ
كم خرق الزهرُ من جيوبِ وكلّل القُضْبَ بالدُّرَرْ
فالغُصنُ كالكاعبِ اللَّعوبِ والطيرُ تشدو بلا وَتَرْ

* * *

ولائمُ النصرِ في احتفالِ وفرحُ دينِ الهوى جديدْ
سلطانُها مُغمِلُ العوالي[2] محمد الظافرُ السعيدْ
ومخجلُ البدرِ في الكمالِ سلطانُها المجتبى الفريدْ
أصْفَحُ مَوْلًى عن الذنوبِ أكرمُ عافٍ إذا قدرْ
وشمسُ هَدْيٍ بلا مغيبِ وبحرُ جودٍ بلا خَسَرْ

* * *

مولايَ يا عاقدَ البنودِ تظلّل الأوْجُه الصِّباحْ
أَوْحَشْتَ يا نخبة الوجودِ غرناطةً هَالَةَ السماحْ
سافرْتَ باليُمْنِ والسعودِ وعُدْتَ بالفتح والنجاحْ
يا مُلْهِمَ القلبِ للغيوبِ ومُطْعِمَ النصرِ والظفرْ
أسمعك اللّه عن قريبِ: «على السلامَةْ مِنَ السَّفَرْ»

* * *

وقال أيضًا من الموشحات الرائقة، في مثل أغراض هذه السابقة، وأشار إلى محاسن من وصف الدشار[3]:

نسيمُ غرناطةٍ عليلُ لكنه يبرىء العليلْ
وروضُها زهرُهُ بليلُ ورشفُهُ يَنْقعُ الغليلْ

* * *

---

(١) جنة العريف: الإسبانية Generalife، وهي جنة تابعة لقصر الحمراء.
(٢) العوالي: الرماح، مفردها العالية؛ ومعمل العوالي: الطاعن بها. لسان العرب (علا) و (عمل).
(٣) في طبعة عبد الحميد (جـ ١٠ ص ١٠٥): «الرشاد» وهذه الموشحة تتكون من ثمانية أقفال وسبعة=

سقى بنجدٍ رُبَى المُصَلَّى[١] … مباكرًا روضةُ الغمامْ
فَجَفْنُهُ كلَّما اسْتَهَلاّ … تبسم الزهرُ في الكِمَامْ
والروضُ بالحسن قد تجلَّى[٢] … وجَرّد النهرُ عن حسامْ
ودوحُها ظِلُّهُ ظليلُ … يَحْسُنُ في رَبْعِهِ المقيلْ
والبرقُ والجوُّ مستطيلُ … يلعبُ بالصارم الصقيلْ

* * *

عقيلةٌ تاجُها السبيكهْ … تطلُّ بالمرقبِ المنيفْ
كأنها فوقَهُ مليكهْ … كرسيُّها جَنَّةُ العريفْ
تطبعُ من عسجدٍ سبيكهْ … شموسُها كلَّما تطيفْ
أبدعك الخالقُ الجميلُ … يا منظرًا كلُّه جميلْ
قلبي إلى حُسْنِهِ يميلُ … وقبلنا[٣] قد صَبَا جميلْ

* * *

وزاد للحسنِ فيكَ حسنا … محمدُ الحمدِ والسَّماحْ
جدّد للفخر فيك مَغْنَى[٤] … في طالع اليُمْنِ والنجاحْ
تدعى دشارًا[٥] وفيكَ معنى … يخصّكَ الفألُ بافتتاحْ
فالنصرُ والسعدُ لا يزولُ … لأنه ثابتٌ أصيلْ
سعدٌ وأنصاره قبيلُ … آباؤه عِترة الرسولْ[٦]

* * *

أبدى به حكمةَ القديرِ … وتوّج الروضَ بالقبابْ
ودَرَّعَ الزهرَ بالغديرِ … وزيَّنَ النهرَ بالحبابْ

= أبيات.

(١) في طبعة عبد الحميد: «سقى بنجدٍ رُبا المصلَّى».
(٢) في طبعة دار صادر (ج ٧ ص ١٠٦: «تحلّى» بالحاء المهملة.
(٣) في طبعة عبد الحميد (ج ١٠ ص ١٠٦): «وقلبنا».
(٤) في طبعة عبد الحميد: «مبنى».
(٥) في طبعة عبد الحميد: «رشادًا».
(٦) سعد: هو سعد بن عبادة الأنصاري، الجَدُّ الأعلى لملوك بني نصر بغرناطة. عترة الرسول: عشيرته. لسان العرب (عتر).

فـمـن هـديـلٍ ومـن هـديـرِ　　مـا أوْلَـعَ الـحـسنَ بـالـشـبـابْ
كـبـت عـلـى روضـهـا الـقـبـولُ　　وطـرفـهـا بـالـسُّـرَى كَـلـيـلْ
فـلـمْ يَـزَلْ بـيـنـهـا يَـجُـولُ　　حـتـى تَـبَـدَّتْ لـه حُـجُـولْ

* * *

لـلـزهـرِ فـي عـطـفـهـا رُقُـومُ　　تـلـوحُ لـلـعـيـن كـالـنـجـومْ
ولـلـنـدى بـيـنـهـا رسـومُ　　عِـقْـدُ الـنـدى فـوقَـهُ نَـظـيـمْ
وكـلُّ وادٍ بـهـا يـهـيـمُ　　ولـم يـزل حـولـهـا يـحـومْ
شـنـيـلُـهـا مُـدٌّ مـنـه نِـيـلُ　　والـشـيـنُ ألـفٌ لـمـسـتـنـيـلْ
وعـيـنُ وادٍ بـهـا تـسـيـلُ　　مـن فـوقِ خَـدٍّ لـه أسـيـلْ

* * *

كـم مـن ظِـلالٍ بـه تـرفُّ　　تَـضْـفـو لـه فـوقـهـا سُـتُـوزْ
ومـن زجـاجٍ بـه يـشـفُّ　　مـا بـيـن نَـورٍ وبـيـن نُـوزْ
ومـن شـمـوسٍ بـهـا تُـصَـفُّ　　تـديـرُهـا بـيـنـهـا الـبـدوزْ
مـزاجُـهـا الـعـذبُ سـلـسـبـيـلُ　　يـا هَـلْ إلـى رَشْـفـهـا سـبـيـلْ
وكـيـف والـشـيـبُ لـي عـذولُ　　وصـبـغُـهُ صـفـرةُ الأصـيـلْ

* * *

يا سَرْحَةً[1] في الحمى ظليلَهْ　　كم نلتُ في ظلِّك المُنى
رَوْضَـكِ الـلّـهُ مـن خـمـيـلَـهْ　　يُـجـنـى بـهـا أطـيـبُ الـجـنـى
وبـرقـهـا صـادقُ الـمـخـيـلَـة[2]　　مـا زال بـالـغـيـث مـحـسـنـا
أنـجـز لـي وعـدكَ الـقـبـولُ　　فـلـم أقـل مـثـلَ مَـنْ يـقـولْ
«يا سَرْحَة الحيِّ يا مَطُولُ[3]　　شـرحُ الـذي بـيـنـنـا يـطـولْ»

* * *

(١) السرحة: الشجرة العظيمة الطويلة. لسان العرب (سرح).
(٢) المخيلة: الظنّ. لسان العرب (خيل).
(٣) المَطُولُ: الكثيرة المطل والمماطلة. لسان العرب (مطل).

ومن ذلك ما كتب به إلى الغني بالله[1]:

أبـلـغ لـغـرنـاطـةِ سـلامـي[2] وصِـف لـهـا عـهـديَ الـسـلـيـمْ
فـلـو رعـى طـيـفُـهـا ذمـامـي[3] مـا بِـتُّ فـي لـيـلـة الـسـلـيـمْ

* * *

كـم بـتُّ فيها على اقـتـراحِ أُعَـلُّ مـن خَـمْـرةِ الـرضـابْ
أُديـرُ فـيـهـا كـؤوسَ راحِ قـد زانـهـا الـثـغـرُ بـالـحـبـابْ
أخـتـالُ كـالـمـهـر فـي الـجـمـاحِ نـشـوانَ فـي روضـة الـشـبـابْ
أُضـاحـكُ الـزهـرَ فـي الـكِـمَـامِ مـبـاهـيًـا روضَـةُ الـوسـيـمْ
وأفـضـحُ الـغـصـنَ فـي الـقَـوامِ إن هَـبَّ مِـنْ جَـوِّهـا الـنـسـيـمْ

* * *

بـيـنـا أنـا والـشـبـابُ ضَـافِ[4] وظِـلُّـهُ فـوقـنـا مَـديـدْ
ومـوردُ الأُنـس فـيـه صـافِ وبـردُهُ رائـقٌ جـلـيـدْ
إذ لاح فـي الـفَـوْدِ غـيـر خـافِ صـبـحٌ بـه نـبّـه الـولـيـدْ[5]
أيـقـظَ مَـنْ كـان ذا مـنـامِ لـمّـا انـجـلـى لـيـلُـهُ الـبـهـيـمْ
وأرسـلَ الـدمـعَ كـالـغـمـامِ فـي كـلِّ وادٍ بـه أهـيـمْ

* * *

يـا جـيـرةً عـهـدُهُـم كـريـمُ وفـعـلُـهُـمْ كـلُّـهُ جـمـيـلْ
لا تـعـذلـوا الـصَّـبَّ إذ يـهـيـمُ فـقـبـلـه[6] قـد صـبـا جـمـيـلْ
الـقُـرْبُ مـن رَبْـعـكـم نـعـيـمُ وبُـعْـدكـم خـطـبُـهُ جـلـيـلْ

---

(١) تتكون هذه الموشحة من ثمانية أقفال وسبعة أبيات.
(٢) في طبيعة عبد الحميد (ج ١٠ ص ١٠٧): «السلام».
(٣) في طبعة عبد الحميد: «ذمام».
(٤) ضافٍ: اسم فاعل من ضفا الثوب إذا سبغ وطال. لسان العرب (ضفا).
(٥) القَودُ: جانب الرأس. الصبح: شبّه به الشيب بجامع البياض. لسان العرب (فود) و (صبح).
(٦) في طبعة الحميد (ج ١٠ ص ١٠٨): «فقلبه». وهذا الجزء من الموشحة «فقبله قد صبا جميلْ» قد تقدم في الموشحة السابقة.

كـم مـن ريـاضٍ بـه وِسَـامِ يُزْهَى بها الرائضُ المسيمْ
غـديـرُهـا أزرقُ الـجـمـامِ ونَـبْـتُـهـا كـلُّـه جـمـيـمْ(1)

* * *

أعـنـدكـم أنـنـي بـفـاسِ أكـابـدُ الـشـوقَ والـحـنـيـنْ
أذكـرُ أهـلـي بـهـا ونـاسـي والـيومُ في الطول كالـسنينْ
الـلّـهُ حـسـبي فـكـم أُقـاسـي من وحشةِ الصب والـبنـيـنْ
مـطـارحًـا سـاجـعَ الـحـمـامِ شوقًا إلى الإلف والـحـمـيـمْ
والـدمـعُ قـد لَـجَّ فـي انـسـجـام وقـد وَهَـى عِـقْـدُهُ الـنـظـيـمْ

* * *

يـا سـاكـنـي جـنّـة الـعـريـفِ أُسْـكِـنـتُـمُ جـنـةَ الـخـلـودْ
كـم ثَـمَّ مِـنْ مـنـظـرٍ شـريـفِ قـد حُـفَّ بـالـيُـمْـنِ والـسُّـعـودْ
ورُبَّ طَـوْدٍ بـه مـنـيـفِ أدواحُـهُ الـخـضـرُ كـالـبـنـودْ
والـنـهـرُ قـد سُـلَّ كـالـحـسـامِ لـراحـةِ الـشُّـرْب مـسـتـديـمْ
والـزهـرُ قـد راق بـابـتـسـامِ مُـقَـبِّـلاً راحـةَ الـنـديـمْ

* * *

بَـلِّـغْ عـبـيـدَ الـمـقـام صـحـبي لا زلـتُـمُ الـدهـرَ فـي هَـنـا
لـقـاكُـمْ بُـغْـيَـةُ الـمـحـبُ وقُـرْبُـكُـمْ غـايـةُ الـمُـنَـى
فـعـنـدكُـمْ قـد تـركـتُ قـلـبي فـجـدَّدَ الـلّـهُ عَـهْـدَنـا
ودارَكَ الـشـمـلَ بـانـتـظـامِ مَن يُرْتجى(2) فضلُهُ العَميمْ
فـي ظـلِّ سـلـطـانـنـا الإمـام الطاهرِ الظاهرِ الحميمْ(3)

* * *

مـؤمّـنُ الـعُـدْوتـيـن مِـمّـا يـخـافُ مـن سـطـوة الـعِـدا
وفـارجُ الـكـرب إن ألـمّـا ومُـذْهِـبُ الـخَـطْـبِ والـرَّدَى

---

(1) جميم: ممتلىء بالماء ويغيره. لسان العرب (جمم).
(2) في طبعة دار صادر (ج ٧ ص ٢٤٦): «مِنْ مُرْتجى».
(3) في طبعة دار صادر: «الحليم».

قد راقَ حُسْنًا وفاقَ حلما   وما عدا غير ما بَدَا[1]
مولايَ يا نخبةَ الأنامِ   وحائزَ الفخرِ في القديمْ
كم أرقبُ[2] البدرَ في التمامِ   شوقًا إلى وجهك الكريمْ

* * *

ومنها موشحة عارض بها موشحة ابن سَهْل التي أولها «ليل الهوى يقظان» وهي[3]:

نواسمُ البُستانْ   تنثرُ سِلْكَ الزَّهَرِ
والطَّلُّ في الأغصانْ   ينظمُهُ بالجوهرِ

* * *

وراحةُ الإصباحْ   أضاء منها المشرقْ
تَنْشُرُها الأرواحْ[4]   فلا تزالُ تخفقْ
والزهرُ زهرٌ فاحْ   لها عيونٌ ترمقْ
فأيقظِ الندمانْ   يبصرن ما لم يُبْصَرِ
جواهِرُ الشُّهْبانْ[5]   قد عرضَتْ للمُشْتري

* * *

قَدَحْتَ لي زندا   يا أيُّهذا[6] البارقُ
أذْكرتني عهدا   إذ الشبابُ رائقُ
فالشوقُ لا يهدا   ولا الفؤادُ الخافقُ
وكيف بالسُّلْوانْ   والقلبُ رهنُ الفِكَرِ
وسُحُبُ الهجرانْ   تحجبُ وَجْه القَمَرِ

* * *

---

(١) أخذه من المثل: «ما عَدَا ممّا بَدَا». مجمع الأمثال (جـ ٢ ص ٢٩٦). وقد تقدم هذا المثل في هذا الجزء.
(٢) في طبعة عبد الحميد (جـ ١٠ ص ١٠٩): «راقب».
(٣) تتكون هذه الموشحة من عشرة أقفال وتسعة أبيات.
(٤) الأرواح: جمع ريح.
(٥) في طبعة عبد الحميد (جـ ١ ص ١٠٩): «الشبان».
(٦) في طبعة عبد الحميد: «أيها».

لولا شموسُ الكاسْ   نديرُها[1] بين البدوزْ
وعرّج[2] الإيناسْ   مِنّا على رَبْعِ الصدوزْ
لكن لها وسواسْ   يغري بربّات الخدوزْ
كم والهٍ هيمانْ   بصبحِ وَجْهٍ مسفرِ
ضياؤه قد بانْ   من تحت ليلٍ مقمرِ

* * *

يا مطلعَ الأنوازْ   كم فيك من مرأى جميل
ونزهةَ الأبصازْ   ما ضَرَّ لو تشفي الغليل
يا روضةَ الأزهازْ   وعَرْفُها يُبري العليل
قضيبُكَ الفتانْ   يُسْقَى بدمعٍ هَمِرِ
فلاعجُ الأشجانْ   فيضَ الدموعِ يجري[3]

* * *

هل في الهوى ناصرْ   أو هل يُجارُ الهائمُ
لو كان لي زائرْ   طيفُ الخيالِ الحائمُ
ما بتُّ بالساهرْ   ودمعُ عيني ساجمُ
والحبُّ ذو عدوانْ   يجهدُ في ظلم الْبَرِي[4]
وصارمُ الأجفانْ   مؤيَّدٌ بالحوَرِ

* * *

رحماك في صَبٍّ   أذكرته عَهْدَ الصِّبَا
بواعثُ الحُبِّ   قادت إليه الوَصَبَا[5]
لم تَهْفُ بالقلبِ   ريحُ الصَّبا إلاّ صبا[6]

---

(١) في طبعة عبد الحميد (جـ ١٠ ص ١١٠): «يديرها».
(٢) في طبعة عبد الحميد: «وأعرج».
(٣) في طبعة دار صادر (جـ ٧ ص ٢٤٨): «يمتري».
(٤) البري: البريء، حذف الهمزة للضرورة الشعرية.
(٥) الوَصَبُ، بالفتح: المرض. لسان العرب (وصب).
(٦) في طبعة عبد الحميد (جـ ١٠ ص ١١٠): «هبا».

بَـــلِـبِـيـــلَـــةَ الأردانْ قـد ضُـمِّـخَـتْ بـالـعـنـبـر[1]
يــشـيــرُ غــصــنُ الــبــانْ مـنـهـا بـفـضـلِ المـئـزر[2]

* * *

طـــيّــبــهـــا حـــمــــدُ فـخـرِ الـمـلـوك الـمـجـتـبـى
مَـــنْ يـــرجـــحُ الــطــودُ مـن حـلـمـه إذا احـتـبـى
قـــد جُـــرِّدَ الــســعــدُ مـنـه حُـسـامًـا مُـذْهَـبـا
فـــالــبـــأسُ والإحـــســانْ والـغـوثُ لـلـمـسـتـنـصـر
تَـــحْـــمِـــلُـــهُ الــركــبــانْ تـحـيّـة لـلـمـبـشـر

* * *

عــصــابــةُ الــكُــتّــابْ حقَّ لـهـا الـفـوز الـعـظـيـم
تــخــتــالُ فــي أثـــوابْ حق لـهـا الـفـخـر الـجـسـيـم[3]
فَـحَـسْـبُـهـا الإطــنــابْ في الـحـمـد والـشـكـر الـعـمـيـم
خــلــيــفــةَ الــرحــمــنْ لا زلـتَ سـامـي الـمـظـهـر
يـــا مـــوردَ الــظــمــآنْ ورأسَ مـالِ الـمـعـسـر

* * *

خُـــذهـــا عـــلــى دعـــوى تزري على الروض الوسيم
جـــاءتْ كـــمـــا تـــهـــوى أرقّ مـن لَـدْنِ الـنـسـيـم
قـــد طـــارَحَـــتْ شـــكـــوى من قال في الليلِ البهيم
«لـــيـــلُ الـــهـــوى يـــقــظــانْ والـحـبُّ تِـرْبُ[4] الـسـهـرِ»
«والـــصـــبـــرُ لـــي خَـــوّانْ والـنـومُ مـن عـيـنـي بـري»

* * *

(١) الأردان: جمع ردن وهو أصل الكم. ضُمُّخَتْ بالعنبر: لُطِّخَتْ. لسان العرب (ردن) و (ضمخ).

(٢) المئزر: الإزار وهو ما يلبس في أعلى الجسم. لسان العرب (أزر).

(٣) في طبعة دار صادر (جـ ٧ ص ٢٤٨): «أثوابْ، ألبسها الطول الجسيم».

(٤) التِّرْبُ: المساوي لك في السّن. لسان العرب (ترب).

وله في الصبوحيات[1]:

رَيحانةُ الفجرِ قد أطَلَّتْ   خضراء بالزهر تزهرُ
ورايةُ الصبحِ قد أطَلَّتْ   في مرقبِ الشمس تُنشَرُ

* * *

فالشُّهبُ من غارة الصباحِ   تُرْعَدُ[2] خوفًا وتخفقُ
وأدهمُ الليل في جِماحِ   أعنَّةَ[3] البرقِ يُطلِقُ
والأفقُ في مُلتقى الرياحِ   بأدمعِ الغيثِ يشرقُ
والسُّحبُ بالجوهر استهلَّتْ   فالبرقُ سيفٌ مجوهرُ
صفائحُ المذهباتُ حَلَّتْ   في راحةِ الجوّ تُشْهَرُ

* * *

كم للصَّبا ثَمَّ مِنْ مَقيلِ   بطيبِهِ الزهرُ يشهدُ
والنهرُ كالصارمِ الصَّقيلِ   في حليةِ النورِ يغمدُ
وربَّ قالٍ به وقيلِ   للطيرِ في حين تنشدُ
فألْسُنُ الوُرْقِ قد أمَلَّتْ[4]   مدائحًا عنه تشكرُ
ونسمةُ الصبح قد تجلَّتْ   في سندسِ الروضِ تَعْثُرُ

* * *

والكاسُ في راحة النديمِ   يجلو بها غيهب الهمومْ
أقْبَسَتِ النار في القديمِ   من قبل أن تخلقَ الكرومْ
والنهرُ في ملعب النسيمِ   للزهر في عِطْفِهِ رقومْ
فلَبَّةُ الحَلْي قد تَحَلَّتْ   والطَّلُّ في الحلي جوهر
وبهجةُ الكون قد تَجَلَّتْ   والروضُ بالحُسْنِ يبهر

* * *

---

(١) الموشحة مؤلفة من عشرة أقفال وتسعة أبيات.

(٢) تُرْعَدُ: ترتجف. لسان العرب (رعد).

(٣) الأعنّة: جمع عنان وهو ما تُقاد به الدابّة. لسان العرب (عنن).

(٤) الوُرْقُ: جمع ورقاء وهي الحمامة. أمَلَّتْ: ماضٍ من الإملال ومعناه الإملاء. لسان العرب (ورق) و (ملل).

يُذكِرني وجنةَ الحبيبِ والآسَ في صفحة العِذار
وشاربَ الشاربِ العجيبِ بين أقاحٍ وجلّنار
يديرُ مِنْ ثغرِهِ الشنيبِ[1] سُلافةً دونها العُقار
حَلَّتْ لأهل الهوى وجَلَّتْ بالذكرِ والوهمِ تُسكرُ
كم من نفوسٍ بها تَسَلَّتْ فما لها الدهرَ منكِرُ

* * *

يا غُصنَ بانٍ يميلُ زَهْوَا رَيَّانَ في روضةِ الشبابْ
لو كنتَ تصغي لرفع شكوى أطَلْتَ من قصةِ العقابْ
ومن لمثلي بِبَثّ نجوى للبدر في رفرفِ السحابْ
عزائمُ الصبرِ فيك حُلَّتْ وعقدةُ الصبر تذخر
قد أكثرتْ منك ما استقلَّتْ ولَيْتَ لو كنتَ تشعر

* * *

كم ليلةٍ بتُّها وبتَّا ضدّين في السُّهدِ والرقادْ
أُسامرُ النجمَ فيك حتى عَلَّمْتُ أجفانها السهادْ
أرقبُ بَدْرَ الدُّجى، وأنتا قد لحتَ في هالة الفؤادْ
نفسيَ وَلَّيت ما تولَّتْ دَعْها على الشوقِ تصبرُ
لو سُمْتَها[2] الهجرَ ما تولَّتْ ولم تكنْ عنك تنفرُ

* * *

علّمها الصبر في الحروبِ سلطانُنا عاقدُ البنودْ
معفّر الصِّيدِ[3] للجنوبِ أعزُّ من حُفَّ بالجنودْ
نُصِرْتَ بالرعبِ في القلوبِ والبيض لم تبرح الغُمُودْ
عنايةُ اللّه فِيهِ حلَّتْ[4] بسعده الدينُ يُنْصَرْ
والخلقُ في عصرِهِ تملَّتْ غنائمًا ليس تُحْصَرْ

* * *

(١) الشنيب: الصافي الأسنان، والبارد الريق. لسان العرب (شنب).
(٢) سُمْتَها: كلفتها وأوليتها إياه. لسان العرب (سوم).
(٣) الصِّيد: جمع أصيد وهو الذي يميل رأسه كبرًا. لسان العرب (صيد).
(٤) في طبعة عبد الحميد (جـ ١٠ ص ١١٣): «جلت».

مـولايَ يـا نـكـتـةَ الـزمـانِ دَارَ بـمـا تَـرْتَـضِـي الـفـلـكْ
جَـلَـلْـتَ بـالـيُـمْـنِ والأمـانِ كـلُّ مـلـيـكٍ ومـا مـلـكْ
لـم يَـدْرِ وصـفـي ولا عيـانـي أمَـلِـيـكٌ أنـتَ أم مَـلَـكْ
جنـودُك الغُلْبُ حيثُ حلَّتْ بـالـفـتـح والـنـصرِ تُـخْـفَـرُ(١)
وعـادةُ الـلّـهِ فـيـك دَلَّـتْ أنـك بـالـكـفـرِ تـظـفـرُ

* * *

يـا آيـةَ الـلّـهِ فـي الـكـمـالِ ومُـخْـجِـلَ الـبَـدْرِ فـي الـتـمـامْ
قـدمـتَ بـالـعـزِّ والـجـلالِ والـدهـرُ فـي ثـغـره ابـتـسـامْ
يـخـتـالُ فـي حُـلَّـةِ الـجـمـالِ والـبَـدْرُ قـد عـاد فـي اخـتـتـامْ
ريـحـانـةُ الـفـجـرِ قـد أطـلَّـتْ خـضـراءَ بـالـزهـرِ تـزهـرُ
ورايـةُ الـصـبـح قـد أظـلَّـتْ فـي مـرقـبِ الـشـرقِ تـنـشـرُ(٢)

* * *

وقال سامحه اللّه تعالى(٣):

قـد طَـلَـعَـتْ رايـةُ الـصـبـاحِ وآذنَ الـلـيـلُ بـالـرحـيـلْ
فـبـاكِـرِ الـروضَ بـاصـطـبـاحِ واشـربْ عـلـى زهـرِهِ الـبـلـيـلْ

* * *

فـالـوُرْقُ هَـبَّـتْ مـن الـسُّـبـاتِ(٤) لـمـنـبـرِ الـدَّوْحِ تَـخْـطُـبُ
تَـسْـجَـعُ مُـفْـتَـنَّـةَ الـلـغـاتِ كـلٌّ عـن الـشـوق يُـعـربُ
والـغـصـنُ بـعـد الـذهـاب يـأتـي لأكـؤس الـطَّـلِّ يـشـربُ
وأدمـعُ الـسُّـحـب فـي انـسـيـاحِ فـي كـلِّ روضٍ لـهـا سـبـيـلْ
والـجـوُّ مـسـتـبـشـرُ الـنـواحـي يـلـعـبُ بـالـصـارمِ الـصـقـيـلْ

* * *

(١) في طبعة عبد الحميد: «تحمر». والغُلْب: جمع أغلب وهو الأسد، وقد شبّه الجنود بالأسود. لسان العرب (غلب).
(٢) هذه الخرجة هي نفسها المطلع.
(٣) هذه الموشحة مكونة من ثمانية أقفال وسبعة أبيات، وليس فيها ما يستوقف نظرنا باستثناء طولها.
(٤) في طبعة عبد الحميد (جـ ١٠ ص ١١٤): «السنات».

قُمْ فاغتنمْ بهجةَ النفوسِ ... ما بين نَوْرٍ وبين نُوز
وشَفِّعِ الصُّبْحَ بالشُّمُوسِ ... تُديرُها بيننا البُدُوز
ونَبِّهِ الشَّرْبَ[1] للكؤوس ... تُمْزَجُ من ريقة الشغوز
ما أَجْمَلَ الراحَ فوقَ راحِ ... صفراءَ كالشمسِ في الأصيلْ
تُغادِرُ الصدرَ ذا انشراحِ ... للأُنسِ في طَيِّهِ مقيلْ

* * *

ولا تَذَرْ خمرةَ الجفونِ ... فسكرُها في الهوى جنونْ
ولتخشَ مِنْ أسهمِ العيونِ ... فإنها رائدُ المنونْ
عرضتَ منها إلى الفتونِ[2] ... وكلُّ خطبٍ لها يهونْ
أهيمُ بالغادة الرَّدَاحِ[3] ... والجسمُ مِنْ حُبِّها عليلْ
لو بتُّ منها على اقتراح ... نَقَعْتُ من ريقها الغليلْ

* * *

أُواعِدُ الطَّيْفَ للمَنامِ ... ومن لعينيَّ بالمنامْ
أسهرُ في ليلة التمامِ ... وأنتَ يا بدرُ في التمامْ
وألثُم الزهرَ في الكِمَام ... عليه من ثغرك ابتسامْ
سَفَرْتَ عن مبسم الأقاحِ ... وريقُكَ العذبُ سلسبيلْ
قُلْ ليَ يا ربَّة الوشاح ... هل لي إلى الوصل من سبيلْ

* * *

يا كعبةَ الحُسْنِ زدتَ حسنا ... وللهوى حولكَ المطافْ
وغصنَ بانٍ إذا تثنَّى ... لو حَانَ من زهرك القطافْ
ألاَ انعطافٌ على المعنَّى ... فالغصنُ يُزْهى بالانعطافْ
أصبحتَ تزهو على الملاحِ ... بذلك المنظرِ الجميلْ
ووجهك الشمسُ في اتّضاحِ ... لو أنها لم تكنْ تميلْ

* * *

---

(١) الشَّرْبُ: جمع شارب. لسان العرب (شرب).
(٢) الفتون: الفتنة. قال الله تعالى: ﴿وفتناكَ فتونًا﴾. سورة طه ٢٠، الآية ٤٠ ولسان العرب (فتن).
(٣) الرّداح: الثقيلة الوركين. لسان العرب (ردح).

مـا الـزهـرُ إلاَّ بـنـظـم دُرّ تـحـسـدُ فـي حـسـنـه الـعـقـوذ
لـلـمـلـك الـظـاهـر الأغـرّ أكـرمِ مَـنْ خُـفَّ بـالـسـعـوذ
محمدِ الحمدِ وابنِ نصرِ وباسطِ العدل في الوجوذ
مُسَاجلُ السُّحب في السماحِ بالغيثِ من رِفْدِهِ[1] الجليلْ
ومخجل البدرِ في اللَّيَاحِ بِـغُـرَّة مـا لـهـا مـثـيـلْ

* * *

يا مُشرِبَ الحبِّ في القلوبِ وواهبَ الصفح للصفاخ
نُصِرْتَ بالرعب في الحروبِ والرعبُ أجدى من السلاخ
قد لُحْتَ من عالم الغُيُوبِ لم تعدمِ الفوزَ والفلاخ
مـراكـشٌ نـهـبـةُ افـتـتـاحِ والصنعُ في فتحها جليلْ
بُـشْـراك بـالـفـتـح والـنـجـاحِ والشكر من ذلك القبيلْ

* * *

وقال أيضًا رحمه الله تعالى[2]:

في كؤوسِ الثغرِ من ذاك اللَّعَسْ راحـــــــةُ الأرواحْ[3]
وتغشَّى الروضَ مسكيُّ النَّفَسْ عـــــاطـــرُ الأرواحْ[4]

* * *

وكسـا الأدواحَ وشـيًا مُـذْهَـبـا يـبـهـرُ الـشَّـمْـسـا
عسجدٌ قد حَلَّ من فوق الرُّبا يـبـهـجُ الـنَّـفْـسـا
فـاتَّـخـذ لـلـهـوِ فـيـه مـركـبـا تـلـحـقِ الأنـسـا
منبرُ الغُصْن عليه قد جَلَسْ ســـاجـــعُ الأدواحْ
حُلَلَ السندسِ خُضْرًا قد لبسْ عِـطْـفُـهُ الـمـرتـاحْ

* * *

(١) الرِّفْدُ: العطاء. لسان العرب (رفد).
(٢) تتكون هذه الموشحة من ثمانية أقفال وسبعة أبيات، وهي على تفعيلات بحر الرمل.
(٣) اللَّعَسُ: سمرة الشفة. الأرواح: جمع روح. لسان العرب (لعس) و (روح).
(٤) الأرواح: جمع ريح. لسان العرب (ريح).

قُمْ ترى هذا الأصيلَ شاحبا | حُسْنُهُ قد راق
ولأذيالِ الغصونِ ساحبا | في حُلَى الأوراق
ونديم قال لي مخاطِبا | قولَ ذي إشفاق
عادةُ الشمسِ بغربٍ تُخْتَلَسْ | هاتِ شمسَ الراح
إنْ أرانا الجوُّ وجهًا قد عَبَسْ | أوقِدِ المِصْباح

* * *

ووجوهُ الشُّرْبِ تغني عن شموسْ | كلّما تُجْلى
بلحاظٍ أسكرتنا عن كؤوسْ | خَمْرُها أحلى
مظهراتٌ من خفايا في النفوسْ | سُوَرًا تُتْلَى
ما زمانُ الأنسِ إلاّ مختلَسْ | فاغتنمْ يا صاحْ
وعيونُ الشُّهبِ تذكي عن حرسْ | تخصمُ النُّصّاحْ

* * *

ما ترى ثَغْرَ الوميضِ[1] باسما | يُظْهِرُ البِشْرا
وثناءُ الروضِ هَبَّ ناسما | عاطِرًا نشرا
بَثَّ مِنْ أزهارِهِ دراهما | قائلاً: بُشْرى
ركب المولى مَعَ الظهرِ الفرسْ | وشُقي[2] وارتاخْ
بجنودِ اللّهِ دأبًا يحترسْ | إن غدا أو راخْ

* * *

وجب الشكرُ علينا والهنا | بعضُنا بَعْضا
فزمانُ السّعد وَضّاحُ السنا | وَجْهُهُ الأرضى
أثمرتْ فيه العوالي[3] بالمُنى | ثمرًا غَضًّا
يجتني الإسلامُ منها ما اغترسْ | سيفُهُ السفّاحْ
في ضمير النقع منها قد هَجَسْ | شُهُبٌ تلتاحْ

* * *

---

(١) الوميض: اللمعان. لسان العرب (ومض).
(٢) في طبعة دار صادر (ج ٧ ص ٢٥٤): «وشفي».
(٣) العوالي: الرماح، مفردها عالية. لسان العرب (علا).

يا إمامًا بالحسام المُنْتَضَى   نَصَرَ الحقًّا
ثغركَ الوضّاحُ مهما أومضا   أخجلَ البرقا
وديونُ السعد منه تقتضى   توسعُ الحقًّا
لكَ وَجْهٌ من صباحٍ مُقْتَبَسْ   بِشْرُهُ وَضَّاحْ
وجميلُ الصفح منه مُلْتَمَسْ   منعمٌ صَفَّاحْ

* * *

هاكها تمزج لطفًا بالنسيمْ   كلَّما هَبَّا
قد أتتْ بالبرّ والصنع الجسيمْ   تشكرُ الرَّبَّا
أخجلت من قال في الصبح الوسيمْ   مغرمًا صبّا
«غرّد الطيرُ فنبِّهْ من نعسْ»   يا مديرَ الراحْ
«وتعرَّى الفجرُ عن ثوب الغَلَسْ»   واتجلى الإصباحْ

* * *

وقال أيضًا سامحه اللّه تعالى[1]:

قد أنعمَ اللّهُ بالشفاءِ   واستكملتْ راحةُ الإمامْ
فلتنطقِ الطيرُ بالهناءِ   وليضحكِ الزهرُ في الكِمامْ

* * *

وُجُودُهُ بهجةُ الوجودِ   وبرؤه راحةُ النفوسْ
قد لاحَ في مرقب السعودِ   واستبشرتْ أَوْجُهُ الشموسْ
فالدوحُ يومي[2] إلى البنودِ   أكمامُهُ غطَّتِ الرؤوسْ
والزَّهرُ في روضةِ السماءِ   كالزَّهرِ قد راقَ بابتسامْ
والصبحُ مستشرفُ اللواءِ   والبدرُ مستقبلُ التمامْ

* * *

محاسنُ الكون قد تَجَلَّتْ   جمالُها العقلَ يبهر
عرائسٌ بالبها تحلَّتْ   والطل في الحَلْي جوهر

---

(١) هذه الموشحة تامة وتتكون من ستة أقفال وخمسة أبيات.
(٢) في طبعة عبد الحميد (جـ ١٠ ص ١١٨): «تومي».

وألسنُ الوُرْقِ قد أملّتْ		مدائحًا عنه تشكر
تستوقفُ الخلقَ بالغناءِ		كأنها تحسنُ الكلامْ
تطنبُ للّه في الثناءِ		تقولُ سُلّمْتَ يا سلامْ

* * *

كم من ثغورٍ لها ثغورُ		تبسمُ إذ جاءها البشيرْ
ومن خدورٍ بها بدورُ		يشيرُ منها له المشيرْ
تقول إذ حَفَّها السرورُ		تباركَ المنعمُ القديرْ
قد أنعمَ اللّهُ بالبقاءِ		ففي ظلِّ مولّى به اعتصامْ
قد صادف النُّجْحَ في الدواءِ		فالداءُ عنًّا له انفصامْ

* * *

يهنيكَ مولاي بل يُهَنَّى		ببرئك الدينُ والهُدَى
فالغربُ والشرقُ منك يُغنى		بِمُذْهِبِ الخطبِ[1] والردى
واللّه لولاكَ ما تهنّا		ما فيه من سطوة الردى
يا موردَ الأنفسِ الظماءِ		قد كان يشتفُّها الأوامْ[2]
وقرّةَ العينِ بالبهاءِ		رَدَدْتَ للأعينِ التمامْ

* * *

لو أبذلُ الروحَ في البشارَهْ		بذلْتُ بعضَ الذي ملكْ
فأنتِ يا نفسُ مستعارَهْ		مولايَ بالفضلِ جمَّلَكْ
لم أَدْرِ إذ سَطَّرَ العِبارَهْ		أمَلِيكٌ هو أم مَلَكْ
لا زلتَ مولاي في هناءِ		مُبَلِّغَ القَصْدِ والمرامْ
ودُمْتَ للملك في اعتلاءِ		تسحبُ أذيالَهُ الغمامْ[3]

* * *

(١) في طبعة عبد الحميد (جـ ١٠ ص ١١٩): «الخطف».
(٢) الأوام: العطش. محيط المحيط (أوم).
(٣) في طبعة عبد الحميد: «التمام».

وقال في مالقة[1]:

عـلـيـكِ يـا ربّـةُ الـسـلامُ　　ولا عـدا رَبْـعَـكِ الـمَـطَـرْ[2]
مذ حَلَّ في قصركِ الإمامُ　　فقربكِ السؤلُ والوَطَرْ[3]

* * *

والدوحُ في روضِكِ الأنيقْ　　للشكر قد حَطَّتِ الرؤوسْ
والغصنُ في نهره غريقْ　　وفي حُلاَه كما[4] عروسْ
والجَوُّ من وجهه الشريقْ[5]　　تحسده أوجهُ الشموسْ
وأعينُ الزهر لا تنامُ　　تستعذبُ السهدَ والسَّهَرْ
ينفثُ من تحتها الغمامُ　　يرقيكَ من أعينِ الزَّهَرْ[6]

* * *

عروسةٌ أنتِ يا عقيلهْ　　تُجْلَى على مَظْهر الكمالْ
مدَّت لك الكفَّ مستقيلهْ　　تمسحُ أعطافك الشمالْ
والبحرُ مرآتك الصقيلهْ　　تشفُّ عن ذلك الجمالْ
والحليُ زهرٌ له انتظامُ　　يكلِّلُ القُضبَ[7] بالدُّرَرْ
قد راق مِنْ ثغره ابتسامُ　　والوردُ في خَدِّها خَفَرْ

* * *

إنْ قِيلَ مَنْ بَعْلُهَا المفدَّى　　ومَنْ له وَصْلُها مُباحْ
أقول أسنى الملوكِ رفدا　　مخلدُ الفخرِ بالصفاحْ
محمدُ الحمدِ حين يهدى　　ثناؤه عاطرُ الرياحْ

---

(١) الموشحة تامة وتتكون من ستة أقفال وخمسة أبيات، وتفعيلاتها على وزن البسيط المخلع.

(٢) عدا: جاوز. الربع: المنزل. لسان العرب (عدا) و (ربع).

(٣) الوَطَرُ، بالفتح: الحاجة. لسان العرب (وطر).

(٤) «ما» في قوله: «كما» زائدة.

(٥) الشريق: المشرق. لسان العرب (شرق).

(٦) في طبعة دار صادر (ج ٧ ص ٢٥٧): «تنفث.. ترقيك..». ويرقيك: يداويك بالرقى. لسان العرب (رقا).

(٧) القُضب: جمع قضيب وهو الغصن. لسان العرب (قضب).

تخبرُ عن طِيبِهِ الكِمامُ والخُبْرُ يُغْني عن الخَبَرْ
فالسعدُ والرعبُ والحسامُ والنصرُ آياتُهُ الكُبَرْ

* * *

ذو غُرَّةٍ تسحرُ البدورا وطلعةٍ تُخْجِلُ الصَّباحْ
كم رايةٍ سامها ظهورا تُظَلِّلُ الأَوْجُهَ الصِّبَاحْ
وكم جهادٍ جلاه نورا أظفر بالفوزِ والنجاحْ
الطاهرُ الظاهرُ الهمامُ أعزُّ مَنْ صالَ وافتخرْ
لسيفه في العدا احتكامُ جرى به سابقُ القدرْ

* * *

يا مرسلَ الخير في الغوارِ[1] لو تطلبُ البحرَ تلحقُ
لك الجواري إذا تجاري سوابقَ الشُّهب تسبقُ
تَسْتَنُّ في لُجَّةِ البحارِ فالكفرُ منهنّ يَفْرَقُ[2]
فالدينُ وليقصرِ الكلامُ بسيفك أعتزّ وانتصَرْ
كذاك أسلافُكَ الكرامُ هُمْ نصروا سَيِّدَ البَشَرْ

* * *

وقال من غير هذا البحر في المحدث[3] بمالقة[4]:

قد نُظِمَ الشملُ أتمَّ انتظامْ واغْتَنَمَ الأحبابُ قُرْبَ الحبيبْ
واستضحكَ الروضُ ثغورَ الغمامْ عن مبسمِ الزهرِ البَرودِ الشَّنيبْ

* * *

وعَمَّمَ النَّوْرُ رؤوس الرُّبا وجلّل النَّوْرُ صدورَ البطاحْ
وصافح القُضْبَ نسيمُ الصَّبا فالزهرُ يرنو عن عيونٍ وَقَاحْ
وعاودَ النهرَ زمانُ الصِّبا فقلَّدَ الزهر مكانَ الوشاحْ

---

(١) في طبعة عبد الحميد (١٠ ص ١٢٠): «الغواري».
(٢) تستنُّ: تسرع. يَفْرَقُ: يخاف. لسان العرب (سنن) و (فرق).
(٣) المحدث: اسم قصر بمالقة كما يرد في الموشحة.
(٤) الموشحة تامة تتألف من ستة أقفال وخمسة أبيات.

وأطلعَ[1] القصرُ بُرُودَ التمامْ في طالع الفتح القريبِ الغريبْ
خدودُها قامتْ مقامَ الغمامْ فلا أشتكى من بعدها بالمغيبْ

* * *

أصبحتِ يا رَيّةُ مجلى النفوسْ جَمالكِ العينُ بها يُبْهِر
والبشرُ يسري في جميع الشموسْ ورايةُ الأنسِ بها تُشهر
والدوحُ للشكر تحطُ الرؤوسْ وأنجمُ الزهرِ بها تزهر
وراجعَ النهرُ غناءَ الحمامْ وقد شَدَتْ تسجعُ سجعَ الخطيبْ
بمنبر الغصنِ الرشيقِ القوامْ لمّا انثنى يهفو بقدّ رطيبْ

* * *

يا حَبّذا مبناكِ فخرَ القصورْ بُرُوجُهُ طالَتْ بروجَ السما
ما مثله في سالفاتِ العصورْ ولا الذي شادَ ابنُ ماء السما
كم فيه من مرأى بهيج ونورْ في مرتقى الجَوِّ به قد سَمَا
خليفةُ الله ونِعْمَ الإمامْ أتحفك الدهر بصنعٍ عجيبْ
يهنيك شملٌ قد غدا في التئامْ ممهّدًا في ظلّ عيشٍ خصيبْ

* * *

نواسمُ الوادي بمسكٍ تفوحْ ونفحةُ النَدِّ[2] به تعبقُ
وبهجةُ السكان فيه تلوحْ وجوُه من نورهم يشرقُ
وروضُهُ بالسّرِّ منه يبوحْ بلابلٌ عن وَجْدِهِ تنطقُ
لو أنَّ من يفهم عنها الكلامْ فهي تهنيك هناءَ الأديبْ
ونهرُهُ قد سلَّ منه الحسامْ يلحظه النرجسُ لحظَ المُرِيبْ

* * *

فأجملُ الأيامِ عصرُ الشبابْ وأجملُ الأجمل[3] يومُ اللِّقا
يا دُرَّةَ القصرِ وشمسَ القبابْ وهازمَ الأحزاب في المُلْتَقَى

(١) في طبعة عبد الحميد (ج ١ ص ١٢١): «وأطلق».
(٢) النَّدُّ: عود يُتَبَخَّر به. لسان العرب (ندد).
(٣) في طبعة عبد الحميد (ج ١ ص ١٢٢): «الإجمال».

بَشَّرَكَ الربُّ بِحُسْنِ المآبْ مَتَّعَكَ اللَّهُ بطولِ البَقا
ولا يزالُ القصرُ قصرُ السلامْ يختالُ في بُرِدِ الشبابِ القشيبْ[1]
يتلو عليكَ الدهر في كلِّ عامْ ﴿نَصْرٌ من اللّه وفَتْحٌ قريبٌ﴾[2]

* * *

وقال من المخلّع في الشفاء[3]:

في طالعِ اليُمْنِ والسعودِ قد كملَتْ راحةُ الإمامْ
فأشرقَ النورُ في الوجودِ وابتسمَ الزهرُ في الكِمَامْ

* * *

قد طلعتْ رايةُ النجاحِ وانهزمَ البؤسُ والعنا
وقال حَيَّ على الفلاحِ مؤذّنُ القوم بالمُنَى
فالدهرُ يأتي بالاقتراحِ مُسْتقبلاً أَوْجُهَ الهَنَا
تخفقُ منشورةُ البرودِ والسعدُ يقدمُ من أمامْ
والأنسُ مستجمعُ الوفودِ واللطفُ مستعذبُ الجِمَامْ[4]

* * *

وأكؤس الطَّلِّ مترعاتٍ بأنملِ السوسنِ الندي
والطيرُ مفتنَّةُ اللغاتِ تشدو بأصوات مَعْبَدِ
والغصنُ يذهبُ ثم يأتي بالسندس الغَضِّ مرتدي
والدوحُ يومي إلى السجودِ شكرًا لذي الأنْعُمِ الجسامْ
والريحُ خَفَّاقةُ البُنُودِ تباكرُ الروضَ بالغمامْ

* * *

مظاهرٌ للجمالِ تُجْلَى قد هَزَّ أعطافها السرورْ
وباهرُ الحُسْنِ قد تَجَلَّى ما بَيْنَ نَوْرٍ وبين نُورْ

(١) القشيب: الجديد.
(٢) سورة الصف ٦١، الآية ١٣.
(٣) الموشحة تامة تتكون من ستة أقفال وخمسة أبيات، وتفعيلاتها على وزن البسيط المخلع.
(٤) الجمام، بكسر الجيم: معظم الماء. لسان العرب (جمم).

قد هنأت بالشفاء مولى بعصره تفخرُ العصورْ
ما بين بأسٍ وبين جودِ قد مَهَّدَ الأمنَ للأنامْ
فالدينُ ذو أعينٍ رُقودِ[1] وكان لا يطعمُ المَنامْ

* * *

والكاسُ في راحةِ السقاةِ تَروحُ طورًا وتغتدي
يهديكها رائقُ السِّماتِ ما بينَ برقٍ وفَرْقَدِ
والشمسُ تذهبُ للبياتِ قد لبستْ ثوبَ عسجدِ
والزهرُ في اليانع المَجُودِ يقابلُ الشُّرْبَ بابتسامْ
والروضُ من حلية الغمودِ قد جَرَّدَ النهرَ عن حسامْ

* * *

مولاي، يا أشرفَ الملوكِ وعصمةَ الخلقِ أجمعينْ
أهديكَ من جوهرِ السلوكِ يقذفُهُ بحرُكَ المَعِينْ
جَعَلْتُ تنظيمَهُ سلوكي وأنت لي المنجدُ المُعِينْ
تحيَّةَ الواحدِ المجيدِ ورحمةَ اللّه والسلامْ
عليك من راحمٍ وَدُودِ يا مخجلَ البَدْرِ في التمامْ

* * *

وقال من الرمل المجزوء[2]:

وَجْهُ هذا اليومِ باسمْ وشذا الأزهارِ ناسمْ

* * *

هاتِها صاحِ كؤوسا جالباتٍ للسرورِ
وارتقبْ منها شموسا طالعاتٍ في حُبُورِ
ما ترى الروضَ عروسا في حُلَى نَوْرٍ ونُورِ
وأتتْ رسلُ النواسمْ تجتلي هذي النواسمْ

* * *

---

(١) الدينُ ذو أعين رُقود: كناية عن الاطمئنان.

(٢) في طبعة عبد الحميد (ج ١ ص ١٢٣): «المجزوّ». وهذه الموشحة تامة تتكون من ستة أقفال وخمسة أبيات، وهي، كما يصرّح المقري، على وزن الرمل المجزوء.

قـد أهَـلَّـتْ بـالـبـشـائـرْ أضـحـكـتْ ثَـغْـرَ الأزاهِـرْ
سَنَحَتْ[1] فـي يُـمْـنِ طائرْ ونُـظِـمْـنَ كـالـجـواهِـرْ
فـانـشـروهـا فـي الـعـشـائرْ إنَّ هـذا الـصـنـعَ بـاهـرْ
وأشـيـعـوا فـي الـعـوالـمْ الـغـنـي بـالـلّـه سـالـمْ

* * *

أي نـــور يـــتـــوقّـــدْ أي بـــدرٍ يـــتـــلالا[2]
أيّ فـــخـــرٍ يـــتـــخـــلّـــدْ أيّ غـيـــثٍ يـــتـــوالـى
إنـمـا الـمـولـى مـحـمـدْ رحـمـةُ الـلّـه تـعـالـى
كـفُّـهُ بَـحْـرُ الـمـقـاسـمْ وبـهـا حَـجُّ الـمـبـاسـمْ

* * *

خـيـرُ أمـلاكِ الـزمـانِ مـن بـنـي سَـعْـدٍ ونـصـرِ
مـا تـرى أنَّ الـشَّـوَانِـي[3] فـي صـعـيـد الـبـرِّ تـجـري
قـد أطـارتـهـا الـتـهـانـي دون بـــحـــريّ وبَـــحْـــرِ
مـذ رأتْ بـحـرَ الـنـعـائـمْ كـلُّـهـا جـارٍ وعـائـمْ

* * *

فـهـنـيـئًـا بـالـشـفـاءِ يـا أمـيـرَ الـمـسـلـمـيـنـا[4]
ولـنـا حَـقُّ الـهـنـاءِ وجـمـيـعُ الـعـالـمـيـنـا[5]
إن جَـهَـرْنـا بـالـدعـاءِ يـنـطـقُ الـدهـرُ أمـيـنـا[6]
دُمْـتَ مـحـروسَ الـمـكـارمْ بـظُـبَـا الـبـيـضِ الـصـوارمْ

* * *

(١) سنحتْ: عرضت، وأصله في الطائر؛ يقال: سنح الطائر إذا مرَّ من اليسار إلى اليمين. لسان العرب (سنح).
(٢) يتلالا: أصله يتلألأ، وقد قلب الهمزتين ألفين من أجل القافية.
(٣) الشواني: جمع شانية وهي نوع من السفن الكبيرة. محيط المحيط (شني).
(٤) في طبعة عبد الحميد جـ ١ ص ١٢٤): «بالشفا... المسلمين».
(٥) في طبعة عبد الحميد: «الهنا... العالمين».
(٦) في الطبعة نفسها: «بالدعا... أمين».

وقال يهني السلطان موسى ابن السلطان أبي عنان، وقد وجّه إليه الغني بالله أمّه وعياله عند تملّكه المغرب من قِبَلِهِ[1]:

قد نُظِمَ الشملُ أتمّ انتظامْ ... ولاحتِ الأقمارُ بَعْدَ المغيبْ
وأضحكَ الروضُ ثغورَ الغمامْ ... عن مبسم الزهر البرودِ الشنيبْ

* * *

وعاودَ[2] الغصنُ زمانَ الصِّبا ... وأشربَ الأنسَ جميعُ النفوسْ
وعَمَّمَ النَّوْرُ رؤوسَ الرُّبَا ... وجَلَّلَ النُّور وجوهَ الشموسْ
وأطرب الغصنَ نسيمُ الصَّبا ... فالدوحُ للشكر تحطُّ الرؤوسْ
واستقبلَ البدرُ ليالي التمامْ ... وصافحَ الصبحَ بكفٍّ خضيبْ
وراجعَ الأطيارَ سجعُ الحمامْ ... بكلِّ ذي لحنٍ بديعٍ غريبْ

* * *

نواسمُ الوادي بِمِسْكٍ تفوحْ ... ونفحةُ النَّدِّ[3] به تعبقُ
وبهجةُ السكان فيه تلوحْ ... وجوُّه من نوره يشرقُ
وعَرْفُهُ بالطيب منه يفوحْ ... كأنه من عنبر يفتقُ
والنهرُ قد سُلَّ كمثلِ الحُسامْ ... حبابُهُ تطفو وطورًا تَغيبْ
وثغره[4] قد راقَ منه ابتسامْ ... يُهَنِّىءِ الْحِبَّ بقرب الحبيبْ

* * *

كواكبٌ أبراجهنّ الخدورْ ... يلوحُ منها كلُّ بَدْرٍ لِياحْ[5]
جواهرٌ أصدافهنّ القصورْ ... نظمُها السعدُ كنظم الوشاحْ
يا حَبّذا والله ركبُ السرورْ ... يبشّر المولى بنيلِ اقتراحْ
ابتهجَ الكونُ بموسى الإمامْ ... واختالَ في بُرْد الشباب القشيبْ
وعادهُ يخدمُ مثلَ الغُلامْ ... شبابُهُ قد عادَ بَعْدَ المشيبْ

* * *

---

(١) الموشحة تامة تتكون من ستة أقفال وخمسة أبيات، وهي على البحر السريع.
(٢) في طبعة عبد الحميد: «عاود» وهكذا ينكسر الوزن.
(٣) النَّدُّ: عود يُتبخّر به. لسان العرب (ندد).
(٤) في طبعة دار صادر (جـ ٧ ص ٢٦٣): «وثغرها».
(٥) اللِّياح: الأبيض من كل شيء. لسان العرب (لوح).

أكرم به واللّه وفد الكريمْ	مولى سنا «الحرة» في مقدمهْ
مرضاتُها تُحْظي بدار النعيمْ	وتوجبُ التوفيقَ من منعمهْ
بشْره النصر[1] وفتح جسيمْ	وخيره أجمعُ في مَقْدَمِهْ
لقاؤها المبرورُ مِسْكُ الختامْ	بشْرِكَ اللَّهُ بصنعٍ عجيبْ
وقصرِكَ الميمونُ قصرُ السلامْ	خطَّ بحفظ من سميع مجيبْ

* * *

مولاي، يهنيك وحقّ الهنا	قد نظم الشمل كنظم السعودْ
قد فزت بالفخر ونيل المنى	وأنجز السعدُ جميعَ الوعود
وقرت العين وزال العنا	وكلما مر صنيع يعود
ولا يزل ملكك جِلْفَ الدوام	يَحُوز في التخليد أو في نصيب
يتلو عليك الدهر بعد السلام	﴿نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾[2]

* * *

وقال رحمه اللّه تعالى في وصف غرناطة والطرد وغيرهما[3]:

للّه ما أجْمَلَ رَوْضَ الشبابْ	من قبل أن يُفْتَحَ زَهْرُ المشيبْ
في عهده أَدَرْتُ كأسَ الرُّضَابْ	حبابُها الدّرُّ بثغرِ الحبيبْ

* * *

من كلِّ من يخجلُ بَدْرَ التمامْ	إذا تَبَدَّى وَجْهُهُ للعيون
ويفضحُ الغصنَ بلين القوامْ	وأين منه لينُ قَدِّ الغصون
ولحظه يمضي مَضَاء الحسامْ	ويُذهلُ العقلَ بسحر الجفون
أبصرتُ منه إذ يحطُّ النِّقَابْ[4]	شمسًا ولكنْ ما لها من مغيبْ
إذا تجلَّتْ بعد طولِ ارتقابْ	صَرَفْتُ عنها اللحظَ خوفَ الرقيبْ

* * *

(١) في طبعة دار صادر (جـ ٧ ص ٢٦٤): «يبشر بالنصر...».
(٢) سورة الصف ٦١، الآية ١٣.
(٣) الموشحة على وزن الرمل.
(٤) النِّقاب: ما تغطي به المرأة وجهها. لسان العرب (نقب).

مَنْ عاذري منه فؤادًا صَبَا لِلامِعِ البرقِ وخَفقِ الرياحْ
يطيرُ إن هَبَّ نسيمُ الصبا تعيره الريحُ خفوقَ الرياحْ
ما أَوْلَعَ الصَّبَّ بِعَهْدِ الصِّبا وهل على مَنْ قد صَبَا من جُنَاحْ
فقلبُه من شوقه في التهابْ قد أحرق الأكبادَ منه الوجيبْ
والجفنُ منه سُحبه في انسكابْ قد رَوَّضَ الخَدَّ بدَمْعٍ سكيبْ

* * *

غرناطةٌ رَبْعُ الهوى والمُنى وقُرْبُها السؤلُ ونيلُ الوَطَرْ
وطيبُها بالوصل لو أمكنا لم أقطعِ الليلَ بطول السهرْ
عمَّا قريبٍ حقٌّ فيها الهنا بيُمْنِ ذي العودةِ بعد السَّفَرْ
ويحمدُ الناسُ نجاحَ الإيابْ بكلِّ صنع مستجدّ غريبْ
ويكتبُ الفالُ على كلِّ بابْ ﴿نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وفَتْحٌ قريبٌ﴾[1]

* * *

ما لذَّةُ الأملاك إلاَّ القنصْ لأنه الفالُ بصيدِ العدا
كم شاردٍ جرّع فيه الغُصَصْ وأورد المحروب وِرْدَ الردى
وكم بَدَا الفحص لنا من حصَصْ قد جُمعَ البأسُ بها والندى

ومنها بعد أبيات من الوزن والروي:

مولايَ مولايَ، وأنت الذي جَدَّدْتَ للأملاك[2] عهد الجلالْ
والشمسُ والبدرُ من العُوَّدِ لمّا رأتْ منكَ بديعَ الجمالْ
والروضُ في نعمته يغتدي بطيب ما قد حُزْته من خلالْ
بشراكَ بشراكَ بِحُسْنِ المآبْ تستضحكُ الروضَ بثغرٍ شَنِيبْ
ودُمْتَ محروسَ العُلا والجنابْ بعصمةِ اللّهِ السميعِ المجيبْ

* * *

---

(١) سورة الصف ٦١، الآية ١٣.
(٢) الأملاك: الملوك. لسان العرب (ملك).

انتهى ما انتقيته من كلام ابن زَمْرَك من كتاب ابن الأحمر، رحمه اللّٰه تعالى. وقد عرفت منه ما تسنّى للغني باللّٰه ابن لأحمر من الفتوحات والسعود ونفاذ الأمر على ملوك المغرب، فهو الأحقُّ بقول لسان الدين بن الخطيب رحمه اللّٰه تعالى: [الكامل]

ملكٌ إذا عانيتُ منه جَبِينَهُ فارقْتُهُ والنورُ فوق جبيني
وإذا لثمتُ يمينه وخرجتُ من أبوابه لَثَمَ الملوكُ يميني

وكان الغني باللّٰه المذكور معتقدًا في الصالحين، حتى إنه كتب وهو بفاس مخلوعٌ إلى ضريح ولي اللّٰه سيدي أبي العباس السبتي بمراكش، ومن إنشاء وزيره لسان الدين على لسانه: [الخفيف]

يا وليَّ الإلٰهِ أنتَ مطاعٌ

الأبيات والنثر بعدها، وقد ذكرتهما في الباب الخامس فراجعه، وكان ذلك بفضل اللّٰه تعالى عنوان رجوعه إلى ملكه، ونَظْم تلك الأماكن في سِلْكه، حتى حصلَ له من السعد ما لم يحصل لغيره حسبما يُعلم ذلك من كلام لسان الدين وابن زَمْرَك وغيرهما.

والسبتي المذكور: هو سيدي أبو العباس أحمد بن جعفر السبتي الخزرجي[1]، الولي الصالح العالم العارف باللّٰه، القطب، ذو الكرامات الشهيرة، والمناقب الكثيرة، والأحوال الباهرة، والفضائل الظاهرة، والأخلاق الطاهرة، نزيل مراكش، وبها توفي سنة إحدى وستمائة، وولادته بسبتة عام أربعة وعشرين وخمسمائة، ودفن خارج مراكش، وقبره مشهور مقصود بإجابة الدعاء، وقد زرته مرارًا كثيرة، فرأيت عليه من ازدحام الناس ما لا يوصف، وهو ترياق[2] مجرّب.

قال لسان الدين بن الخطيب رحمه اللّٰه تعالى: كان سيدي أبو العباس السبتي - رضي اللّٰه عنه! - مقصودًا في حياته، مستغاثًا به في الأزمات، وحاله من أعظم الآيات الخارقة للعادة، ومَبْنَى أمره على انفعال العالم عن الجود[3]، وكونه حكمة في تأثير الوجود، له في

---

(١) ترجمة أبي العباس أحمد بن جعفر السبتي في أنس الفقير وعز الحقير (ص ٧ - ٩) ونيل الابتهاج (ص ٣١ - ٣٧) والمقري ينقل عن نيل الابتهاج.
(٢) الترياق: دواء السموم. لسان العرب (تريق).
(٣) في طبعة عبد الحميد (جـ ١٠ ص ١٢٨): «الوجود».

ذلك أخبار ذائعة وأمثال باهرة؛ ولمّا توفي ظهر هذا الأثر على تربته، وتشبّث بلحده، وانسحب على مكانه عادة حياته، ووقع الإجماع على تسليم هذه الدعوى، وتَخَطّى الناسُ مباشرةَ قبره بالصدقة إلى بعثها له من أماكنهم على بعد المدى، وانقطاع الأماكن القُصَى[1]، تحملهم أجنحة نيّاتهم فتهوي إليه بمقاصدهم من كلّ فج عميق، فيجدون الثمرة والمعرفة والكرامة المشهورة.

وقال ابن الزيات: كان أبو العباس قد أُعطي بَسْطَةً في اللسان، وقدرةً على الكلام، لا يناظره أحد إلاّ أفحمه، ولا يسأله إلاّ أجابه، كأنَّ القرآن والحجج على طَرَف لسانه حاضرة، يأخذ بمجامع القلوب، ويسحر العامّة والخاصّة ببيانه، يأتيه المنكرون للإنكار فما ينصرفون إلاّ مُسَلِّمين منقادين، وشأنه كلّه عجيب، وهو من عجائب الزمان.

وحدّثني مشايخنا أنهم سمعوه يقول: أنا القطب.

وحدّثني أبو الحسن الصنهاجي من خواصّ خدّامه قال: خرجت معه مرةً لصهريج غابة الرمّان يوم عرفة، فجلسْنا هناك وصلَّيْنا، فقال لي: إنما سمي هذا اليوم يوم عرفة؛ لانتشار الرحمة فيه لمن تعرّف إليه بالطاعات، وقد فاتنا عرفة، فتعال نمثّل بهذا المكان ونعمل كما يعملون، لعلَّ اللّه تعالى يتغمّدنا برحمته معهم، فعمل[2] مكانًا دائرًا[3] بعين الكعبة، ومحلّ عنصر الماء الحِجْر، وموضعًا آخر مقام إبراهيم، فطاف بالعين أسبوعًا وأنا أطوف بطوافه، وكبر على العنصر في كلّ طواف، وصلّى قِبَلَ[4] المقام ركعتين تامّتين، وأطال في سجود الثانية، ثم استند إلى الشجرة ثم قال لي: يا عليّ، اذكرْ كلَّ حاجة لك من حوائج دنياك تُقْضَ[5]، فإنَّ اللّه تعالى وعد في هذا اليوم من تعرّف له أن يقضي حوائجه، فقلت له: ما أُريد إلاّ التوفيق، فقال لي: ما خرجت معك من باب المدينة حتى وقفت، فسألته عن حاله من بدايته إلى نهايته، وبم تنفعل له الأشياء ويستجاب له الدعاء؟ ولِمَ صار يأمر بالصدقة والإيثار مَنْ شكا إليه حالاً أو تعذّر عليه مطلب في هذه الدار؟ فقال

---

(1) في نيل الابتهاج «المكان الأقصى».

(2) في نيل الابتهاج: «فجعل».

(3) في طبعة عبد الحميد (جـ ١٠ ص ١٢٩): «دائرًا».

(4) في طبعة دار صادر (جـ ٧ ص ٢٦٨): «وصلّى في مثل المقام».

(5) في طبعة عبد الحميد: «تقضى».

لي: ما آمر الناس إلاّ بما ينتفعون به، وإني لمّا قرأت القرآن وقعدت بين يدي الشيخ أبي عبد اللّه الفخار تلميذ القاضي عياض ونظرت في كتب الأحكام وبلغت من السنّ عشرين سنة وجدْتُ قوله تعالى ﴿إنَّ اللّهَ يَأمُرُ بالعَدْلِ والإحسانِ﴾[1] فتدبرته وقلت: أنا مطلوب به[2]، فلم أزل أبحث[3] عنها إلى أن وقفت على أنها نزلت حين آخى النبي ﷺ بين المهاجرين والأنصار، وأنهم سألوا النبي ﷺ أن يعلمهم حكم المواخاة، فأمرهم بالمُشَاطرة[4]، ففهمت أنَّ العدل المأمور به في الآية هو المشاطرة، ثم نظرت إلى حديث «تفترق أمتي على ثلاثين فرقة[5]. الحديث» وأنه ﷺ قاله صبيحة اليوم الذي آخى فيه بين المهاجرين والأنصار، وذكر له الأنصار أنهم شاطروا المهاجرين، فقال[6] لهم ذلك بأثره، فعلمت أنَّ الذي هو عليه وأصحابه المشاطرة والإيثار، فعقدت مع اللّه تعالى نيّة أن لا يأتيني شيء إلاّ شاطرت فيه الفقراء، فعملت[7] عليه عشرين سنة، فأثمر لي الحكم بالخاطر[8]، فلا أحكم على خاطري بشيء إلاّ صدق، فلمّا أكملت أربعين سنة راجعت تدبّر الآية فوجدت الشطر هو العدل، والإحسان ما زاد عليه، فعقدت مع اللّه تعالى نيّةً[9] لا يأتيني قليل ولا كثير إلاّ أمسكت ثلثه وصرفتُ الثلثين للّه تعالى، فعملت عليه عشرين سنة، فأثمر لي الحكم في الخلق بالولاية والعزل فأُولي من شئت، وأعزل من شئت، ثم نظرت بعد ذلك في أوّل ما فرضه اللّه تعالى على عباده في مقام الإحسان، فوجدت شكر النعمة، بدليل إخراج الفطرة عن المولود قبل أن يفهم، ووجدت أصناف مَن تُصرف إليهم الصدقات[10] الواجبة سبعة[11] وسبعة أصناف أخر صَرْفها[12] فيها للإحسان والزيادة، وذلك

---

(١) سورة النحل ١٦، الآية ٩٠.
(٢) كلمة «به» ساقطة من طبعة عبد الحميد.
(٣) في نيل الابتهاج: «فبحثت عن الآية».
(٤) المشاطرة: المناصفة، وهي أن تعطي شطر مال، أي نصف المال. لسان العرب (شطر).
(٥) كذا في أصول النفح، والمحفوظ: «على ثلاث وسبعين فرقة».
(٦) في نيل الابتهاج: «ذكر ذلك الحديث أثره».
(٧) في نيل الابتهاج: «فبقيت».
(٨) في نيل الابتهاج: «حكم الخاطر».
(٩) في طبعة عبد الحميد (جـ ١٠ ص ١٣٠): «أن لا يأتيني».
(١٠) في نيل الابتهاج: «من يعطى الصدقة».
(١١) في طبعة عبد الحميد: «الصدقات لكن الواجبة وسبعة أصناف».
(١٢) في طبعة عبد الحميد: «أصرفها».

أنّ لنفسك عليك حقًّا، وللزوجة حقًّا، وللرحم حقًّا، ولليتيم حقًّا، وللضيف حقًّا، وذكر صنفين آخرين، فانتقلت لهذه الدرجة، وعقدت مع اللّٰه تعالى عقدًا أنّ كلّ ما يأتيني أمسك سبعيه حقّ النفس وحقّ الزوجة وأصرف الخمسة أسباع لمستحقّيها، فأقمت عليه أربعة عشر عامًا، فأثمر لي الحكم في السماء، فمتى قلت «يا ربّ» قال لي: لَبَّيْكَ، ثم قال لي: إنها نهايتي بتمام عمري، وهو أن تنقضي لي ستة أعوام تكملة العشرين عامًا.

قال الصنهاجي: فأرّختُ ذلك اليوم، فلمّا مات وحضرت جنازته تذكّرت التاريخ المكتوب، وحقّقت العدد، فنقصت من ستة أعوام ثلاثة أيام خاصة، فيحتمل أن تكون من الشهور الناقصة، واللّٰه سبحانه وتعالى أعلم بالصواب.

وقال أبو بكر بن مساعد: جاء بعض السلاطين إلى أبي العباس وهو راكب، وقال له: إلى متى تحيّرنا ولا تصرّح لنا عن الطريق؟ فقال له: هو الإحسان، فقال له: بَيِّنْ لي، فقال له: كلّ ما أردتَ أن يفعله اللّٰه تعالى معك فافعله مع عبيده.

وقال له أبو الحسن الخباز[1]: أما ترى ما فيه الناس من القحط والغلاء؟ فقال: إنما حُبِسَ المطرُ لبخلهم، فلو تصدّقوا لمُطِرُوا، فقل لأصحابك الفلاحين: تصدّقوا بمثل ما أنفقتم تُمْطَرُوا، فقال له: لا يصدقني أحد، ولكن مُرْنِي في خاصة نفسي، فقال له: تصدّق بمثل ما أنفقت، فقال له: إنّ اللّٰه تعالى لا يُعَامَلُ بالدَّيْنِ، ولكن أستسلف، فاحتال وتصدّق بها كما أمره، قال: فخرجت إلى البحيرة التي عمرتها والشمس شديدة الحرّ، فأيست[2] من المطر، ورأيت جميعَ ما غرست مشرفًا على الهلاك، فأقمت ساعة فإذا سحابة أمطرت البحيرة حتى رويت، وظننت أنّ الدنيا كلّها مطرت، فخرجت فإذا المطر لم يتجاوزْها؛ انتهى.

والحكايات عنه في مثل ذلك كثيرة.

وقال ابن الخطيب القسمطيني[3] في رحلته[4]: حضرت عند الحاج الصالح الورع الزاهد أبي العباس أحمد بن عاشر بمدينة سَلاَ، وقد سأله[5] بعضُ الفقراء عن كرامة

(١) في نيل الابتهاج: «الجنان».
(٢) أيس: يئس. لسان العرب (أيس).
(٣) في طبعة عبد الحميد (جـ ١٠ ص ١٣١): «القسطميني».
(٤) أي في كتابه «أنس الفقير».
(٥) في طبعة دار صادر (جـ ٧ ص ٢٧٠): «أحد الفقراء».

الأولياء، فقال له: لا تنقطع بالموت الكرامة، انظر إلى السبتي، يشير إلى الشيخ الفقيه العالم المحقق أبي العباس السبتي المدفون بمراكش، وما ظهر عند قبره من البركات في قضاء الحاجات بعقب الصدقات، سمعت يهوديًا بمراكش يلجأ لذكره[1] وينادي باسمه في أمر أصابه مع[2] المسلمين، فسألته عن سببه، فأخبر أنه وجد بركته في غير موطن، فسألته عمّا[3] بدا له في وقت، فقال لي: وحقّ ما أُنزل على موسى بن عمران ما أذكر لك إلاَّ ما اتفق لي، سَرَيْتُ ليلة مع قافلة في مفازة، فَعَرِجَتْ دابتي، فما شككت في قتلي وسلب مالي، فجلست وبكيت، وبيني وبين الناس بعد، وقلت: يا سيدي أبا العباس، خاطرك، قال لي: واللّه ما أتممت الكلام إلاَّ وأهل القافلة أصابهم سبب وقفوا به، وضربت دابتي، وخفَّ عرجها، ثم زال، واتّصلت بالناس، فقلت له: لِمَ لم تُسْلِم[4]؟ فقال: حتى يريد اللّه تعالى، وعجبت من كون ذلك من يهودي[5]، وهذه شهادة من عدوّ في الدين.

ولقد وقفت على قبره مرات، وسألت اللّه تعالى في أشياء يَسَّر لي فيها سؤلي: منها أن أكون مِمَّن يشتغل بالعلم ويُوصَفُ به، وأن ييسّر عليَّ فَهْم كتب عينتها، فيسّر اللّه تعالى عليَّ ذلك في أقرب مدة.

وكان السبتي آية في أحواله، ما أدرك صحبتَهُ إلاَّ الخواصّ من الناس، وكان أصل مذهبه الحضّ على الصدقة، وكان أمره عجبًا في إجابة الدعاء بنزول المطر، واختصاصه بمكان دون آخر، وقال لأصحابه: أنا القطب، وكان تفقّه على أبي عبد اللّه الفخار، ووقفت على قبره، وله بركات وأنوار.

وكان السبتي آية في المناظرة، وأوذِيَ باللسان كثيرًا جدًا فصفح وتجاوز.

ورأى عبد الرحمن بن يوسف الحسني النبيَّ ﷺ في النوم، فقال له: يا رسول اللّه، ما تقول في السبتي؟ قال: وكنت سيىء الاعتقاد فيه، فقال لي بعد أن تبسّم: هو من السُّبّاق، قال: فقلت بَيِّنْ لي يا رسول اللّه، فقال: هو مِمَّنْ يمرُّ على الصراط كالبرق،

---

(١) في طبعة دار صادر (جـ ٧ ص ٢٧٠): «بمراكش يلهج ببركته..».
(٢) في طبعة دار صادر: «لا مع المسلمين».
(٣) في أنس الفقير: «عمّا رأى له في أقرب وقت».
(٤) في طبعة عبد الحميد (جـ ١٠ ص ١٣٢): «ولمَ لا تُسْلِمُ؟».
(٥) في طبعة عبد الحميد: «اليهودي».

قال: فخرجت بعد الصبح، فلقيني أبو العباس، فقال لي: ما رأيت وما سمعت؟ والله لا تركتك حتى تعرفني، فعرفته، فصاح: كلمة الصفا من المصطفى ﷺ؛ انتهى ببعض اختصار.

وقال ابن الزيات: وحدّثني أبو العباس الصنهاجي وغيره أنّ رجلاً يُعرف بابن الشكاز[1]، وكان غنيًا فدار عليه الزمان وافتقر، حدّث أنه وصل لأبي العباس السبتي، وعليه ثوب خَلَقٌ[2] تظهر منه عورته، فشكا إليه حالته، فأخذ بيده إلى أن خرج معه من باب تاغزوت، فجاء إلى مِطْهَرة هنالك، قال: فدخل أبو العباس المطهرة وتجرّد من أثوابه وناداني، وقال لي: خُذْ هذه الثياب، فأخذتها، وكان بعد العصر، فأردتُ أن أرى ما يكون من أمره، فصعدت إلى حائط هناك إلى قرب المغرب، فإذا بفتًى خرج من الباب على دابة معه رزمة ثياب، فلمّا رأيته نزلت إليه، فقال لي: أين الفقيه أبو العباس؟ فقلت: ها هو في الساقية عُرْيَان، فقال لي: أمسك الدابّة، فسمعتُ الفقيهَ يقول له: أين تلك الثياب؟ فأخذها منه، وخرج، فلمّا رآني قال لي: وما لك هنا؟ قلت: يا سيدي، خفتُ عليك، فلم أقدرْ على الانصراف وأتركك، فقال لي: أفترى الذي فعلت ما فعلت له يتركني؟ ثم سألت الفتى عن سبب وصوله إليه، فذكر له أنّ إحدى الكرائم أمرته أن يحمل إليه تلك الثياب، وقالت له: لا تدفعها إلاّ للفقيه، ولا يلبسها إلاّ هو، وهذه قِصَّة صحيحة مشهورة.

وقال ابن الخطيب: وروضته بباب تاغزوت أحد أبواب مراكش غير حافلة البناء، ربما يتبرّع متبرّع باحتفالها فلا تساعده الأقدار، وزرتها، فرأيت[3] في داخلها أشياخًا من أهل التعفّف والتصوّف يسارقون خفية الناظر إلى مساقط رحمات الله تعالى عليها لكثرة زائريها، فيقتحم[4] ذو الحاجة بابها خالعًا نعله مستحضرا نيّته ويقعد بإزاء القبر ويخاطبه بحاجته، ويعيّن بين يدي النجوى[5] صدقة على قبره، ويدسّها في أواني في القبر معدّة لذلك، ومن

---

(١) في طبعة عبد الحميد (جـ ١٠ ص ١٣٣): «بابن السكاك». وفي نيل الابتهاج: «بابن السكان».
(٢) الخَلَقُ: القديم البالي. لسان العرب (خلق).
(٣) في طبعة دار صادر (جـ ٧ ص ٢٧٢): «وزرتها، وربما شاهدت في داخلها...»
(٤) في نيل الابتهاج: «فيلجّ».
(٥) النجوى: السّرّ والمسارّون، وقد أخذه من قول الله تعالى: ﴿إذا ناجَيْتُمُ الرسولَ فَقَدِّمُوا بين يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ﴾. سورة المجادلة ٥٨، الآية ١٢. ولسان العرب (نجا).

عجز عن النقدين تصدّق بالطعام ونحوه، فإذا خفّ الزائرون آخر النهار عمد القائم إلى التربة إلى ما أودع هناك في تلك الأواني وفرّقه على المحاويج الحافّين بالروضة، ويحصون كلّ عشية، ويعمّهم الرزق المودع فيها، وإن قصر عنهم كملوه في غده.

قال ابن الخطيب لسان الدين: وترافع خدام الروضة لقاضي البلد، وتخاصموا في أمر ذلك الرزق المودع هناك، فسألهم القاضي عن خَرْجه اليوم، فقالوا: يحصل في هذه الأيام في اليوم الواحد ثمانمائة مثقال ذهبًا عينًا، وربما وصل في بعض الأيام لألف دينار فما فوقها، فروضة هذا الوليّ ديوان اللّه تعالى في المغرب لا يُحْصَى دَخْله ولا تُحْصَرُ جبايتُه، فالتبرُ[1] يسيل، واللجينُ يفيض، وذو الحاجة كالطير تغدو خِمَاصًا وترجع بطانًا، يختصُّ برحمته من يشاء واللّه ذو الفضل العظيم.

وقال: وأنا مِمَّنْ جرّب المنقول عن القبر، فاطَّرَدَ القياس، وتزيّفت الشبهة، وتعرفت من بدء زيارته ما تحقّقت من بركته، وشهد على برهان دعوته؛ انتهى.

وقال الشيخ أبو الحجاج يوسف التادلي في كتابه «التشوّف، إلى رجال التصوّف»: كان أبو العباس جميل الصورة، أبيض اللون، حسن الثياب، فصيح اللسان، مقتدرًا على الكلام، حليمًا، صبورًا، يُحْسِن إلى من يؤذيه، ويحلم على من يسفه عليه، رحيمًا عطوفًا محسنًا إلى اليتامى والأرامل، يجلس حيث أمكنه الجلوس من الطرق والسوق، ويحضّ على الصدقة، ويذكر في فضلها آيات وأحاديث، ويأخذها ويفرقها على المساكين، ويرد أصول الشرع إلى الصدقة، ويفسّرها بها، ويقول: معنى قول المصلّي «اللّه أكبر» أي: من أن نضنّ عليه بشيء، فمن رأى شيئًا من متاع الدنيا في نفسه أكبر فلم يُحْرِمْ[2] ولا كَبَّر، ومعنى رفع اليدين للتكبير: تخلّيت من كلّ شيء لا قليلاً ولا كثيرًا، وهكذا يتكلّم بنحو هذا في جميع العبادات، ويقول: سِرُّ الصوم أن تجوع، فإذا جعت تذكّرت الجائع، وما يقاسيه من نار الجوع، فتتصدّق عليه، فمن صام ولم يعطف على الجائع فكأنه لم يَصُمْ، إلى غير ذلك من كلامه في مثل هذا.

---

(١) في طبعة عبد الحميد (جـ ١٠ ص ١٣٤): «فالقبر يفيض، واللجين يسيل، وذوو الحاجات..».

(٢) في طبعة عبد الحميد (جـ ١٠ ص ١٣٥): «لم يُحْرِمْ». ولم يحرم: لم يدخل في الصلاة. لسان العرب (حرم).

وكان إذا أتاه امرؤ يأمره بالصدقة، ويقول له: تصدّق، ويتّفق لك ما تريده، وأخباره في ذلك كثيرة عجيبة.

قال التادلي: وحدّثني ولدُه الفقيهُ أبو عبد اللّه عن أبيه أنه قال: كان ابتداء أمري وأنا صغير أني سمعت كلامَ الناس في التوكل، ففكّرت في حقيقته[1] فرأيت أنه لا يَصِحُّ إلاّ بترك شيء، ولم يكن عندي منه بدّ[2]، فتركت الأسباب، واطّرحت العلائق، ولم تتعلّق نفسي بمخلوق، فخرجت سائحًا متوكّلاً، وسرْتُ نهاري كلّه، فأجْهَدَنِي الجوع والتعب، وقد نشأت في رفاهية من[3] العيش، وما مشيت قطّ على قدمي، فبلغت قرية فيها مسجد، فتوضّأتُ ودخلتُ المسجد فصلّيت المغرب ثم العشاء، وخرج الناس، فقمتُ لأصلّي، فلم أقدرْ من شدّة الجوع والتألّم بالمشي، فصلّيت ركعتين، وجلست أقرأ القرآن إلى أن مضى جزء من الليل، فإذا قارع يقرع الباب بعُنُف، فاستجاب له صاحب الدار، فقال له: هل رأيت بقرتي؟ فقال: لا، فقال: إنها ضلّت، وقد أكثر عِجْلُها من الحنين فطلبْتُها[4] فلم نجدها في القرية، فقال أحدهم: لعلّها دخلتْ[5] في المسجد وقت العتمة، ففتحوا باب المسجد ودخلوا فوجدوني، فقال صاحب البقرة: ما أظنّكَ أكَلْتَ الليلة شيئًا، فذهب وجاءني بكسرة خبز وقدح لبن، ثم ذهب ليأتيني بالماء فوجد بقرته في داخل الدار، فخرج لجيرانه وقال لهم: ما زالت[6] البقرة من الدار، وما كان خروجي إلاّ لهذا الفتى الجائع في المسجد، ثم رغّبني أن أمشي معه لمنزله، فأبيت.

وكان في أول أمره يسكن في الفندق ويعلِّم الحساب والنحو ويأخذ الأجرة على ذلك، وينفقها على طلبة العلم الغرباء، ويمشي في الأسواق، ويذكّر الناس، ويضربهم على ترك الصلاة، ويأتي بالطعام على رأسه.

وبات ليلة عند الطلبة فارتفعت أصواتهم بالمذاكرة، فإذا بالحرس قد قرعوا باب الفندق، فقام إليهم القَيِّمُ بخدمته، فقالوا له: ما تعلمون أن مَنْ رفع صوته بالليل يُقْتل؟ ثم

---

(١) في طبعة عبد الحميد: «في دقيقه».

(٢) كلمة «بدّ» ساقطة من طبعة عبد الحميد.

(٣) كلمة «من» ساقطة من طبعة عبد الحميد.

(٤) في طبعة عبد الحميد: «فطلبها فلم يجدها».

(٥) كلمة «دخلت» ساقطة من طبعة عبد الحميد.

(٦) زالت: ذهبت وتحوّلت. محيط المحيط (زول).

قعد اثنان من الحرس على باب الفندق ليحملونا إذا طلع الفجر للقصر[1]، فجاء القَيِّم فأخبرنا فأدركنا خوف عظيم، وأيقنًا بالهلاك، فأخذ أبو العباس في الضحك ولا يبالي، ثم خلا بنفسه عند السَّحَر ساعة ثم قال لنا: لا خوف عليكم، قد استوهبتكم من اللَّه تعالى، وهذان الحرسيان الواقفان غدًا يُقْتلان إن شاء اللَّه تعالى، فقيل له: الجزاء عندك على الأفعال من الخير والشرّ، وهما لم يفعلا ما يوجب قتلهما، بل جزاؤهما يُرَوَّعان كما رَوّعانا، فقال: العلماء ورثة الأنبياء، وترويعكم عظيم لا يقابله منكم إلاَّ القتل، فما زلنا نعارضه في ذلك حتى قال: عقوبتهما أن يضرب كلّ واحد منهما مائة سوط، ثم اجتاز عبد اللَّه الخرّاز صاحب الوقت بالجامع الأعظم، فوجد تابوته[2] مفتوحًا، ورأى الحرسيين على قرب، فلم يشكَّ أنهما حلاَه[3]، فَحُمِلا إلى رحبة القصر قبل طلوع الفجر، فقال لنا أبو العباس: احضروا على ضربهما كما أرادا قتلكم، فتبعناهما، وحضرنا حتى ضُرب كلّ واحد مائة سوط.

وكراماته ومناقبه كثيرة لا تحصى.

وكان يقول: أصل الخير في الدنيا والآخرة الإحسان، وأصل الشرّ فيهما البخل، قال اللَّه تعالى ﴿فأمَّا مَنْ أَعْطَى . الآية ﴾[4] وقال عن إبليس ﴿ثمّ لآتِيَنَّهُم مِنْ بَيْنِ أيديهِمْ ومِنْ خَلْفِهِمْ . الآية ﴾[5] وقال ﴿ومِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ . الآية ﴾[6] وقال ﴿ويُؤْثِرُونَ على أَنْفُسِهِمْ ولو كانَ بهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾[7] وقال ﴿إنَّا بَلَوْنَاهُمْ كما بَلَوْنا أصحابَ الجنَّةِ ﴾[8] وقال ﴿وسارِعُوا إلى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾[9] وقال ﴿ليس البِرَّ أنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ ﴾[10] وقال ﴿إنَّا

---

(١) في طبعة دار صادر (جـ ٧ ص ٢٧٥): «للوالي».
(٢) في طبعة دار صادر: «حانوته».
(٣) في طبعة عبد الحميد (جـ ١٠ ص ١٣٦): «أنهما حلاه». وحلاّه: فتحاه. لسان العرب (حلل).
(٤) سورة الليل ٩٢، الآية ٥.
(٥) سورة الأعراف ٧، الآية ١٧.
(٦) سورة التوبة ٩، الآية ٧٥.
(٧) سورة الحشر ٥٩، الآية ٩.
(٨) سورة القلم ٦٨، الآية ١٧.
(٩) سورة آل عمران ٣، الآية ١٣٣.
(١٠) سورة البقرة ٢، الآية ١٧٧.

عَرَضْنا الأمانةَ على السمواتِ والأرضِ ـ الآية ﴾[1] فهذه الأمانة هي الرزق، فأعطت السموات ما فيها من الماء وهو المطر، والأرض ما فيها من الماء النازل من الجبال، والجبال ما فيها كذلك، وأنبتت الأرض وأبت إمساكها، فخزن الإنسان جميعها عنده ومنع المساكين إنه كان ظلومًا جهولاً، وفي الحديث «هم الأقلّون وربِّ الكعبة، إلاَّ من قال هكذا وهكذا ـ الحديث» ولمّا أراد اللّه تعالى إهلاك فرعون وقومَه دعا عليهم موسى بالبخل، فقال ﴿ربَّنا إنك آتيتَ فِرْعَونَ ـ إلى قوله: دَعْوَتُكُما ﴾[2] وكان رضي اللّه عنه في آخر عمره كثيرًا ما يقرأ هذه الآية ﴿أَفَرَأَيْتَ الذي تَوَلَّى، إلى قوله: سوف يَرَى ﴾[3] وكان يقول: من قال إنَّ اللّه تعالى لا يُجازي على الصدقات فقد وافَقَ اليهود على الفِرْية على اللّه[4] تعالى لأنهم قالوا ﴿يَدُ اللّهِ مَغْلُولَةٌ، غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ ﴾[5] أي لا يجازي على الصدقات، قال اللّه تعالى ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِم ـ إلى آخره ﴾ أي يجازي على العطاء كيف شاء. وكان يقول في قوله تعالى ﴿والذين يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ والفِضَّةَ ـ الآية ﴾[6] . إنما كُوِيَتْ هذه المواضع لأنَّ الغني يُعرض عن المسكين بوجهه، ثم بجنبه، ثم بظهره، فعوقبت هذه المواضع بالكيّ بالنار لإعراضه عن الفقير، ومنازعه رحمه اللّه تعالى في أمثال هذا كثيرة؛ انتهى ملخصًا.

وحدّث أبو إسحاق إبراهيم بن أبي يعمور أنه دخل صحبة الشيخ سيدي أبي العباس السبتي إلى الأمير السيد أبي سعيد عثمان يعوده، فقال له: ادْعُ اللّه تعالى لي أيها الشيخ، فقال له: ارجعْ إلى اللّه تعالى حقّ الرجوع بحيث تتحقّق أنه المُمْرِض والمعافي، وأخرج عن بعض ما عندك من فضول الدنيا لأبناء الجنس، لتكون مِمَّن وُقي شحّ نفسه[7]، فحينئذ يحصل لك ما ترجوه من الدعاء، ثم التفت إلى الحاضرين وقال: في المرض فوائد لا ينبغي أن تُجهل: الأولى معرفة قدر العافية، الثانية تمحيص بعض الذنوب، الثالثة توقّع الثواب، الرابعة تنقية الجسم من فضول الأخلاط، الخامسة كثرة ذكر اللّه تعالى والتضرّع

---

(١) سورة الأحزاب ٣٣، الآية ٧٢.

(٢) سورة يونس ١٠، الآيتان ٨٨، ٨٩.

(٣) سورة النجم ٥٣، الآية ٣٣.

(٤) كلمة «اللّه» ساقطة من طبعة عبد الحميد (جـ ١٠ ص ١٣٧).

(٥) سورة المائدة ٥، الآية ٦٤.

(٦) سورة التوبة ٩، الآية ٣٤.

(٧) هذا من قول اللّه تعالى: ﴿ومَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فأولئك هُمُ المُفْلِحُونَ ﴾. سورة الحشر ٥٩، الآية ٩.

إليه، السادسة حدوث الرقة والشفقة، السابعة - وهي العظمى - الصدقة والخروج عن رذيلة البخل؛ انتهى.

وحدث الكاتب أبو القاسم بن رضوان عن أبي بكر بن منظور عن بعض أعيان مراكش أنه توفي وأوصى ابنًا له كان من أهل البطالة أن يعمد إلى ألف دينار من متخلّفه، فيدفعها للشيخ سيدي أبي العباس السبتي، ففعل، وقال للشيخ: إنّ أبي توفي وأوصاني أن أدفع إليك هذه الألف دينار تضعها حيثُ شئت، فقال له الشيخ: قد قبلتها وصرفتها إليك، فقال له: يا سيدي، وما تأمرني أن أفعل بها؟ قال: خُذْها، قال: فانصرفت من عنده وسؤت ظنًّا بقوله، ثم قلت: وأنا أُنفق مثل ذلك على عادتي في الوجه الذي يلذّ لي، فلأفعلن بها ما أفعل بغيرها، فأخذتها في محفظة، وخرجت ألتمس الزنى، فإذا امرأة على دابة وغلام يقودها، فأشرت إلى الغلام، فقال لي: نعم، واتبعني إلى بستان لي، فنزلت المرأة، فأدخلتها إلى قبة كانت في البستان، وأخذ الغلام الدابة وصار ناحية، وقال: اغلق الباب، ففعلت، ثم أقبلت إلى القبة فإذا المرأة تبكي بكاء شديدًا حتى طال بكاؤها، وبكيت لبكائها، فقلت لها: ما شأنك؟ فقالت: افعل ما دعوتني لأجله، ودَعْ عنك هذا، ونحيبُها يزيد، فقلت لها: إنَّ المعنى الذي دعوتك لأجله لا يصلح مع البكاء، بل مع الأنس وانشراح الصدر وزوال الانقباض ورفع الخجل، فقالت: نترك البكاء ونرجع للأنس على ما تحبّ ويوفي غرضك، فقلت: لا، حتى أعلم سبب بكائك، وألححت عليها، فقالت: أتعرف حاجبَ الملك الذي سجنه؟ قلت: نعم، قالت: فأنا ابنته، ولم يبق له أحد غيري، وقد سجنه الملك وأخذ أمواله، فما زلت أبيع ما ترك أبي وأنفقه عليه، حتى لم يبق بيدي شيء، فلمّا أعيتني الحيلة فيما أُنفقه ألجأت نفسي ووقفت هذا الموقف وأنا بكر ما رأى لي أحد وجهًا قطّ، فرميت لها بالألف دينار وقلت لها: واللّه لا قربت منك على هذا الوجه أبدًا، فأنفقي الدنانير على والدك إلى أن تنفدَ، وابعثي لي غلامك أُعلمه بمنزلي، ولازمي دارك، واستمرّي على صيانتك وإلاّ فضحتك، وتريني واللّه لا أزال أبيع أملاكي وأُنفقها على والدك حتى أموت أو يفنى كلُّ ما أملكه، ثم خرجت ألتمس الغلام وإذا بجماعة يطلبون البنت، وقالوا: إن الملك رضي عن والدها، وردّ عليه ضياعه وأملاكه، ووصله بعشرة آلاف دينار، وقعد يلتمس بنته فلم توجد، فسُقط في يد الغلام الذي كان مع الدابة، وظنّ أنّ الأمر على ما جرى بيني وبين البنت، فبادرته وقلت له: لا عليك، فتجاهل في خبرها حتى ينصرفوا، ودخلت إلى البنت وقلت لها: إنّ الملك قد رضي عن والدك، وردّ

عليه ماله، ووَصَله، فسيري إلى دارك، فركبت دابتها وانصرفت، فدخلت على والدها فقال لها: أين كنت؟ وما الذي أخرجك عن دارك؟ وهَمَّ بها، فقالت له: أَخْرِجْ عني كلَّ مَنْ في الدار، ففعل، فأخبرته أمرها مع الشاب من أوله إلى آخره، ورمت إليه بالألف دينار، وقالت له: هذا الذي أعطاني لأنفق عليك، فقال أبوها: هذا واللّه هو الكبريت الأحمر، واللّه لو كان أبوه كنافًا[1] ما أنفت أن أزوّجك منه، فوجّه العبد الذي كان معها إلى الشاب، وقال له: إنّ سيدي يدعوك، قال: فخفت أن يوضع عنده الأمر على غير وجهه، ثم أقدمت إقدام مَنْ علم براءة نفسه، فدخلت عليه، فقام إليَّ وعانقني، وقد عرف لي مقامي، وقال: أما الآن وأنت من أعيان الناس فقد قَرَّتْ بك عيني، وقال: واللّه لو كان أبوك كنافًا ما أنفت لبنتي أن أزوجك منها، فما قام من المجلس حتى وجّه إلى العدول وأشهد على نفسه بأنه زوَّج ابنته فلانة من هذا الشاب، ونَقَدَها عنه الشطر الأول من العشرة آلاف دينار التي وصله بها الملك وأَجَّلَ لها عنه الشطر الثاني، وأهدى لها من الحلي كذا وكذا، ومن الثياب كذا وكذا، حتى أتى على أكثر أملاكه حتى أنفقها على ذلك، فحصل من إشارة الشيخ السبتي رضي اللّه عنه! - في تلك الألف دينار على أضعاف مضاعفة من الأموال، وظفر ببنت حاجب الملك؛ انتهى.

رجع إلى ابن زمرك رحمه اللّه تعالى.

قال الشاطبي في الإشارات والإفادات ما صورته: إفادة - أفادني صاحبنا الفقيه الكاتب أبو عبد اللّه بن زمرك إثر إيابه إلى وطنه من رحلة العُدْوَة في علم البيان فوائد أذكر منها الآن ثلاثًا[2]: الفقه في اللغة، وهو النظر في مواقع الألفاظ وأين استعملتها العرب، ومن مثل هذا الوجه «قرم»[3] و «عام»[4] إذا اشتهى، لكن لا يستعمل «قرم» إلاّ مع اللحم، ولا يستعمل «عام» إلاّ مع اللبن، فتقول: عمْتُ إلى اللبن، وكذلك قولهم: أصفر فاقع، وأحمر قانٍ، ولا يقال بالعكس، وهذا كثير. والثانية تحري الألفاظ البعيدة عن طرفي الغرابة والابتذال، فلا يُستدلُّ بالحوشي من اللغات ولا المبتذل في ألسن العامة. والثالثة اجتناب

---

(١) الكناف: الذي يعمل في الكنف أي المراحيض. لسان العرب (كنف).

(٢) في طبعة عبد الحميد (جـ ١٠ ص ١٤٠): «ثلاثة».

(٣) قرم الرجل: اشتدّت شهوته إلى اللحم. لسان العرب (قرم).

(٤) عام الرجل يعيم: اشتهى اللبن. لسان العرب (عيم).

كلّ صيغة تخرج الذهن عن أصل المعنى أو تشوش عليه؛ إذ المقصود الوصول في بيان المعنى إلى أقصاه، والإتيان بما يحصله سريعًا ويمكنه في الذهن، وتحري كلّ صيغة تمكن المعنى وتحرّض السامع على الاستماع، وأخبرني أنّ كتّاب المغرب يحافظون في شعرهم وكتابتهم على طريقة العرب، ويذمُّون ما عداها من طريقة المولدين، وأنها خارجة عن الفصاحة، وهذه المعاني الثلاثة لا توجد إلاَّ فيها.

وذكر مَنْ شَرَحَ بديعية الحلي من المغاربة وهو الشيخ النحوي عبيد الثعالبي في شواهد حسن الختام أنَّ منه ختام قصيدة للكاتب البارع أبي عبد اللّه المعروف بابن زمرك الأندلسي مدح بها ملك المغرب عبد العزيز حين قدم عليه رسولاً من صاحب الأندلس، وهو قوله: [الطويل]

ولو أنشدت بين العذيب وبارق ... لقال رواةُ الغرب يا حبّذا الشرقُ

ولم يظهر لي كل الظهور دلالته لي على حسن الختام، ولا بُدَّ، فاللّه سبحانه أعلم.

وقد أطلْنا في ترجمة ابن زمرك فلنختم نظامه بموشحة له زهرية مولدية تضمّنت مدح المصطفى ﷺ، وهي هذه[1]:

لو ترجعُ الأيامُ بَعْدَ الذهابْ ... لم تقدحِ الأيام[2] ذكرى حبيبْ
وكلُّ مَنْ نام بليل الشبابْ ... يوقظه الدهرُ بصبحِ المشيبْ

* * *

يا راكبَ العجزِ ألاَ نهضةٌ ... قد ضيَّقَ الدهرُ عليك بالمجالْ
لا تحسبنْ أنَّ الصِّبا روضةٌ ... تنامُ فيها تحت فَيْءِ الظلالْ
فالعيشُ نومٌ والردى يقظةٌ ... والمرء ما بينهما كالخيالْ[3]
والعمرُ قد مَرَّ كَمَرِّ السحابْ ... والمُلْتَقَى باللّه عَمَّا قريبْ
وأنت مخدوعٌ بلَمْعِ السرابْ ... تحسبه ماءً ولا تستريبْ[4]

* * *

(١) الموشحة في أزهار الرياض (جـ ٢ ص ٢٠٥)، وهي موشحة تامة تتكون من ستة أقفال وخمسة أبيات.

(٢) في أزهار الرياض: «الأشواق».

(٣) أخذه من قول أبي الحسن التهامي: [الكامل]

فالعيش نومٌ والمنيّة يقظةٌ ... والمرءُ بينهما خيال ساري

(٤) ديوان أبي الحسن التهامي (ص ٣٠).

والله ما الكونُ بما قد حوى إلاّ ظلالٌ توهمُ الغافلا
وعادةُ الظِّلِّ إذا ما استوى تبصرُه مُنْتَقلاً زائلا
إنّا إلى اللّه عبيدُ الهوى لم نعرفِ الحقَّ ولا الباطلا
فكلُّ مَنْ يرجو سوى اللّه خابْ وإنما الفوزُ لعبدٍ منيبْ[1]
يستقبل الرُّجْعَى بصدقِ المتابْ ويرقبُ اللّهَ الشهيدَ الرقيبْ

* * *

يا حسرتا! مَرّ الصِّبا وانقضى وأقبل الشيبُ يقصُّ الأثرْ[2]
واخجلتا والرحلُ قد قُوِّضَا وما بقي في الخبر غير الخبرْ
وليتني لو كنتُ فيما مضى أدّخرُ الزادَ لطول السَّفَرْ
قد حان من ركب التصابي إيابْ ورائدُ الرشدِ أطالَ المغيبْ
يا أكمهَ القلب بغيْنِ الحجابْ كم ذا أناديك فلا تستجيبْ

* * *

«هل يحملُ الزاد لدار الكريمْ»[3] والمصطفى الهادي شفيعٌ مطاعْ
فجاهُهُ ذخرُ الفقيرِ العديمْ وحبّه زادي ونِعْمَ المتاعْ
واللّه سَمّاه الرؤوف الرحيمْ فجاره المكفولُ ما إن يُضاعْ
عسى شفيعُ الناس يومَ الحسابْ وملجأ الخلقِ لرفعِ الكروبْ
يلحقني منه قَبُولٌ مجابْ يشفعُ لي في مُوبِقات الذنوبْ

* * *

يا مصطفى والخلقُ رهنُ العَدَمْ والكونُ لم يفتق كمامَ الوجودْ
مزيةٌ أُعطيتَها في القِدَمْ بها على كلِّ نبيّ تسودْ
مولدكَ المرقوم لَمَّا نَجَمْ أنجز للأمّةِ وَعْدَ السعودْ
ناديتُ لو يُسمح لي بالجوابْ شهرَ ربيعٍ يا ربيعَ القلوبْ
أطلعتَ للهدي بغير احتجابْ شمسًا، ولكن ما لها من غروبْ

* * *

(١) المنيب: التائب من ذنبه، الراجع إلى ربِّه. لسان العرب (نوب).

(٢) في طبعة عبد الحميد (جـ ١٠ ص ١٤٢): «يا حسرةا مرّ...». ويقصّ الأثر: يتبعه شيئًا بعد شيء. لسان العرب (قصص).

(٣) أخذ ذلك من قول الشاعر: [الرمل] =

ومن تلامذة لسان الدين رحمه الله تعالى، الطبيب العالم ابن المهنا شارح ألفية ابن سينا[١]، وشرحه عليها من أبدع الشروح، وقد نقل فيه[٢] عن لسان الدين كثيرًا، واعتمد عليه في أمور الطب، وقد طال عهدي به الآن، وهو من الكتب المشهورة بالمغرب، ولم أره بهذه الديار المشرقية.

ومن تلامذة لسان الدين رحمه الله تعالى: الأديب الكاتب العالم العلامة القاضي أبو بكر بن جُزَيّ الكلبي، وأبوه الشيخ أبو القاسم بن جزيّ شيخ لسان الدين، وبيت بني جزي بيت كبير مشهور بالمغرب والأندلس، وقد عرّفنا فيما سبق بالشيخ أبي القاسم وابنيه العلاّمتين الناظمين الناثرين الكاتب أبي عبد الله محمد والقاضي أبي بكر المذكور، فليراجَع في الباب الثالث[٣].

ورأيت بخطّ بعض علماء المغرب أنّ أبا بكر المذكور روى عن لسان الدين بن الخطيب ـ رحمه الله تعالى! ـ جميع تواليفه مع أنه مقاربه في السّنّ، ولكن الإنصاف في ذلك الزمان غير معدوم، وقد عرّف به لسان الدين في «الإحاطة» والذي فهمت من عبارته في «الإحاطة» أنه إن عبر بصاحبنا فلا يطلقها غالبًا إلاّ على تلامذته، وربما أطلقها على غيرهم كما لا يخفى على من مارس كلامه، رحمه الله تعالى! وأتقن تاريخ أهل المغرب والأندلس، رحم الله تعالى الجميع!.

ومن تلامذة لسان الدين رحمه الله تعالى: مؤدّب أولاد الملوك ومعلمهم القرآن وسنّة رسول الله ﷺ أبو عبد الله الشريشي، وهو الذي تولّى أولاً نقل «الإحاطة» من مبيضتها، كما سبقت الإشارة إليه في كلام حفيد السلطان ابن الأحمر، وأحكم نسخه، فكانت في

هلاّ احتقبت الزاد قلت اكففي ... هل يحملُ الزاد لدار الكريمْ؟

طبعة دار صادر (جـ ٧ ص ٢٨١، حاشية ١).

(١) يريد أرجوزة ابن سينا في الطب، وأولها بعد التحميدات:

الطب حفظ صحة برء مرض ... من سبب في بدن منذ عرض

انظر ترجمة ابن سينا في عيون الأنباء في طبقات الأطباء (ص ٤٣٧ ـ ٤٥٩).

(٢) كلمة «فيه» ساقطة من طبعة دار صادر (جـ ٧ ص ٢٨١).

(٣) تقدمت ترجمة أبي القاسم بن جزي في الجزء الثامن، وأشرنا هناك إلى مصادر ترجمته. وكذلك تقدمت ترجمة أبي بكر بن جزي في الجزء نفسه. كما تقدمت ترجمة أبي عبد الله بن جزي في الجزء الثاني.

مجلّدات ستة، وكان لسان الدين ألقى إليه بالمبيضات اعتمادًا منه عليه، وثقة به؛ لاشتغال لسان الدين بأمور المملكة.

ومن تلامذة لسان الدين: القاضي الكاتب أبو محمد عطية بن يحيىٰ بن عبد اللّٰه بن طلحة بن أحمد بن عبد الرحمن بن غالب بن عطية المحاربي.

قال في «الإحاطة»(١): صاحبنا الفقيه الخطيب، كاتب الإنشاء بالباب السلطاني أبو محمد، نسيج وحده في أصالة البيت وعفاف النشأة، مقصود المنزل، نبيه الصهر، معم مخول(٢) في الأصالة، بارع الخطّ، جيّد القريحة، سيّال المداد، نشيط البنان، جَلْد على العمل، خطيب ناظم ناثر، قرأ بغرناطة، وولي الخطابة بالمسجد الأعظم والقضاء سنتين ببلده في حداثة السّنّ، ثم انتقل إلى غرناطة فجأجأت(٣) به الكتابة السلطانية داحضة بالحقّ، آوته إلى هضبة أمانة مستظهرة ببطل كفاية، فاستقلّ رئيسًا في غرض إعانتي وانتشالي من هفوة الكلفة على جلل الضعف وإلمام المرض. ثم كشفت الخبرة منه عند الحادثة على الدولة، وإزعاجها من الأندلس عن سَوْأة لا تُوَارَى، وعورة لا يرتاب في أشنوعتها ولا يتمارى، فسبحان من علَّم النفس فجورها وتقواها، إذ لصق بالداهي(٤) الفاسق فكان آلة انتقامه، وجارحة صيده، وأحبولة كيده، فسفك الدماء، وهتك الأستار، ومزّق الأسباب، وبدل الأرض غير الأرض، وهو يزقه في أذنه زَقوم(٥) النصيحة، ويستحله(٦) لقب الهداية، ويبلغ في شدّ أزره إلى الغاية، عنوان عقل الفتى اختياره، يجري في سبيل دعوته طوالاً، أخرق يسيء السمع فيسيء الإجابة، بدويًا قحًّا جهوريًا ذاهلاً عن عواقب الدنيا والآخرة، طرفًا في سوء العهد وقلّة الوفاء، مردودًا في الحافرة، منسلخًا من آية السعادة، تشهد عليه بالجهل يَدُهُ، ويقيم عليه الحجج شرهُهُ، وتبوئه هفوات الندم جهالته، ثم أسلم المحروم مصطنعه أحوج ما كان إليه، وتبرأ منه، ولحقته بعده مطالبة مالية لقي لأجلها ضغطًا، وهو

---

(١) لم ترد له ترجمة في الإحاطة المطبوع.

(٢) معمّ مخول: أي إنه كريم من جهة الأب والأمّ.

(٣) جأجأت به الكتابة: دعته. لسان العرب (جأجأ).

(٤) في طبعة دار صادر (جـ ٧ ص ٢٨٣): «بالدائل». والداهي الفاسق هنا هو سلطان بني نصر، الذي هرب منه لسان الدين ابن الخطيب إلى المغرب.

(٥) الزّقوم: شجرة في جهنم، منها طعام أهل النار. محيط المحيط (زقم).

(٦) في طبعة دار صادر (جـ ٧ ص ٢٨٣): «وينحله».

الآن بحال خزي، واحتقاب تبعات، واستدعيت شيئًا من نظمه ونثره حال التصنيف ليترجم به، فكتب إليّ ما نصُّه: [البسيط]

يا سيِّدًا فاقَ في مجدٍ وفي شرفٍ ... وفاتَ سَبقًا بفضلِ الذاتِ والسلفِ
وفاضلاً عن سبيل الذمِّ منحرفًا ... وعن سبيلِ المعالي غيرُ منحرفِ
وتُحفَةَ الزمنِ الآتي به فلقد ... رَبَا[1] بما حازه منها على التُّحَفِ
ومَعْدِنًا لنفيسِ الدُّرِّ فهو لما ... حَواه منه لدى التشبيه كالصدف
وبَحْرَ علم جميعُ الناس مغترفٌ ... منه، ونيلُ المعالي خيرُ مؤتلَفِ
وسابقًا بَذَّ أهلَ العصرِ قاطبةً ... فالكلُّ في ذاك منهم غير مختلف
من ذا يخالفُ في نارٍ على علم ... أو يَجْحَدُ الشمسَ نورًا وهو غير خفي
ما أنت إلاَّ وحيدُ العصر في شِيَمٍ ... وفي ذكاء وفي علم وفي ظَرَفِ
للَّه مِنْ مُنْتَمٍ للمَجْدِ منتسبٍ ... بالفضل متّسم، بالعلم متّصفِ
للَّه من حسبٍ عِدٍّ ومن كرم ... قد شاده السلفُ الأخيارُ للخلف
إيهٍ أيا من به تبأى[2] الوزارةُ إذ ... كنتَ الأحقَّ بها في الذات والشرفِ
يا صَاحبَ القلمِ الأعلى الذي جُمِعَتْ ... فيه المعالي فبعضُ البعضِ لم أصف
يا من يقصّر وصفي في علاه ومن ... أنسى مديحَ حَبيبٍ[3] في أبي دُلَفِ
شرَّفتني عندما استدعيتَ من نظمي ... نظمًا تدوّنه في أبدع الصحف
وربما راقَ ثَغْرٌ في تبسّمه ... حتى إذا نالَهُ إلمامُ مرتشف
أُجِلُّ قدركَ أن ترضى لمنتجعٍ ... بسوءِ كِيلَته حظًّا مَعَ الحشف
هذا، ولو أنني فيما أتيتُ به ... نافحتُ بالطيب زهرَ الروضة الأنُفِ[4]
لكنتُ أُفضي إلى التقصير من خجلٍ ... إذ لستُ بالبعض مِمّا تستحقُّ أفي
فَحَسْبيَ العجزُ عمّا قد أشرتَ به ... فالعجزُ حتمًا قُصَارى كلِّ معترفِ
لكنْ أجبتُ إلى المطلوب ممتثلاً ... وإن غدوتُ بمرمى القومِ كالهدف

---

(١) ربا: علا وارتفع. لسان العرب (ربا).

(٢) تبأى: تفتخر. لسان العرب (بأى).

(٣) حبيب: هو أبو تمام حبيب بن أوس الطائي.

(٤) الروضة الأنف: التي لم يسبق أحد إلى رعيها. لسان العرب (أنف).

فانظرْ إليها بعين الصفحِ عن زلل ... واجعلْ تصفُّحَها من جملة الكُلَفِ
بقيتَ للدهرِ تطويه وتنشُرُه ... تسمو من العِزِّ باسمٍ غير منصرفِ

ثم ذكر نثرًا، وأنّ مولده بوادي آش آخر عام تسعة[1] وسبعمائة، وتولّى[2] الخطابة والإمامة بها عام ثمانية وثلاثين وسبعمائة، ثم ولي القضاء بها وبأعمالها عام ثلاثة وأربعين وسبعمائة، ثم انتقل للحضرة آخر رجب عام ستة وخمسين وسبعمائة، ومن شعره قولُه: [الطويل]

ألا أيها الليلُ البطيء الكواكبِ ... متى ينجلي صبحٌ بليلِ المآربِ
وحتى متى أرعى النجوم مراقبًا ... فمن طالع منها على إثر غاربِ[3]
أُحَدِّثُ نفسي أن أرى الركبَ سائرًا ... وذنبيَ يُقْصيني بأقصى المغاربِ
فلا فُزْتُ من نيل الأماني بطائلٍ ... ولا قمتُ في حقِّ الحبيب بواجب
فكم حَدَّثَتني النفسُ أن أبلغ المنى ... وكم عَلَّلتني بالأماني الكواذب
وما قَصَّرَتْ بي عن زيارةِ قبره ... معاهدُ أُنسٍ من وصالِ الكواعب
ولا حُبُّ أوطانٍ نَبَتْ بي ربوعها ... ولا ذكرُ خِلٍّ حلَّ فيها وصاحب
ولكنْ ذنوبٌ أثقلتني فها أنا ... من الوَجْدِ قد ضاقتْ عليَّ مذاهبي
إليكَ رسولَ اللّه شوقي مجدَّدًا[4] ... فيا ليتني يَمَّمْتُ صَدْرَ الركائب
فأعملتُ في تلك الأباطح والرُّبا ... سُرَاي مجدًّا بين تلك السباسب[5]
وقَضَّيْتُ من لثم البقيع لُبَانتي ... وجُبْتُ الفلا ما بين ماشٍ وراكبِ
ورَوَّيْتُ من ماء بزمزمَ غُلَّتي ... فللّه ما أشهاهُ يومًا لشاربِ
حبيبي شفيعي منتهى غايتي التي ... أُرجِّي ومن يرجوه ليس بخائبِ
محمدٌ المختارُ والحاشرُ الذي ... بأحْمَدَ حاز المجدَ[6] من كلِّ جانبِ

---

(١) في طبعة عبد الحميد (ج ١٠ ص ١٤٦): «تسع».
(٢) في طبعة عبد الحميد: «وولي».
(٣) أخذه من قول ابن خفاجة: [الطويل]
وحتى متى أرعى الكواكبَ ساهرًا ... فمن طالعٍ، أخرى الليالي، وغاربِ؟
ديوان ابن خفاجة (ص ٤٣).
(٤) في طبعة عبد الحميد: «مجددٌ».
(٥) السباسب: جمع سبسب وهو الأرض الواسعة التي لا ماء فيها. لسان العرب (سبب).
(٦) في طبعة عبد الحميد (ج ١٠ ص ١٤٧): «الحمد».

رؤوف رحيمٌ خَصَّنا اللَّه باسمه وأعظِمْ بماحٍ في الثناء وعاقبِ[1]
رسولٌ كريم رَفَّعَ اللَّهُ قَدْرَهُ وأعلى له قدرًا رفيعَ الجوانب
وشرَّفه أصلاً وفرعًا ومحتدًا يزاحمُ آفاقَ السما بالكواكب
سراجُ الهدى ذو الجاه والمجد والعُلا وخيرُ الورى الهادي الكريم المَنَاسب
هو المصطفى المختارُ من آلِ هاشمٍ وذو الحسبِ العِدِّ الرفيع المناصب
هو الأَمَدُ الأقصى، هو الملجأ الذي ينالُ به مرغوبَهُ كلُّ راغب
إمامُ النبيين الكرام، وإنه لكالبدر فيهم بين تلك المواكبِ
شريفٌ نذيرٌ مُفضِلٌ مُتطوِّلٌ سراجٌ منيرٌ بَذَّ نورَ الكواكبِ
شريفٌ منيفٌ باهرُ الفضلِ كاملٌ نفيسُ المعالي والحلى والمناقب
عظيمُ المزايا ما له مِنْ مُمَاثلٍ كريمُ السجايا ما له من مناسب
ملاذٌ مَنيعٌ ملجأ عاصمٌ لمن يلوذُ به من بين آتٍ وذاهب
جليلٌ جميلُ الخلق والخُلق ما له نظيرٌ، ووصفُ اللَّه حجّة غالب
وناهيك من فرع نَمَتْه أصوله إلى خيرِ مجدٍ من لؤيّ بن غالب
أُولي الحسب العِدِّ الرفيع جنابُهُ بدور الدياجي أو صدور الكتائب
له معجزاتٌ ما لها من مُعارضٍ وآياتُ صدقٍ ما لها من مغالب
تَحَدَّى بهنّ الخلقَ شرقًا ومغربًا وما ذاك عَمَّنْ حاد عنها بغائب
فدونكها كالأنجم الشُّهبِ عدةً ونور سَنًا لا يختفي للمُراقب
وإحصاؤها مهما تَتَبَّعْتَ مُعْوزٌ وهل بعد نورِ الشمس نورٌ لطالب
لقد شَرَّفَ اللَّهُ الوجودَ بمُرْسَلٍ له في مَقام الرُّسل أعلى المراتبِ
وشَرَّفَ شهرًا فيه مولدُهُ الذي جلا نورُهُ الأسنى دياجي الغياهب
فشهرُ ربيعٍ في الشهور مقدّمٌ فلا غرو أنَّ الفخرَ ضربةُ لازب[2]
فلِلَّه منه ليلةٌ قد تلألأتْ بنور شهابٍ بين الأفقِ شاهب
ليهنِ أميرَ المسلمين بها المُنَى وأنْ نال من مولاه أسنى الرغائب
على حين أحياها بذكر حبيبِهِ وذكرِ الكرام الطاهرين الأطايب

---

(١) الماحي والعاقب: من أسماء رسول اللَّه، ﷺ، وكذلك «الحاشر» في البيت السابق.
(٢) ضربة لازب: أي لازمة لا بدَّ من حصولها. لسان العرب (لزب).

وألَّف شملاً للمُحبين فيهمُ فسار على نَهْجٍ من الرشد لاحِبِ[1]
فسوف يُجَازَى عن كَرِيمِ صَنيعِهِ بتخليد سلطانٍ وحُسْنِ عواقب
وسوف يُرِيه اللَّه في نصر دينه غرائبَ صنع فوق تلك الغرائب
فيحمي حمى الإسلام عَمَّنْ يَرُومُهُ بِسُمْرِ العوالي أو ببيض القواضبِ[2]
ويعتزُّ دينُ اللَّه شرقًا ومغربًا بما سوف يبقى ذكره في العجائب
إلَهِيَ ما لي بعد رحماك مطلبٌ أراه بعين الرشد أسنى المطالب
سوى زورةِ القبرِ الشريفِ وإنه لموهبةٌ فاقتْ جميعَ المواهب
عليه سلامُ اللَّه ما لاح كوكبٌ وما رافق الأظعانَ حادي الركائب

وقال لسان الدين رحمه اللَّه تعالى: وليس لهذا الرجل انتحال لغير الشعر والكتابة وغير هذا الشعر قران، فقلَّ أن ينتهي هذا الشعر في الضعة والاسترذال إلى ما دون هذا النمط، فهو بغير ثان شعرًا وشكلاً وبلدًا، لطف اللَّه تعالى بنا وبه! انتهى باختصار.

ومن تلامذة لسان الدين بن الخطيب رحمه اللَّه تعالى الكاتبُ أحمد بن سليمان بن فركون[3]، ومن نظمه على لسان مَنْ يرمى بالداء العُضَال في فَرَج عبدِ ابن زَمْرَك الوزير بعد ابن الخطيب: [الكامل]

قالوا كلفتَ به غلامًا حالكًا فأجبتهمْ في فيه ما يرضي[4] المُهَجْ
مهما جننت بِحُسْنِهِ وبحبِّهِ علَّقت فوقي منه حرزًا مِنْ سَبَجْ[5]

ورأيت بخطّ الوادي آشي ما صورته: وجدت بخطّ لسان الدين، وخاتمه أعلام البيان المجيدين، ذي الوزارتين أبي عبد اللَّه بن الخطيب رحمه اللَّه تعالى في طرة اسم الكاتب أحمد بن سليمان بن فركون، المختصّ به، المتأدّب بما انفرد به من انتساخ تواليف ابن الخطيب ما نصّه: يسقط هذا الساقط من الديوان؛ انتهى.

ولعلَّ لسان الدين إنما أمر بإسقاطه من «الإحاطة» لما يُتَّهم به من معنى بيتيه السابقين، ويحتمل أن يكون لغير ذلك، واللَّه سبحانه وتعالى أعلم.

---

(١) اللاحب: الطريق الواسع الواضح. لسان العرب (لحب).
(٢) القواضب: السيوف القاطعة، واحدها قاضب. محيط المحيط (قضب).
(٣) ترجم له لسان الدين ابن الخطيب في الإحاطة (جـ ١ ص ٢٢٠) وأثنى عليه، وترجم له في الكتيبة الكامنة (ص ٣٠٥) وذمّه.
(٤) في طبعة عبد الحميد (جـ ١٠ ص ١٤٩): «يرمي».
(٥) السبج: الخرز الأسود. لسان العرب (سبج).

الباب الثامن

[في ذكر أولاد لسان الدين]

في ذكر أولاده الرافلين في حُلل الجلالة، المقتفين أوصافه الحميدة وخِلاله، الوارثين العِلم والعمل والرياسة والمجد عن غير كلالة[1]، ووصيته لهم الجامعة لآداب الدين والدنيا، المشتملة على النصائح الكافية والحكم الشافية من كل مرض بلا ثُنْيَا[2]، المنقذة من أنواع الضلالة، وما يتبع[3] ذلك من المناسبات القوية، والأمداح النبوية، التي لها على حسن الختام أظهر دلالة.

اعلمْ - وفّقني الله تعالى وإياك لمرضاته! وجعلنا مِمَّنْ يعتبر بالدهر في معضاته! - أنّ أولاد لسان الدين ثلاثة: عبد الله، ومحمد، وعلي، وكلّهم حَدَّث عن أبيه وعن ابن الجياب.

أما محمد فقد نال حظّه من التصوّف، ولم يكن له إلى خدمة الملوك تشوّف[4]، ولم يحضرني الآن نصّ من أنبائه أكتبه لعدم وجود الكتب التي هي مَظَان ذلك، إذ قد تركتها بالمغرب.

وقد سبق فيما مَرَّ من كلام ابن خلدون أنّ أولاد لسان الدين كانوا من نُدَمَاء السلطان وأهل خلوته، وأنّ عليًا كان خالصة السلطان، رحم الله تعالى الجميع!

---

(١) ورث المجد عن غير كلالة: أي ورثه عن أبيه وأصوله. لسان العرب (كلل).

(٢) بلا ثنيا: بلا استثناء.

(٣) في طبعة دار صادر (جـ ٧ ص ٢٨٩): «وما يقع في ذلك..».

(٤) التشوّف: التطلّع. لسان العرب (شوف).

وأمَّا عبد الله فقد كتب بالعُدْوَتين، لملوك الحضرتين، وتولّى القيادة والكتابة بالأندلس أيام كان أبوه مدبّر الدولة، وأكثر الناس بها كالخواصّ حوله، ولا أعلم الآن ما آل إليه أمره بعد وفاة أبيه، وقد ألمَّ ببعض التعريف بمبدإ أحواله أبوه لسان الدين في كتاب «الإحاطة، في تاريخ غرناطة»، فقال في حقِّه ما ملخّصه(١): عبد الله بن محمد بن علي بن سعيد بن الخطيب التلمساني، حسن الشكل، جيّد الفهم، يُغَطِّي منه رمادُ السكون جمرةَ حركة، مُنْقَبِض عن الناس، قليل البشاشة، حسن الخطّ، وَسَط النظم، كتب عن الأمراء بالمغرب، وأنشدهم، وأقبض(٢) صكوكهم بالإقطاعات والإحسان، واختال في خِلَعهم. ثم لَمّا كانت الفتنة كتب عن سلطان وطنه، مُعَزَّز الخطّة بالقيادة. قرأ على قاضي الجماعة الخطيب(٣) أبي القاسم الحسني، والخطيب(٣) أبي سعيد فرج بن لب التغلبي(٤)، واستظهر ببعض المبادىء في العربية، واستُجيز له مَنْ أدركه ميلادُهُ(٥) من أهل المشرق والمغرب. وشعره مترفّع عن الوسط إلى الإجادة، يكلِّله عذر الحداثة.

فمنه قوله في مولد أربعة(٦) وستين وسبعمائة: [المتقارب]

بحقِّ الهوى يا حُدَاة الحمولِ ... قفُوها قليلاً بتلك الطلولِ
معاهدُ مَرَّتْ عليها السحابُ ... ببرقٍ خَفُوقٍ ودمعٍ هَمُولِ
أَحنُّ إليها حنينَ العِشارِ(٧) ... وأبكي عليها بشجوٍ طويلِ
فيا سعدُ، عَرِّجْ عليها الركابَ ... ففيها لقلبي شفاءُ الغليلِ
سقاها من المزن صَوبُ الغمام ... وحَيَّا بِعَرْفِ النسيمِ العليلِ
ولا زال فيها يجرُّ الذيولَ ... فيحيي النفوسَ بجرِّ الذيول
لئن حُلْتَ يا رَبْعُ عن عهدنا ... فعهد الهوى ليس بالمستحيلِ(٨)

---

(١) الإحاطة (ج ٣ ص ٤٣٥ ـ ٤٣٦) وفيه: «عبد الله بن محمد بن عبد الله بن سعيد بن عبد الله بن سعيد ابن الخطيب السلماني» والنقل ليس ملخّصًا.

(٢) في الإحاطة (ص ٤٣٦): «واقتضى خِلَعَهم وصكوكهم بالإقطاع والإحسان».

(٣) في الإحاطة: «الأستاذ الخطيب».

(٤) في طبعة عبد الحميد (ج ١٠ ص ١٥٤): «الثعلبي».

(٥) في طبعة عبد الحميد: «بيلاده».

(٦) في طبعة عبد الحميد: «أربع».

(٧) العِشار: جمع عشراء وهي الناقة التي مضى على حملها عشرة أشهر. لسان العرب (عشر).

(٨) حُلْتَ: تغيَّرتَ. المستحيل: المتغيّر. لسان العرب (حلل).

وممّا شجاني وميضٌ خفوقٌ[1] كقلبي غداة النوى والرحيلِ
وميضٌ إذا بَلَّه المزن وهنًا يضيء سناه كعضبٍ صقيلِ
أطار الفؤادَ فؤادَ المشوقِ وأغرى السُّهادَ بطرفٍ كليل
فبتُّ أطاولُ ليلَ التمامِ بوجدٍ جديدٍ وصَبْرٍ مُحِيلِ[2]
ودمعٍ يساجلُ دمعَ الغمامِ وشجوَ الحمائمِ عند الهَدِيلِ
فيا ليت شعري وهل من سبيلٍ على الوَجْدِ يومًا بصبر جميلِ
وهل يسمحُ الدهرُ بعد العنادِ بجبرِ الكسيرِ وعزِّ الذليلِ
وهل راجعٌ عهدُنا بالحمى على رغم دهرٍ ظلومٍ جهولِ
فيا حُسْنَ مأوى عزاءٍ جميل ويا طيبَ مأوى بظلٍّ ظليل
وفي ذمّةِ اللّهِ ركبٌ سَرَوْا يجدّون والليلُ مُرْخَى السدول
نشاوى بكأسين كأسِ الهوى وكأسٍ من الأمن مثلِ الشَّمول[3]
يؤمّون بالعيس أمَّ القرى وقبرَ النبيِّ الشفيعِ الرسول
ديارٌ بها الوحيُ وحيُ السما تنزَّلَ، أكْرِمْ به من نزول
بها أشرقَ الدينُ كالشمس نورًا وآنَ من الشرك وقتُ الأفول
فيا حاديَ العيس يطوي الفلا بوَخْدِ القلاص ونَصِّ الذَّميل[4]
سفائنَ آلٍ طواها السُّرَى وشَقُّ الحزُون وقطعُ السهول
نشدتك بالبانِ بانِ الحمى وبالموردِ العذبِ والسلسبيل
إذا ما حللتَ لدى طيبةٍ وجئتَ محلَّ الرضا والقَبُول
وقبرًا ثوى فيه خيرُ الورى وبشرى الكليم وفخرُ الخليل[5]
فأبلغْ تحيّةَ صَبٍّ مشوقٍ عَدَتْه عوادي الزمانِ الخذول
وقُلْ يا رسولَ الهدى والشفيع إذا ضاقَ صَدْرُ أبٍ عن سليل

---

(١) في طبعة عبد الحميد (جـ ١٠ ص ١٥٤): «الخفوق».
(٢) المُحيل: المتغيّر. لسان العرب (حيل).
(٣) الشَّمُول: الخمر. لسان العرب (شمل).
(٤) الوخد والذميل: ضربان من السير السريع. القلاص: جمع قلوص وهي الشابة الفتيّة من النوق. لسان العرب (وخد) و (ذمل) و (قلص)
(٥) الكليم: هو موسى عليه السلام. الخليل: هو إبراهيم الخليل عليه السلام.

عليكَ الصلاةُ وطيبُ السلام يُحَيِّيك عند الضحى والأصيلِ
نبيٌّ كريمٌ رؤوف رحيمٌ بنصِّ الكتابِ وحكم العقولِ
إمامُ الهدى المجتبى المصطفى بأزكى شهيدٍ وأهدى دليلِ
به أَظْهَرَ اللَّهُ دينَ الهُدى وعلّم كيف سواءُ السبيلِ
وقامَ بأعباءِ دينِ الإلّه أتمَّ القيامِ بفعلٍ وقيلِ(١)
فأكرمْ بليلةِ ميلادِهِ على كلِّ وقتٍ وعصرٍ وجيلِ
لكِ اللّهُ من ليلةٍ فَضْلُها يجرُّ على النجم فَضْلَ الذيولِ
وأيّد بالنصر مولًى أقام مواسِمَها فعلَ بَرّ وَصُول
أعاد بها الليلَ مثلَ النهارِ بوجهٍ كريمٍ وفعلٍ جميلِ
وأبدى الرضا نحوها والقَبُولَ وأكرمْ به من حَفِيّ كفيل
سميّ النبيّ الكريم الرسول وسيف الإلّه العليّ الجليل
محمدٌ المرتجى المستجارُ مبيدُ العدا ومنيلُ(٢) الجزيل
من النفر الغُرّ أُسدِ الكفاح وأهلِ السماح عَشِيَّ النزول
تراهم لدى السلم أطوادَ حِلْمٍ ويومَ الكريهةِ آسادَ غِيل
مبيد العداةِ، ومحيي العفاة ومأوى الغريب، ومُدْني الدخيل
فبأسٌ حكى النارَ عند احتدامٍ وجُودٌ حكى السُّحبَ عند الهمول
فيُصْلي عداه(٣) لدى الحرب نارًا ويروي نداه زمانَ المُحُول
إذا فُلَّتِ البِيضُ يوم الوغى فلست ترى عزمه ذا فُلُولِ
مليكٌ كفيلٌ لمن يرتجيه بكلِّ مَرَامٍ بَعيدٍ وسول
وفرعٌ كريمٌ حميدُ الخلالِ نماه إلى المجد طيبُ الأصول
فدامَ لنا ما سرى في الرياض نسيمُ الصَّبَا ومهبُّ القَبُول
وحنَّ مشوقٌ لأرضِ الحجازِ إذا لاحَ إيماضُ بَرْقٍ كَليلِ

---

(١) القِيلُ: القول. لسان العرب (قول).
(٢) المُنيل: المُعْطي. لسان العرب (نيل).
(٣) في طبعة عبد الحميد (ج ١٠ ص ١٥٦): «اعداء».

وقال يمدح السلطان أبا عبد الله محمد بن يوسف بن نَصْر من مدينة فاس[1]:

[الطويل]

لمن طَلَلٌ بالرَّقمتين مُحِيلُ عَفَتْ دِمْنتيه شمألٌ وقَبُولُ[2]
يلوحُ كباقي الوَشْمِ غَيَّرَهُ البلى وجادَتْ عليه السُّحبُ وهي همولُ[3]
فيا سعدُ، مهلاً بالرِّكَابِ لَعَلَّنا نُسائلُ رَبْعًا فالمُحِبُّ سَؤولُ
قِفِ العِيسَ ننظرْ نظرةً تُذْهِبُ الأسى ويُشْفَى بها بين الضُّلوع غليلُ
وعَرِّجْ على الوادي المقدس بالحِمى فطاب لديه مَرْبَعٌ ومَقِيل
فيا حبّذا تلك الديارُ وحبّذا حديثٌ بها للعاشقين طويل
دعوتُ لها سقيَ الحمى وربوعه[4] وميضٌ وعَزفٌ للنسيم عليلُ
وأرسلتُ دمعي للغمام مساجلاً فَسَالَ على الخَدَّين منه مَسِيلُ
فأصبح ذاك الرَّبْعُ من بعد مَحْلِهِ رياضًا بها الغصنُ المروحُ يميل
لئن حالَ رسمُ الدارِ عمّا عهدته فعهدُ الهوى في القلب ليس يحولُ[5]
ومِمّا شجاني بعد ما سَكَنَ الهوى بُكاءُ حماماتٍ لهنَّ هديل
توسَّدْنَ فرعَ البان والنجمُ مائل وقد آن من جيش الظلام رحيل
فيا صاحبي دَعْ عنكَ لومي فإنه كلامٌ على سمع المُحِبِّ ثقيل
تقول: اصطبارًا عن معاهِدِك الأُلى وهيهاتَ صبري ما إليه سَبِيلُ
فلله عَيْنا من رآني وللأسى غداةَ استقلَّتْ بالخليط حُمول
يُطاولُ ليلَ التِّمِّ مني مُسَهَّدٌ وقد بان عنِّي منزلٌ وخليل
فيا ليت شعري هل يعودَنَّ ما مضى؟ وهل يسمحنَّ الدهرُ وهو بخيل
وهل راجعٌ عهد الحمى؟ سُقيَ الحمى وظلّ بعين الدمع فيه ظَليلُ[6]

---

(١) بعض هذه القصيدة في الإحاطة (جـ ٣ ص ٤٣٦ - ٤٣٧).

(٢) المُحيل: المتغيّر. الدِّمْنة: الموضع القريب من الدار. الشمأل: ريح الشمال. القبول: الريح التي تقابل الشمأل. لسان العرب (حيل) و (دمن) و (شمأل) و (قبل).

(٣) همول: منهمرة. لسان العرب (همل).

(٤) في طبعة دار صادر (جـ ٧ ص ٢٩٣) والإحاطة: «الحمى بعدما سرى».

(٥) يحول: يتغيّر. لسان العرب (حول).

(٦) هذا البيت والأبيات التالية غير واردة في الإحاطة.

وأيامُ أُنْسٍ كم نعمنا بقربها ... وقد غاب عنّا حاسدٌ وعذول
حلفتُ بربِّ الراقصاتِ إلى مِنًى ... لهنّ إلى البيت العتيق ذَمِيلُ[1]
لَجُودُ أميرِ المسلمين محمدٍ ... بكلّ مرام في الزمان كفيلُ
مليكٌ أتاه اللّه في الملك عَزْمةً ... يروعُ الأعادي بَأْسُها ويهول
هو الملكُ المنصورُ والبطلُ الذي ... يهون عليه الخَطْبُ وهو جليل
إذا فُلَّتِ البِيضُ الرقاقُ وجدته ... أخا عزماتٍ ما لهن[2] فلول
يقصّرُ باعُ المدح دون صفاتِهِ ... ويرجعُ عنها الفكرُ وهو كَلِيلُ
من النفر البيض الوجوه لدى الوَغى ... لهم غررٌ وَضَّاحةٌ وحُجُولُ
هُمُ ما هُمُ والحربُ قد شَبَّ نارُها ... وللخيل في جنح العجاج صهيل
إذا سئلوا يوم الندى فنوالهم ... تفيضُ شآبيبٌ[3] له وسيول
بهم عَزَّ دينُ اللّه شرقًا ومغربًا ... وأصبح دينُ الكفر وهو ذليل
هُمُ السادةُ الأنصارُ والعربُ الألى ... حَمَى الدينَ حيٌّ منهمُ وقبيل
لهم يومُ بَدْرٍ والرسولُ أميرهم ... تصولُ به أرماحُهُم وتطول
فأصبح أصحابُ القليبِ[4] كأنهم ... كثيبٌ لوطْءِ المرهفات مهيل
وقد أمن الإسلامُ كيدَ عدوِّه ... وغودر رَبْعُ الكفر وهو مُحِيلُ
وعدّوا رواحًا للمدينة والرضا ... لهم منه فوزٌ عاجلٌ وقبول
فمن ذا يجاري أو يداني عصابةً ... جزاؤهمُ عند الإلّه جزيل
لكم يا بني نصرٍ من المجد هضبةٌ ... تزولُ الرواسي وهي ليس تزول
فيا سَيِّدَ الأملاكِ والواحد الذي ... إذا عُدَّ فخرٌ ليس عنه عدول
لقد قرع الأعداءَ منك مؤيدٌ[5] ... له الذعرُ نصرٌ والحسامُ دليلُ
فلم يدركوا ما أمّلوا غيرَ ساعةٍ ... كذاك مَتَاعُ الأخسرين قليلُ

---

(١) الراقصات: أراد النوق التي تحمل الحجاج. الذميل: ضرب من السير السريع. لسان العرب (ذمل).

(٢) في طبعة دار صادر (جـ ٧ ص ٢٩٤): «بهنّ».

(٣) الشآبيب: جمع شؤبوب وهو الدفعة من المطر. لسان العرب (شأب).

(٤) القليب: البئر، وأصحاب القليب: قتلى المشركين في معركة بدر، لأنهم طرحوا في قليب هنالك. لسان العرب (قلب).

(٥) في طبعة عبد الحميد (جـ ١٠ ص ١٥٨): «مؤيدًا».

تعاوَين في باب البنود بسحرةٍ كلابٌ عليهم بعد ذاكَ عويلُ
أبى اللّه إلاَّ أن يموتوا بغيظهم فويلٌ لهم من مكرهم وأليلُ
فأضحَوْا حديثًا في البلاد ويومهم وساء صباحٌ عندهم وأصيلُ
بسعدِ إمامٍ يُنْزِلُ العُصْمَ سَعْدُه ويروي نداه والزمانُ محول
وفرعِ كمالٍ في الخلافة ثابتٍ نَمَتْه إلى المجد الزكيِّ أصول
حكى وَجْهُهُ شمسَ النهار إذا بَدَا وريّاه[1] عَرْفَ الروضِ وهو بليلُ
أعادَ لنا بالعدلِ أيامَهُ التي عهدنا، فدارتْ للسرور شمولُ
فدامَ لنا ما هَبَّ عَرْفٌ من الصَّبا وأومض برقٌ في الظلام كليل
وحَنَّ مشوقٌ للحجاز إذا بَدَتْ لعينيه منه شامةٌ وطفيل
وأشرقَ نجمٌ مثلَ قلبيَ خافق وحانَ له عند الغروب أُفُولُ
وما[2] زالتِ الأقدار تجري بأمره وصنعُ إلَـهِ العرش فيه جميلُ

وقال في إعذار ابن السلطان رحمه اللّه تعالى ورضي عنه: [الوافر]

أَثِرْهَا عزمةً تُنْضِي[3] الركابا وإن دميتْ لها العينُ انسكابا
لعلَّ الوَجْدَ تطفأ منه نارٌ أَبَتْ إلاَّ زفيرًا والتهابا
أما بعد الألى ترجو قلوبٌ تسارعُ نحو أرضهمُ انقلابا
فيا أخوَيَّ، كُفَّا عن عتابي فلستُ بسامعٍ أبدًا عتابا
تذكَّرْتُ العقيقَ فسال دمعي عقيقًا من تذكّره مذابا
أقولُ لنسمةٍ مَرَّتْ صباحًا يُعَطِّرُ عَرْفُها القفرَ اليبابا
ألاَ يا هذه كوني رسولي وكوني إن رجعتِ ليَ الجوابا
نشدتك بَلِّغي صحبي سلامي إذا جئتِ المعاهدَ والقبابا
يلومُنِيَ العواذلُ في اشتياقي إذا ما القلبُ من وَجْدي تصابى
وكم بين الأباطح مِنْ مَهَاةٍ تروعُ بلحظها الأُسْدَ الغضابا

---

(١) الريّا: الرائحة الطيبة. محيط المحيط (روى).
(٢) في طبعة دار صادر (جـ ٧ ص ٢٩٥): «ولا زالت».
(٣) تنضي: تعيي، تعجز. لسان العرب (نضا).

رمتني ثم قالت وهي تُزري ولم تحذرْ بِفَتْكَتِها[1] العقابا
إذا ما الشُّهبُ للغرب استمالتْ وفَوْدُ الليلِ بالإصباح شابا
أُوَجِّهُ، إن رَقَدْتَ، إليكَ طيفي كلمعِ البرقِ يخترقُ السحابا
فقلتُ: لقد بخلتِ على مشوقٍ أبى إلاّ غرامًا واكتئابا
وكيف له بنومٍ بعد وَجْدٍ يذيبُ لهيبُه الصُّمَّ الصلابا
سينصره من الأنصارِ مَلْكٌ إذا ناداه مظلومٌ أجابا
كريمُ الذاتِ من ملأٍ كرام لقد طابَتْ سجاياهم وطابا
تواضعَ رحمةً وعَلاً محلاً وسَهَّلَ منه للناس الحجابا[2]
فليس يُصَدُّ عن جدواه راجٍ وليس يَسُدُّ عن عافيه بابا[3]
له عطفٌ على الراجي جميلٌ يَفُلُّ[4] من الردى ظُفُرًا ونابا
ومَلْكٌ[5] آمنَ الأرجاءَ حتى ترى الغزلانَ لا تخشى الذئابا
أمولايَ الذي أحيا المعالي وقد بليتْ وأُلحفتِ الترابا
مَدَدْتَ على البلاد جناحَ عدلٍ وكفُّ الجور تستلبُ استلابا
وتابَ الدهرُ مِمّا قد جَناه فجدتَ له بعفوكَ حين تابا
وسَكَّنَ عزُّ دولتك الدواهي فكانت رحمةً دَفَعَتْ عذابا
ويا للّه إعذارٌ سعيدٌ دَعَوتَ السعدَ فيه فاستجابا
عجبتُ لمُقدِمٍ والروعُ يهفو بأفئدةِ الكُمَاة وما استرابا[6]
ومِنْ شِبْلٍ أطاعَ أخا سلاحٍ وحكَّمه اصطبارًا واحتسابا
وهل عذرٌ لعاذرِ ليثِ غابٍ أظنّ فؤادَهُ والعقلَ غابا
فلولا سُنَّةٌ حكمتْ وهديٌ أصبت وقد سلكت به الصوابا
لَحامَتْ عُصْبَةُ الأنصارِ عنه بأسيافٍ تقدُّ بها الرقابا

(١) في طبعة عبد الحميد (ج ١٠ ص ١٦٠): «بفكتها»، وهكذا ينكسر الوزن.
(٢) في طبعة عبد الحميد: «الحسابا».
(٣) الجدوى: العطية. العافي: طالب المعروف. لسان العرب (جدا) و (عفا).
(٤) يفلُّ الظفر والناب وغيرهما: يكسر حدّهما. لسان العرب (فلل).
(٥) في طبعة دار صادر (ج ٧ ص ٢٩٦): «وعدلٌ أمّن الأرجاء..».
(٦) استراب: وقع في الشكّ والريبة. لسان العرب (ريب).

مـن الـصِّـيـد الـذيـن لـهـم نـفـوسٌ لـغـيـر الـفـخـرِ لا تـصـل الـطِّلابـا
تـنـيـرُ الـلـيـلَ أوجُـهُـهُـم إذا مـا أرادوا الـسـيـر أو حَـثُّـوا الـركـابـا
دعَـوْتَ بـه الأنـامَ لـيـوم حـشـرٍ ولـم تـذخـرْ[1] لـهـم إلاَّ الـثـوابـا
رأوا مـن زخـرفِ الـدنـيـا مـقـامًـا يـذكُـر بـالـجـنـان لـمـن أنـابـا
وأَبْـهَـتْـهُـمْ فـمـا عـاطَـوْا حـديـثًـا ولا عـرفـوا الـسؤالَ ولا الـجـوابـا
ولـو مـكـثـوا بـه دهـرًا طـويـلاً لـمـا ذكـروا الـطـعـامَ ولا الـشـرابـا
وطـاردت الـصُّـوارَ[2] بـكـلِّ ضـارٍ كـمـا أتـبـعـتَ عـفـريـتًـا شـهـابـا
ضـريـتَ بـه عـلـى الآذانِ مـنـهـا فـلـم تـسـطـعْ حـراكًـا واضـطـرابـا
ومـعـصـوب الـجـبـيـن بـتـاج رَوْقٍ يـروعُ خُـوَارُهُ الأسْـدَ الـغـضـابـا[3]
تـعـرّف أنَّ تـحـتَ الأرضِ ثـورًا فـرام بـأن يـشـقَّ لـه الـتـرابـا
وكَلْتَ بـه هـضـيـمَ الـكـشـح أَجْنَى[4] حـديـدَ الـنـاب تـحـسـبـهـا حـرابـا
تـبـاعَـدَ مـجـمـعُ الـشـدقـيـن مـنـه وسـالَ الـمـوتُ بـيـنـهـمـا لـعـابـا
فـأثـبـتـه كـوَخْـي الـطـرفِ حـتـى تـوثـق مـنـه جـازره غـلابـا
وصـاح بـه الـصُّـوار وقـد رآه حـبـيـسَ الـكـلـب قـد مُـنـع الإيـابـا
(فَغُضَّ الـطَّرْفَ إنـك مـن نُـمَـيْـرٍ فـلا كَـعْـبًـا بَـلَـغْـتَ ولا كِـلابـا)[5]
وأرسـلـت الـجـيـاد إلـى اسـتـبـاقٍ كـأنَّ بـوارقًـا شَـقَّـتْ سـحـابـا
فـمِـنْ وَرْدٍ أقـبَّ[6] ومـن كُـمَـيْـتٍ وأشـهـبَ يُـلْـهـبُ الأرضَ الـتـهـابـا
وسـاقـيـة الـعـمـاد إذا أطَـلَّـتْ إلـى الأدواحِ تـنـسـابُ انـسـيـابـا
تـحـومُ بـهـا الـعـصـيُّ فَـرَاشَ لـيـلٍ تـرومُ بـسـمـعـه مـنـه اقـترابـا
تـحـفُّ بـهـا خـيـولُ الـقـوم مـنّـا فـتـرسـلُ نـحـوهـا الْـجُـرْدَ الـعِـرابـا[7]

---

(١) في طبعة عبد الحميد ج ١٠ ص ١٦١): «تدخر» بالدال المهملة.
(٢) الصُّوار: القطيع من البقر الوحشي. لسان العرب (صور).
(٣) الرَّوقُ: القرن. الخُوار، بضمِّ الخاء: صوت البقر. لسان العرب (روق) و (خور).
(٤) الأجنى: الذي ذهب قرناه، وأصله: «أجنأ» بالهمز. لسان العرب (جنأ).
(٥) البيت لجرير بن عطية الخطفي قاله في الهجاء، وهو في طبقات الشعراء (ص ١٢٣).
(٦) الأقبُّ من الخيل: الضامر البطن الدقيق الخصر. لسان العرب (قبب).
(٧) العِراب: الخيل الأصيلة الخالية من الهجنة. لسان العرب (عرب).

عجائبُ أبدعتْ علياكَ فيها ‏ ‏ ‏ ومثلكَ يبدعُ الأمرَ العجابا
محمد لا عدمتَ الدهرَ حَمْدًا ‏ ‏ ‏ فقد أحسنت في الملك المنابا
وزكّى نَفْسَكَ الرحمنُ لمَّا ‏ ‏ ‏ رآكَ ملكتَ للمجدِ النِّصابا
تداركتَ البلادَ ومَنْ عليها ‏ ‏ ‏ فأَمَّنْتَ التنائفَ[1] والشعابا
لقد أوليتنا بِيضَ الأيادي ‏ ‏ ‏ لقد طوّقتنا المننَ الرغابا[2]
رَوَتْ عنكَ العوالي في المعالي ‏ ‏ ‏ حديثَ الفخرِ حقًّا لا انتسابا
ستفتحُ من بلادِ الشركِ أرضًا ‏ ‏ ‏ قد اعْتُقِلَتْ عقائلُها اغتصابا
وتُعْملُ في العدا بِيضَ المواضي ‏ ‏ ‏ إلى أن يُنْكِر السيفُ القُرَابَا
فما كأسٌ من الصهباء صرفٌ ‏ ‏ ‏ تعيدُ الشيخَ من طربٍ شبابا
وطاف بها من الرهبان بَدْرٌ ‏ ‏ ‏ يُهَتِّكُ من دجى الليلِ الحجابا
تجدّ الأنس عَوْدًا بَعْدَ بَدْء ‏ ‏ ‏ ورَبْعُ الهمِّ تتركه خرابا
بأعْذَبَ من ثنائك حين يطوي ‏ ‏ ‏ به الركبُ الأباطحَ والهضابا
أمولاي استمعها بنتَ فكر ‏ ‏ ‏ تخيَّرَها فأبرزها لُبَابا
وغاص على فرائدها العوالي ‏ ‏ ‏ وشقَّ على نفائسها العبابا
وهنّاكَ الإلَهُ بكلِّ نعمى ‏ ‏ ‏ تقودُ لك الأمانيَّ الصعابا
ودُمْتَ لعزّة الإسلامِ ركنًا ‏ ‏ ‏ إلى أن يشمل الشيب الغرابا

وقال، وقد أنشدها السلطان ليلة الميلاد عام خمسة وستين وسبعمائة: [الكامل]

نَفَسُ الصَّبَا أهدى إليَّ نسيما ‏ ‏ ‏ قد رامَ ممتنعًا ورام عظيما
يا هل يُبَلِّغُني السُّرى خيرَ الورى ‏ ‏ ‏ فأرى معاهدَ للهوى ورسوما
وأسابقُ الركبانَ فوق نجيبةٍ ‏ ‏ ‏ تَفْرِي من البيد العراضِ أديما[3]
وأحطّ رحلي في كريم جوارِهِ ‏ ‏ ‏ أرجو نعيمًا في الجنان مُقيما
حتى إذا بلغوا الذي قد أمّلوا ‏ ‏ ‏ ورأوا مقامًا بالرضا موسوما

---

(١) التنائف: جمع تنوفة وهي الصحراء الواسعة التي لا ماء فيها. لسان العرب (تنف).
(٢) الرغاب: جمع رغيبة وهي الواسعة. لسان العرب (رغب).
(٣) النجيبة: الناقة السريعة. تفري: تقطع. البيد: جمع بيداء وهي الصحراء. الأديم: وجه الأرض. لسان العرب (نجب) و (فرا) و (بيد) و (أدم).

وتزاحموا في الترب يستلمونه أرأيتَ في الوِرْدِ الظِّماءَ الهِيمَا[1]

قَبَّلْتُ ذاك التربَ من شوقي إلى مَنْ حلَّه وأقمتُ فيه لزيما

وبكيتُ مع دمع المآقي زمزمًا وتركتُ جسمي كالحطيم حطيما

صلّى عليه اللَّه ما هَبَّتْ صَبًا تهدي من الطيب الذكيِّ شميما

للَّه مولدُهُ الذي أنوارُهُ صَدَعَتْ ظلامًا للضلال بهيما

شرعت من التأييد سيفَ هداية أرْدَتْ ظُبَاه فارسًا والروما

كسر الأكاسرَ بالعراء ولم يَدَعْ أن ردَّ قيصر قاصرًا مهزوما

للَّه منها ليلةٌ أضحى بها شملُ الهدى لأولي الهدى منظوما

أبدًا أميرُ المسلمين أعدَّها بدعًا من القصر الكريم جسيما

ملكٌ أقام اللَّه منه لخلقِهِ مولًى رؤوفًا بالعِبادِ رحيما

يحمي ذمارَ المسلمين من الردى ويبيحُ رَبْعًا للعدا وحريما

بمحمدٍ قد عادَ دينُ محمد غضَّ الرياض وكان قبلُ هَشيما

أحيا به اللَّه الخلافةَ بعدما كانت بأطباقِ الترابِ رميما

من آل سعدِ الخزرج بنِ عُبَادةٍ طابوا فروعًا في العُلا وأروما

تلقاه في يوم الكريهة والوَغَى والخيلُ عابسةٌ أغرَّ وسيما

وتخالُ كَفَّيه إذا شَحَّ الحَيَا أُفقًا بعاميةِ الغيوثِ غيوما

تأبى خلالُ العدلِ والشيَمُ للعلا من أن يرى في دهره مظلوما

كهفُ العباد وفخرُها وثناؤه ترك المديحَ على الطروس رقيما

لا زالَ يلقى العيشَ طَلقًا والعُلا مرقًى وصرفَ الحادثات خديما

ما اهتزَّ غصنٌ في الحديقة ناعمٌ لمّا أحَسَّ من الشمال شميما

مولده بغرناطة، يوم السبت سابع عشر صفر عام ثلاثة وأربعين وسبعمائة؛ انتهى.

ومِمّا خاطب به لسان الدين رحمه اللَّه تعالى ولده عبد اللَّه المذكور ما في «النفاضة» من قوله[2]: أنشدت ابني عبد اللَّه وقد وصل لزيارتي من الباب السلطاني حيث جرايته ووظيفته، وانجرَّ حديثُ ما فُقِدَ بغرناطة في شجون الكلام: [الخفيف]

---

(١) الهِيمُ: جمع هيماء وهي الشديدة العطش. لسان العرب (هيم).

(٢) نفاضة الجراب (ص ١٦٤ ـ ١٦٥) وأزهار الرياض (جـ ١ ص ٢٩٩).

يا بُنَيَّ عبدَ الإلَهِ احتسابًا عن أثاثٍ ومنزلٍ وعَقارِ
كيف يأسَى على خَسارةِ جُزْءٍ مَنْ يَرَى الكُلَّ في سبيلِ الخَسارِ
هَدَفٌ لا تَني سِهامُ الليالي عن سِباقِ تِجاهَهُ وبِدارِ[1]
واحدٌ طائِشٌ وسهمٌ[2] مصيبٌ ليس ينجي منها اشتمالُ حِذارِ
غير ذي الدار صُرِّفَ الهَمُّ فيها فمناخُ الرحيلِ ليس بدار

انتهى[3]. وقال أيضًا رحمه اللّه تعالى: مِمّا أنشدته ولدي عبدَ اللّه، وأمرته بحفظه والتأدّب به واللهج بحكمته[4]: [الوافر]

إذا ذَهَبَتْ يمينُكَ لا تُضَيِّعْ يسارَكَ[5] في البكاء ولا المُصِيبَهْ
ويُسْرَاكَ[6] اغتنِمْ فالقوسُ تَرْمي وما تدري أَرَشْقَتُها قريبهْ
وما بغريبةٍ نُوَبُ[7] الليالي ولكنَّ النجاةَ هي الغريبهْ

قال: ومن المنظوم في قريب من هذا قولي[8]: [الطويل]

أيا أهلَ هذا القُطْرِ ساعَدَهُ القَطْرُ دُهِيتُ فدلُّوني لمن يُرْفَعُ الأَمْرُ
تشاغلْتُ بالدنيا ونِمْتُ مُفَرِّطًا وفي شُغْلي أو نومتي سُرِقَ العُمْرُ

وقال رحمه اللّه تعالى: ومِمّا قلته وقد انصرف عنّي الولدُ عبد اللّه إلى مدينة فاس لإقامة رسمه من الخدمة. وأشجاني انصرافُه لوقوع قرحة[9] على قرح، واللّه المستعان[10]: [الخفيف]

بانَ يومَ الخميس قُرَّةُ عَيْني حَسْبِيَ اللّه أيُّ موقفِ بينِ

---

(١) البِدار: المبادرة والمسارعة. لسان العرب (بدر).
(٢) في نفاضة الجراب: «وثانٍ مُصيبٌ».
(٣) كلمة «انتهى» ساقطة من طبعة عبد الحميد (جـ ١٠ ص ١٦٤).
(٤) نفاضة الجراب (ص ١٦٥) وأزهار الرياض (جـ ١ ص ٢٩٩).
(٥) في نفاضة الجراب: «زمانك».
(٦) في نفاضة الجراب: «ويُسْراها».
(٧) النُّوَبُ: جمع نائبة وهي المصيبة.
(٨) البيتان في نفاضة الجراب (ص ١٦٥) وأزهار الرياض (جـ ١ ص ٢٩٩) وقد تقدما في الجزء التاسع وجاء هناك: «بليت» بدل «دهيت» في البيت الأول.
(٩) في طبعة عبد الحميد (جـ ١٠ ص ١٦٥): «قرحه».
(١٠) الأبيات في نفاضة الجراب (ص ١٦٥ ـ ١٦٦) وأزهار الرياض (جـ ١ ص ٣٠٢).

لو جَنَى موقفُ النَّوَى حين حَيًّا حان[1] يومَ الوداع واللَّه حَيْنِي
ضايَقَتْني صروفُ هذي الليالي وأطالتْ همِّي وأَلْوَتْ بِدَيْني[2]
وَطَنٌ نازحٌ وشَمْلٌ شَتِيتٌ كيف يبقى مُعَذَّبٌ بعد ذَيْنِ
يا إلَهي، أَدْرِكْ بلطفك ضَعْفي إنَّ ما أشتكيه ليس بِهَيْنِ

وقال رحمه اللَّه تعالى: أنشدت يومًا ولدي عبدَ اللَّه وقد رأيتُ منه نشاطًا ومَرَحًا انتقل مني إليه بعد السنّ[3]: [الرمل]

سَرَقَ الدهرُ شبابي من يدي وفؤادي مُشْعَرٌ بالكَمَدِ
جملةُ الأمرِ إذا أبصرته باعَ ما أفقدني من ولدي

وقد سبق هذان البيتان عند ذكر بعض نظم لسان الدين رحمه اللَّه تعالى.

وأمّا علي ابن لسان الدين رحمه اللَّه تعالى فهو شاعر البيت بعد أبيه النبيه، وكان مُصَاحِبًا للسلطان أحمد المريني المستنصر باللَّه ابن السلطان أبي سالم ابن السلطان أبي الحسن المريني، رحمهم اللَّه تعالى!.

وحكى بعضُهم أنه حضر معه في بستان، سَحَّ فيه ماء المذاكرة الهتّان، وقد أبدى الأصيل شواهد الاصفرار، وأزمع النهار لما قدم الليل على الفرار، فقال المستنصر لمّا لان جانبُه، وسالت بين سرحات البستان جداولُه ومَذَانبُه[4]: [البسيط]

يا فاسُ، إني وأَيْمُ اللَّهِ ذو شغفٍ في كلِّ رَبْعٍ به[5] مغناهُ يسبيني
وقد أنستُ بقربٍ منك يا أملي ونظرةٌ فيكُمُ بالأنسِ تحييني

فأجابه أبو الحسن علي بن الخطيب، بقوله المصيب: [البسيط]

لا أوحش اللَّهُ رَبْعًا أنتَ زائرُهُ يا بهجةَ المُلْكِ والدنيا مع الدينِ
يا أحمدَ الحمد، أبقاكَ الإلَهُ لنا فخرَ الملوكِ وسلطانَ السلاطينِ

---

(١) في نفاضة الجراب: «كان».
(٢) ألوى بالدَّين: مطله. لسان العرب (لوى).
(٣) تقدم البيتان في الجزء التاسع وفيه: «وحمدت» بدل «جملة» في البيت الثاني.
(٤) المذانب: جمع مذنب وهو مسيل الماء إلى الأرض. محيط المحيط (ذنب).
(٥) في طبعة دار صادر (جـ ٧ ص ٣٠١): «لهم مغناه..».

وقد رحل، رحمه اللّه تعالى، إلى مصر، ولم يحضرني الآن من أحواله بعد دخوله مصر ما أُعَوِّلُ عليه، وقد كان وقف بالقاهرة على نسخة «الإحاطة» التي وجّهها أبوه إلى مصر ووقفها بخانقاه سعيد السعداء كما أشرنا إليه فيما مرّ، فكتب بالحواشي كتاباتٍ مفيدة، وقد ذكرْنا بعضها فيما أسلفْناه من هذا الكتاب، فليراجَعْ: إمّا تكميل لِمَا أغفله أبوه، وإما إخبار عَمّا شاهده هو، أو رواية له عن المترجم به، أو جواب عن أبيه فيما انْتُقِدَ عليه. ولنذكر شيئًا منها غير ما تقدّم بعد إيراد نصّ «الإحاطة» فنقول:

قال في «الإحاطة» في حرف الميم في ترجمة شمس الدين الهواري الضرير شارح ألفية ابن مالك وصاحب البديعية المشهورة[١] بالأعمى والبصير، ما صورته[٢]:

محمد بن أحمد بن علي الهوّاري، يكنى أبا عبد اللّه، ويعرف بابن جابر[٣]، من أهل ألمرية.

حاله. رجل كفيف البصر، مدل على الشعر، عظيم الكفاية والمِنّة على زَمَانته[٤]، رحل إلى المشرق، وتظاهر[٥] برجل من أصحابنا يُعْرف بأبي جعفر الإلبيري، صارا روحين في جسد، وَوقع الشعر منهما بين لَحْيَيْ أسد، وشمّر[٦] للعلم وطلبه، فكان وظيفة[٧] الكفيف النظم، ووظيفة البصير الكَتْب، وانقطع الآن خبرهما؛ انتهى.

فكتب المذكور على أوّل الترجمة ما صورته: نعم الرجل ورفيقه أبو جعفر، أحسن اللّه تعالى إليهما، فلقد أحسنا الصحبة، في الغربة، وانفردا بالنزاهة والفضل وعلوّ الهمّة، إلاّ أن المصنّف قصّر فيهما بعضَ قصور، ومنهما يُطْلب الإغضاء والصفح، فالرجل مات،

---

(١) في طبعة دار صادر (جـ ٧ ص ٣٠٢): «الشهيرة».
(٢) الإحاطة (جـ ٢ ص ٣٣٠).
(٣) ترجم المقري لابن جابر ورفيقه أبي جعفر الإلبيري في الجزء الثالث. وهنا يسهب في ذكرهما.
(٤) الزمانة: العاهة الدائمة. لسان العرب (زمن).
(٥) في الإحاطة: «وتظافر». وتظاهر به: استعان به. لسان العرب (ظهر).
(٦) في طبعة عبد الحميد (جـ ١٠ ص ١٦٦): «شمّرا». وفي الإحاطة: «وشمّرا للكُدْية». وشمّر للعلم: اجتهد فيه. لسان العرب (شمر).
(٧) في الإحاطة: «وظيف.. ووظيف البصير..».

وذكْرُ الأموات بالخير مشروع، وهما واللّه الشرف الباهر بقطرهما علمًا وعملاً، أمتع اللّه تعالى بهما! قاله ولَدُ المؤلِّف علي بن الخطيب بالقاهرة؛ انتهى[1].

وكتب على قول أبيه «وانقطع الآن خبرهما» ما نصُّه: هما الآن بإلبيرة من حلب، تحت إنعام ولطف، تحثّ إليهما الرواحل، وتُضرب إليهما آباط النُّجُب؛ انتهى.

رجع لتكميل ترجمة الشمس ابن جابر من «الإحاطة»[2]:

قال لسان الدين بعد ما مضى ما نصّه، وجرى ذكره في الإكليل بما نصّه: محسوبٌ من طلبتها الجِلّة، ومعدودٌ فيمن طلع بأفقها من الأَهِلَّة، رحل إلى المشرق وقد أصيب ببَصَره، واستهان في جنب الإفادة بمشقّة سفره، على بيان عذره، ووضوح ضُرِّه.

شعره. وشعره كثير، فمنه قوله[3]: [الطويل]

سلوا حُسْنَ[4] ذاك الخالِ في صفحةِ الخَدِّ ... متى رَقَمُوا بالمِسْكِ في ناعم الوردِ
وقولوا لذاك الثغرِ في ذلك اللَّمى ... متى كان شأنُ الدّرّ يوجد في الشهدِ[5]
ومَنْ هَزَّ[6] غُصْنَ القدِّ منها لِفِتْنتي ... وأودَعَهُ رُمّانتَيْ ذلك النَّهْد
ومن مَتَّعَ القُضْبَ اللّدانَ بوصفها ... إلى أن أعرنَ الحسنَ من ذلك القَدِّ[7]
فتاةٌ تفتُّ القلبَ منّي بِمُقْلَةٍ ... لها رقّةُ الغزلان في سَطْوةِ الأسْد
تَمَنَّيْتُ أن تهدي إليَّ نهودها ... فقالت رأيتَ البدرَ يُهْداه أو يهدي
فقلتُ ألِلرُّمّانِ[8] بُدٌّ من الجنى ... فتاهتْ وقالتْ: باللواحظ لا الأيدي
فقلتُ أليس القلبُ عندكِ حاصلاً ... فقالت قلوبُ الناسِ كلّهمُ عندي
فقلتُ اجعليني من عبيدك في الهوى ... فقالت كفاني كم لحسنيَ من عبدِ

---

(١) كلمة «انتهى» ساقطة من طبعة دار صادر (جـ ٧ ص ٣٠٣).
(٢) الإحاطة (جـ ٢ ص ٣٣٠).
(٣) القصيدة في الإحاطة (جـ ٢ ص ٣٣٠ ـ ٣٣١).
(٤) في الإحاطة: «سلوا مَسَرَّ ذاك..».
(٥) هذا البيت غير وارد في الإحاطة.
(٦) في الإحاطة: «ومن هو غصن..».
(٧) في الإحاطة: «ومزمتي القضب.. بوصلها إلى أن أعزر..».
(٨) في الإحاطة: «وللرمان».

إذا شئتَ أن أرضاك عبدًا فَمُتْ جَوًى | ولا تشتكي واصبرْ على ألم الصَّدِّ
ألم تَرَ أنَّ النحلَ يُحْمَل ضرُّها | لأجل الذي تجنيه من خالص الشهد
كذلك بَذْلُ النَّفْسِ سهلٌ لذي النُّهى | لما يكسبُ الإنسانُ من شرف الحمد
ألستَ ترى كفَّ ابن جانةَ طالما | أضاعَ كريمَ المال في طلب المجدِ

وكتب ابن المؤلف على هذه القصيدة ما صورته: عارضة قوية، ونزعة خَفَاجية[١]، وكيف لا والشيخ أبو عبد الله صَدْر صدور الأندلس علمًا ونظمًا ونحوًا، زاده الله تعالى من فضله! انتهى.

رجع إلى الترجمة ـ قال لسان الدين: وقال، يعني ابن جابر[٢]: [الكامل]

عَرِّجْ على بانِ العُذَيبِ ونادي | وأنشدْ فديتُكَ أين حَلَّ فؤادي[٣]
وإذا مررتَ على المنازل بالحِمى | فاشرحْ هنالك لَوْعتي وسُهادي
إيهٍ فديتُكِ يا نُسَيْمَةُ خبِّري | كيف الأَحبَّةُ والحمى والوادي
يا سعدُ، قد بانَ العُذيبُ وبانُهُ | فانزلْ فديتُك قد بَدَا إسعادي
خُذْ في البشارة مُهْجَتي يومًا إذا | بَانَ العُذَيبُ ونورُ حسنِ سعاد[٤]
قد صَحَّ عيدي يوم أُبْصِرُ حُسْنَها | وكذا الهلالُ علامةُ الأعياد

ومِمَّا نقلته[٥] من جزء قيّده لي صاحبنا الفقيه الأستاذ أبو علي[٦] الزواوي مِمَّا ادّعاهُ لنفسه[٧]: [الوافر]

عليَّ لكلِّ ذي كَرَم ذِمامُ | ولي بِمَدَارِكِ المجدِ اهتمامُ
وأحسنُ ما لديَّ لقاءُ حُرّ | وصحبةُ معشرٍ بالمجد هاموا[٨]

---

(١) نزعة خفاجية: نسبة إلى ابن خفاجة، شاعر الطبيعة في الأندلس.
(٢) الأبيات في الإحاطة (جـ ٢ ص ٣٣١).
(٣) في الإحاطة: «ونادِ.. إن حلَّ..». ويقال: نشد فلان الضالة إذا طلبها. لسان العرب (نشد).
(٤) في الإحاطة: «ونوّر حسنُه سعادي».
(٥) في الإحاطة: «ومما نقلناه من خبر قيّده..».
(٦) في الإحاطة: «علي منصور الزواوي».
(٧) الأبيات في الإحاطة (جـ ٢ ص ٣٣١ ـ ٣٣٢).
(٨) في الإحاطة: «وصحبته... هام».

وإني حين أُنسبُ مِنْ أناسٍ | على قِمَمِ النجومِ لهمْ مَقام
يميلُ بهم إلى المجد ارتياحٌ | كما مالتْ بشاربها المُدامُ[1]
هُمُ لبسوا أديمَ الليل بُرْدًا | لِيُسْفر عن أديمهم الظلامُ[2]
هُمُ جعلوا مُتُونَ العِيسِ أرضًا | فمذ عزموا الرحيلَ فقد أقاموا[3]
فمن كلِّ البلاد لنا ارتحالٌ | وفي كلِّ البلاد لنا مُقام
وحول مواردِ العلياء منّا[4] | لنا مع كلِّ ذي شَرَفٍ زِحام
تصيبُ سهامُنا غَرَضَ المعالي | إذا ضلَّتْ عن الغَرَضِ السِّهام
وليس لنا من المجد اقتناعٌ | ولو أنَّ النجومَ لنا خيامُ[5]

ثم سرد لسان الدين القصيدة بتمامها[6]، وذكر بعد ما سبق اثنين وستين بيتًا، ولم نثبتها لطولها، ثم قال بعدها: نجزت وما كادت، ثم قال بعدها أيضًا: وقد وطَّأ[7] لإمطاء قروحها، وأعيا لإكثار سروحها، ثم قال بعده: واللّه وليّ النجاة[8] بفضله؛ انتهى.

وكتب ابنه على أول القصيدة وهو: «عليَّ لكلِّ ذي كرمٍ ذمامُ» ما نصُّه: نزعةٌ مَعَرّيّة[9]، قاله ابن المؤلف، رحمه اللّه تعالى! انتهى.

وكتب الشيخ ابن مرزوق على قوله «نجزت إلى آخره» ما صورته: ما أنصف المصنّفُ هذا الفاضلَ في ترجمته، وقدره شهير، ومكانه من الفضيلة كبير، وعلمه غزير، ولعلّه لم يطلع إلاّ على ما أودعه.

وكتب إثره ابنُ لسان الدين ما صورته: نعم يا سيدي أبا عبد اللّه بن مرزوق، لم ينصفِ المترجَم به المؤلّفُ، ولولا أنهما بالحياة ما صدر منكم التنبيه، ولو حصلا تحت

---

(١) في الإحاطة: «كما مالت بشارتُها المرام».
(٢) في الإحاطة: «أديم الليل... من مرادهم الظلام».
(٣) في الإحاطة: «أقام».
(٤) في الإحاطة: «منها».
(٥) في الإحاطة: «قيام».
(٦) أورد ابن الخطيب في الإحاطة ٣٥ بيتًا منها.
(٧) في الإحاطة (ص ٣٣٣): «وقد وطى الإيطاء صروحكم، وأعيا الإكثار حارثها وسروجها..».
(٨) في الإحاطة: «وليّ التجاوز».
(٩) مَعَرّيّة: نسبة إلى أبي العلاء المعرّي.

الصفيح[1] لم تُعمِلُوا فيها قلمًا، هكذا شأن الدنيا بقلّة الوفاء شِنْشِنة[2] معروفة، والحقد على الأموات شأن المغاربة، قاله علي ابن المصنّف رحمه اللّه تعالى! انتهى.

ولا خفاء أنَّ لسان الدين لم يَسْتَوفِ حقوقَ الشمس ابن جابر الهوّاري المذكور مع أنَّ له محاسنَ جمّة.

ومن محاسنه رحمه اللّه تعالى: [الطويل]

هناؤكُمُ يا أهلَ طيبةَ قد حَقَّا ... فبالقرب من خير الورى حُزْتُمُ السَّبْقا
فلا يتحرّك ساكنٌ منكُم إلى ... سواها وإنْ جارَ الزمانُ وإن شقا
فكم ملكٍ رامَ الوصولَ لمثل ما ... وصلتم فلم يقدر ولو ملك الخلقا
فبشراكُمُ نلتم عنايةَ ربِّكُم ... فها أنتمُ في بحر نعمته غرقى
ترونَ رسولَ اللّه في كلِّ ساعةٍ ... ومن يَرَهُ فهو السعيدُ به حقًّا
متى جئتُمُ لا يغلق الباب دونكم ... وباب ذوي الإحسانِ لا يقبل الغلقا
فيسمعُ شكواكُمْ ويكشف ضرّكم ... ولا يمنعُ الإحسانَ حُرًّا ولا رقّا[3]
بطيبةَ مثواكُمْ وأكرمُ مُرْسَلٍ ... يلاحظكم فالدهرُ يجري لكم وَفْقا[4]
فكم نعمة للّه فيها عليكمُ ... فشكرًا، وشكر اللّه بالشكر يُسْتَبْقَى
أمنتم من الدجّال فيها فحولها ... ملائكة يحمون من دونها الطُّرقا
كذاك من الطاعون أنتم بمأمن ... فوجه الليالي لا يزالُ لكم طَلْقًا[5]
فلا تنظروا إلاَّ لوجه حبيبكم ... وإنْ جاءتِ الدنيا ومرَّتْ فلا فَرْقًا
حياةً وموتًا تحت رحماه أنتُمُ ... وحشرًا فسترُ الجاه فوقكمُ ملقى
فيا راحلاً عنها لدنيا يريدُها ... أتطلبُ ما يفنى وتترك ما يبقى
أتخرجُ عن حِرْزِ النبيِّ وحَوْزه ... إلى غيره؟ تسفيهُ مثلِكَ قد حَقَّا

---

(١) حصل تحت الصفيح: أي مات ودفن في القبر.
(٢) الشِّنْشِنَةُ: العادة. محيط المحيط (شنشن).
(٣) الرقّ: العبودية، وأراد هنا الرقيق. لسان العرب (رقق).
(٤) في طبعة عبد الحميد (ج ١٠ ص ١٧٠): «دفقا».
(٥) يشير بهذا البيت والذي قبله إلى ما يروى في فضائل طَيْبَة من أن الدجّال لا يدخلها وأن الطاعون لا يحلُّ بها.

لئن سِرْتَ تبغي من كريم إعانةً فأكرمُ من خير البريّة ما تلقى
هو الرزقُ مقسومٌ فليس بزائلٍ ولو سرتَ حتى كدتَ تخترق الأفقا
فكم قاعدٍ قد وَسَّع اللّه رزقَهُ ومرتحلٍ قد ضاقَ بين الورى رزقا
فَعِشْ في حمى خيرِ الأنام ومُتْ به إذا كنتَ في الدارين تطلبُ أن ترقى
إذا قمتَ فيما بين قبرٍ ومنبرٍ بطيبةَ فاعرفْ أين منزلُكَ الأرقى
لقد أسعد الرحمنُ جار محمد ومن جار في ترحاله فهو الأشقى

ومن محاسنه رحمه اللّه تعالى المقصورة الفريدة، وهي قوله[1]: [الرجز]

بادَرَ قلبي للهوى وما ارتأى لمّا رأى من حُسْنها ما قد رأى
فَقَرَّبَ الوجدُ لقلبي حبّها وكان قلبي قبلَ هذا قد نأى
يا أيها العاذلُ في حبي لها أقصرْ فلي سمعٌ عن العذل بَأَى[2]
لو أبصرَ العاذلُ منها لمحةً ما فضَّ بابَ عَذْله ولا فأى[3]
سَرَّحْتُ طرفي طالبًا شأو العُلا وتابعًا في حبِّها ما قد شأى[4]
إني لأرعاها على تتبيعها عهدي، ومثلي من وفى إذا وأى[5]
مَنْ منصفي من شادنٍ لم أرجُهُ لحاجةٍ من وصله إلاّ زأى[6]
وإن قبضتُ النفسَ عن سُلْوانه مَدَّ أديمَ هَجْرِهِ لي وسأى[7]
لأقطعنَّ البيدَ أفري حاذَها بضامرٍ يَفْرِي الحصا إذا جأى[8]
حتى أزورَ ربّةَ الخدرِ وقد ذاد الكرى عني الوشاة وذأى[9]

* * *

(١) هذه المقصورة على حروف المعجم، وهي من المعشرات في معظم أجزائها، أي أنّ كلّ جزء مكون من عشرة أبيات.
(٢) بأى: فخر. لسان العرب (بأى).
(٣) فأى: فتح. لسان العرب (فأى).
(٤) شأى: لعلها تعني: «بعد» أو أعجب وأطرب. لسان العرب (شأى).
(٥) وأى: وعد. لسان العرب (وأى).
(٦) زأى: تكبّر. لسان العرب (زأى).
(٧) سأى الأديمَ: مدّه حتى انشقّ. لسان العرب (سأى).
(٨) الحاذ: طريقة المتن وهو موضع اللبد من الفرس. جأى: قذف. لسان العرب (حوذ) و (جأى).
(٩) ذأى: طرد وساق سوقًا شديدًا. لسان العرب (ذأى).

يا ربَّ ليلٍ قد تعاطينا به ... حديثَ أُنْسٍ مثلَ أزهارِ الرُّبا
في روضةٍ تعانَقَتْ أغصانُها ... إذ واصلتْ ما بينها ريحُ الصَّبَا
نادمْتُ فيها من بني الحسن رشًا ... يصبو له من لم يكن قطُّ صبا
حلوٌ رخيمُ الدلِّ في أعطافه ... لينٌ وفي ألحاظه بِيضُ[1] الظُّبا
أيامَ كان العيشُ غضًّا حسنُهُ ... عذبَ الجنى رَيَّان من ماءِ الصِّبا
أيّ زمانٍ ومحلّ للمُنى ... ما ضاق مغناه بنا ولا نبا
يا مَرْبَعًا ما بين نجدٍ والحمى ... ويا زمانًا قد حباني ما حَبَا
اللّهُ يرعاهُ زمانًا لم يَحُلْ ... عن بذلِ ما نأمُلُه ولا أبى
فأيّ مَغْنًى أهل يممته[2] ... لمقصد حُلَّتْ لنا فيه الحُبَا[3]
هل تُرْجِعُ الأيامُ عيشًا باللِّوى ... فراقه كان اللُّهَيْمَ الأُرَبَى[4]

* * *

تاللّه لا أعبا بعيشٍ قد مضى ... ولا زمانٍ قد تعدَّى وعتا
مذ علقتْ كفِّيَ بالهادي الذي ... ساد الورى طفلاً وكهلاً وفَتَى
كالبحر لا يغيضُ يومًا وِرْدُهُ ... لواردٍ إذا أصافَ أو شتا
متّصلُ البِرِّ لمن قد أمَّهُ ... لا يكره العودةَ مِمَّنْ قد أتى
ولا يناجي نفسه في ضيقة ... أيّ نهارٍ سرَّ هذا ومتى
إنّ رسول اللّه مصباحُ هُدًى ... يُهْدى به من في دجى الليل متا[5]
كفَّ بني الجور بعدلٍ واضحٍ ... كما تكفُّ اليدُ كفًّا من فتى
كم ذي[6] هوى قد راضه بهديه ... فانقاد كالعبد إذا العبدُ قتَا[7]

---

(١) في طبعة عبد الحميد (جـ ١٠ ص ١٧١): «لين الظبا».
(٢) في طبعة عبد الحميد (جـ ١٠ ص ١٧٢): «يمته».
(٣) الحُبا: جمع حبوة وهو ما يحتبى به من ثوب وغيره. لسان العرب (حبا).
(٤) اللُّهَيْمُ: الداهية. الأُرَبَى: الشديدة. لسان العرب (لهم) و (أرب).
(٥) متا في الأرض: مشى. لسان العرب (متا).
(٦) في طبعة عبد الحميد: «ذو».
(٧) قتا: خدم وأحسن الخدمة. لسان العرب (قتا).

قد خالط الحلمُ سجايا طبعه كمثل ما قد خالط الثوبُ السَّتا[1]
أقسمتُ لا زلتُ أُوالي مَدْحَهُ ما اشتدَّ بالناس زمانٌ ورتا[2]

* * *

لولا اشتياقي لديارٍ كَرُمَتْ لبعدها يَرْثِي لنا من قد رثى
ومَدْحُ مَنْ أرجو بأمداحي له إصلاحَ ما قد عاثَ مني وعثا[3]
لم أجعلِ الشعرَ لنفسي خلَّةً ولم يجشْ فكري به ولا غَثَا[4]
فما أرى الأيام تبدي منصفًا ولو حكيتُ الدر من حسن النَّثَا[5]
يا ضيعةَ الألبابِ في دهرٍ غدا فيه فتيتُ المِسْك يعلوه الخثى[6]
يا ويلَ أمِّ ليس تزجي ضيمها مثلي بما تبديه من منع الحثا[7]
هل مارستْ إلاَّ أخا عزم إذا ما قعد الناسُ عن الخطب جثا[8]
تسيلُ مِنْ جَهْدِ السُّرى أعطافُهُ كمثل ما سال من الدوح اللثى[9]
له اعتصامٌ بالرسولِ المجتبى أَجْود مَنْ أضفى العطايا وحثا
من ليس للدنيا محلٌّ عنده ولا يُنيلُ المالَ إلاَّ بالحثا[10]

* * *

أنا الفتى لا يَطَّبيني طَمَعٌ فأبذل الوجهَ لنيلٍ يرتجى
لكن إذا اضطرّ زمانٌ جائرٌ أمَّلت مَنْ ليس يَرُدُّ من رجا
لا أسألُ النذلَ ولو أنِّي به أملكُ ما حازَ النهارُ والدُّجا
حسبي بنو عبد مناف بهمُ يَغْنى من استغنى وينجو من نجا

---

(١) السَّتا: سدى الثوب. محيط المحيط (ستا).
(٢) رتا: شدَّ أو أرخى، وهو من الأضداد. لسان العرب (رتا).
(٣) عثا: أفسد. لسان العرب (عثا).
(٤) غثا الوادي: كثر غثاؤه. لسان العرب (غثا).
(٥) في طبعة دار صادر (ج ٧ ص ٣٠٩): «حكيت المسك». والنثا: الثناء. لسان العرب (نثا).
(٦) الخثى: جمع خثي وهو روث البقر. لسان العرب (خثي).
(٧) الحثا: التراب المحثوّ. لسان العرب (حثا).
(٨) جثا: جلس على ركبتيه لمواجهة الخطب. لسان العرب (جثا).
(٩) اللثى: ما يسقط من شجر السمر، وهو مادة بيضاء. لسان العرب (لثا).
(١٠) بالحثا: أي بملء الكفين.

أولئك القومُ الأُلى مَنْ أمَّهم أمِنَ مِمَّنْ لامَ يومًا وهجا
يلقاك منهم كلُّ وجهٍ مشرقٍ كأنه البدرُ إذا الليلُ سجا
إنّيَ مذ أمَّلتهم لم يثنني عن طلب المجد زمانٌ قد شجا[1]
إن أنا قد نكّرني دهرٌ عدا فطالما عرَّفني فضلُ الحِجا[2]
يطوي العدا ذكري ومجدي ناشري[3] آليتُ لا زال لهم مني شَجا
أنا الذي أعملتُ للمجدِ السُّرى لا أسأمُ الأينَ ولا أشكو الوجى[4]

* * *

كم سرتُ في البيداء لا يُقْلقني حَرُّ الهجيرِ لا ولا بردُ الضُّحا
أرسلها غرَّ الذرا تسري بنا كلَّ عويصِ السير صعبِ المنتحى
يطيحُ مفتوت الحصا من دونها كأنه سهمٌ عن القوس طحا[5]
فكم بذلْتُ الجهدَ في كسب العلا وجُدْتُ بالنفس لَحَاني من لحا[6]
أُرْغِمُ أعداي بحزمٍ نافذٍ يعركهم عَرْكَ الثِّفالِ[7] بالرَّحى
أذودُ عن عرضي وأحمي حسبي بكَرَمٍ جَزْلٍ ومَجْدٍ قد ضحا
أُقسمُ بالبيت ومَنْ طافَ به ومَنْ نحا وجهته فيمن نحا
وكلُّ مَنْ أَعْمَلَ لله الخطا محا بها من الخطايا ما محا
ومعشر ثَجُّوا وعجّوا فلهم بمرتقى المروة ذكرٌ ووَحَى[8]
لا زلتُ أُزجيها لإدراكِ العُلا حتى ترى من جهدها مثل اللَّحَا[9]

* * *

(١) شجا: أحزن. لسان العرب (شجا).
(٢) الحِجا: العقل. لسان العرب (حجا).
(٣) في طبعة عبد الحميد (ج ١٠ ص ١٧٣): «ناشرا».
(٤) الوجى: الحفى، ويقال وجع يصيب الإبل والإنسان. محيط المحيط (وجى).
(٥) طحا: ذهب بعيدًا. لسان العرب (طحا).
(٦) لحا: لام وعذل. لسان العرب (لحا).
(٧) الثِّفال: الجلد يوضع تحت الرحى. لسان العرب (ثفل).
(٨) الوَحَى: الصوت. لسان العرب (وحا).
(٩) اللَّحا: أصل الكلام: اللحاء وهو قشر الشجر، وقد حذف الهمزة للضرورة الشعرية. لسان العرب (لحا).

يا عجبًا من حاسد لي قد زها | بعيشِهِ الغَضِّ عليَّ وانتخى[1]
كأنني لم أعرف العِزَّ ولا | صاحبت دهري في سرورٍ ورخا
وإنما[2] الدهرُ له تقلُّبٌ | إن ارتخى شدّ وإن شدّ ارتخى
إنَّ الذي لا ينثني عن جوده | إن بخل الدهر لنا وإن سَخَا
خيرُ الورى طرًّا مَنِ اللَّهُ به | أذهبَ عنّا كلَّ غَيّ فامتخى[3]
شرّفه اللَّهُ وحلَّى جيده | بجوهرٍ مِنْ كلِّ مجد موتخى[4]
زَيَّنَه تواضعٌ على عُلاً | فما ازدهى بعزّةٍ ولا نخا[5]
فكم حَمَى بهديه وكم وقى | وكم أفادَ آملاً وكم نخا
خَلَّصَ من أسر الخطايا جاهه | فما على قلب امرىء منها طخا[6]
خفّف عنّا ثقل ما نحمله | فلم نَبِتْ من ثقله نشكو السَّخَا[7]

* * *

إن تحسب الرُسل سماء قد بَدَتْ | فإنه في أُفقها نجمُ هدى
وإن يكنْ كلُّ كريم قد مضى | طلاً فقد أضحى لنا غَيْثَ جَدَا
وإن يكونوا أنجمًا في فلكٍ | فإنه من بينهم بدرٌ بَدَا
واسطةُ السِّلْكِ إذا ما نُظموا | وملجأ القوم إذا الخطبُ عدا
كالبحر بل كالبدر جودًا وسَنًا | فحبّذا من اجتدى أو اقتدى
أحسن أخلاقًا من الروض إذا | ما اختال في بُرْدِ الصَّبا أو ارتدى
وساقَطَ القطرُ عليه دَمْعَهُ | فابتلَّ بُرْدُ الزهر منه وانتدى
تفديه نفسي من شفيعٍ للورى | وقَلَّتِ النفسُ له مني فِدَا
هو الذي أنعشنا من بعد ما | قد يبس الغصنُ وأذواه الصَّدَى
وكنتُ في ليل الهوى ذا حيرةٍ | فجاء بالحقِّ وأنجى وهَدَى

* * *

(١) انتخى: افتخر. لسان العرب (نخا).
(٢) في طبعة عبد الحميد (جـ ١٠ ص ١٧٤): «وإنا».
(٣) يقال: امخى من الشيء إذا تبرّأ منه. لسان العرب (مخا).
(٤) موتخى: مقصود. لسان العرب (وخا).
(٥) نخا: زهي. لسان العرب (نخا).
(٦) الطخا: قطع السحاب. لسان العرب (طخا).
(٧) السَّخا: ضلع يصيب البعير حيث يثب بالحمل الثقيل.

فكم كَسَا من ثوب نُعمى قد ضفا   وكم هَدَى بعلمه وكم غدا
من اقتدى بغيره فإنه   لم يتَّبع سُبل الهدى ولا حَذَا[1]
هل هي إلاَّ سنَّةُ الحَقِّ التي   أرشد مَن لاذ بها أو احتذى
كفُّ اللسان وانبساط الكف بالـ   ـخير وطيب الذكر عَرْفٌ[2] قد شذا
أحسنُ ما نال الفتى من كرم   أن لا يُرَى من أجله من ائتذى[3]
والصمتُ عمّا لا يفيد قوله   مِنْ كَلِم يهذي به فيمن هذى
لا شيءَ كالصمتِ وقارًا للفتى   يومًا ولا أنجى له من الأذى
مَنْ عيبُه يشغلُه عن غيره   بات سليمَ العِرْضِ نفّاحَ الشذا
ومن يعب عِيبَ ومن يحسن إذن   لان له كلُّ عَصِيَ وخذا[4]
ومن تكن دنياه أقصى همِّه   لم يرو من ثدي الحِجا ولا اغتذى

* * *

لا تنفقِ العمرَ سوى في حُبِّ من   هو الذي في سَنَنِ الحقِّ جرى
يهديك من رشدٍ ومجدٍ واضح   روضين من علم وذكر قد سرى
أجاد هديًا وأفاد نائلاً   وجاد حتى عمّ الجودَ الورى
ترى بني الحاجاتِ نحو بابه   قد أعملوا العِيسَ بحزن في البَرَى[5]
لهم إلى رؤيته تشوّقٌ   تشوُّقَ الساري إلى نارِ القِرى
ذا يبتغي علمًا وهذا نائلاً   وخائبٌ من قصده ليس يرى
كأنهم إذا رأوا غُرَّتَهُ   وَفْدُ حجيج عاينوا أُمَّ القرى[6]
وَجْهٌ لديه يُحْمَدُ السيرُ، كذا   عند الصباح يَحْمَدُ القومُ السُّرَى[7]
هذا إذا ما أخلفَ الناسُ وَفَى   نائي المدى في مجده سامي الذرا
إذا شَدَدْتَ الكفَّ في أمر به   فليس بالواني ولا الواهي العُرَى

* * *

(١) حذا: تبع. لسان العرب (حذا).
(٢) في طبعة دار صادر (جـ ٧ ص ٣١١): «هَمٌّ».
(٣) ائتذى: أوذي. لسان العرب (أذا).
(٤) خذا: لان واسترخى. لسان العرب (خذا).
(٥) البَرَى، بالفتح: التراب. لسان العرب (برا).
(٦) أم القرى: من أسماء مكة، سميت بذلك لأنها أصل الأرض، وقيل لأنها أقدم القرى التي في جزيرة العرب، معجم البلدان (جـ ١ ص ٢٥٤).
(٧) عجز البيت مثلٌ يضرب للرجل يحتمل المشقّة رجاء الراحة. مجمع الأمثال (جـ ٢ ص ٣).

أنهضني بهديه إلى التُّقى | يعد قصورِ العزم والباع الوزى[1]
هو الشفيعُ المجتَزَى بجاهه | بمثلِ ذاك الجاه حقًّا يُجْتَزَى[2]
مذ زرْته لم أشكُ من شَحْطِ النوى | إذ كان لي فيه غنًى ومُجْتَزَى
وما وجدتُ غربةً ولم يجدْ | مَسَّ اغتراب مَنْ إلى الجودِ اعتزى[3]
متّصلُ البِشرِ غضوبٌ للهدى | إذا رأى من زاغ عنه أو نزا[4]
أصبح من أيامه في مأمنٍ | من قد لَجَا يومًا إليه أو رزى[5]
تخذْتُهُ كهفًا فبتُّ آمنًا | جزاه ربُّ العرش خير ما جزى
أدّبنا بسنّةٍ أفلحَ مَنْ | نمى إليها النفسَ يومًا أو عزا
يجزي أخا الحسنى على إحسانه | شكر امرىء رَاضَ الأمورَ وحَزَا[6]
لستُ أُجازي الشَّرَّ بالشرّ، ولا | أغزو لناوي السوء مثلَ ما غزا
لم تَرَ عينٌ كرسول اللّه ذا | حزمٍ، ولا أحلم إن دهرٌ غزا

* * *

إذا ملمّاتُ الأمورِ قَلْقَلَتْ[7] | ألفيته كأنه طَوْدٌ رَسَا
بخلقه فليقتدِ المرءُ فما | أكرمها من مُقْتَدًى ومؤتَسَى
كُنْ حذرًا وإن رأيتَ تمرةً | فمثلها توقدُ جَمْرَةَ الأسى
لا تيأسنّ إن تناءى أَمَلٌ | وكلّما عثا زمانٌ قد عسا
وإن بَدَا صبحُ المشيب فاطّرحْ | ما كان إذ ليلُ الشباب قد غسا[8]
ولا تظنَّ الشيبَ يرجى طبُّه | بزُورِ صِبْغٍ أو مُدامٍ يُحْتَسى
إذا الفتى قوَّسَ واعتدَّ العصا | لقوسه عن وَتَرٍ أعيا الأُسَا[9]

---

(١) الوزى: القصير. محيط المحيط (وزى).
(٢) يُجْتَزَى: أصل القول: يجتزأ، وقد حذف الهمزة للضرورة الشعرية، والمعنى: يُكْتَفَى به.
(٣) اعتزى: انتسب. لسان العرب (عزا).
(٤) نزا: وثب. لسان العرب (نزا).
(٥) رزى: قبل البِرّ. لسان العرب (رزى).
(٦) حزا: عرف وجرّب. لسان العرب (حزا).
(٧) في طبعة عبد الحميد (جـ ١٠ ص ١٧٦): «أقلقت».
(٨) غسا الليلُ: أظلم. لسان العرب (غسا).
(٩) الأسا: أصل القول: الأساة، وقد حذف التاء للضرورة الشعرية. والأساة: جمع آسٍ وهو الطبيب. =

فاذكرْ زمانَ الشيب في حال الصِّبا ... عسى يلينُ للتُّقَى قلبٌ قَسَا
ما أقبحَ اللهوَ على المرء إذا ... ما اشتعلَ الرأسُ مشيبًا واكتسى

* * *

لا تحسبِ الراحةَ راحًا قَرْقَفًا[1] ... للشَّرْبِ منها قَبَسٌ ومنتشى
إذا أداروها وقد جنَّ الدُّجى ... وشى بهم نَيِّرها فيمن وشى
قد حُجبت في دَنِّها دهرًا إلى ... أن برزت كأنها صبحٌ فشا
لم يَبْقَ من جوهرها إلاَّ سنا ... ينشىءُ أفراحَ الفتى إذا انتشى
كأنها والكأسُ قد حَفَّتْ بها ... مُتَيَّمٌ أصبحَ مضرومَ الحشا
يديرُها مختلفُ الحُسْنِ إذا ... أقبلَ بَدْرٌ وإذا تاه رشا
يحكي القطا والظبيَ والغصنَ إذا ... ما تثنّى أو تجنّى أو مشى
وإنما الراحةُ زُهْدُ المرء في ... أعراض دنيا تورث العين غِشَا
والمجدُ إيقادك نيران القِرى ... يعشو لها في الأزمات مَنْ عَشَا
والجود أن تُعْطي قباءَ للندى ... لا لافتخار أو لجاه يختشى

* * *

خابَ امرؤٌ لم يَرَ أرضًا حَلَّها ... من اصطفى ربّ السماء وانتصى[2]
أرسله اللَّه هدًى ورحمةً ... أوصى ووالى الخير فينا ووصى
وخلَّص الأنفسَ مِنْ أسر الهوى ... في يوم هولٍ فاز فيه مَنْ فَصَى[3]
ذو رأفةٍ تلقاه يومَ العَرضِ قد ... مالَ بنا عن الجحيم ومَضَى
صلّى عليك اللّه يا من جَاهُهُ ... يومَ الحسابِ مَلْجأ لمن عَصَى
يا مَنْ جرى من كَفِّه الماءُ ومن ... حَنَّ له الجذعُ وسَبَّحَ الحصى
بكَ اعتصامي يومَ يدنو من دنا ... من رحمةِ اللّهِ ويُقْصَى من قَصَا
هل غير إحسانك يرجو مذنبٌ ... طال به خوفُ الخطايا وانتصى[4]

= لسان العرب (أسا).

(١) الراح والقرقف: الخمر. لسان العرب (روح) و (قرقف).

(٢) في طبعة عبد الحميد (ج ١٠ ص ١٧٧): «وافتصى».

(٣) فصى الشيء من الشيء: فصله وانتزعه منه. ويريد أن يقول: إنه يميّز الخير من الشرّ.

(٤) انتصى: كأنه أخذ بناصيته. لسان العرب (نصا).

يا مَنْ سما في يوم بدرٍ بَدْرُهُ عزًّا ليشقى كلُّ مَنْ شَقَّ العَصَا
أحصاهُمُ ربُّ السماء عددًا وإنهم أدنى الفريقين حَصَى

* * *

يا مجتبًى من خير قوم حَسَبًا فيما أتى من زمن وما مضى
يا من تَدَانى قابَ قوسين ومن قيل له سَلْ تُعْطَ قد نِلْتَ المضا
ومن أتى والناسُ من ظلمهمُ في ظلمةٍ ليس لها من مرتضى
فكان كالصبح جَلاَ جنحَ الدُّجى فأذهَبَ الإظلامَ عنّا وانتضى
رُضِيتَ للإرسالِ إذ آدم بيـ ـنَ الماءِ والطينِ فكنتَ المرتضى
اختارك اللّهُ رسولاً هاديًا أكرمْ بما اختار لنا وما ارتضى
يا أَحْلَمَ الناسِ على مَنْ قد جنى وأعدلَ الخلقِ إذا ما قد قَضَى
يا مُصْغرَ الألفِ إذا ما جاد أو جَرَّدَ في الهيجاء سيفًا أو نَضَا[1]
يا ناصحًا أحكم تشييدَ الهوى عزمًا فلمّا ينتقضْ ولا أنقضى
يا مُضفيًا للناس ظِلَّ رحمةٍ بات العِدَا منها على جمر الغضا

* * *

إدْفَعِ الشَّرَّ بحسنى فإذا به أخو صِدْقٍ وإن كان سطا
وأنَفِ لنفسٍ كرهَتْ أعمالها كمن يريك قدرها حث الخطا
إن يدرك الهوى الفتى في بيته ليس كمن سعى إليه وخَطَا
وإنَّ خيرًا من صديق سيىءٍ أن يصحبَ الإنسانُ في البيد القطا
ولا تَرُمْ ما لا تطيقُ نَيلَهُ فخجلةُ الخيبةِ شَرُّ مُمْتَطَى
وبتْ من الدنيا مَبَاتَ خائفٍ فلليالي عَدَواتٌ وسَطَا
وخَلِّها عنك ولا تعبأْ بما تبوّأ المكثرُ منها وعَطَا[2]
وجَنِّبِ الحرصَ تَعِشْ ذا عزّةٍ أفلح مَنْ إن شدّه الحرص نَطَا[3]

---

(١) نضا السيفَ: أخرجه من غِمْده. لسان العرب (نضا).
(٢) عطا: تناول. لسان العرب (عطا).
(٣) نطا: بَعُدَ. لسان العرب (نطا).

ولا تجذ للنفسِ حظًّا وٱطَّرِحْ من امتطى الكبر فبئس ما امتطى
لا تطرينَّ صاحبًا بغير ما فيه فإطراءُ الفتى كسرُ المَطَا[1]

* * *

لا يَحْسُنُ المدحُ سوى لمن يرى مادحَهُ بمدحِهِ قد احتظى
خيرُ عبادِ اللَّهِ ذو العِزِّ الذي لظلِّه يأوي الشريفُ والشظى[2]
كم آمنٍ ببابِهِ وقَبْلَ أن يَلْقاه لاقى ما عَجَا وما عظا[3]
أصبح من حرمته في حرم يرفل في ظل هِبَات وحُظَا
في منزلٍ سيّان فيه ربُّه وضيفُهُ فيما اقتنى وما حظا[4]
إنَّ رسولَ اللَّه غيثٌ واكفٌ إذا لهيبُ الضيفِ داج والتظى
إذا أعدَّ للمُلِمَّينَ القِرى لم يدَّخر عن ضيفه ولا حظا[5]
لمّا علمتُ جودَهُ الجزلَ وما هناك من علم وحلم وبظا[6]
يمّمته فوقَ طِمِرّ ضامرٍ منتظمِ الأعضاءِ مَلْمُومِ الشظا[7]
ليس يمسُّ الأرضَ من سرعته كأنما يخشى بها مسَّ اللظى

* * *

يا مُوسِعَ الألفِ بصاع شِبَعا ومن مشى الدَّوحُ إليه وسعى
وأخصبَ الضرعُ بلمس كفِّه وبادر المزنُ له لَمَّا دعا
وسَلَّم الظبي عليه كَرَمًا وكلَّم الميتَ فقام ورعى
واستشهد الضبُّ فَحَيًّا معلنًا بصدقه ومثبتًا لما ادّعى
إليك أعملتُ المطايا في الفَلا تنسابُ ما بين أراكٍ ولعا

---

(١) المَطا، بالفتح: الظهر. لسان العرب (مطا).
(٢) الشظى من الناس: الموالي والأتباع. لسان العرب (شظا).
(٣) عَجَا فاه: فتحه، وعجا وجهه: أماله. وقوله: لاقى ما عجاه وما عظاه: أي لقي شدّة وبلاء. لسان العرب (عجا).
(٤) حظا: يريد أصاب حظًّا. لسان العرب (حظا).
(٥) حظا: فاضَلَ. لسان العرب (حظا).
(٦) البظا: اكتناز اللحم، ويريد هنا وفرة العلم. لسان العرب (بظا).
(٧) الشظا: عظم لازق بالذراع أو بالركبة. لسان العرب (شظا).

مسوّغًا جَاهَك عَلّي في غَدٍ   أكونُ مِمَّنْ قد أجاد ورعا[1]
أزكى صلاة وسلام أبدًا   عليك ما ارتاح الظليمُ وارتعى
وسَبَّح الرعدُ بحمد من سقى   صَوْبَ الحَيَا فقال للأرض لعا
فاشتملت بالنَّوْر كلّ فدفدٍ   لم يَكُ للسارح فيه مرتعى
وباكرَ البيداءَ غيثٌ مُسْبِلٌ   فأخلف النبت الهشيم ورعى

* * *

وَدْقُ[2] سحابٍ تحسبُ البرقَ به   أسِنَّةً قد أُشرعت يوم وغى
واخضرّتِ الدوحُ ومدّت قُضْبَها   فبينها حُسْنُ التئام وصَغَا[3]
وساقطتْ لها السحابُ حملها   إذ خوّف الرعدُ تساقط الفغا[4]
ترى خريرَ الماءِ في قضيبه   كأنه مَيِّتُ ذَوْدٍ قد رغا[5]
فسكَّن القيظُ لهيبَ حرِّه   وفرَّ لمَّا أن رأى الماءَ طغى
غيثٌ حَمَى الرمضاءَ عنّا مثل ما   حَمَى رسولُ اللّه جورَ مَنْ بغى
ناهٍ عن الفحشاء داعٍ للهدى   ولم يَفُهْ بباطلٍ ولا لَغَا[6]

* * *

هذا إذا استكفيتَ في أمر به   أجْدَاكَ[7] فيما تنتحيه وكفى
تهفو به ريحُ العُلا إلى الندى   كأنه ناعمُ غصنٍ قد هَفَا
محيي الهدى والعدلِ في زمانِهِ   من بعد ما ألفاهما على شَفَا
أخفى الهدى قومٌ فأضحى وهو قد   أظهره بِعَدْلِهِ فما اختفى
إن يَقْضِ يعدلْ أو متى يُسْأَلْ يَهَبْ   وإن يقلْ يصدقْ وإن يَعِدْ وَفَى
وإن يَجُدْ يُجْزِلْ وإن جاد يُعِدْ   وإن تسيء يحسنْ وإن تجنِ عفا

---

(١) في طبعة عبد الحميد (جـ ١٠ ص ١٨٠): «مسرعًا جاهك.. أجار ورعى».
(٢) الوَدْق: المطر. لسان العرب (ودق).
(٣) الصَّغا: الميل. لسان العرب (صغا).
(٤) الفغا: البسر الفاسد. لسان العرب (فغا).
(٥) رغا: صوّت. لسان العرب (رغا).
(٦) في طبعة دار صادر (جـ ٧ ص ٣١٧): «لم ينتطق بباطلٍ..». ولغا: قال اللغو.
(٧) أجداك: أعطاك. لسان العرب (جدا).

بَحرٌ طَمَا، بَدْرٌ سما، عضب حمى، روض نما، طبٌّ أفاد وشفى
لمجتدٍ أو مقتدٍ أو معتدٍ أو مجدبٍ أو مشتكٍ خطبًا جفا
ما ليَ لا أُضفي له المدح وقد أضحى به الحقُّ علينا قد ضفا[١]
أسس خُلُق الجود فينا فاغتدى به لنا وِرْدُ المعالي قد صفا

* * *

الجودُ يُعْلي المرء والبخلُ لقد يَحُطُّ عن رتبته من ارتقى
والعِزُّ ما أحْسَنَهُ لكنّه إن كان هذا مع علم وتُقَى
والجهلُ للإنسان عيبٌ قادح ولو حَوَى مالاً ككثبانِ نَقَا[٢]
والعلم في حال الغنى والفقر لا يزالُ يَرْقَى بك كُلَّ مرتقى
ولا ألومُ المالَ فالمالُ حمًى من جاهل يلقاكَ شرٌّ ملتقى
قد جُبِلَ الناسُ على حبِّ الغنى فَرَبُّه فيهم مُهَابٌ متَّقى
وما لذي الفقرِ لديهم رتبةٌ ولو أفاد وأجاد واتَّقَى
إنَّ الغنى طبٌّ لعلاّت الفتى والفقر داءٌ لا تداويه الرُّقَى[٣]
والحزم أحرى ما به المرءُ اقتدى في أمره وما به النفسَ وقى
من لم يبت مع الليالي حازمًا لغدرها غادرنه فيها لَقَى[٤]

* * *

أمضيتُ طرفي كي يرى طرفيَ ما أخبرته من طيب مجدٍ قد زكا[٥]
فَصَدَّقَ الحاكيَ ما أبصرته وفاق ما عاينته ما قد حكى
فَسَهَّلَتْ رؤيتُهُ جهدَ السرى وأشكتِ الأيامُ[٦] مَنْ كان شكا
عجبتُ للأيام مَنْ عَزَّ بها ذلَّ، ومن يضحكْ لها[٧] يومًا بكى

---

(١) ضفا: صار سابغًا، وطال. لسان العرب (ضفا).
(٢) الكثبان: جمع كثيب وهو ما اجتمع وتراكم من الرمل. النقا: الكثيب. لسان العرب (كثب) و (نقا).
(٣) الرُّقى: جمع رقية وهي العوذة.
(٤) شيء لقًى: مُهْمَلٌ مطّرح. لسان العرب (لقى).
(٥) هذا الجزء من المقصورة مؤلف من تسعة أبيات.
(٦) في طبعة عبد الحميد (جـ ١٠ ص ١٨١): «وأسكت الأنعام مَنْ..».
(٧) في طبعة دار صادر (جـ ٧ ص ٣١٩): «بها».

فكم لها من كرّةٍ على فتى جَلْدٍ إذا ما لَهَبُ الحربِ ذكا
تجتنبُ الأسْدُ سَطَاه في الوغى فذلَّ حتى صار قصواه بُكَا
وكم صريع غادرتْ ليس له من ملجإ يومًا ولا من مشتكى
عَدَتْ على نفسِ عَدِيّ وسَقَتْ منها ابن حُجْرٍ كأسَ سمّ كالذكا[1]
واستلبت مُلْكَ بني ساسان لم تترك له على الليالي مرتكى[2]

* * *

لم يأمنِ المأمونُ من صولتها ولا ابنُ هندٍ من عواديها خَلاَ[3]
وأتبعت جعفرًا الفضلَ وكم بات الطَّلا يسقيهما صِرْفَ الطّلاَ[4]
وغالتِ الزبّاء في منعتها فأظفرتْ عَمْرًا بها فما ألا[5]
وأنفذت في آلِ بكرٍ حكمها وجَرَّعَتْ مهلهلاً كأسَ البلى
وكم سَبَتْ من سبإ من نعمة فمزّقوا في كلِّ قَفْرٍ وفَلاَ
وأهلكتْ عادًا وأفْنَتْ جرهمًا وزوّدتْ منها تميمًا بالصَّلى[6]
فرعونَ موسى أولجت في لجّةٍ فمات قهرًا بعد عزّ وعُلا
وأظفرت بابن زيادٍ مثلَ ما أفْنَتْ يزيدَ حسرةً لمّا اعتلى[7]
وسيفٌ استلّته مِنْ غُمْدَانِهِ من بعد ما قد خضعت له الطُّلى[8]
ثم أعادته فَخَرَّ الجيش عن حوزته حزّ النبات المختلى[9]

* * *

(١) الذكا: الجمرة المتّقدة. لسان العرب (ذكا).
(٢) المرتكى: المعوّل. لسان العرب (ركا).
(٣) المأمون: هو الخليفة العباسي. ابن هند: هو معاوية بن أبي سفيان.
(٤) الطَّلا، بفتح الطاء: ولد الظبي. الطِّلا، بكسر الطاء: الخمر، وأصلها: الطلاء، وقد حذف الهمزة من أجل القافية. محيط المحيط (طلى).
(٥) الزبّاء: ملكة تدمر. عمرو: هو عمرو بن عدي الذي طالب الزبّاء بثأر خاله جذيمة الأبرش. ألاَ: قصر. لسان العرب (ألا).
(٦) الصَّلى، بالفتح: الوقود. وهنا إشارة إلى ما فعله أحد المناذرة ببني تميم حين حرقهم.
(٧) ابن زياد: هو عبيد اللّه بن زياد، قاتل الحسين بن علي بن أبي طالب، رضي اللّه عنهم. يزيد: هو يزيد بن معاوية بن أبي سفيان.
(٨) الطُّلى، بضمّ الطاء: جمع طُلْية وهي العنق. محيط المحيط (طلى).
(٩) المختلى: المقطوع.

هي الليالي ليس يرعى صرفها لا خاملاً فيها ولا مَنْ قد سَمَا
ولا رسول اللّه فينا لم يزلْ كهف حِمًى، فهو لنا نِعْمَ الحمى
للّه ما أكرمه من سيّدٍ يُنْمَى من المجد لأعلى منتمى
سليمُ صدرٍ ذو وفاء لم يجش في صدره غشُّ امرىء ولا غَمَى[1]
أَوْسَعَنَا فضلاً فما خابَ امرؤ أوى إلى ذاك الجنابِ وانتمى
يا من غدا للخلقِ كهفًا وحمى فأكرم المثوى وآوى وحمى
إنّا أتينا مِنْ ديار دونها موحشةٌ بيداء أو بحر طَمَا
وإنني من قبح ما أسلفْتُهُ ذو كبدٍ رُضَّتْ ودمعٍ قد همى
فلا تخيِّبنيَ مِمّا لكَ من شفاعة تُرْجَى وفضلٍ قد نما
إنك من قوم بهم يشفى العنا ويُدْرَكُ الشأوُ البعيدُ المرتمى

* * *

أعرضْ عن الجاهل مهما قد أسا وحَسْبُهُ من جهله ما قد حوى
ولا تلمْ ذا سَفَهٍ فإنه إن لُمْتَهُ لم يَتَّئِدْ ولا ارعوى
وإن رأيتَ من كريم عثرةً فقلْ لَعًا ولا تَعِبْ بما احتوى
وإن تَرُعْكَ من زمانٍ فرقةٌ فاصبرْ لها فالصبرُ أشفى للجوى
لم أشكر البعدَ على خير حمى قد صَدَّني عن أُنسه شَحْطُ النوى
يا منزلاً ما بين نجدٍ والحمى ويا ديارًا بين كثبان اللّوى
هل لي إلى تلك المعالي عودةٌ أو جرعةٌ من ذلك الماء الرَّوَى
لا تعجبوا من لَعِبِ الدهر بنا فأيّ إنسان على حالٍ سوا
إن عشتُ لاقيتهُمُ وإن أمتْ فإنما الدنيا فناء وتَوَى
إنَّ رسولَ اللّه قد أمَّلته فالدهرُ قد أضمر نصحي ونوى

* * *

إي والذي ما زال يسري جاهدًا حتى أتى ميقاتُهُ وما وَنَى
فقدَّمَ الغسلَ وصلَّى ونضا أثوابه مستغفرًا مِمّا جنى
ثم نوى مُلَبِّيًا ثم مضى حتى رأى ذاتَ السناء والسنى

---

(١) غَمَى: غطّى. محيط المحيط (غمى).

ثم أتى بابَ بني شيبةَ قد | أبصرَ ما أَمَّلَ قدمًا مذ دنا
فَقَبَّلَ الركنَ وطافَ وسَعَى | ثم مضى مرتحلاً نحو مِنى
ثم أتى الموقفَ يدعو راغبًا | حتى إذا ما نفر القومُ انثنى
ثم رمى ثم أفاض وانبرى | مُعْتمرًا قد نال غاياتِ المُنى
ثم مضى مرتحلاً فيمن مضى | مُيَمِّمًا طيبةَ لا يشكو العَنا
يبغي التي شرّفها اللّه بمَنْ | شادَ به الدينَ القويم وابتنى
فلم يكن مِمَّنْ إذا حَجَّ جفا | بل يمِّمَ القبرَ وزارَ واعتنى[1]

* * *

خلقٌ عُلّى لم يَحْوِها إلاَّ امرؤ | نَهَاهُ عن نَبْذِ العُلا رَعْي النُّهَى
فإنْ يَقُلْ: من حازها؟ قلْ: الذي | له تسامى كلُّ مجدٍ وانتهى
مُعْتَصَمُ الراجين إنْ خطبٌ دنا | وكهفهم إن راع أمرٌ ودهى
المرشدُ الناصحُ للّه فما | قصَّر في نصر الهدى ولا لها
مَنْ جَدَّ في إدراك ما رام يجدْ | ولم يصبْ مَنْ قد توانى وسها
فلا يقصر بكَ خوفُ خيبةٍ | مَنْ خَيَّلَ الخيبة في البدء وهى
واكتسبِ الحمدَ بما تبديه من | فتح اللَّهَا بمستدامات اللُّهَا[2]
واحرصْ على المجد ودنياك اطَّرح | فأمرُها أمرٌ زهيدُ المشتهى
والمرء من إن فاته لم يكتئبْ | وإن ينلْ لم يفتخرْ ولا ازدهى
من لازم الكبر على الناس اغتدى | مُتَّضِعَ القدر ولو نالَ السُّهَا

* * *

أنَّى تخيبُ اليومَ آمالي ولي | من كفُّه أكرمُ مِنْ صَوْبِ الحَيَا
يدني الفتى إلى مدى آماله | ولو غدا من دونها الأرض اللّيا[3]
إن أهزل القومَ زمانٌ معوز | أنعشهمْ حتى يرى لهمْ حَيَا[4]

(١) يشير إلى قول رسول اللّه ﷺ: «من حجَّ ولم يزرني فقد جفاني».

(٢) اللَّها، بفتح اللام: جمع لهاة وهي لحمة مشرفة على الحلق، ويريد الفم. اللُّها، بضمّ اللام: جمع لُهوة وهي أفضل العطايا. محيط المحيط (لها).

(٣) الأرض اللّيا: الأرض البعيدة عن الماء، وأصلها: اللّيَاء، وقد حذف الهمزة من أجل القافية.

(٤) في طبعة دار صادر (جـ ٧ ص ٣٢٢): «معور» بالراء المهملة. والحَيَا: الخصب. محيط المحيط (حيا).

وإن أمات الجدبُ كلَّ مُخْصِبٍ بَدَا لنيرانِ القِرى منه حيا
أَرْسَلَ سُحْبَ هديه جاريةً بالحقِّ حتى حَيِيَ الدرُّ حَيَا[1]
أوقعَ في الأنفس من ماءٍ لدى ظامٍ ما اشتدَّ بالشمس الحيا
لم تَغْيَ مِنْ فعلٍ جميل كفُّهُ ولا له من المكرمات معتيا
ما ليَ لا أبلغُ أقصى غايةٍ في مدح من بالغ جودًا واغتيا
لكلِّ شخصٍ غايةٌ يبلغها وما له في المعلُوات مُغْتَيَا[2]
تعيا يَدُ السائل من معروفه ولم يقصِّرْ كرمًا ولا اعتيا

* * *

والآن قد أكملتها في مدحه مقصورةً يقصر عنها مَنْ خَلا[3]
ضَمَّنتها من كلِّ فنِّ دُرَرًا نظمًا فأضحَتْ من نفيساتِ الحلى
حلَّيتها جِيدَ معاليه وما أملح حَلْيَ الحمد[4] في جيد العُلا
جعلتها مني وداعًا فاعتجبْ لنظمها الحلو الجنى كيف حلا

* * *

مَنْ قارب الرحلة عن ذاك الحمى كيف أجادَ النظمَ يومًا أو درى[5]
أرسلتها من خاطر خامره وَجْدٌ جلا عن مقلتي طيب الكرى
وكيف لا آسى على بعديَ عن قوم جرى من جودهم ما قد جرى
أنصار دينِ اللّٰهِ والهادي الذي لولا وضوحُ هَدْيِهِ ضلَّ الورى
فالقلبُ بين مشرقٍ ومغربٍ مُقَسَّمُ اللوعة مجذوبُ العرى
إذا ذكرتُ الغربَ حَنَّتْ مهجتي وبَلَّ دمعي من جوى الشوق الثرى
وإن ذكرت حُبَّ من في مشرقٍ أبطأ بي حُبُّهُمُ عن السُّرى
إن يَصْفُ من وجهٍ لشخص موردٌ كدَّر من أخرى فلا صَفْو يرى
فإن تَرَحَّلْتُ فقلبي عندكم لم يرتحلْ عن بابكم ولا سرى

* * *

(١) الحَيَا: المطر. محيط المحيط (حيا).
(٢) مغتيا: موضع غاية. لسان العرب (غيي).
(٣) هذا الجزء من المقصورة مكون من أربعة أبيات. وخلا: مضى، ويريد من سبقه.
(٤) في طبعة دار صادر (ج ٧ ص ٣٢٢): «المدح».
(٥) يتكون هذا الجزء من المقصورة من تسعة أبيات.

ولا تـزال رُسْـلُ شـوقـي أبـدًا تترى على مجدكم الجزل الندى[1]
ولـن تـمـرَّ سـاعـةٌ إلاَّ هـفـا بـذكـركـم مُـفْـصِـحُ نـظـمـي وشـدا
فـلـيـس عـنـدي لـلـنـجـاة مـخـلـصٌ إن لم يكن منكم نَوَال أو جَدَا[2]
بـكـم مـلاذي وحـمـاكـم مـلـجـئـي ليس سوى ذاك السماح المجتدى
ومـا ذخـرنـا عُـدَّة سـواكُـمُ مـثـلُـكُـم مَـنْ يُـرْتـجـى ويُـجْـتَـدى
لا أَوْحَـشَ الـلَّـهُ ديـارًا أنـتـمُ فـيـها ولا أزرى بمرعاها الصَّدى
ولا نـأت داركُـمُ ولا خـلا رَبْـعُـكُـمُ مـا راح يـومٌ واغـتـدى

ومن محاسنه أيضًا البديعية المشهورة، وهي المعروفة ببديعية العميان، ولو لم يكن من محاسنه إلاَّ قصيدته التي في التورية بسور القرآن ومدح النبي، ﷺ، لكفى، وهي من غرر القصائد، وكثير من[3] الناس ينسبها للقاضي الشهير عالم المغرب أبي الفضل عياض، وكنت أنا في أوّل الاشتغال مِمَّنْ يعتقد صِحّة تلك النسبة، حتى وقفت على شرح البديعية الموصوفة لرفيقه أبي جعفر، فإذا هي منسوبة للناظم ابن جابر، وهي: [البسيط]

في كـل فـاتـحـة لـلـقـولِ مـعـتـبـرهْ حقُّ الثناء على المبعوث بالبَقَرَهْ
في آل عـمـران قِـدمًـا شـاع مـبـعـثُـهُ رجالهم والنساء استوضحوا خَبَرَهْ
مَنْ مَدَّ لـلـنـاس من نـعـمـاه مـائـدة عَمَّتْ فليس على الأنعام مقتصرهْ
أعرافُ نُعْماه ما حلَّ الرجاء بها إلاَّ وأنـفـالُ ذاكَ الـجـودِ مـبـتـدرَهْ
بـه تـوسَّـل إذ نـادى بـتـوبـتـه في البحر يونُسُ والظلماء معتكره
هـود ويـوسـف كـم خـوف بـه أمـنـا ولن يروّعَ صوتُ الرعد مَنْ ذكره
مضمون دعوة إبراهيم كان، وفي بيت الإلَـهِ وفي الحجر التمس أثره
ذو أمّـة كـدويِّ الـنـحـلِ ذكـرهُـمُ في كلِّ قُطْر، فسبحانَ الذي فطره
بكهفِ رحماه قد لاذ الورى، وبه بشرى ابن مريم في الإنجيل مشتهره
سمّاه طه، وحضّ الأنبياء على حجِّ المكان الذي من أجله عَمَرَهْ

(١) يتكون هذا الجزء من المقصورة من سبعة أبيات.
(٢) في طبعة عبد الحميد (جـ ١٠ ص ١٨٥): «وجدا». والجدا: العطاء. لسان العرب (جدا).
(٣) كلمة «من» ساقطة من طبعة عبد الحميد (جـ ١٠ ص ١٨٦).

قد أفلح الناسُ بالنور الذي غمروا[1] ... من نور فرقانه لمَّا جلا غُرَرَهْ
أكابرُ الشعراء اللُّسْن[2] قد عَجزوا ... كالنمل إذ سمعت آذانهم سُوَرَهْ
وحسبه قصص للعنكبوت أتى ... إذ حاك نسجًا بباب الغار قد ستره
في الروم قد شاع قدْمًا أمْرُهُ وبه ... لقمان[3] وفق للدّرّ الذي نثره
كم سجدة في طلى الأحزاب قد سجدت ... سيوفُه فأراهُم ربُّه عبره
سَبَاهم فاطر السبع العُلا كرمًا ... لمن بياسين بين الرُّسل قد شهره
في الحرب قد صفَّت الأملاك تنصره ... فصاد جمع الأعادي هازمًا زُمَرَهْ
لغافر الذنب في تفضيله سُوَرٌ ... قد فُصِّلَتْ لمعانٍ غير منحصره
شُورَاهُ أن تهجر الدنيا فزخرفها ... مثل الدخان فيُغْشِي عينَ مَنْ نظره
عَزَّتْ شريعته البيضاء حين أتى ... أحقافَ بدر وجند اللَّه قد نصره
فجاء بعد القتال الفتحُ متّصلاً ... وأصبحت حُجُرات الدين منتصره
بقاف والذاريات اللَّهُ أقسمَ في ... أنَّ الذي قاله حَقٌّ كما ذكره
في الطُّور أبصر موسى نجم سؤدده ... والأفق قد شقّ إجلالاً له قمره
أسرى فنال من الرحمن واقعةً ... في القرب ثَبَّتَ فيه ربّه بصره
أراه أشياء لا يقوى الحديدُ لها ... وفي مُجَادلة الكفّار قد أزَرَهْ[4]
في الحشر يومَ امتحانِ الخلق يُقْبلُ في ... صَفٍّ من الرُّسل كُلٌّ تابعٌ أثره
كفٌّ يُسَبِّحُ للَّه الحصاةُ بها ... فاقبلْ إذ جاءك الحقّ الذي قَدَرَهْ
قد أبصرتْ عنده الدنيا تغابنها ... نالت طلاقًا ولم يصرف لها نظره
تحريمه الحبَّ للدنيا، ورغبته ... عن زهرة الملك حقًّا عندما نظره
في نون قد حقَّت الأمداح فيه بما ... أثنى به اللَّه إذ أبدى لنا سِيَرَهْ
بجاهِهِ سالَ نوحٌ في سفينته ... سفن النجاة وموج البحر قد غمره
وقالت الجنُّ جاء الحقُّ فاتبعوا ... مُزَّمِّلاً تابعًا للحقّ لن يَذَرَهْ

---

(١) في طبعة عبد الحميد: «عمروا» بالعين المهملة.
(٢) اللُّسْنُ: جمع لَسِن وهو الفصيح. لسان العرب (لسن).
(٣) لقمان: هو لقمان الحكيم، وقد ورد اسمه في القرآن الكريم: ﴿ولقد آتَيْنا لُقْمَانَ الحِكْمَةَ﴾. سورة لقمان ٣١، الآية ١٢.
(٤) في طبعة دار صادر (جـ ٧ ص ٣٢٥): «نصره».

مدثّرًا شافعًا يومَ القيامة هل ... أتى نبيٌّ له هذا العُلا ذخره
في المرسلاتِ مِنَ الكتبِ انجلى نبأ ... عن بعثه سائر الأخبار قد سَطَرَهْ
ألطافه النازعات الضيم في زمن ... يوم به عبس العاصي لما ذَعَرَهْ
إذ كوّرت شمسُ ذاك اليوم وانفطرتْ ... سماؤه ودعت ويل به الفجره
وللسماء انشقاقٌ والبروجُ خَلَتْ ... من طارق الشهب والأفلاك مُنتَثِرهْ(١)
فسبّح اسم الذي في الخلقِ شَفَّعه ... وهل أتاكَ حديث الحوض إذ نهره
كالفجر في البلد المحروس غُرّته ... والشمس من نوره الوضاح مستتره
والليلُ مثلُ الضحى إذ لاح فيه، ألم ... نشرح لك القول في أخباره العَطِرَهْ
ولو دعا التين والزيتون لابتدرا(٢) ... إليه في الحين واقرأ تستبِنْ خبره
في ليلة القدر كم قد حاز(٣) من شرف ... في الفخر لم يكن الإنسان قد قَدَرَهْ
كم زلزلت بالجياد العاديات له ... أرض بقارعة التخويف مُنْتشره
له تكاثر آيات قد اشتهرت ... في كلِّ عصر فويلٌ للذي كفره
ألم تَرَ الشمس تصديقًا له حُبست ... على قُرَيش، وجاء الروح إذ أمره
أريتَ أنَّ إلَهَ العَرْشِ كرّمه ... بكوثر مرسل في حوضه نهره
والكافرون إذا جاء الورى طُردوا ... عن حوضه فلقد تَبَّتْ يدا الكفره
إخلاص أمداحه شغلي، فكم فلق ... للصبح أسمعت فيه الناسَ مفتخره
أزكى صلاتي على الهادي وعترته ... وصحبه، وخصوصًا منهمُ عَشَرَهْ
صدّيقهم عمر الفاروق أحزمهم ... عثمان ثم عليٌّ مُهْلِكُ الكفره
سعد سعيد عبيد طلحة وأبو ... عبيدة وابنُ عَوْف عاشر العشره
وحمزة ثم عباس وآلهما ... وجعفر وعقيل سادة خِيَرَهْ
أولئك الناس آل المصطفى وكفى ... وصحبه المقتدون السادة البرره
وفي خديجة والزهرا وما ولدت ... أزكى مديحي سأهدي دائمًا درره

---

(١) يشير إلى قول اللّه تعالى: ﴿وإذا الكواكبُ انْتَثَرَتْ﴾. سورة الانفطار ٨٢، الآية ٢.
(٢) في طبعة عبد الحميد (جـ ١٠ ص ١٨٨): «لا ابتدرا».
(٣) في طبعة دار صادر (جـ ٧ ص ٣٢٦): «قد حلّ».

عن كلِّ أزواجه أرضى، وأوثر من أضحت براءتها في الذكر منتشره
أقسمت لا زلت أهديهم شَذًا مِدَحِي كالروض ينشُر من أكمامه زَهَرَهْ

انتهت القصيدة.

وقد عارض منحاها جماعة فما شَقُّوا لها غبارًا، ومن معارضاتها قولُ بعضهم: [البسيط]

بسمِ الإلَهِ افتتاحُ الحمد والبَقَرَهْ مُصَلِّيًا بصلاةٍ لم تَزَلْ عَطِرَهْ
على نبيّ له الرحمنُ ممتدحٌ في آل عمران أيضًا والنسا ذكره
كذا بمائدة الأنعام فَضَّله ووصفه التم في الأعراف قد نَشَرَهْ
أنفالُهُ نزلت أيضًا براءة من يحبّه وهو مشغولٌ بما أمره
به نَجَا يونُس من حُوتِهِ ونجا هود ويوسف من سجن به عبره
أقسم برعد بإبراهيم أنَّ له في حجر نحل ترى الآيات مشتهره
سُبحانَ جاعله كهفًا لأمّته ومريم زوجة في جنّة نضره
طٰه به الأنبيا للحجِّ قد وفدوا والمؤمنون على النور اقتفوا أثره
آيات فرقانِهِ ذلّت لها الشُّعَرَا وسورة النمل قد قصّت لنا سيره
والعنكبوت على غارٍ له نسجت[1] والروم ولّت برُعْبٍ منه منكسره
لقمان حكمته من بعض حكمته فاسجد لربّ على الأحزاب قد نصره
كم في سبا[2] عبرة للقلب قد فطرت فَلُذْ بياسين تنجو يا أخا البرره
قد صُفّتِ الأنبيا والرُسل قاطبة خلف النبي بأمر الله مؤتمره
إن صاد قلبي الهوى تنزيل منقذه وغافر الذنب كم ذنب له غفره
كم خلعةٍ فصّلت للطائعين له وأمرهم بَيْنَهُم شورى بلا نكره
لم تلههم زينةُ الدنيا وزخرفها كانوا يروها كدخان له قَتَرهْ[3]

---

(١) يشير إلى تخييم العنكبوت على الغار يوم هجرة الرسول الكريم لئلاً يعرف المشركون الذين أخذوا يبحثون عنه على أنه في ذلك الغار.

(٢) سبا: أصلها: سبأ، وقد حذف الهمزة للضرورة الشعرية.

(٣) القَتَرة، بالفتح: الغبرة. يروها: أصل القول: «يرونها»، لأنها فعل مضارع غير مجزوم ولا منصوب، فحذف النون لكي لا ينكسر الوزن. لسان العرب (قتر).

إذا جئنا الخلق والأحقاف قد شرفت فذاك يوم على الكُفّار قد نصره
محمد خُصّ بالفتح المُبين وقد أتاه في الحجرات الوحي بالخيره
قاف الوفاق وذر الطور نجم هدى وشقَّ ربّ السما للمصطفى قمره
رَحْمٰن واقعة كلُّ الحديدِ بها كم من مُجَادلةٍ في الحشر محتذره
من يمتحنْ صفّنا في يوم جمعتنا فليس يلفى به غشٌّ ولا كدره
مُطَهَّرٌ من نفاق ليس بَيْنَهُمُ تغابن طَلَّقُوا دُنْياهُمُ القذرة
وحرموها وفي ملك لها زَهِدُوا كزهد صاحب نون حَقَّقَنْ خبره
إن تسألوني عن نوح نبيّ هدى والمصطفى سامع الجنّ الذي جهره
مُزَمِّلٌ اسمه مُدَّثِّر، وله يومَ القيامة للإنسان ما ضمره
للمرسلاتِ نَبًا في يوم نازعة عبوسُ تكوير شمس فيه منفطره
مطفف الكيل قد بانتْ خسارته يوم[1] تشقُّ السما أبراجَها النضره
كم طارقٍ سبِّح الأعلى بغاشيةٍ والفجر بلدته بالشمس مستتره
والليلُ قُمْه ولا تترك صلاةَ ضحى يشرحْ لك الصدر والخيراتُ مُدَّخره
بسورةِ التينِ اقرأ أنها نَزَلَتْ في ليلة القدر، والأنوارُ منتشره
ولم يكن مثل خير الرُسل أحمدنا منه تزلزلت الكُفّار والفجرة
بعادياتٍ لها قرع بهامته أعمى التكاثر من قلب له بصره
من كان في عصره هَمَّازة لُمَزًا[2] يلقاه قبل قريش قاهرٌ قهره
ويلٌ لمانع ماعون تراه غدًا مباعدًا كوثر الهادي الذي أثره
الكافرون إذا جا نصرُ خالقنا تبًّا لهم لُعنوا هُمْ أُمّةٌ كفره
أخلص لربّ فلق الناس تَنْجُ إذا يومَ المعاد غدا من شرّة عسره
وصلّ ربِّ على الهادي وعِتْرته وآلِهِ وعلى أصحابِهِ العشره

ومِمَّنْ سلك هذا المنهج الشيخ القلقشندي إذ قال: [البسيط]

عوّذْتُ حِبِّي بربِّ الناس والفلقِ المصطفى المجتبى الممدوح بالخُلُقِ[3]

(١) في طبعة دار صادر (جـ ٧ ص ٣٢٨): «في يوم شقّ..».
(٢) في طبعة دار صادر: «همازة أبدًا».
(٣) عَوَّذَهُ: حصّنه. الحِبُّ، بكسر الحاء: الحبيب. المجتبى: المنتخب، المختار. لسان العرب (عوذ) و (حبب) و (جبا).

إخلاص[1] وجدي له والعذر يقلقني ... تَبَّتْ يدا عاذل قد جاء بالملقِ
يهدي لأمّته والنصر يعضده ... والكافرون وعُذّالي على نَسَقِ
هذا له كوثر والدين شرعته ... والمصطفى من قريش دَيِّنٌ وتَقِي
ألم تَرَ الماء قد سَحَّتْ أصابعه ... ويلٌ لكلِّ جهول بالنبي وشقي
في كلِّ عصر ترى آياته كثرت ... أضحى تكاثُرها في سائر الأفق
وعند قارعة فهو الشفيعُ لنا ... والعاديات من الأجفان في طَلَق
وزلزلت من غرامي كلُّ جارحة ... وكلُّ بيِّنَةٍ تحكي لكم علقي
يا عاليَ القدرِ رفقًا مَسَّني ضررٌ ... فاللَّه قد خلقَ الإنسانَ من علق
ولو دعا التينَ والزيتون جاء له ... والشرح عنه طويلٌ غير مختلَقِ
يبدو كشمس الضُّحى والليل طرّته ... كالشمس في بَلَدٍ والفجر في أُفق
إني بغاشية لولاكَ يا أملي ... أنت الشفيع إلى الأعلى وخير تقي
كم طارق منك بالإحسان يطرقني ... مثل البروج أتى في أحسن الطرق
وفي انشقاق فؤادي عبرة، وبه ... ويلٌ من الصَّدِّ، والأجفانُ في أرَقِ
والانفطار به مِمّا يكابدُهُ ... والشمسُ قد كورت في القلب ذي الحرق
والصّبُّ في عَبَسٍ والنازعات به ... وقد أتى نبأ من دمعه الغدق
ومرسلات دم الإنسان جارية ... إلى القيامة من دمعي ومن حُرَقي
وبالمُدَّثِّر إني ماسك أبدًا ... وبالمُزَّمِّلِ إن ألجمْتُ بالعَرَقِ
فالجنُّ والإنس في خير ببعثته ... هذا ونوحٌ به أنجى من الغرق
وفي المعارج معراج الرسول عَلاَ ... حقًّا، وفي حاقّة كنز لمخترق
واللَّه مرسله في نون بشره ... والمُلْك خَيَّره حتى رأى ولقي
وجاء بالحلِّ والتحريم أُمَّتَهُ ... وبالطلاقِ من الدنيا لِمُنْطَلَقِ
وفي التغابن تُجّار به ربحوا ... إذ المنافق في خسر وفي نفق
يا صاحب الجمعة الغرّاء يا أملي ... في الصف عند امتحاني أَنْجِ من زلقي
وأنت في الحشر عوني في مجادلتي ... عسى تزيلُ حديد النار من عنقي
وعند واقعة إن كان لي رَمَقٌ ... فاشْفَعْ إلى ربِّك الرحمن من رَمَقي

(١) في طبعة عبد الحميد (جـ ١٠ ص ١٩١): «إخلاص من وجدي...»، وهكذا ينكسر الوزن.

لم أَرْعَ يا قمري للنجم في سهر إلاَّ لعلّك من نار الجحيم تَقِي
قَلْبي الكليم غدا للطُّور مرتقيًا ودُرُّ دمعي غدا بالذاريات سقي
وقاف يعجز عن حمل الغرام بكم وليس في حجرات الدمع من رمق
إنَّا فتحنا قتالاً للعذولِ ففي أحقاف جاثية في الغيظ والحنق[1]
دخان زخرف ما العُذّال فيه هبا شُورَايَ تتركه في أنف محترق
وعزّ مَنْ فُصِّلَتْ في مدحه سور نبيُّنا المصطفى الهادي إلى الطرق
فغافر الذنب كم أهدى به زُمَرًا وكم سقى كفّه صادٍ بمندفق
وليس غيرك في الصافات أقصده وأنت ياسين لي من سائر الفرق
يا فاطرًا قد سبا الأحزاب طلعته كم سجدةٍ لك في الأسحار والغسق
لقمان يشهدُ أنَّ الروم تعرفُهُ والعنكبوت فقد سدَّت عن الخلق
هذا ولي قصصٌ بالنملِ قد كتبت هامَتْ بها الشعرا في خدِّه اليَقَقِ[2]
تبارك اللّه من بالنور جمّلَهُ[3] قد أفلحَ الحج لَمَّا زاره فَوُقِي
يا أيها الأنبيا طَه ختامُكُم ويا ابن مريم خُذْ من مسكهِ العبقِ
لاذوا بكهف لهم سبحان خالقه حتى أتى الأمر بعد الخوف والفَرَقِ[4]
فالركن والحجر حقًّا قد أضاء له وذاك دعوة إبراهيم ذي الخلق
واللّه ربي بربُّ الرعد ينصره مَسِيرَ شهرٍ بلا سيف ولا دَرَقِ[5]
فيوسف مع هود والخليل إذًا ويونس شربوا من كأسه الدهق
لتوبتي أرتجي الأنفالَ منه غدًا فإنني رجلٌ أضحيت في قلق
أعرافُ أنعام إنعام له اشتهرت وكم لمائدة أسدى لمرتزق
كلّ النسا لم تلد مثلَ الرسول إذًا فينا وفي آل عمران ولم تُطقِ
أُعطيت خاتمة من سورة البقرة لم يُعْطَها أحدٌ فيما مضى وبقي
فأنتَ فاتحة الأنبا وخاتمهم وكلّهم قد أتوا بالودّ والملق

---

(١) الحنق: الغيظ والغضب. لسان العرب (حنق).

(٢) اليَقَقُ: الشديد البياض. لسان العرب (يقق).

(٣) في طبعة دار صادر (جـ ٧ ص ٣٣٠: «كلّله».

(٤) الفَرَقُ، بالفتح: الخوف. لسان العرب (فرق).

(٥) الدَّرَقُ، بالفتح: جمع درقة وهي الترس من الجلد. لسان العرب (درق).

والقلقشندي محبٌّ قال سيرته في مدح خير الورى الممدوح بالخلق
فاقبل هدية عبدٍ أنتَ مالكُهُ وأنظرْ إليه فإنَّ العبد في قلق
صلّى عليك إلَهُ العرش ما طلعتْ وَرْقا على فَنَنٍ والورق في الورق[1]

وهذه القصيدة وإن لم تلحق بلاغة قصيدة ابن جابر فهي مِمّا يتبرّك به، والأعمال بالنيّات.

ووقفت على أخرى من هذا النمط هي بالنسبة إلى هذه كنسبة هذه إلى قصيدة ابن جابر، وهي: [الطويل]

بحمد إلَه العرش أستفتحُ القولا وفي آية الكرسيُ أستمنحُ الطَّولا[2]
وفي آل عمران بدا[3] ذكر أحمد نساؤهمُ العقد قد أنعموا القولا
بأعراف رحماه بأنفال جوده شَرُفْنَا وفُضِّلْنَا وتُبْنا إلى المولى
له يونس نادى وهود ويوسف وذاكره في الرعد لا يسمع الهولا
ودعوة إبراهيم كان محمد وفي الحجر خير الخلق قد فضل الرسلا
له أُمَّةٌ كالنحل قد صحّ فضلهم فسبحان من أسرى بأحمدنا ليلا
علا فضله والناس في كهف نيله ومريم في الأخرى يكون لها بعلا
وطه له فضل على الخلق كلّهم ولكن جميعَ الأنبياء علا فضلا
ولولاه ما حُجَّ المقامُ وكعبةٌ فأفلح من قد طاف فيها ومن حلاً
ومن نوره الوهّاج كلّ منوّر وفرقانه قد أخمد الكفر والبُطْلا[4]
ترى الشعرا كالنمل حول محمد إذا قصص في العنكبوت لهم تتلى
علا ديننا دومًا ولقمان عالم بأنَّ السيوف أسجدت كلَّ من ضَلاً
والأحزاب يسبيهم بحكمةِ فاطرٍ وياسين قد صفَّت له الملأ الأعلى
وصاد جميع الكافرين بزمرة له غافر في الحرب قد فصّلت فصلا
وشوراه في الدنيا بها كلّ زلفة وقد زخرف الكفّار في دينهم جهلا
لقد رأوا الدخان حول بيوتهم بجاثية الأحقاف قد قتلوا قتلا

(١) في طبعة عبد الحميد (جـ ١٠ ص ١٩٣): «صلّى عليه.. على فتن..».
(٢) استمنح: طلب المنحة. الطَّوْلُ، بفتح الطاء وسكون الواو: الفضل. لسان العرب (منح) و (طول).
(٣) في طبعة دار صادر (جـ ٧ ص ٣٣١): «أتى ذكر..».
(٤) البُطْلُ: الباطل. لسان العرب (بطل).

محمدنا لم يخلقِ اللّهُ مثلَهُ وفي الحجرات فَضْلُهُ أبدًا يُتْلَى
وقد أنزل الجبَّار قافًا بذكره كما تذر الكفّار ريح بها تبلى
بطور سما والنجم ما ضوء أحمد كما قَمَر بل نور خير الورى أجلى
به اللّه رحمنٌ وفي وقعةٍ جرى حديد[1] به الكفّار يجدلهم جدلا
وقد سمعَ الغفّار دعوة أحمد بحشرٍ، ولكن بامتحان به تبلى
صففنا بجمع للأعادي فمنهُمُ منافقٌ إنَّ الكفر في دَرَكٍ سفلى
يرى غبنه في الخير منهم مطلّق ولكنّ من يحرمْ نعيمًا فقد ضلاً
لأحمد ملك لا يوازيه سيِّدٌ ونون لقد قلْنا مقالاً به استعلى
بحقّ لقد سالت أباطح مكّة بفضل الذي قد كان نوح به استعلى
صحيحٌ بأنَّ الجنَّ جاءت لأحمد ومزَّمِّل كان الغمام له ظلاً
لِمُدَّثِّرٍ فضلُ القيامة واضح أتاه، وجمع المرسلات أتت سبلا
وعَمَّ بجدواه فلا من منازع فحيث تراه لا عبوسًا ولا بخلا
لقد كوّرت شمس بها انفطر السما لويل أتى الكفّار وانْشَقّ واستولى
ولكن بروج الجوّ تزهو بأحمد وفي طارق الأفلاك فَضَّلَه الأعلى
وغاشية كالفجر حلّت ببلدة بها حرم أمن كشمس جلت ليلا
وفَاقَ الضُّحى حقًّا جبينُ محمد كما بانشراح الصدر قد خَصَّه المولى
فأقسم بالتين الذي عمَّ نَفْعُهُ وبالقَلَم الأعلى لقَدْر له أعلى
ألم يكن الكُفّار قد ضلَّ سعيهم وقد زلزلوا بالعاديات كما يتلى
وقارعة جلّت وألهاهم الهوى ووالعصر إنَّ الويل يقريهمُ نزلا
ألم تَرَ أنَّ اللّهَ فَضَّلَ أحمدًا لأمْنِ قريش حيثما سلكوا السبلا
أريت بأنَّ الكوثر العَذْبَ خصّه به، وجميع الكفر لن يَرِدُوا أصلا
لقد نصر الرحمنُ ربي محمدًا فأردى أبا لهب[2] ولم يكتسب نيلا
فيا أحد إني بفضلك عائذ إذا غَسَقَ الديجورُ[3] ناديت يا مولى

---

(١) في طبعة دار صادر (جـ ٧ ص ٣٣١): «وفي وقعةٍ ترى حديدا..».

(٢) أبو لهب: هو عمّ النبي ﷺ، وقد بقي على شركه، وآذى الرسول فنزلت فيه السورة: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾. سورة المسد ١١١، الآية ١.

(٣) الديجور: الظلام، محيط المحيط (دجر).

ولم أقف على غير هذه الأبيات من هذه القصيدة، وقد سقط منها كما رأيت سورة الناس، فقلت مكملاً على نمطه: [الطويل]

ويا مالكًا للناس إنيَ لائذٌ بعفوكَ فاغفرْ عمدَ عبدكَ والجهلا
ويا ربّ عاملنا بما أنتَ أهله من الجود والرحمى وإن لم نكن أهلا
وصَلِّ على مِسْكِ الختام محمد أتمَّ صلاة تملأ الحَزْنَ والسَّهْلاَ

وتذكّرتُ بهذا الموضع خطبة القاضي أبي الفضل عياض التي ضمّنها سور القرآن على المهيع[1] الماضي آنفًا، وهي: الحمد للّه الذي افتتح بالحمد كلامه، وبين في سورة البقرة أحكامه، ومدّ في آل عمران والنساء مائدة الأنعام ليتمّ إنعامه، وجعل في الأعراف أنفال توبة يونس وألر كتاب أُحكمت آياته بمجاورة يوسف الصدّيق في دار الكرامة، وسبّح الرعد بحمده، وجعل النارَ بردًا وسلامًا على إبراهيم، ليؤمن أهل الحجر أنه إذا أتى أمر اللّه سبحانه فلا كَهْفَ ولا ملجأ إلاَّ إليه ولا يُظلمون قُلامة[2]، وجعل في حروف كهيعص سرًّا مكنونًا قدم بسببه طه ﷺ على سائر الأنبياء ليظهر إجلاله وإعظامه، وأوضح الأمر حتى حجّ المؤمنون بنور الفرقان والشعراء صاروا كالنمل ذلاًّ وصَغارًا لعظمته، وظهرت قصص العنكبوت فآمن به الروم، وأيقنوا أنه كلام الحي القيُّوم، نزل به الروح الأمين على زَيْن مَنْ وافى القيامة، وأوضح لقمان الحكمة بالأمر بالسجود لربّ الأحزاب فسبا فاطر السموات أهلَ الطاغوت، وأكسبهم ذلاًّ وخزيًا وحسرةً وندامة، وأمدَّ ياسين ﷺ بتأييد الصافّات فصَادَ الزمرَ يوم بدره وأوقع بهم ما أوقع صناديدهم في القليب[3] مكدوس ومَكْبوب حين شَالَتْ بهم النَّعَامة، وغفر غافر الذنب وقابل التوب للبدريين رضي اللّه عنهم ما تقدّم وما تأخّر حين فُصِّلت كلمات اللّه فذلّ من حقّت عليه كلمة العذاب وأيس من السلامة، ذلك بأن أمرهم شورى بينهم وشغلهم زخرف الآخرة عن دخان الدنيا فجثوا أمام الأحقاف لقتال أعداء محمد ﷺ يمينه وشماله وخلفه وأمامه، فأُعطوا الفتح وبُوِّئوا حجرات الجنان وحين تَلَوْا ﴿قاف والقرآن المجيد﴾[4] وتدبّروا جواب قسمِ الذاريات والطُّور لاح لهم نجم

(١) المهيع: الطريقُ الواسعُ البَيِّنُ. محيط المحيط (هيع).
(٢) القُلامة، بضمّ القاف: ما سقط من الشيء المقلوم، وقُلامة الظفر مثل في الخسّة والحقارة. محيط المحيط (قلم).
(٣) القليب: البئر. لسان العرب (قلب).
(٤) سورة ق ٥٠، الآية ١.

الحقيقة وانشقَّ لهم قمر اليقين فنافروا السآمة، ذلك بأنهم أمنهم الرحمن إذا وقعت الواقعة واعترف بالضعف لهم الحديد وهُزم المجادلون وأُخرجوا من ديارهم لأوّل الحشر يخرِّبون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين حين نافروا السلامة.

أحمده حمدَ من امتحنته صفوف الجموع في نفق التغابن فطلق الحرمات حين اعتبر الملك وعامه، وقد سمع صريف[1] القلم وكأنه بالحاقة والمعارج يمينه وشماله وخلفه وأمامه، وقد ناح نوح الجنّ فتزمّل وتدثّر فرقًا من يوم القيامة، وأنس بمرسلات النبإ فنزع العبوس من تحت كور العمامة، وظهر له بالانفطار التطفيف فانشقّت بروجُ الطارق بتسبيح الملك الأعلى وغشيته الشهامة، فوربّ الفجر والبلد والشمس والليل والضحى لقد انشرحت صدور المتقين، حين تَلَوْا سورة التين، وعلق الإيمان بقلوبهم فكلّ على قدر مقامه يبين، ولم يكونوا بمنفكين دَهْرَهم ليله ونهاره وصيامه وقيامه، إذا ذكروا الزلزلة ركبوا العاديات لِيُطْفِئوا نور القارعة، ولم يُلْههم التكاثر حتى تَلَوْا سورة العصر والهمزة وتمثّلوا بأصحاب الفيل فليعبدوا ربّ هذا البيت الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوفٍ أرأيتهم كيف جعلوا على رؤوسهم من الكور عمامة، فالكوثر مكتوب لهم والكافرون خذلوا وهم نصروا وعدل بهم عن لهب الطامّة، وبسورة الإخلاص قرّوا وسعدوا وبربّ الفلق والناس استعاذوا فأُعيذوا من كلّ حزن وهَمّ وغمّ وندامة.

وأشهد أن لا إلّه إلاّ اللّه وحده لا شريك له، وأشهد أنّ محمدًا عبده ورسوله شهادة ننال بها منازل الكرامة، صلّى اللّه تعالى عليه وعلى آله وأصحابه ما غرّدت في الأيك[2] حَمَامة؛ انتهت.

ومِمَّن نسبها للقاضي عياض الشيخ أبو عبد اللّه محمد ابن الشيخ أبي العباس أحمد بن أبي جمعة الوَهْرَاني، وفي نفسي من نسبتها له شيء لأنَّ نفس القاضي في البلاغة أعلى من هذه الخطبة، واللّه تعالى أعلم.

وكنت رأيت بتلمسان المحروسة بخطّ عمي ومفيدي وليّ اللّه تعالى العارف المعروف بشيخ الشيوخ الإمام المفتي الخطيب سيدي سعيد بن أحمد المقّرِي - صَبَّ اللّه عليه سِجالَ[3] الرضوان! - خطبةً من هذا النمط نصُّها:

---

(١) صريف القلم: صوته. لسان العرب (صرف).
(٢) الأيك: جمع أيكة وهي الشجرة الملتفّة. لسان العرب (أيك).
(٣) السِّجال: جمع سَجْل وهو الدلو العظيمة. محيط المحيط (سجل).

الحمد لله الذي افتتح بفاتحة الكتاب سورة البقرة ليصطفي من آل عمران رجالاً ونساء وفضّلهم تفضيلاً، ومدَّ مائدة أنعامه ورزقه ليعرف أعراف أنفال كرمه وحقّه على أهل التوبة وجعل ليونس في بطن الحوت سبيلاً، ونجّى هودًا من كربه وحزنه، كما خلّص يوسف من سجنه وجبّه، وسبّح الرعد بحمده ويمنه، واتّخذ اللّهُ إبراهيمَ خليلاً، الذي جعل في حجر الحجر من النحل شرابًا نوّع باختلافِ ألوانه، وأوحى إليه بخَفِيٍّ لطفه سبحانه، واتّخذ منه كهفًا قد شيد بنيانه، وأرسل روحه[1] إلى مريم فتمثّل لها تمثيلاً، وفضّل طه على جميع الأنبياء فأتى بالحج والكتاب المكنون، حيث دعا إلى الإسلام قد أفلح المؤمنون، إذ جعل نور الفرقان دليلاً، وصدّق محمدًا ﷺ الذي عجزت الشعراء عن صدق نفثه[2]، وشهدت النمل بصدق بعثه، وبين قصص الأنبياء في مدة مكثه، ونسج العنكبوت عليه في الغار سترًا مسدولاً، وملئت قلوب الروم رعبًا من هيبته، وتعلّم لقمان الحكمة من حكمته، وهدى أهل السجدة للإيمان بدعوته، وهزم الأحزاب وسباهم وأخذهم أخذًا وبيلاً، فلقّبه فاطرُ السموات والأرض بياسين كما نفذ حكمه في الصافّات، وبين صاد صدقه بإظهار المعجزات، وفرق زمر المشركين وصبر على أقوالهم وهَجَرهم هجرًا جميلاً، فغفر له غافر الذنب ما تقدّم من ذنبه وما تأخّر، وفصلت رقاب المشركين إذ لم يكن أمرهم شورى بينهم وزخرف منار الإسلام وخفي دخان الشرك وخرّت المشركون جاثية كما أنذر أهل الأحقاف فلا يهتدون سبيلاً، وأذلّ الذين كفروا بشدّة القتال وجاء الفتح للمؤمنين والنصر العزيز، وحجر الحجرات الحريز، وبقاف القدرة قُتل الخرّاصون[3] تقتيلاً، كلّم موسى على جبل الطور، فارتقى نجم محمد ﷺ فاقتربت بطاعته مبادي السرور، وأوقع الرحمن واقعة الصبح على بساط النور، فتعجّب الحديد من قوته، وكثرة المجادلة في أُمّته، إلى أن أُعيد في الحشر بأحْسَنَ مَقيلاً، امتحنه في صفّ الأنبياء وصلّى بهم إمامًا، وفي تلك الجمعة ملئت قلوب المنافقين من التغابن خسرًا وإرغامًا، فطلق وحرم تبارك الذي أعطاه الملك وعلّم بالقلم[4] ورتّل القرآن ترتيلاً، وعن علم الحاقة كم سأل سائل فسال الإيمان، ودعا به نوح

---

(١) الروح: جبريل عليه السلام، وقد أخذ هذا من قوله تعالى: ﴿فأرسَلْنا إليها رُوحَنا فتَمَثَّلَ لها بَشَرًا سَوِيًّا﴾ سورة مريم ١٩، الآية ١٧.

(٢) في طبعة عبد الحميد (جـ ١٠ ص ١٩٨): «في صدق نعته..».

(٣) الخرّاصون: جمع خرّاص وهو الكذاب. قال الله تعالى: ﴿قُتِلَ الخَرّاصُونَ الذين هُمْ في غَمْرَةٍ ساهُونَ﴾ سورة الذاريات ٥١، الآيتان ١٠، ١١.

(٤) في طبعة عبد الحميد (جـ ١٠ ص ١٩٩): «القلم».

فنجّاه اللّه تعالى من الطوفان، وأتت إليه طائفة الجنّ يستمعون القرآن فأنزل عليه: يا أيها المزَمّلُ، قُم الليلَ إلاّ قليلاً، فكم من مدّثّر يوم القيامة شفقةً على الإنسان إذا أرسَلَ مرسَلاتِ الدمع فعم يتساءلون أهل الكتاب، وما تقبل من نازعات المشركين إذا عبس عليهم مالك[1] وتولاّهم بالعذاب، وكوّرت الشمس وانفطرت السماء وكانت الجبال كثيبًا مهيلاً[2]، فويل للمطففين إذا انشقت السماء بالغمام، وطويت ذات البروج وطرق طارقُ الصور بالنفخ للقيام، وعزّ اسم ربّك الأعلى لغاشية الفجر فيومئذ لا بلدَ ولا شمسَ ولا ليلَ طويلاً، فطوبى للمصلّين الضحى عند انشراح صدورهم إذا عاينوا التين والزيتون وأشجار الجنّة فسجدوا باقرأ باسمِ[3] ربّك الذي خلق هذا النعيم الأكبر لأهل هذه الدار ما أحيوا ليلة القدر وتبتّلوا تبتيلاً، ولم يكن للذين كفروا من أهل الكتاب من أهل الزلزلة من صديق ولا حميم، وتسوقهم كالعاديات إلى سواء[4] الجحيم، وزلزلت بهم قارعة العقاب وقيل لهم: ألهاكُمُ التكاثُرُ، هذا عصر العقاب الأليم، وحُشِر الهُمَزة وأصحاب الفيل إلى النار فلا يُظلمون فتيلاً، وقالت قريش: ما أمنتم من هول المحشر، أرأيت الذي يكذِّبُ بالدين كيف طُرد عن الكوثر، وسيق الكافرون إلى النار وجاء نصرُ اللّه والفتح فَتَبّتْ يدا أبي لهبٍ إذ لا يجد إلى سورة الإخلاص سبيلاً، فنعوذ بربِّ الفَلَق من شَرِّ ما خَلَق، ونَعوذ[5] بربِّ الناس ملكِ الناس إلَهِ الناسِ مِنْ شَرّ الوسواس الخنّاس الذي فسق، ونتوب إليه، ونتوكّل عليه، وكفى باللّه وكيلاً؛ انتهى.

وهي من إنشاء الفقيه الجليل الشريف الكامل أبي المجد عبد المنعم ابن الشيخ الفقيه العدل أبي جعفر أحمد بن عبد اللّه بن عبد المنعم الهاشمي الطنجالي رحمه اللّه تعالى ونفعنا به وبسلفه الطاهر.

ومن نظم ابن جابر المذكور قوله: [الكامل]

جعلوا لأبناء الرسول علامةً ... إنَّ العلامةَ شأنُ مَنْ لم يُشهرِ
نورُ النبوّة في كريم وجوههم ... يغني الشريفَ عن الطراز الأخضرِ

---

(١) مالك: هو خازن النار.

(٢) الكثيب: مجتمع الرمل. المهيل: المنهال. لسان العرب (كثب) و (هيل).

(٣) في طبعة عبد الحميد: «اسم».

(٤) سواء الجحيم: وسطها؛ قال اللّه تعالى: ﴿فاطَّلَعَ فرآهُ في سَواءِ الجَحِيمِ﴾. سورة الصافات ٣٧، الآية ٥٥.

(٥) في طبعة عبد الحميد (ج ١٠ ص ٢٠٠): «ونعوب».

وفي هذا المعنى يقول شمس الدين الدمشقي: [الكامل]

أطرافُ تيجانٍ أتتْ من سندسٍ خضرٍ بأعلامٍ على الأشرافِ
والأشرفُ السلطانُ خَصَّهُمُ بها شرفًا لتفرّقهم من الأطرافِ

والأشرف المذكور هو شعبان بن حسن ابن الناصر محمد ابن المنصور قلاوون الصالحي الألفي، رحمهم اللّٰه تعالى!

وقال الرحالة ابن بطوطة في رحلته عند ذكر سلطان ماردين ابن الملك الصالح ابن الملك المنصور ما نصُّه[1]: وله المكارم الشهيرة، وليس بأرض الشام والعراق[2] ومصر أكرم منه، يقصده الشعراء والفقراء فيُجْزل[3] عطاياهم جريًا على سنن أبيه. قصده أبو عبد اللّٰه محمد بن جابر الأندلسي الهوّاري[4] الكفيف مادحًا فأعطاه عشرين ألف درهم؛ انتهى.

ومن شعر ابن جابر رحمه اللّٰه تعالى: [البسيط]

وفي الخيام ومَنْ لي بالخيام رَشًا لا أحسبُ البدرَ في حُسْنٍ يقاومُهُ
مثلُ النزالةِ إن تاهتْ وإن طلعتْ فكيف يصرفُ عنه الصَّبَّ لائمُهُ

وقوله رحمه اللّٰه تعالى: [البسيط]

في القلب من حبِّكمْ بَدْرٌ أقام به فالطرفُ يبصرُ نورًا حين يبصرُهُ
تَشَابه العقدُ حسنًا فوق لَبَّتِهِ[5] والثغرُ نظمًا إذا ما لاح جوهرُهُ

وقوله: [الكامل]

ردفٌ أقام لنا بها فتنَ الهوى وإذا أتت لتقومَ قال لها اقعدي
أبصرتها ما بين ذاك وبين ذا فوقعتُ منها في المقيم المقعدِ

---

(١) رحلة ابن بطوطة (ص ٢٣٨).
(٢) في رحلة ابن بطوطة: «بأرض العراق والشام..».
(٣) في رحلة ابن بطوطة: «فيجزل لهم العطايا».
(٤) في رحلة ابن بطوطة: «المروي».
(٥) اللَّبَّةُ: موضع القلادة من الصدر. لسان العرب (لبب).

وقوله: [السريع]

سَامَحَ بالوصل على بُخْلِهِ وقال لي أنت بوصلي حقيقْ[1]
فقلتُ ما رأيك في نزهة ما بين كاساتٍ وروض أنيقْ
فقال يعني خدّه واللّمى: هذا هو الروضُ وهذا الرحيقْ[2]
فَبِتُّ من دمعي ومن خدِّه ما بين نعمانٍ[3] وبين العقيقْ
وإذ تَذَلَّلْتُ على حبّه قال: أما تخشى؟ أما تستفيقْ؟
قَدِّي وخَدِّي خَفْهُما يا فتى هذا هو الرمحُ وهذا شقيقْ

وقوله: [الخفيف]

وَقَفَتْ للوداع زينبُ لَمَّا رحل الركبُ والمدامعُ تُسْكَبْ
مَسَحَتْ بالبنانِ دمعي، وحلوٌ سكبُ دمعي على أصابعِ زينبْ

رَجْعٌ إلى أولاد لسان الدين رحمه اللّٰه تعالى.

ومن قصيدة موشحة لابن زمرك يخاطب بها شيخه ومخدومه الوزير لسان الدين بن الخطيب قبل أن يظلم الجوّ بينه وبينه، جوابًا عن رسالة خاطب بها لسان الدين بن الخطيب أولاده صدر نظم له[4] لم يحضرني ذلك الآن قولُه: [مخلع البسيط]

ما لي بحملِ الهوى يَدَانِ مِنْ بَعْدِ ما أعوزَ التداني
أصبحتُ أشكوه من زمانِ ما بتُّ منه على أمانِ
ما بالُ عينيكِ تَسْجمانِ والدمعُ يرفَضُّ كالجُمان
ناداك والإلفُ[5] عنك وانِ والبعدُ من بعده كَوَانِي
يا شقّة النفسِ مِنْ هوانِ لَجَّجَ في أبحرِ الهوانِ
لم يثنِهِ عن هواك ثانِ يا بغيةَ القلبِ قد كفاني

---

(١) حقيق: جدير. لسان العرب (حقق).
(٢) الرحيق: الخمر، شبه به ريق الحبيب.
(٣) نعمان: أي شقائق النعمان.
(٤) كلمة «له» ساقطة من طبعة عبد الحميد (جـ ١٠ ص ٣٣٩).
(٥) الإلْفُ: الأليف. لسان العرب (ألف).

وقال بعض الحفّاظ في ترجمة أبي الحسن علي بن لسان الدين بعد أن ذكر روايته عن أبيه وابن الجياب وابن مرزوق: إنه أخذ عن جماعة غيرهم، كالشريف القاضي الفقيه أبي علي الحسن بن يوسف بن يحيىٰ بن أحمد الحسني السبتي نزيل تلمسان، والفقيه الإمام العلاّمة قاضي الجماعة بفاس وكبير العلماء بالمغرب أبي عبد اللّٰه محمد المقّري التلمساني القرشي، والشريف العالم أبي القاسم محمد ابن الفقيه العالم المعلم لكتاب اللّٰه تعالى أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن عبد اللّٰه بن محمد بن محمد [بن محمد][1] بن علي بن موسى بن إبراهيم بن محمد بن القاسم بن الحسن بن إدريس بن الحسن بن محمد بن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي اللّٰه تعالى عنهم، وليس إدريس المذكور هنا بملك المغرب وجَدّ الأدارسة.

قال: وروى أيضًا عن القاضي ابن شبرين الإشبيلي ثمّ السبتي نزيل غرناطة، والقاضي أبي البركات البلفيقي، والكاتب صاحب القلم الأعلى أبي جعفر بن صفوان القيسي المالكي، وابن خاتمة، والفقيه الحاج أبي القاسم محمد ابن الفقيه الصالح العالم أبي عمرو يحيىٰ ابن الفقيه الصالح أبي القاسم محمد الغساني الرحبي نزيل فاس، وغيرهم مِمَّنْ يطول تعدادهم من الأئمّة الأعلام، نجوم الإسلام؛ انتهى.

وقد وقفت للكفعمي رحمه اللّٰه تعالى في شرح بديعيته على خطبة وقصيدة من هذا النمط. قال رحمه اللّٰه تعالى ما نصُّه:

ولنختم الخاتمة بخطبة وجيزة، في فنّها عزيزة، وجعلْناها في مدح سيد البرية، وتورياتها في السور القرآنية، فكن لسورها قاريًا، ولمعارجها راقيًا، وعلَّ وانهل من شرابها السكري، وفكّه نفسك بتسجيعها العبقري[2]، وهي هذه:

الحمد للّٰه الذي شرّف النبيّ العربيّ بالسبع المثاني وخواتيم البقرة من بين الأنام، وفضل آل عمران على الرجال والنساء بما وهب لهم من مائدة الأنعام، ومنحهم بأعراف الأنفال وكتب لهم براءة من الآثام، وأشهد أن لا إلٰه إلاّ اللّٰه وحده لا شريكَ له الذي نجّى يونس وهودًا ويوسف من قومهم برّعد الانتقام، وغذى إبراهيم في الحجر بِلُعَاب النحل[3]

(١) ما بين قوسين ساقط من طبعة عبد الحميد.

(٢) في طبعة دار صادر (جـ ٧ ص ٣٤٠): «النميري».

(٣) لعاب النحل: الشهد. لسان العرب (لعب).

ذات الإسراء فضاهى كهف مريم عليها السلام، وأشهد أنَّ محمدًا عبده ورسوله الذي هو طه الأنبياء وحج المؤمنين ونور فرقان الملك العلام، فالشعراء والنمل بفضله تخبر، ولقصص العنكبوت الروم تذكر، ولقمان في سجدته يشكر، والأحزاب كأيادي سبا تُقْهَر[1]، وفاطر يٰس لصافّاته ينصر، وصاد مقلة زمره تنظر الأعلام، فآل حم بقتال فتحه في حجرات قافه قد ظهرت، وذاريات طوره ونجمه وقمره قد عطرت، وبالرحمن واقعة حديده يوم المجادلة قد نصرت، وأبصار معانديه في الحشر يوم الامتحان حسرت، وصفّ جمعته فائز إذ أجساد المنافقين بالتغابن استعرت، وله الطلاق والتحريم ومقام الملك والقلم فناهيك به من مقام، وفي الحاقة أعلى اللّٰه له المعارج على نوح المتطهّر، وخصّه من بين الإنس والجنّ بيا أيها المزّمّلُ ويا أيها المُدَّثِّرُ، وشَفَّعه في القيامة إذا دموع الإنسان مرسلات كالماء المتفجّر، ووجهه عند نبإ النازعات وقد عبس الوجه كالهلال المتنور، ويوم التكوير والانفطار وهلاك المطففين وانشقاق ذات البروج بشفاعته غير متضجر، وقد حرست لمولده السماء بالطارق الأعلى وتمّت غاشية العذاب إلى الفجر على المردة اللئام، فهو البلد الأمين وشمس الليل والضحى المخصوص بانشراح الصدر، والمفضل بالتين والزيتون المستخرج من أمشاج العلق الطاهر العلي القَدْر، شجاع البرية يوم الزلزال إذ عاديات القارعة تدوس أهل التكاثر ومشركي العصر، أهلك اللّٰه به الهُمَزَةَ وأصحاب الفيل إذ مكروا بقريش ولم يتواصَوا بالحقِّ ولم يتواصَوْا بالصبر، المخصوص بالدين الحنيفي والكوثر السلسال والمؤيّد على أهل الجحد بالنصر، صلّى اللّٰه عليه وعلى آله وأصحابه ما تبّت يدا معاديه، ونعم بالتوحيد مواليه، وما أفصح فلق الصبح بين الناس وامتدّ الظلام.

ولنشفع هذه الخطبة بقصيدة على سور القرآن، في مدح سيد ولد عدنان، يحسن هنا أن ننضي[2] عن فرائد نفائسها لطلابها، ما أغدف من خُمُرها[3] وستورها، ونُجَلّي عن خرائد عرائسها لخطابها، ما أسدف من غُرَرها في خدورها، فانظر إلى سور أبياتها وصور تورياتها، ثم ادْعُهُنّ يأتينك سعيًا، فحفظًا لها ووعيًا، وهي هذه: [الكامل]

---

(١) يقال: تفرّق القوم أيادي سبا أو أيدي سبا: أي تفرقوا تفرقًا ليس بعده التئام. لسان العرب (فرق).

(٢) تنضي: تكشف ونزيل. لسان العرب (نضا).

(٣) أغدفت المرأة القناعَ على وجهها: أرْخَتْه. وأغدف الليل: أرخى سدوله. الخُمُر، بالضم: جمع خمار وهو القناع. لسان العرب (غدف) و (خمر).

يا مَنْ له السبعُ المثاني تنزلُ وخواتمُ البقرهْ عليه تنزلُ[1]
في آل عمران النساء لم تَلِدْ كنظيره الأجساد ذلكَ تفعلُ[2]
مولى له الأنعام والأعراف والـ أنفال والحِكم التي لا تُجهلُ
بِعُلاَه توبة يونس قبلت كذا هود ويوسف رعدهم يتجلجلُ[3]
وكذاك إبراهيم في حجر له والنحل في الإسرا عليه تعوُّل
يا كهفَ مريمَ أنت طهَ الأنبيا والحج ثم المؤمنون الأفضل
يا نورُ يا فرقانُ يا مَنْ مدحه نطقت به الشعراءُ وهو المرسل
والنملُ في قصص الحديث به دعت وعليه نسجُ العنكبوت يهدّل[4]
والروم تتلو إسمه ولكم به لقمان حقًّا في المضاجع يسأل
ويعزمه الأحزاب جمعهم سَبَا وبه الملائكةُ الكرامُ تفضل
يٰس سمّاه الإلٰه بذكره وكواكبٌ بسعوده لا تأفل
يا ليتني صادٍ شربت بكأسه وعليه في زُمَر وردت فأنْهَلُ
كم مؤمنٍ قد فُصِّلَتْ أعلامُهُ من زخرفٍ بِجَدْاه يا من يعقل
ودخان جاثية على أحقافها بقتاله أطفى وفتح أدخل
حجراتُ قافٍ ذارياتُ سمائه في طورها نجمٌ منيرٌ يكمل
ودنا له القمرُ المنيرُ وشقّه الر حمنُ واقعةٌ له لا تُجهل
زَغَفُ الحديد بحربه أصواتها رعدٌ مجادلةٌ لقوم أبسلوا
وله لدى الحشر العظيم شفاعةٌ في أُمَّةٍ بالإمتحان تَسَرْبَلُوا
عن صَفِّ جمعته المنافقُ نائيًا يومَ التغابن من حديد ينعل
يا مَنْ به شُرِعَ الطلاقُ ومن له الـ تحريمُ والملكُ العظيمُ الأجمل
يا من به ذو النون لاذ بِيُمْنه لَمَّا أصيب بحاقة لا تعدل
يا من سَأَلَ نوحٌ بطاهر إسمه يا من أتته الجنُّ يا مزَّمّلُ
مُدَّثِّرٌ يومَ القيامةِ شافعٌ ومخلِّصُ الإنسان وهو الموئل

---

(١) في طبعة عبد الحميد (ج ١٠ ص ٢٠٥): «أنزلُ».
(٢) في طبعة عبد الحميد: «لم يلدْن نظيره أعياد ذلك..».
(٣) يتجلجل: يجلجل؛ يقال: جلجل الرعد إذا صوّت. لسان العرب (جلجل).
(٤) في طبعة عبد الحميد: «مسدل».

يا مَنْ نزولُ المرسلات ببعثه يا أيها النبأ العظيم الأكمل
والنازعات نزعن نفسَ عدوّه هذا، وقد عبس الجبين وأذهلوا
وهو الشفيع إذا المنيرة كوّرت والإنفطار من السماء يعجل
ولدى ذوي التطفيف وَيْلٌ والسما في الإنشقاق إذا البروجُ تبدل
واللّه قد حرس السماءَ بطارقٍ لولادةِ الأعلى به يتفضل
وأزال غاشيةَ العذاب ونوره كالفجر إذ أنواره تتهلّل
بلدٌ أمين ثم شمسٌ أشرقت والشعر ضاهى الليل بل هو أليلُ[1]
شمسُ الضحى من وجهه ولصدره ألانشراحُ، وقلبه لا يغفل
يا من أتى في التين حقًّا ذكره فاقرأ ولا يرتاب فيه، واسألوا
يا من ليالي القدر بَيِّنَةٌ له وعداه بالزلزالِ منه تزلزلوا
بالعادياتِ أزالَ قارعةَ العِدا ويقوله ألهاكُمُ ما تجهل
ولقد أتى من قبلِ عصرِ نبيِّنا ويلٌ لأهلِ الفيلِ منه وقُتِّلُوا
هو صاحبُ الإيلاف والدينِ الذي يُسْقى غدًا من كوثر يتسلسل
والكافرون لنصره في جيدهم مَسَدٌ[2] إذا التوحيد عنه تعدل
يا خاتمًا فَلَقُ الصباحِ كوجهه والناس منه مكبر ومهلّل
أبياتها ميقاتُ موسى عدَّةً والكفعميُّ بِمَدْحِهِ يَتَجَمَّلُ
صلّى عليه اللّهُ مع أصحابه ما زال طيرُ العندليب يعندل

والكفعمي هو إبراهيم بن علي بن حسن بن محمد بن صالح نسبة إلى كفر عَيْما قرية من قرى أعمال صفد، كما تقول في النسبة إلى بني عبد الدار: عبدري، وإلى حصن كيفا: حصكفي، وشرحه لبديعيته سمّاه «نُور حَدَّقة البديع، ونَوْر حديقة الربيع» وما رأيت مثله في سعة الحفظ والجمع.

ومن نظمه في أسماء الكتب: [الخفيف]

يا طريقَ النجاةِ بحرَ فلاحِ أنتَ دفعُ الهموم والأحزانِ
أنتَ أُنسُ التوحيدِ عدَّةُ داعٍ ثم روحُ الإحيا وفلكُ المعاني

---

(١) ليلٌ أليل: طويل شديد السواد، ويقال: ليلة ليلاء. لسان العرب (ليل).
(٢) المَسَدُ، بالفتح: الحبل. لسان العرب (مسد).

نـهـج حـيّ ونـشـرُ دُرّ نـبـيِّـه | وريـاضُ الآداب ذكـرى الـبـيـان
فـــائــقٌ رائـــعٌ مـــســرّةُ راضٍ | منتهى السؤلِ جامعٌ للأماني
نـزهـةٌ عـدَّةٌ ظـرائـفُ لـطـفٍ | روضةٌ مبهج[1] جنانَ الجنانِ
زاهـرٌ كـامـلٌ شـهـاب وكـنـز | مجتنى من ذخيرة الإخوانِ[2]
فـصـحـاحُ الألـفـاظ فـيـه تـلـقًّى | وشـذورُ الـعـقـودِ والـمـرجـان
وهو قوتُ القلوبِ نهج جنان | وكـنـوزُ الـنـجـاح والـبـرهـان

فناسب بين أسماء الكتب، وقصدُهُ غير ذلك، وأكثرُ هذه الكتب التي ورَّى بها غير موجودة بأيدي الناس، بل ولا معروفة لديهم، وهذا دليلٌ على صحّة اطّلاعه.

ومن بدائع الكفعمي المذكور رسالة كتبَ بها إلى قاضي القضاة العالم العلامة أبي العباس ابن الفرفور[3] في شأن أستاذدار[4] قاضي القضاة المذكور الأمير علاء الدين، ويخرج من أثنائها قصيدة منها: يقبل الأرض وينهي (سلام) عبد لكم (محب) وعلى المقة مكب (لو بدا) للناظرين (عشرُ) معشار(شوقه) وغرامه (لطَبَّقَ) ذلك (ما بين) آفاق (السموات) السبع (والأرض) لشدّة هيامه (تراه) حقًّا (لكم) حافيًا (بالأمن) والسرور (والسعد) والحبور (داعيًا) لا جرم (وهذا) الثناء المتوالي و (الدعا) للمقام العالي (لا شكّ من لازم الفرض) ملّكه اللّه تعالى أزِمَّةَ[5] البسط والقبض (وأنجاك) ربّي من المصاعب[6] (في) دينك و (دنياك) وأنقذك (من) شرّ (كل) صغير (شدّة) وكبيرها (وأرضاك) وجعلك أمينًا (في) الأرض، إلى (يوم القيامة) والنشور (والعرض، كما أنت) أمن (لي) من المخاوف و (عون) في كلّ شدّة (وغوث) وملجأ (وعدة) وأنجحت آمالي (ووفرت) بإخدامك (لي مالي) وأحسنت قرضي (ووفرت) بإجلالك (لي عرضي، ويُنْهي) المملوك (إلى) سيده (قاضي

---

(١) في طبعة عبد الحميد (ج ١٠ ص ٢٠٧): «منهج».
(٢) هذا البيت ساقط من طبعة عبد الحميد.
(٣) في طبعة عبد الحميد: «ابن الفرفوري». وابن الفرفور: هو شهاب الدين أحمد بن محمود بن عبد اللّه بن محمود، الدمشقي الشافعي. ولي قضاء القضاة الشافعية بدمشق، ثم قضاء مصر سنة ٩١٠ هـ. توفي سنة ٩١١ هـ. الكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة (ج ١ ص ١٤١).
(٤) في طبعة عبد الحميد: «أستادار».
(٥) الأزمّة: جمع زمام وهو ما تقاد به الدابة. لسان العرب (زمم).
(٦) في طبعة دار صادر (ج ٧ ص ٣٤٥): «المعاطب».

القضاة) وكافي الكفاة (بأن) المتولي الأمين (ذا) الفخر المبين (علي ابن) المرحوم (فخر الدين) قولُه (في أمركم) العالي (مرضيّ) وفعله مقضي (ومدحكم) عليه (فرض) واجب (يراه) أبدًا (لسانه) ويذكر المناقب (وحبّكم) له واختياركم (إياه) دالٌّ بأنه أمير حكيم[1] (شاهده) حقًّا (يقضي) بجعله على خزائن الأرض إنه حفيظ عليم (حديث) مدح (سواكم) ليس من مدائحه، و (لا يمرّ) أبدًا (بقلبه *) وجوارحه (وإن مرَّ) في خاطره (لا يحلو) قطعًا (وحكمكم) عليه شرعًا، ومرسومكم (يمضي) وأمركم يقضي (يتيه) سرورًا (به) رؤساء الشام، و (من في القبيبات) من الأنام، (عزّة) وعلوًّا (لخدمته) الشريفة (إياك) ولأنه (يا قاضي) قضاة الدين و (الأرض) لا يريد سواك، (فإن يك) الخادم المذكور (في) بعض (أفعاله) غافلاً (أو) في (مقاله) غير كامل و (عصاكم) في بعض الأمر (فعين العفو) والستر (عن ذنبه) لا جرم (تُغْضِي)، وهو بتوبته إليه يُفْضِي، و (سلام) اللّه (عليكم) ورحمته لديكم (كلّما) نطق ناطق أو (ذرّ) في المشارق (شارق) وما دارت الأفلاك، (وسبحت) بلغاتها (الأملاك، في) فسيح (الطول و) رحب (العرض)، دومًا ما بين السماء والأرض.

وهذه أبيات القصيدة المتولّدة من هذه الرسالة: [الطويل]

سلامُ محبّ لو بَدَا عُشْرُ شوقِهِ ... لَطَبَّقَ ما بين السَّمٰواتِ والأرضِ
تراه لكم بالأمن والسعد داعيًا ... وهذا الدعا لا شكَّ من لازم الفرض
وأنجاك في دنياك من كلِّ شدّة ... وأرضاكَ في يوم القيامة والعرض
كما أنتَ لي عون وغوث وعدّة ... ووفرت لي مالي ووفرت لي عِرْضي

هذا، ويصحّ أن يقرأ «عونًا» بالنصب على الحاليّة، وهو الذي رأيته بخطّه، أعني الكفعمي، ثم قال: [الطويل]

وينهي إلى قاضي القضاة بأنَّ ذا ... عليُّ ابن فخر الدين في أمركم مَرْضِي
ومَدْحُكُمُ فَرْضٌ قراه[2] لسانه ... وحبّكم إياه شاهده يقضي
حديث سواكم لا يمرُّ بقلبه ... وإن مَرَّ لا يحلو وحكمكم يمضي

---

(١) في طبعة دار صادر: «حليم».
(٢) في طبعة عبد الحميد (ج ١٠ ص ٢٠٩): «يراه».

يَتِيهُ[1] به من في القبيبات عزّة لخدمته إياكَ يا قاضيَ الأرض
فإن يَكُ في أفعاله أو مَقالِهِ عصاكم فعين العفو عن ذنبه تغضي
سلام عليكم كلّما ذَرَّ شارق وسَبَّحَتِ الأملاك في الطول والعرض

قلت: وهذه طريقة بديعة، وقد تبارى فيها السلف[2]، فبعضهم يعمد إلى أحاديث أو آيات وينسج على منواله مثلها، ويفرقها في أبياته أو سجعاته، ويكتبها بلون مخالف للأصل، وقد ذكرت في روضة الورد من «أزهار الرياض» من كلام ابن عاصم ما لا مزيد وراءه، فليراجعه مَنْ أراده، وذكرت في غيره أيضًا نبذة.

رَجْعٌ إلى نظم ابن جابر. فمن ذلك قوله: [مجزوء الكامل]

نـاديـتُ مَـنْ أَسْـرِي بـه بـحـيـاة مـن أُسـرِي بِـهِ[3]
سَـلْ مـدمـعًـا تـجـري بـه بَـلْـواهُ فـي تـجـريـبِـهِ

وقوله: [الرمل]

أيـهـا الـعـاذلُ فـي حـبـي لـه خَلِّ نفسي في جَوَاها تحترِقْ
مـا الـذي ضَـرَّكَ مـنـه بـعـد مـا صار قلبي في هواه تحتَ رِقّ

وله: [البسيط]

بَرْدُ الصباحِ على بَرْدِ الصَّبا سَحَرًا ما زالَ يُذْكرني أوقاتَ نعمانِ
لهفي لعيشٍ قضيْنا في معاهدها ما بين حُسْنٍ من الدنيا وإحسانِ

وله رحمه اللّه تعالى من حسناته المقبولة المضاعفة أيضًا: [الطويل]

جعلتُ ملاكَ العين والقلبِ في الهوى بناطقةِ القُرْطَيْنِ صامتةِ القُلْبِ[4]
تُصَحِّفُ لي ألحاظُها لِينَ قَدِّها وتقلبُه كيما تصيدَ به قلبي

---

(١) في طبعة دار صادر (جـ ٧ ص ٣٤٦): «يتيه به أهل القبيبات..».
(٢) في طبعة دار صادر: «البلغاء».
(٣) إنّ الذي أسري به هو رسول اللّه ﷺ. قال اللّه تعالى: ﴿سُبْحانَ الذي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيلاً مِنَ المَسْجِدِ الحَرامِ إلى المَسْجِدِ الأَقْصَى﴾. سورة الإسراء ١٧، الآية ١.
(٤) ناطقة القرطين: أي إنّ قُرْطَيْها يتحرّكان لطولهما فكأنهما ينطقان، وهو كناية عن طول عنقها. القُلْب، بضمّ القاف: السوار؛ وصامتة القُلْب: كناية عن عبالة الساعد. لسان العرب (قلب).

قال بعض علماء المشرق: أجاد واللّه هذا العالم المغربي المقالَ، وأراد أنَّ لفظ لين إذا قُلب صار نيلاً، وإذا صُحِّفَ صار تَبْلاً، وهذا زيادة على ما فيه من التحريف؛ انتهى.

وقريب منه لرفيق المذكور قولُه: [الكامل]

يَفْتَرُّ عن بَرَدٍ يشير بِبَرْدِهِ حَرَّ الغرام ولا سبيل لرشفِهِ
أخذ الرشا من حُسْنِهِ طرفًا لذا نَسَبَ الورى طرف[1] الجمالِ لطرْفِهِ

وله: [السريع]

تجرُّ فرعيها على إثرها رافلةً في حُلَلِ الحُسْنِ
فَتُطْلِعُ البَدْرَ لنا في الدُّجى وتُرْسِلُ البدرَ على الغصنِ

وله: [الخفيف]

قد نعمْنا بجزعِ نَعْمَانَ لكنْ عَقَّنا البعدُ، والعقوقُ قبيحُ
قُلْ لأهل الخيامِ أمَّا فؤادي فجريحٌ لكنَّ ودِّي صحيحُ

وقوله: [المنسرح]

مُقَدِّماتُ الرقيبِ كيف غَدَتْ عند لقاء الحبيب مُتَّصِلَهْ
تمنعُنَا الجمعَ والخُلُوَّ معًا وإنما ذاك حُكْمُ مُنْفَصِلَهْ[2]

وله يمدح سيد الخلق وخاتم المرسلين، صلّى اللّه عليه وعليهم أجمعين: [الرمل]

رحمةً أَرْسَلَهُ اللّهُ لنا وشفيعًا قد غَدَا فينا غدا
وَهَبَ المالَ لمن مالَ له وفَدَى مِنْ ذنبه مَنْ وَفَدَا
ليس يُحْصِي فَضْلَهُ إلاَّ الذي هو أحصى كلَّ شيءٍ عددا

وله: [الرمل]

حَسِّنِ النيّة ما اسطعتَ ولا تتَّبعْ في الناس أسبابَ الهَوَى
إنما الأعمالُ بالنيّات، مَنْ يَنْوِ شيئًا فله ما قد نَوَى[3]

---

(١) في طبعة دار صادر (جـ ٧ ص ٣٤٧): «ملح» بدل «طرف».

(٢) في هذا البيت والذي قبله اصطلاحات من اصطلاحات علم المنطق.

(٣) أخذه من الحديث الشريف: «إنما الأعمال بالنيّات، وإنَّ لكلِّ امرىءٍ ما نَوَى».

وله: [الكامل]

قالتْ وقد حاولتُ نيلَ وصالها ... مِنْ غير شيء لا تجوزُ المسألَهْ
باللّه قُلْ لي أين نحوك يا فتى ... أرأيتَ موصولاً يجيءُ بلا صِلَهْ[1]

وهذا معنى قد تلاعب الشعراء بكُرَتِهِ، وقضيةُ ابن عنين في ذلك مع المعظّم دالّةٌ على توقّد فكرته، وما ذاك إلاّ أنه مرض فكتب إلى الملك المعظّم: [الكامل]

أُنظُرْ إليَّ بعينِ مولًى لم يَزَلْ ... يُولي الندى، وتَلاَفَ قبلَ تلافي[2]
أنا كالذي، أحتاجُ ما يحتاجُهُ ... فاغنمْ دعائي والثناءَ الوافي

فعاده المعظّم وأعطاه ألفًا، وقيل: ثلثمائة، وقال له: هذه الصلة، وأنا العائد. [قال بعض المغاربة في هذا: قد تلطّف ابن عنين في الصلة والعائد، وأجاد وسبق المعظم إلى فهم مقصوده مطابقة الجوار فأتى بما يُستغرب عن سيبويه ونظرائه، فلذلك جعل الشرف ابن عنين ديوانه مملوءًا بمدحه وأطرابه، ونقلته من حفظي وفيه بعض تغيير بيتين][3].

وقال[4] ابن جابر المذكور: [الكامل]

يا دارَ ليلى لا صَمَتْكِ[5] يَدُ البلى ... وسقاكِ دَرَّ الغيثِ كُلُّ سحابِ
أصبو إلى تلك الربوعِ وكيف لا ... أصبو وهنَّ منازلُ الأحبابِ

وقال من قصيدة: [الطويل]

وأطلبُ تشويقَ الأنامِ بِحُسْنِهِ ... فأذكرُ مِنْ أسمائِهِ كلَّ طيِّبِ

ومنها:

وإنـيَ لـم أمـدحْهُ إلاَّ تشوُّقًا ... وإن كان مشهورًا بشرقٍ ومغربِ

---

(١) يقول: لا بدّ للاسم الموصول من صلة، فيستعمل اصطلاحات من اصطلاحات علم النحو.
(٢) المولى: السيّد. تَلافَ: أمر تلافى. تلافي: هلاكي وتلفي. لسان العرب (ولي) و (لفى).
(٣) ما بين قوسين مركنين ساقط من طبعة عبد الحميد (جـ ١٠ ص ٢١٢).
(٤) في طبعة دار صادر (جـ ٧ ص ٣٤٩): «عودٌ إلى شعر ابن جابر. وقال ابن جابر..».
(٥) صَمَتْهُ يَدُ البلى: حلّت به، أصابته. محيط المحيط (صمى).

[وقال: الكامل:

أمر الشباب .... فهفا فقالتْ: دمعتي أغلى
أسرَ الهوى مُهَج الأنام لها إذ سَلَّ من أعطافها أسلا][1]

[وقال: الخفيف:

ظعنوا والقدودُ منهم رماح طعنوا في الحشا بها فأصابوا
جاد دمعي لهم وقد حاد صبري حين سارتْ بالظاعنين الركاب][2]

وقال: [الخفيف]

شاه[3] وَجْهُ الرقيب إذ شاء وَصْلي قمري، والأنامُ عنَّا نيامُ
زارني بالنهار في الليل لكنْ ليلُ فرعٍ يحارُ فيه الظلامُ

وقال: [السريع]

يا أيها الجائرُ في حكمه إنيَ فيما قد جرى حائرُ
قدُّكَ من أعدلِ شيءٍ يُرَى وأنت في أهلِ الهوى جائرُ

وقال: [السريع]

قد زعمَ العاذلُ لي أنه يُهْدي لي الرُّشْدَ بما يصنعُ
ما هو هادٍ لي ولكنه هاذٍ فسمعي قال لا تسمعوا

وقال: [السريع]

شفى فؤادي مِنْ شقًا هجره وبِتُّ من لقياهُ في عيدِ
وزارني يحكي غزالَ النقا في الحُسْنِ لولا الحلْيُ في الجِيدِ

---

(١) ما بين قوسين ساقط من طبعة عبد الحميد.
(٢) ما بين قوسين ساقط من طبعة عبد الحميد.
(٣) شاه وَجْهُ الرقيب: قبح. لسان العرب (شوه).

وقال: [الرمل]

سَلَبَ القلبَ غزالٌ قَدُّهُ قد حكى البانَ لنا والسَّلَمَا[1]
ساحرُ العينِ إذا أبصره كاتبٌ ألقى لديه القَلَمَا[2]

وقال: [الكامل]

يكفي الأنامَ بسيفه وبسيبِهِ عَقَد المكارهَ والمكارمَ دائما

وقال: [الطويل]

تحلَّت بما يحكي محاسن ثغرها وحَلَّتْ عقودَ الصبر مني عقودُها
ثقيلةُ أردافٍ فَصَعْبٌ قيامُها بما حملتْ منها وسهلٌ قعودُها

وقال: [الطويل]

أبى حُسْنُها إلاَّ افتتانَ قلوبِنا فكم قد أبادَ الحُسْنُ فيها من الناسِ
وقالت تَحَمَّلْ طولَ هجريَ إن تُرِدْ وصالَ ذواتِ الحُسْنِ قلتُ على الراس[3]

وقال: [السريع]

أرى أُناسًا، مَنْ أرادَ الرضا[4] منهم رجا ما ليس بالمُمْكنِ
سيّان أن يعطوا وأن يمنعوا قد ضاعَ فيهم كرمُ المحسنِ

وقال: [البسيط]

يا جيرةَ الحيِّ، حَيَّا اللّهُ واديَكُمْ فكم سرورٍ به للقلب قد عَرَضَا
فلن[5] أنالَ حياة أستلذُّ بها إذا أنا لم أنلْ من وصلكم غرضا

---

(١) السَّلَمُ، بالفتح: شجر من العِضاه يُدْبغ به، وقد شبّه به القدّ، كما شبِّه القد بالبان، بجامع الاعتدال والتثني.

(٢) ألقى لديه القلم: كناية عن الاستسلام.

(٣) في طبعة دار صادر (جـ ٧ ص ٣٥١): «على راسي».

(٤) رواية صدر البيت في طبعة عبد الحميد (جـ ١٠ ص ٢١٣) هي:

أراد إنسان أراد الرضا

(٥) في طبعة عبد الحميد (جـ ١٠ ص ٢١٣): «فكم».

وقال: [الخفيف]

شَبَّ حَرُّ الفؤادِ ماءُ رضابٍ   منه قد حارَ فيه ماءُ الغمامِ
زان بالحلي جِيدَهُ قلتُ: ماذا؟   قال: شيءٌ نَظَمْتُهُ مِنْ كلامي

وقال: [الخفيف]

صادَ قلبي وصدَّ عنّي صدودا   وانثنى يسحبُ الذوائبَ سودا
فرأيتُ الصباحَ في الليلِ يبدو[1]   وشهدتُ الرَّشا يصيدُ الأسودا

وقال: [الكامل]

إنّي سئمتُ من الزمان لطولِ ما   قد صَدَّ عن حُسْنِ الوفاء رجالُهُ
ومن النوادر في زمانك أن ترى   خِلاً حمدتَ ودادَهُ وخِلالَه[2]

وقال: [السريع]

إنْ قابلَ الغصنَ بأعطافِهِ   فقلَّ أن تُبْصِرَ من فَرْقِ
قلتُ قد استعبد[3] كلّ الورى   فقال ذاكَ البعضُ من حقّي

وقال: [الخفيف]

صَحَّ أنَّ الصباحَ من وَجْنَتَيها   وغصونَ الرياضِ من معطفيها
قاتلَ اللّه عاذلي قلَّ يومٌ   ليس يسعى بالعذلِ فيه إليها

وقال: [البسيط]

شَدُّوا محاملهمْ يومَ الرحالِ وقد   محا رسومَ اصطباري فَقْدُ مَنْ رَحَلا
هَزُّوا الغصونَ على الكثبانِ حين مَضَوا   وأَسْبَلُوا فوق أقمارِ الدُّجى كِلَلا[4]

---

(١) شبّه وجهه بالصباح وشعره بالليل.

(٢) رواية عجز البيت في طبعة عبد الحميد (جـ ١٠ ص ٢١٤) هي:

خلاً به حمدتَ لديك خلاله

(٣) في طبعة عبد الحميد: «قد استعبدت».

(٤) الكِلَلُ: جمع كِلّة وهي الستر الرقيق. لسان العرب (كلل).

وقال: [البسيط]

خَدٌّ ترى الوردَ بعضًا من محاسنه تَبارَكَ اللَّهُ ما أحلى[1] شمائِلَهُ
لصارمِ اللحظِ قد أرخى حمائلَ مِنْ عذارِهِ فحمى عنّا خمائِلَهُ

وقال: [الخفيف]

قام حادي الركابِ ليلاً فغنَّى فاستقامَ السُّرى وثارَ الغَرامُ
قِيلَ نامَ الأنامُ فاهْجَعْ قليلاً قلتُ دون الحبيبِ لستُ أنامُ

وقال: [الطويل]

ترامى بنا في البيدِ شوقٌ إلى الحمى ترى عنده الأجفانَ منهلَّةَ الدَّمْعِ
فلمّا رأينا رَبْعَ مَنْ سكنَ الحَشَا نَزَلْنا فَقَبَّلْنا ثَرَى ذلك الرَّبْعِ

وقال: [الطويل]

يراودني الواشي على حبِّ غيرها وإنَّ محالاً أن يرى مثلَ حُسْنِها
موفَّرةُ الأردافِ، مهضومةُ الحَشَا يُريكَ التفاتَ الظبي فاترُ جَفْنِها

وقال: [البسيط]

سَلَّتْ علينا سيوفًا من لواحِظِها وما[2] لنا من سيوف اللحظ من واقي
أضحتْ لِسَفْكِ دمِ العُشّاقِ هادرةً فما ترى ديةً في قَتْلِ عُشّاقِ

وقال: [البسيط]

في خدِّها شَبَهٌ للخالِ أو شِيَةٌ بما حوى الحُسْنُ من ألطافِ أسرارِ
وَشْيٌ مِنَ الحُسْنِ لم يحتجْ لصنعِ يَدٍ تبارك اللَّهُ هذي[3] صنعةُ الباري

وقال: [الكامل]

بين الجوانحِ لو علمتَ من الجوى نارٌ عليها سَكْبُ عيني يَهْمَعُ[4]
فَدَعِ المدامعَ في مدى جَرَيانِها فالدمعُ بَعْدَ فراقهمْ لا يُمْنَعُ

---

(١) في طبعة عبد الحميد: «ما أبهى».
(٢) في طبعة دار صادر (ج ٧ ص ٣٥٣): «ومن لنا».
(٣) في طبعة عبد الحميد (ج ١٠ ص ٢١٥): «هذا».
(٤) يهمع: يسيل. لسان العرب (همع).

وقال: [البسيط]

قالوا بدارينَ قد قالوا، وقد وَردوا ماءَ العقيق، وبالزوراء قد باتوا
بانوا عن العينِ لكن بالقلوبِ ثووا وفي البعاد عن الأحباب آفاتُ

وقال: [السريع]

مليحةُ الخَدِّ به شامةٌ كالوردِ قد نُقِّطَ بالغاليهْ[1]
قلتُ لها: ما اسمك؟ قولي لنا قالت: فما تعرفني غاليهْ

وقال: [السريع]

جاريةٌ جاريةٌ في مدًى شبابُها من أملحِ الخَلْقِ
ما بين فَرْقِ الصبحِ لمَّا بَدَا ووَجْهِها للناس من فَرقِ

وقال: [السريع]

لصبِّهِ منه امتدادُ النوى فلا يلامُ الدمعُ في صَبِّهِ
في قَدِّه لينٌ فهلاَّ قضى بقلبه منه إلى قَلْبِهِ

يريد بالقلب الأول التحويل والنقل: أي فهلاّ قضى بنقل اللين الذي في قدّه إلى قلبه.

وقال: [البسيط]

يا لابسَ اللامِ والأسيافُ عاريةٌ قد انعطَفْتَ على الأعطاف واللامِ
ويا ضجيعَ رماحِ الخَطِّ يُرْسِلُها في كلِّ هامٍ لها باللحظ في الهام

الهام الأول: جمع هامة[2]، والثاني اسم فاعل من همى[3] يهمي.

قال رفيقه: لو قال «من الهام» لكان أليق بالمعنى وألطف.

وقال: [السريع]

مَنْ مالَ يبغي كَسْبَ مالٍ لهُ مِنْ جِرْمِهِ إن جاء أو جِلِّهِ
فلا تثقْ يومًا به واحترزْ منه فما يُبْقي على خِلِّهِ

(١) الغالية: أخلاط من الطيب. لسان العرب (غلا).
(٢) الهامة: الرأس. محيط المحيط (هوم).
(٣) يقال: همى المطر إذا انصبَّ وتتابع. لسان العرب (همى).

وقال يتشوّق إلى وطنه بألمرية: [الكامل]

للّه عيشٌ بالمريّة قد ذَهَبْ أخباره بالحسن تُكْتَبُ بالذَّهَبْ
وهَبَتْ لنا تلك الليالي مدةً ثم استردَّ الدهرُ منّا ما وَهَبْ

وقال: [الخفيف]

أنَّ[1] من شوقه فثارَ الضِّرَامُ ودَرَى الناسُ أنه مستهامُ
لا تَسَلْ ما جرى من الدمعِ لمّا قيل هٰذِي النقا وهٰذِي الخيامُ

وقال: [الطويل]

صلاةُ إلَهِ العالمين على الذي أقلُّ العطايا منه وادٍ من النَّعَمْ[2]
يجودُ على الراجي وإن كان مذنبًا وما قوله للسائلين سوى نَعَمْ

وقال: [الرمل]

قد سَبَا قلبي غزالٌ فاتنٌ سَلْ به كيف اعتدى في سَلْبِهِ
أنا لا أعتبُ فيما قد جرى صَفَحَ اللّهُ له عن ذَنْبِهِ

وقال: [المتدارك]

صبرتُ له فتمادى به هواهُ، فكانتْ هي الفاصِلَهْ
وأنكر بِرّي ويا طالما أتانيَ يومًا فألفى صِلَهْ

وقال: [المتقارب]

وليلٍ نَظَمْنا به شَمْلَنا كما انتظم البيتُ بالقافيَهْ
وفَرّقَنا الدهرُ مِنْ بعد ذا فلستُ من اليوم ألقى فيهْ

---

(١) أنَّ: صوّت وتأوّه لحزن أو لألم أو لغيرهما. لسان العرب (أنن).
(٢) النّعَم، بالفتح: الإبل، وجمعها أنعام. محيط المحيط (نعم).

أي فئة، ولا يكمل التجنيس فيه إلاّ بتسهيل الهمزة كما قال رفيقه، ولَمّا أنشده قال:

ومن هذا النوع قولُ بعض الأندلسيين[1]: [السريع]

وقــائــلٍ قــالَ ألاَ صِــفْ لــنــا   بُــسْــتــانَــنــا هــذا ونــارنْــجَــنَــا
قــلــتُ لــهــمْ بــســتــانُــكُــمْ جَــنَّــةٌ   ومَــنْ جَــنَــى الــنــارنــجَ نــارًا جَــنَــى

. وقال ابن جابر المذكور: [الخفيف]

قُلْ بحقِّ الهوى سمحتِ بوصلٍ   ربّةَ القُلْبِ أم نهاكِ الرقيبُ
رُمْتُ نَيلَ الوصالِ منها فقالتْ   لك وصلٌ غدًا فقلتُ: قريبُ

وقال: [الخفيف]

زَيَّنَ الخَدَّ منه صدغٌ كنونٍ   قد بَدَا تحته عِذارٌ كلامِ
قلتُ هذي محاسنُ ابنِ هلالٍ   فانثنى وهو ضاحكٌ من كلامي

وقال: [الوافر]

لــهــا حُــسْــنٌ لَــهَــا عــن كــلِّ واشٍ[2]   بــه قــلــبــي فــمــا أنــا أســتــفــيــقُ
عــلــى وَجَــنــاتــهــا نــعــمــانُ[3] يــبــدو   لــنــا وشــفــاهُــهــا هُــنَّ الــعــقــيــقُ

. وقال: [البسيط]

يمرُّ[4] بي ذكركُمْ، واللّه أحياني   ولو سرى طيفكُمْ ليلاً لأحياني
لا يعذبُ العيشُ لي بعد العُذَيبِ ولا   نعيمَ مثلُ ليالينا بنعمانِ[5]

وقال: [الطويل]

مداراةُ هذا الخلقِ أُوليك بينهم   صفاتٌ هي الأقمارُ والنظمُ دَارَاتُ
وشاراتُ حمدِ المرء أن لا تُرى له   على الناسِ مِمّا لازم الحلمَ داراتُ

---

(١) قائل هذين البيتين هو الأصمّ المرواني كما تقدّم في الجزء الخامس ولكن ببعض الاختلاف عمّا هنا.

(٢) في طبعة دار صادر (جـ ٧ ص ٣٥٦): «كلّ شيء».

(٣) النعمان: شقائق النعمان.

(٤) في طبعة دار صادر: «تمرُّ في ذكركم..».

(٥) العذيب ونعمان: اسما مكان.

وقال: [الطويل]

أرانِيَ[1] كم أسعى إلى خامل، ولو | أراكَ مدًى في فَرْقَدٍ بَلَغَ السُّها
وما الخير يومًا من لَئِيمٍ بممكنٍ | وإن كان منه الخيرُ يومًا فقد سها

وقال: [الطويل]

أرى حَيَدي[2] عن كلِّ طارىءٍ نعمةٍ | أراحَ يدي من أن يُقَيِّدَها الذُّلُّ
فمن أَخَذَ المعروفَ من غير أهلِهِ | تروحُ الليالي وهو في عُنْقِهِ غُلُّ

وقال: [الطويل]

شَبَا[3] لَحْظِها الماضي وحُسْنُ شبابِها | هُما حَمَّلاَ نفسي من الوَجْدِ ما بها
كثيبُ النَّقَا من ردفها، وقضيبُهُ | لمعطفها، والبَدْرُ تحت نِقابها

وقال: [الرمل]

حَلَّ عَقْدَ الصبرِ منِّي عِقْدُها | إذ سَبَتْ قلبي بما في قُلْبِها
تحسبُ الدُّرَّ على لَبَّتِها | أنجمًا قد كُلِّلَ البدرُ بها

وقال: [الرمل]

شَعَرٌ كالليلِ يبدو تَحْتَهُ | قَمَرٌ قد حار شعري في صفاتِهْ
نَقَلَ المسواكُ عن مبسمه | أنَّ ماءَ الوردِ يجري من لثاتِهْ

وقال: [المنسرح]

مَنْ سَنَّ تلك اللحاظَ فاتَّبَعَتْ | من سُنَّةِ الحُبِّ كلَّ مُتَّبِعِ
تقتلُ عشّاقها بلا سببٍ | وذاك في الحبِّ غيرُ مبتدعِ

وقال: [الطويل]

وما شجوُ صالٍ لوعة الهجرِ قد قضى | زمانَ وصالٍ لم تُكَدَّرْ مشاربُهْ
كشجوِ محبّ لم يَذُقْ لذَّةَ الرضا | ولا بات والغِيدُ الحِسانُ تلاعِبُهْ

---

(١) في طبعة دار صادر: «أرى كمدًا سعيي إلى..».
(٢) الحَيَدُ، بالفتح: مصدر حاد عنه إذا مال وعدل. لسان العرب (حيد).
(٣) الشبا: جمع شباة وهي حَدُّ السيف. لسان العرب (شبا).

وقال: [الطويل]

سَرَتْ في رحالِ العيسِ منه أَهِلَّةٌ فأيسرُ حالٍ أن أزوّدَها قلبي
بعيشك قُلْ لي هل دَرَوْا كيف علّتي وفيضَ دموعي بعد مُنْصَرَفِ الركبِ

وقال: [الخفيف]

مَنْ جنى باللحاظ زَهْرَ المعاني من جَناب الحمى إذا الناسُ ناموا
هو قد نالَ كلَّ ما يتمنّى وسَعَتْ في مُرادِهِ الأيامُ

وقال: [الوافر]

لطائفُ حُسْنِها بربوع قلبي لطائفُ ألجأتني للغرامِ
تريك تكاسلاً في اللحظ منها لتحسبه تَنَبُّهَ مِنْ مَنامِ

وقال: [الطويل]

إذا زُرْتَ حَيًّا بالعقيق فَحَيِّهِمْ وذَكِّرْهُمُ عهدي وحقَّ ودادي
حرامٌ فراقُ العيسِ حتى تُحلّني بواديه من تلك الوجوهِ بوادي

وقال: [السريع]

مِنْ فرطِ ما في الطرف من فتنةٍ قد غلب الحبُّ على الناسِ
قالتْ نَسِيتَ العهدَ قلتُ اكففي عنّي فما عبدكِ بالناسي

وقال: [الرمل]

بين نعمانٍ وسَلْعٍ ملأ[1] ليس منهمْ لمحبّ ألَمُ
كلفِي منهمْ ببدرٍ حَلَّ في فَلَكِ العياء[2] فاعرفْ مَنْ هُمُ

وقال: [الوافر]

أُراقبها وحين أرى سبيلاً أُقاربها فتنفرُ كالغزالِ[3]
وقالتْ أنتَ مرتقِبٌ لماذا فقلتُ لها: ارتقابي للهلالِ

---

(١) نعمان وسلع: موضعان.

(٢) في طبعة عبد الحميد (ج ١٠ ص ٢٢٠): «العليا».

(٣) يجانس الشاعر بين «أراقبها» و «أقاربها».

وله من قصيدة مطوّلة في فضائل الصحابة العشرة وأهل البيت، فمما يختصّ منها بأبي بكر رضي اللّه تعالى عنه قوله: [الطويل]

فمنهمْ أبو بكرٍ خليفتُهُ الذي ... له الفضلُ والتقديمُ في كلّ مَشْهَدِ
وصدّيقُ هادي الخلقِ والمؤثرُ الذي ... لإنفاقه للمال في اللّه قد هُدي
وصهرُ رسولِ اللّه، وابنتُهُ التي ... يبرئها آي[1] الكتابِ المُمَجَّدِ
وصاحبه في الغار إذ قال لا تَخَفْ ... فثالثنا ذو العرشِ أوثقُ منجد
وسدَّ على المختار مَخْرج حيَّةٍ ... هناكَ برجلٍ منه فازتْ بأسعد
وفيه وفي خير الأنام تسامعوا ... بمكّةَ صوتَ الهاتفِ المتقصد
(جزى اللّه ربُّ الناسِ خيرَ جزائِهِ ... رفيقين حلاّ خيمتي أمّ مَعْبدِ)[2]
وعتقُ بلالٍ حسبه، فهو سيِّدٌ ... تأثَّلَ في الإسلام، إعتاقُ سيدِ
وقال رسولُ اللّهِ إنَّ أمَنَّكم ... عليَّ أبو بكر وأوفى بِمَوْعدِ[3]
فصدَّق إذ كذبتُمُ، وأطاع إذ ... عصيتُمْ، ووافاني موافاةَ مُسْعِدِ
ولو أنني من أمتي كنت آخذاً ... خليلاً تولّى خلّتي وتودُّدي
لكان أبو بكر، ولكن أُخُوَّةٌ ... في الإسلام مهما تنقصِ الناسُ تزددِ[4]
فلمّا أراد اللّه قَبْضَ نبيِّه ... وصار إلى دار النعيم المخلّد
تقدّم في نيل الخلافة بَعْده ... بإجماعهمْ لا بالحسام المُهَنَّدِ
وقد فارقتْ يومَ السقيفةِ فرقةٌ ... فلمّا رأته الحقَّ لم تتردَّدِ
وقام عليٌّ بعد ذاك مبايعًا ... فأثنى ثناءَ المخلص المتودّد
وأظهر عذرًا في تأنّيه صادقًا ... وبايعَ طَوْعًا لا لفقدانِ مسند[5]

---

(١) في طبعة دار صادر (ج ٧ ص ٣٥٩): «نصّ الكتاب».

(٢) أم معبد: هي عاتكة بنت خالد الخزاعية، وقد مرّ الرسول وصاحبه بخيمتها عندما هاجر إلى المدينة. إمتاع الأسماع (ص ٤٣).

(٣) يشير إلى الحديث: «ما من أحد أعظم عندي يدًا من أبي بكر، واساني بنفسه وماله». مجمع الزوائد ومنبع الفوائد (ج ٩ ص ٤٦).

(٤) في هذا البيت والذي قبله إشارة إلى الحديث: «لو كنت متّخذًا خليلاً لاتّخذت أبا بكر ولكن إخاء ومودّة إلى يوم القيامة». مجمع الزوائد (ج ٩ ص ٤٥).

(٥) يقول إن عليًا، كرّم اللّه وجهه، لم يبايع لأنه فقد الأعوان والأنصار، وإنما بايع مختارًا.

فآب بحمدٍ منهمُ غيرَ قاصرٍ ... ومن يتبعِ الإنصافَ والحقَّ يُحْمَدِ
وما أشبهَ الصدّيقَ في الفضل مشبهٌ ... ولا أُحصيتْ أوصافُهُ بتعدُّدِ

وممّا يختصّ بعمر رضي اللّه تعالى عنه قولُه من هذه القصيدة:

ويتبعه في فضله عُمَرُ الذي ... رمى عن قسيِّ الصدق قوسَ مُسَدَّدِ
وما كلُّ مَنْ رامَ السعادةَ نالَها ... ولكنه مَنْ يَسْعِدِ اللّهُ يَسْعدِ
هو المرءُ لم يتركْ له الحقُّ صاحبًا ... ولا قعد الشيطانُ منه بِمَقْعد
ولا سلك الشيطانُ فَجًا قد اغتدى ... له سالكًا من خوفه المتزيِّدِ[1]
ومِنْ ظلِّه قد كان ينفرُ هيبةً ... له حيثما أضحى يَرُوحُ ويغتدي[2]
وقد جاء عنهم: ما برحنا أعزّةً ... بإسلامه فانكفَّ من كان يعتدي
ومن قولهم: إسلامُهُ كان عزّةً ... وهجرته فتحًا شجا كلّ ملحدِ[3]
وإمرته كانت على الناس رحمةً ... فآبوا إلى فتح وعزّ مُمَهَّدِ
ومن فضله رعيُ النبيِّ بغيرةٍ ... له فانثنى عن قصره المتشيّد
وقد قيل للفاروق: هذا، ومن به ... فأنباه عن هذا النعيم المؤبّد
فأقبل يبكي قائلاً كيف غيرتي ... عليك، ولولا أنت ما كنت أهتدي
ورؤيا رسولِ اللّهِ للقدح الذي ... تناول من دَرٍّ به غايةَ[4] الصدي
فما زال يبدي شربه ويعيده[5] ... إلى أن غدا من ظفره الريُّ يبتدي
فأوّله العلم الذي منه ناله ... وأوّلَ رؤيا الدلو حُسْنَ التأيّد
فصارتْ له غربًا فأروى بها الورى ... فكان افتتاحُ الأرض فتحَ مُمَهّد

---

(١) هذا من نصّ الحديث: «ما سلك عمر فجًا إلاّ سلك الشيطان فجًا غيره».
(٢) يشير إلى الحديث: «إنّ الشيطان لم يلق عُمَرَ منذ أسلم إلاّ خَرَّ لوجهه». مجمع الزوائد (جـ ٩ ص ٧٠).
(٣) هذا البيت والذي بعده سقطا من طبعة عبد الحميد (جـ ١٠ ص ٢٢٢).
(٤) في طبعة عبد الحميد: «رية الصدي».
(٥) رواية صدر البيت في طبعة دار صادر (جـ ٧ ص ٣٦١) هي:
وناوله الفاروقَ من بعد ما ارتووا

كذاك قميص مفرط الطول سابغ[١] وللناس قُمْصٌ بعضها يبلغ الثُّدِي
فأوّلَ خيرُ الخلق طولَ قميصه بما حاز في إيمانه من تشيد[٢]
وتفريقه ما بين حقّ وباطلٍ بيومٍ سقى الكفّار أفظعَ موردِ
وسُمّي بالفاروق من أجل هذه وما زال في نصّ الهدى ذا تجلّد
وحسبك أنّ اللّهَ وافقَ رأيه لدى يوم بدرٍ إذ رأى قَتْلَ من فدي
كذا في أذانٍ والحجابِ وجعلهم مصلّى مقامًا للخليلِ بمسجدِ[٣]
شديدٌ على أهل الهوى رحمةٌ لمن عن الحقّ لم يَجْنَحْ ولم يَتَحَيَّدِ
وما قد رَوَوْا[٤] إن كان في أُمّةٍ فتى يُحَدَّثُ فالفاروقُ من ذاك فاعدد
وما أبغض الفاروقَ إلاّ مُفارقٌ لدين الهدى ذو مذهبٍ لم يسدَّدِ

ومما يختصّ بعثمان رضي اللّه تعالى عنه قولُه:

وحسبيَ عثمانُ بن عفان أنه عليه اعتمادي وهو سؤلي ومقصدي
إمامٌ صبورٌ للأذى وهو قادرٌ حليمٌ عن الجاني جميلُ التعوّد
هو الجامعُ القرآنَ والقانتُ الذي إذا جنَّ ليلٌ ليس يأوي لمَرْقَدِ
ويقطعُ بالصوم النهارَ وينثني مدى ليلِهِ في خشيةٍ وتهجّد
وقال رسولُ اللّه في بئر رومةٍ أمَا مُشتَرٍ يَبْغي بها الأجرَ في غد[٥]
له الجنّةُ العليا بذلك فاشترى وتجهيزُ جيشِ العسرة اذكرْ وعَدِّدِ
فقال رسولُ اللّه إذ جاءه بما قد احتاج من مالٍ وظَهْرٍ وأَعْبُدِ

---

(١) رواية صدر البيت في طبعة دار صادر هي:

ورؤياه أيضًا في قميص يجرّه

(٢) في طبعة دار صادر: «من تأيُّدِ».

(٣) قال عمر رضي اللّه عنه: «وافقت ربّي في ثلاث: مقام إبراهيم، وفي الحجاب، وفي أسارى بدر». صحيح مسلم (جـ ٢ ص ٢٣٤).

(٤) في طبعة دار صادر (جـ ٧ ص ٢٦٢): «وممّا رَوَوْا».

(٥) في هذا البيت والثلاثة التي بعده إشارة إلى أن عثمان بن عفان، رضي اللّه عنه، اشترى بئر رومة وجعلها للمسلمين، وأنه جهّز جيش النبيّ ﷺ بتسعمائة وخمسين بعيرًا وخمسين فرسًا، فقال النبي ﷺ يومئذ: «ما ضرَّ عثمان ما عمل بعد اليوم». الرياض النضرة في مناقب العشرة (جـ ٢ ص ١٢٠ - ١٢٢).

هنيئًا لعثمانَ بن عفان فِعْلَهُ
وما ضَرَّه ما بعدُ مَعْ هذه اليد

وقولٌ ألاَ أُبدي حياء لمن له
قد استحيت الأملاكُ أشرفُ محتد[1]

وبلَّغ بشرى الهاشميِّ بأنه
من الجنّة العليا بأكرمِ مَقْعَد

ولكن على بلوى، وقال سأرتضي
وأصبرُ صبر الطائع المتجلّد[2]

فأظهر يوم الدار صبر أُولي النُّهى
ولو شاء لم تظفر به يَدُ معتدِ

ولم يرضَ، صونًا للدماء، بحربهم
وكان متى يستنجد القومَ يُنْجَدِ

فمات شهيدًا صابرًا فهو خيرُ مَنْ
على نفسه في غيرِ حقّ قد اعْتُدِي

على بنتي المختار أرخى ستوره
فناهيك من مجدٍ وعزّ مجدَّد

ولم يدع ذا النورين[3] إلاَّ لأنه
حوى بيته نورين من نورِ أحمد

وإنَّ لعثمانَ بنِ عفان رتبةً
من المجد تسمو عن سِمَاكٍ وفرقد

ومِمّا يختصّ بعلي رضي اللّه تعالى عنه قوله:

وإنَّ عليًّا كان سيفَ رسولِهِ
وصاحبه السامي لمجدٍ مُشَيَّدِ

وصهرُ النبيِّ المجتبى وابنُ عَمِّه
أبو الحسنين المحتوي كُلَّ سؤدد

وزوّجه ربُّ السما من سمائه
وناهيك تزويجًا من العرش قد بُدِي

بخير نساء الجنّةِ الغرِّ سؤددًا
وحسبك هذا سؤددًا لمسوّد

فباتا وجُلُّ[4] الزهد خيرُ حلاهما
وقد آثرا بالزاد من كان يجتدي

فآثرت الجنات من حلل ومن
حليّ لها رَغْبًا لذاك التزهّد

وما ضَرَّ مَنْ قد بات والصوفُ لبسه
وفي السندس الغالي غدًا سوف يغتدي

وقال رسولُ اللّه إني مدينةٌ
من العلم وهو البابُ، والبابَ فاقصِدِ[5]

---

(١) في طبعة عبد الحميد (جـ ١٠ ص ٢٢٣): «قد استحت الأملاك..». وهنا إشارة إلى الحديث الذي ينصّ على أن النبي، ﷺ، كان نائمًا في بيته كاشفًا عن فخذيه، فاستأذنه أبو بكر ثم عمر، رضي اللّه عنهما، وهو على تلك الحال، فلما استأذن عثمان جلس وسوّى ثيابه، فلمّا سئل في ذلك قال: «ألا أستحيي من رجل تستحيي منه الملائكة؟». صحيح مسلم (جـ ٢ ص ٢٣٤ - ٢٣٥).

(٢) هذا البيت والذي بعده ساقطان من طبعة عبد الحميد.

(٣) دعي عثمانُ رضي اللّه عنه ذا النورين لأنه تزوج ابنتي رسول اللّه ﷺ على التتابع.

(٤) في طبعة دار صادر (جـ ٧ ص ٣٦٣): «وحَلْيُ الزهد..».

(٥) يشير إلى قول الرسول الكريم ﷺ: «أنا مدينة العلم وعلي بابها».

ومن كنتُ مولاه عليٌّ وليّه ومولاك فاصدقْ حبّ مولاك ترشد[1]
وإنك مني خاليًا من نبوّةٍ كهرون من موسى وحسبك فاحمد[2]
وقال غدًا أعط اللواء محببًا إليَّ وللرحمن بالنصر مرتدي[3]
فباتوا وكلٌّ يشتهي أن ينالها إلى أن بَدَا وَجْهُ الصباحِ المجوّدِ
فنادى عليًّا ثم أبرأ عينه بنفث كأن لم يمسِ قبلُ بأرمدِ[4]
فأعطاه إياها وقال له أدْعُهم ومهما أبوا فانهد إليهم تؤيّدِ
فجدّل منهم من جنى عندما دعا إلى الحرب دعوى الفاتك المتمرّد
وقاتل طول اليوم والباب ترسه يجرُّ به للقوم في كلِّ مرصدِ
فأعجزهن الباب من بعد عشرة فما الظنّ في هذا القويّ المؤيد
وكان من الصبيان أوّلَ سابقٍ إلى الدين لم يُسْبَقْ بطائع مرشد
وجاء رسولُ اللّه مرتضيًا له وكان عن الزهراء بالمتشرّد
فَمَسَّحَ عنه التربَ إذ مسَّ جلده وقد قامَ منها آلفًا للتفرّد
وقال له قولَ التلطّف «قم أبا تراب» كلام المخلص المتودّد[5]
وفي ابنيه قال المصطفى ذانِ سيدا شبابكُمُ في دار عزّ وسؤدد
وأرسله عنه الرسول مبلّغًا وخُصَّ بهذا الأمر تخصيصَ مفرد
وقال هل التبليغ عنيَ ينبغي لمن ليس من بيتي؟ فبالقوم[6] فاقْتَدِ
وقد قال عبد اللّه للسائل الذي أتى سائلاً عنهم سؤالَ منّدد[7]
وأمّا عليّ فالْتَفِتْ أين بيته وبيت رسول اللّه فاعرفْهُ وأَشْهَدِ[8]

---

(١) يشير إلى قول الرسول ﷺ: «من كنتُ مولاه فعليّ مولاه، اللهمّ والِ من والاه، وعادِ مَنْ عاداه».
(٢) يشير إلى قول النبي ﷺ: «أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى، غير أنه لا نبيّ بعدي».
(٣) هذا البيت والأبيات الستة التالية ساقطة من طبعة عبد الحميد (جـ ١٠ ص ٢٢٤).
(٤) في هذا البيت والأبيات التي تليه يقصّ إعطاء الراية لعلي، كرّم اللّه وجهه، يوم خيبر. راجع في ذلك الرياض النضرة (جـ ١ ص ٢٤٢. ٢٤٧).
(٥) في تسمية علي، كرّم اللّه وجهه، بأبي تراب، راجع صحيح مسلم (جـ ٢ ص ٢٣٨).
(٦) في طبعة عبد الحميد (جـ ١٠ ص ٢٢٥): «من القوم».
(٧) في طبعة عبد الحميد: «مشدد».
(٨) في الطبعة نفسها: «تشهد».

بامرين من حَرّ وبردٍ فلم يجدْ آذى بردها أو حرّها المتوقّد[1]
وما زال صوّامًا منيبًا لربّه على الحقّ قوّامًا كثيرَ التعبّد
قَنُوعًا من الدنيا بما نال، معرضًا عن المال، مهما جاءه المال يزهد
لقد طلّق الدنيا ثلاثًا، وكلّما رآها وقد جاءت يقولُ لها ابْعَدِي
وأقربهم للحقّ فيها وكلّهم أُولو الحقّ لكنْ كان أقربَ مُهْتَدِ

ومنها في ذكر السِّبْطين رضي الله تعالى عنهما:

وبالحسنين السيدين توسُّلي بجدهما في الحشر عند تفرّدي
هما قرّتا عين الرسول وسيدا شبابِ الورى في جنّة وتخلّد
وقال: هما ريحانتايَ، أُحِبُّ مَنْ أَحَبَّهُما، فاصدقهما الحبَّ تسعد
هما اقتسما شبهَ الرسولِ تعادلاً وماذا عسى يُخصِيه منهمْ تعدّدي
فمن صدره شبهُ الحسينِ أجله وللحسن الأعلى وحسبكَ فاعدد
وللحسن السامي مزايا كقوله هو ابنيّ هذا سيدٌ وابن سيد[2]
سَيُصْلح ربُّ العالمين به الورى على فُرْقة منهم وعظمِ تبدد
وإن تطلبوا ابنًا للنبي فلن تَرَوْا سواي: مقالٌ منه غيرُ مفنَّدِ
بَدَا سيدًا ظَهرَ الرسولِ قد ارتقى فَقَرَّ ولم يُعْجِلْهُ وهو بمسجد
فقالوا له طالَ السجودُ فقال لا ولكنما ابني خِفْتُ إن قمتُ يشرد[3]
وكان الحسينُ الصارمَ الحازمَ الذي متى يُقْصر الأبطالُ في الحرب يشدد
شبيهُ رسولِ اللّهِ في البأس والندى وخيرُ شهيدٍ ذاقَ طعمَ المهنَّدِ
لمصرعه تبكي العيونُ وحقُّها فللّه من جرمٍ وعظمِ تمرّد[4]
فبعدًا وسحقًا ليزيد وشِمْرِهِ[5] ومَنْ سار مسرى ذلك المقصدِ الردي

---

(١) هذا البيت ساقط من طبعة عبد الحميد.
(٢) يشير إلى قول النبي، ﷺ، في الحسن بن علي، رضي الله عنهما: «إنّ ابني هذا سيد، ولعلّ اللّه أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المؤمنين». مجمع الزوائد (جـ ٩ ص ١٧٨).
(٣) خبر الحسن بن علي، رضي الله عنهما، وهو طفل فصعد على ظهر النبي وهو ساجد، في مجمع الزوائد (جـ ٩ ص ١٧٥).
(٤) في طبعة عبد الحميد (جـ ١٠ ص ٢٢٦): «تودّد».
(٥) يزيد: هو يزيد بن معاوية. شمر: هو شمر بن ذي الجوشن.

ومنها في ذكر حمزة رضي اللّه تعالى عنه:

ومن مثلُ ليثِ اللّه حمزةَ ذي الندى مُبِيدِ العِدا مأوى الغريبِ المطرَّدِ
فكم حَزَّ أعناقَ العُداةِ بسيفه وذبَّ عن المختار كلَّ مشدَّد
فقال رسولُ اللّه: هذا أمرته ولي أسدٌ ضَارٍ لدى كلِّ مشهد
وقال أبو جهلٍ: أجبت[1] محمدًا لما شاءه فاهتزَّ هِزَّةَ سيِّد
وأهوى له بالقوس ما بين قومه، وقال[2]: وأخرى بالحسام المهنّد
وقال لَهُ: إنِّي على دينه فإن أطَقْتَ فعرِّج عن طريقيَ واردد
فذلَّ أبو جهل وأبدى تلطّفًا مقرًا بقبح السّبّ في حقّ أحمد[3]
فعاد وقد نال السعادة واهتدى وأضحى لدين اللّه أكرم مسعد
وفي يوم بدرٍ حثَّ عند سؤالهم لما شهدوا من بأسه المتوقّد
لمن كان إعلامٌ بريش نعامةٍ يشرّدنا مثل النعامِ المشرّد
فذاك الذي واللّه قد فَعَلَتْ بنا أفاعيلُه في الحرب ما لم تُعَوَّدِ
وفي أُحُدٍ نال الشهادةَ بعد ما أذاقَ سباعًا للردى شرَّ مورد
ففاز وأضحى سيّدَ الشهداء في ملائكة الرحمن يسعى ويغتدي
وصلّى رسولُ اللّه سبعينَ مرّةً عليه إلى ثنتين عند التعدّد
وقال: مصابٌ لن نُصَابَ بمثلِهِ وإن كان لي يومٌ سأجزي بأزيد
وأسمعهم لكن حمزة ما له وبشر بالنار النوائح ما عدي
نوائحه . . . . وقلن يا أعين اسعدي[4]
وزاد إلى فضل العمومة أنه أخوه رضاعًا هكذا المجدُ فاشهد

---

(١) في طبعة دار صادر (جـ ٧ ص ٣٦٥): «أصبت محمدًا بما ساءه فاهتزّ . . .».

(٢) في طبعة عبد الحميد: «ونال».

(٣) رواية عجز البيت في طبعة دار صادر (جـ ٧ ص ٣٦٦) هي:

ومن ينصر الحقّ المبينَ يؤيّدِ

وهنا يتحدث عن إسلام حمزة فيقول: لمّا سمع حمزة أنّ أبا جهل أساء إلى النبي، ﷺ، جاء إلى أبي جهل بِفِناء الكعبة، فجمع يديه بالقوس وضربه بهما، وأعلن إسلامه. مجمع الزوائد (جـ ٩ ص ٢٦٧).

(٤) هذا البيت والذي قبله ساقطان من طبعة عبد الحميد (جـ ١٠ ص ٢٢٦).

وما زال ذا عِرْضٍ مصونٍ عن الأذى | ومالٍ مهانٍ في العطايا مبدّد
كريمٌ متى ما أوقد النار للقِرى | (تجد خير نار عندها خيرُ موقد)[1]

ومنها في ذكر العباس رضي الله تعالى عنه:

وقد بَلَغَ العباسُ في المجد رتبةً | تقولُ لبدرِ التمّ: قَصَّرْتَ فابعدِ
ألاَ إنه فَضْلَ السقاية قد حوى | فكان لوفدِ الله أكرمَ موردِ
وكان طويلَ الباعِ في البأس[2] والندى | كريمًا متى يسترفدِ القومُ يرفد
ويومَ حُنينٍ ليس يُنسى ثباته | ودعوته مستنجدًا كلّ منجد
وقال رسولُ الله فيه عليَّ ما | عليه وأيضًا مثله في التزيّد
ألاَ إنَّ عمَّ المرء صنو أبيه كي[3] | يزيدهم في برّه المتأيّد
وبَشَّره أنَّ الخلافةَ في الورى | لأولاده من سيّد ومسوَّد
بشيبته استسقوا إذ المحلُ شاملٌ | فجاءهُمُ غيثٌ سَقَى كلَّ فدفد

وهذا[4] ما وقفت عليه من هذه القصيدة الفريدة، وليس بيدي الآن ديوان شعره حتى أكتبها بكمالها فإنها مناسبةٌ لهذا الباب الذي جعلْناه ختمًا للكتاب كما لا يخفى.

ومن مقطوعات ابن جابر: [الطويل]

شغفتُ بها حينًا من الدهر لم يكن | سوى سكبِ دمعي في محبّتها كسبي
وما أصْلُ هذا كلّه غيرُ نظرةٍ | إلى مُقْلَةٍ منها أَضَعْتُ لها قلبي

وقال: [السريع]

قد بان عذري في مليح له | لَحْظًا رشًا يلحظُ من ذُعْرِ
إني على الهجر مطيعٌ له | ممتثلٌ في السِّرِّ والجَهْرِ

(١) ما بين قوسين عجز بيت للحطيئة، وصدره هو:

متى تأته تعشو إلى ضوء ناره

ديوان الحطيئة (ص ٥١).

(٢) في طبعة عبد الحميد (جـ ١٠ ص ٢٢٧): «في الكأس».

(٣) يشير إلى قول رسول الله ﷺ: «عمّ المرء صنو أبيه».

(٤) في طبعة دار صادر (جـ ٧ ص ٣٦٧): «انتهى ما وقفت..».

وقال: [السريع]

هذا الرشا يقنصُ ليثَ الشرى | بنظرةٍ منه فلا مَخْلَصُ
لو عارضَ العاذلَ يومًا له | لكان من أولِ ما يَقْنَصُ

وقال: [المديد]

ظبيةٌ في ثغرها لَعَسٌ[1] | يُجْتَنَى من رشفه عَسَلُ
سَلَكَ التيهُ بِمُقْلَتِها | مسلكًا قد زانه كَسَلُ

وقال: [الخفيف]

رَقَمَ الخالُ خَدَّها فرأينا | قَمَرَ الأُفْقِ فيه نقطة ليلِ
قلتُ: أين الكثيبُ والغصنُ؟ قالت: | كلُّ ما قد ذكرْتَهُ تحت ذيلي[2]

وقال: [الكامل]

إن خِفْتَ مِنْ فَتْكِ المهنّد والقنا | فإذا رَنَتْ وإذا مَشَتْ لا تقربِ
في قلبِ بُرْقعها محاسنُ أنزلت | قَمَرَ السماءِ لنا بقلبِ العقرب

وقال: [السريع]

رأى عذولي حُسْنَها بعدما | حَقَّقَ كوني للهوى جانحا
فقال إن كنتَ محبًّا لها | فقد حمدْنا رأيك الناجحا

وقال: [الخفيف]

ذَكَرَ اللّهُ بالمريةِ عيشًا | لستُ عن ذكره الجميلِ أحُولُ
طالَ عهدي بها وما دمتُ حيًّا | لا يزيدُ الرجاءُ بل قد يطولُ

وقال: [الكامل]

مَرّتْ ليالٍ بالمرية طالما | قَضَّيْتُ من ليلٍ بهنَّ مآربا
لم أسْلُ عن تلك الديار وإنما | جُعِلَ القضاءُ لكلِّ نفسٍ غالبا

---

(١) اللَّعَسُ، بالفتح: سمرة الشفة. لسان العرب (لعس).
(٢) الكثيب: ما اجتمع وتراكم من الرمل، شبّه به ردف المحبوبة، كما شبّه قدّها بالغصن. تحت ذيلي: تحت ثوبي. لسان العرب (كثب) و (ذيل).

وقال: [الخفيف]

لا تَعُقْني عن العقيق فإني | بين أكنافه تركتُ فؤادي
وعلى تُرْبِهِ وقفتُ دموعي | ولسُكّانِهِ وهبتُ ودادي

وقال: [الخفيف]

عرف المنزل الذي دار فيه | زمنُ الأنسِ والشبابِ النضيرِ
فشجاه قلبُ التلاقي فراقًا | وانثنى عنه ذا فؤادٍ كسيرِ

وقال: [مخلع البسيط]

جمالُ هذا الغزالِ سحرٌ | يا حبَّذا ذلك الجمالُ
هلالُ خَدَّيه لم يُغَيَّبْ | عنّي وإنْ غُيِّبَ الهلالُ
غزالُ أُنسٍ يصيدُ أُسْدًا | فاعجبْ لما يصنعُ الغزالُ
دلالُه دلَّ كلَّ شوقٍ | عليَّ إذ زانه الدلالُ
كمالُهُ لا يخافُ نقصًا | دام له الحُسْنُ والكمالُ
نِبَالُهُ قد رَمَتْ[1] فؤادي | يا حبذا تلكم النبال
حلالُ وصلي له حرامٌ | وحكم قتلي له حلالُ
زُلالُ ذاك الحمى حياتي | وأين لي ذلك الزلال
قتالُهُ لا يطاقُ لكنْ | يعجبني ذلك القتالُ

[وقال [الخفيف]:

بين تلك الخيام أكرم حيّ | طَرِبَتْ للندى عليهمْ خيامُ
قد أقاموا بين العقيقِ وسلعٍ | فحياة النفوس حيث أقاموا][2]

وقال: [الطويل]

إذا جئتَ نجدًا كرّم اللّه عَهْدَهُ | فسلِّمْ على أهلِ المنازل من نجدِ
لئن حالَ[3] بُعْدُ الدارِ بيني وبينهم | فإني لأرعاهُمْ على ذلك البعد

---

(١) في طبعة عبد الحميد (ج ١٠ ص ٢٢٩): «قد بَرَتْ». وبَرَتْ فؤادي: أضعفته وأهزلته. لسان العرب (برا).

(٢) ما بين قوسين ساقط من طبعة عبد الحميد.

(٣) حال: صار حائلاً. لسان العرب (حول).

وقال: [الخفيف]

خَجِلَتْ عندما نظرتُ إليها　　　وانثنتْ وَهْيَ بين تيهٍ ومنعِ
إنما وَرْدُ خدِّها زرعُ طرفي　　　حين مَرُّوا فكيف أمنع[1] زرعي

وقال: [الخفيف]

لكَ نفسي إذا بَدَتَ لك نجدُ　　　فلقدْ سرَّني الزمانُ بنجدِ
فلتلكَ الخيامِ عنديَ عَهْدٌ　　　وأبى اللّه أن أُضَيِّعَ عهدي

وقال: [الخفيف]

سَلْ عن القوم إن بَدَتْ لك سَلْعُ　　　ففؤادي عند الذين بسلعِ
لي على تلكُمُ المعاهدِ دَمْعٌ　　　كاد يُغْني بها عن اللثِّ[2] دمعي

وقال: [الخفيف]

صفحوا عن محبّهم وأقالوا　　　من عثارِ النوى ومَنُّوا بوصلِ
لستُ أستوجبُ الوصالَ ولكنْ　　　أهلُ تلك الخيام أكرمُ أهلِ

وقال: [البسيط]

مالَ الزمانُ بهمْ عنّي وقد بعدوا　　　لم يلهني عنهُمُ أهلٌ ولا مالُ
إني لأخشى وما الأيامُ طوعُ يدي　　　أني أموتُ ولي في القلبِ آمالُ

وقال: [الخفيف]

بين وادي النقا وبانِ المُصَلَّى　　　فتية[3] ألبسوا الوجودَ جمالا
إن يكن قد نوى ليَ الدهرُ قربًا　　　منهُمُ فهو قد كفاني نوالا

---

(1) في طبعة دار صادر (جـ ٧ ص ٣٧٠): «أُحَرِّمُ زرعي».
(2) اللَّثُّ: مصدر لَثَّ المطرُ: دام أيامًا. لسان العرب (لثث).
(3) في طبعة دار صادر (جـ ٧ ص ٣٧٠): «ملأ ألبسوا...».

وقال: [الكامل]

زرتُ الديارَ عن الأحبّةِ سائلا ورجعتُ أبكيهم بدمعي سائلا[1]
ونزلتُ في ظلّ الأراكة قائلاً والرَّبْعُ أخرسُ عن جوابٍ قائلا[2]

وقال: [الكامل]

لا أوحشَ اللّه المنازلَ منهمُ منهمْ غَدَتْ تلك الديارُ حسانا
فاشكرْ لدهرك أن أراكَ بحاجرٍ بان الحمى وأراكَهُ قد بانا

وقال: [الخفيف]

لك يا واديَ العقيق علينا كلُّ ما شئت من ذمامٍ وثيقِ
فمن البرّ أنني أتبرَّى مِنْ عقوقٍ لمنزلٍ بالعقيقِ

وقال: [البسيط]

يا أهلَ ذي سَلَمٍ بشرى لمستلمٍ ذاك الثرى مُقْدمٍ في السير لم يَنَمِ
يؤمُّ دارًا بها خيرُ الورى حسبًا الخاتمُ الرسلِ مِنْ عُرْبٍ ومِنْ عجم

ولنقتصر من كلام ابن جابر في هذا الموضع على هذا المقدار، وإنما أطنبت فيه لما تقدّم من الاعتراض على لسان الدين في عدم توفيته في[3] حقّ المذكور وحقّ رفيقه، مع أنه أطال فيمن دونهما من أهل عصره، وأيضًا فإنّ كليهما[4] غريب عندنا بالمغرب، لكونهما ارتحلا قبل أن يشتهرا كلّ الاشتهار، وكان خبرهما في الشرق أشهر.

وأما رفيقه شارح بديعيته فقد ذكرنا في غير هذا الموضع بعضَ حاله وكلامه، وَلْنَزِدْ هنا ما تيسَّرَ، فنقول: من نظمه: [الكامل]

لمّا عدا في الناس عقربُ صُدْغها كَفَّتْ أذاهُ من الورى بالبرقعِ
والصبحُ تحت خمارها مُتَستّرٌ عنّا متى شاءت تقولُ له اطلعِ

---

(١) رواية صدر البيت في طبعة دار صادر (ص ٣٧١) هي:

ورجعتُ إذلالاً بدمعٍ سائلِ

(٢) في طبعة دار صادر: «جوابِ القائلِ».

(٣) في طبعة دار صادر (جـ ٧ ص ٣٧١): «بحقّ».

(٤) في طبعة عبد الحميد (جـ ١٠ ص ٢٣١): «كلاهما».

وقال: [الطويل]

تَجَنَّتْ فجنَّ في الهوى كلُّ عاقلٍ رآها وأحوالُ المُحِبِّ جنونُ
وما وَعَدَتْ إلاّ عَدَتْ[1] في مِطَالها كذلكَ وَعْدُ الغانياتِ يكونُ

وقال: [المنسرح]

لا تَجِدُوا في الهوى على كَلَفِي نظيرُهُ في الغرام لن تجدوا
لهفانُ ما يشتكي إلى أحد ظمآنُ غيرَ الدموع لا يجدُ[2]

وقال: [الخفيف]

رُبَّ ليلٍ قَطَعْتُهُ بالجزيره فتذكَّرْتُ أَهْلَنا بالجزيرَهْ
قَصَّر الأنسُ ما تطاولَ منه وكذا أزمُنُ السرورِ يسيرَهْ

قال: والجزيرة الأولى المراد بها حمص المحيط بها النهر المسمَّى بالعاصي، والثانية جزيرة الأندلس.

وله أيضًا: [الوافر]

وما لي والتزيُّنَ يومَ عيدٍ وجِيدُ صبابتي بالدمع حالي[3]
وقد أرسلتُ أشهبها بَرِيدًا وبعدَ كميتها ينبي بحالي

والمراد بالأشهب الدمع الذي لا يشوبه شيء؛ وبالكُمَيْت الدمع المشوب بالدم، [قال رحمه اللّه][4] في شرح البديعية وقد ذكر العقيق بعد كلام ما نصُّه: قلت: وكان هذا الوادي المبارك زمن عثمان رضي اللّه تعالى عنه ذا قصور محتفَّة، وحدائق ملتفَّة، وبنيان مشيد، ونخلٍ طلعه نضيد، وجنات تؤتي أُكلها كلَّ حين، وسواقٍ تجري به بماء مَعِين، ثم لعبت به أيدي السنين، وغيّرت معالمه فصار عبرةً للناظرين، فلم يبق من مَعَاهده إلاّ آثارٌ تشهد بحسنه، ونضرة نعيم تدلُّ على ما سلف من نضارة غصنه؛ وقد خرجْنا إلى هذا الوادي أيام مجاورتنا بالمدينة الشريفة، وهو يتدفّق بمائه، ويعارضُ بجوهر حَبَابه أنجم سمائه، وقد

---

(١) في طبعة عبد الحميد: «غدت» بالغين المعجمة.
(٢) في طبعة دار صادر (ص ٣٧٢): «لا يردُ».
(٣) الحالي: لابس الحلية. لسان العرب (حلا).
(٤) ما بين قوسين ساقط من طبعة عبد الحميد (ج ١٠ ص ٢٣٢).

سالت شِعابه، وفاض عُبَابه، والناس تفرّقوا في جهاته، وافترشوا غضَّ نباته، والشِّيح قد توشّح بالندى، والأنس قد راح به وغدا، والأصيلُ مذهَّب الرداء، والبيداء مخضرّة الأنداء، وبحافتيه[1] آثارُ قصور، ليس لها في الحسن قصور، قد بَلِيَتْ وحُسْنُها جديد، وخربت وربْعُها بالأنس مَشيد؛ انتهى.

ومن بديع نظمه قوله: [الكامل]

مهلاً فما شِيَمُ الوفا منقادةٌ لِمَنِ ابتغى من نيلها أوطارا[2]
رُتَبُ المعالي لا تُنالُ بحيلةٍ يومًا ولو جهد الفتى أو طارا

وقوله رحمه الله تعالى: [الوافر]

على وادي العقيقِ سكبتُ دمعي بلا عينٍ فيبدو كالعقيقِ
فكم غُصْنٍ وَرِيقٍ منه يحكي قوامَ رشا شهيّ فمٍ وريقِ[3]

وقال: [المتقارب]

سألتك باللّه يا مَنْ غدا يصرِّفُ بالقَلْبِ أفعالَهُ
تداركْ محبًا بدرياقِ[4] وصلٍ فإنَّ بعادك أفْعَى لهُ

وقال: [مجزوء الكامل]

لا تَأمَنَنْهُ على القلو بِ فمنه أصلُ غرامِها
فلحاظُهُ هنَّ التي رَمَتِ الورى بسهامِها

ومن فوائده، رحمه اللّه تعالى، في شرح البديعية ما نصُّه: ومن غريب ما في «لَدَى» أنَّ أبا علي حكى في تذكرته عن المفضّل أنها أتت بمعنى «هل» وأنشد: [الطويل]

لَدَى مِنْ شَبَابٍ يُشْتَرى بمشيب وكيف شبابُ المرءِ بَعْدَ ذهابِ

---

(١) في طبعة دار صادر (جـ ٧ ص ٣٧٣): «وبحافته».
(٢) الأوطار: جمع وطر وهو الحاجة. لسان العرب (وطر).
(٣) الوريق في صدر البيت: ذو الورق. و «وريق» في عجز البيت مؤلف من واو العطف و «ريق» وهو ماء الفم.
(٤) الدرياق: الترياق. محيط المحيط (درق).

رجع. وقال رحمه الله تعالى يتشوّق إلى حَمْراء غَرْناطة: [الكامل]

ذابت[1] على الحمراء حُمْرُ مدامعي والقلبُ فيما بين ذلك ذائبُ
طالَ المدى بي عنهم ولربما قد عاد من بعد الإطالة غائبُ

وقال: [الكامل]

ما هَبَّ من نحو السبيكةِ بارقٌ إلاَّ غدا شوقي لقلبي شابكا[2]
واللَّه ما اخترتُ الفراقَ لِرَبْعِها لكنْ قضاءُ اللَّه أوجب ذلكا

وقال: [الطويل]

منازلُ سلمى إنْ خَلَتْ فلطالما بها عمرتْ في القلبِ مني منازلُ
رسائلُ شوقي كلَّ يومٍ تزورها وما ضُيِّعَتْ عند الكرام الرسائلُ

وقال: [المتقارب]

بجورِ الوداع لنا موقفٌ أذابَ الفؤادَ لأجلِ الوداعِ
فما أنا أنسى غَداةَ النوى وحادي الركائب للبين داعي

قال: وجَوْرُ الوداع موضعٌ بظاهر غَرْناطة، عادةُ مَنْ سافر أن يُوَدَّعَ هناك.

وقال: [البسيط]

ناولْتُهُ وردةً فاحمرَّ مِنْ خجلٍ وقال: وجهيَ يُغْنيني عن الزَّهَرِ
الخَدُّ وَرْدٌ، وعيني نرجسٌ، وعلى خدّي عِذارٌ كريحانٍ على نهرِ

وقال رحمه اللَّه تعالى في التشريع[3]: [الكامل]

يا راحلاً يبغي زيارة طيبة نِلْتَ المنى بزيارةِ الأخيارِ

(1) في طبعة عبد الحميد (ج ١٠ ص ٢٣٣): «دامت».
(2) في طبعة عبد الحميد: «سالكا».
(3) التشريع عند أهل البديع هو أن يبني الشاعر بيته على قافيتين يصحّ الوقوف على كل واحدة منهما كقول الشيخ صفي الدين الحلّي: [الكامل]
جنّ الظلامُ فمذ بَدَا متبسّمًا لاح الهدى وتجلّتِ الظلماءُ
فإنه يصحّ أن يقال فيه أيضًا:
جنّ الظلام فمذ بدا متبسّمًا لاح الهدى
محيط المحيط (شرع).

حَيِّ العقيقَ إذا وصلت وصِفْ لنا وادي مِنى، بأطايبِ الأخبار
وإذا وقفت لدى المعرّف داعيًا زالَ العنا، وظفرتَ بالأوطارِ[1]

وقال: [الكامل]

يا أولاً في المرسلين وآخرًا اللّه خصَّكَ بالكمال لِيُرْضِيَكْ
من قَبْلِ آدمَ قد جُعِلْتَ نبيَّه قِدمًا فقدّمك الإلّهُ لِيُعْلِيَكْ
أوحى إليك لكي تكون حبيبهُ ويتمُّ نعمته عليكَ ويهديَكْ

وقال: [البسيط]

صَيَّرْتَنِي في هواكَ اليومَ مشتهرًا لا قيسُ ليلى ولا غَيْلانُ في الأُوَلِ[2]
زعمتَ أنَّ غرامي فيكَ مكتسَبٌ لا والذي خلقَ الإنسانَ من عَجَلِ

وقال: [الرمل]

لا تُعادِ[3] الناسَ في أوطانهم قلّما يُرْعَى غريبُ الوطنِ
وإذا ما شئتَ عيشًا بَيْنَهُمْ «خالِقِ الناسَ بخلقٍ حسنِ»

وقال: [الخفيف]

نسختي اليوم في المحبّةِ أصْلٌ فعليها اعتمادُ كلِّ عميدِ[4]
نقلوا مرسلَ المدامعِ منها وصحيحَ الهوى بغير مزيد
قد رواها قبلي جميلٌ[5] وقيسٌ حين هاما بكلِّ لحظٍ وجِيدِ

ومن فوائده: أنه لما أنشد في «طراز الحلّة» قولَ سعد الدين محمد بن عربي في ابن مالك: [البسيط]

إنّ الإمام جمالَ الدين فَضَّلَهُ

---

(١) العنا: أي العناء وهو التعب، وقد حذف الهمزة للضرورة الشعرية.
(٢) قيس ليلى: هو مجنون ليلى، وهو قيس بن الملوح، الشاعر العذري المشهور. غيلان: هو ذو الرمة، صاحب ميّة.
(٣) في طبعة عبد الحميد (جـ ١٠ ص ٢٣٥): «لا تُعادي».
(٤) العميد: الذي هدّه العشق. لسان العرب (عمد).
(٥) جميل: هو جميل بن معمر، صاحب بثينة.

إلى آخره. قال ما ملخَّصه: ولمّا أورده الصفدي في «فضّ الختام» قال: هذا في غاية الحسن لو كان المضاف إليه دون المضاف، وهي تورية ناقصة، قلت: ابن مالك له كتابان: أحدهما «الفوائد» صنعه أولاً ثم صنع «تسهيل الفوائد» بعده، وكأنه سَهَّل فيه كتابَ الفوائد، وكنت وقفت على هذا الكتاب المسمَّى بالفوائد ببلدنا غَرْنَاطة، فلمّا وصلْنا إلى هذه البلاد بَحَثْنَا عنه فلم نجدْه، وتمادى الأمر على ذلك إلى سنة ٧٦٠، فوجدْناه في حلب، وهو الآن عندنا، وهو عزيزُ الوجود، ولذلك خفيَ على القاضي صلاح الدين؛ انتهى وبعضه بالمعنى.

وقال أبو جعفر أحمد المترجم به: كتبتُ إلى صاحبنا الشيخ بدر الدين خليل الناسخ: [المتقارب]

مَدَدْتَ النوى وقَصَرْتَ اللِّقا أترضى بهذا وأنت الخليلُ[١]
وتترك أحمدَ ذا وحشةٍ لديكَ وأنتَ له ابنُ جليلُ

وقال: [الكامل]

قد كان لي أُنسٌ بطيبِ حديثكمْ والآن صارَ حديثُكُمْ برسولِ
ولقد مددتُ من النوى مقصورَةً إنَّ الخليلَ يراه غيرَ جميلِ[٢]

وله رحمه اللّه تعالى: [الكامل]

ما للنوى مُدَّتْ وأنتَ خليلُنا؟ ولقبلُ قد قصرت برغمِ الكاشحِ
أتبعتَ في ذا مذهبًا لا يُرْتَضَى أبدًا وليس الرأي فيه بصالحِ

وله: [الطويل]

ولمّا رأى الحسّادُ منك التفاتةً إلى جانبِ اللهوِ الذي كان مرفوضا
أضافوا إلى عَلْياك كلَّ نقيصةٍ حقيقٌ لدينا بالإضافة مخفوضا

(١) في البيت مصطلحات نحوية كالممدود والمقصور، ولكنه يريد المعنى اللغوي.
(٢) في البيت تورية بشيخ النحاة الخليل بن أحمد الفراهيدي، وأراد بالخليل الصديق.

وله: [السريع]

حُسْنُكَ ما بين الورى شائعٌ قد عُرِّفَ الآن بلام العذارِ
فجاء منه مبتدًا للهوى خَبَرُهُ الآسُ مَعَ الجُلَّنارِ

ولنقتصر على هذا المقدار إلى هنا.

رجع إلى أولاد لسان الدين رحمهم اللّه تعالى:

وقد قدَّمْنا أنَّ علي ابن لسان الدين كان نديم السلطان وخاصَّتَه، كما ذكرنا في مخاطبته لابن مرزوق في الباب الخامس قوله: فالسلطانُ يرعاه اللّه تعالى يوجب ما فوق مزية التعظيم، والولدُ هداهم اللّه تعالى قد أخذوا بحظ قلَّ أن يَنالوه بغير هذا الإقليم، والخاصّة والعامّة تعامل بحسب ما بَلَته من نصحٍ سليم، وتركِ لِمَا بالأيدي وتسليم، وتدبير عاد على عدوّها بالعذاب الأليم، إلاَّ مَنْ أبدى السلامة وهو من إبطانِ الحسدِ بحال السليم؛ انتهى.

ولقد صدق رحمه اللّه تعالى فيما ذكره من النصح وغيره.

ومن نصائحه رحمه اللّه تعالى ما كتب به على لسان السلطان، ونصُّه: «منْ عبد اللّه أمير المسلمين محمد وَصَل اللّه تعالى سعده، وبلَّغه من فضله العميم قَصْدَه، إلى أوليائنا المخصوصين منّا ومن سَلَفنا بذِمَام الجوار القريب، والمساكنة التي لا يتطرّقُ إلى حقِّها الذي بني استرابةُ المستريب، المعتمدين إذا عُدَّتِ الرعايا، وذكرت المزايا، بمزيدِ الاعتناء والتقريب، من الأشياخ الجِلَّة الشرفاء والعلماء، والصُّدور الفقهاء، والعدول الأذكياء، والأعيان الوزراء، والحُمَاة المدافعين عن الأرجاء، والأمناء الثُّقات الأتقياء، والكافة الذين نصل إليهم عوائدَ الاعتناء، ونسير فيهم بإعانة اللّه تعالى على السبيل السَّوَاء، من أهلِ حضرتنا غرناطة المحروسة بفضلِ اللّه تعالى ورَبَضِها، شَرَحَ اللّه تعالى لقبول الحكمة والموعظة الحسنة صُدُورَهم، وكَنَف بنتائج الاستقامة سرورهم، وأصلح بعنايته أمورهم، واستعمل فيما يرضيهم أميرهم ومأمورهم:

سلام كريم عليكم أجمعين ورحمة اللّه تعالى وبركاته. أما بعدَ حمدِ اللّه الذي إذا رضي عن قوم جعل لهم التقوى لباسًا، والذكرى لبناء المَتَاب أساسًا، والصلاةِ والسلامِ على سيدنا محمد رسوله الذي هدانا إلى الفَوْز العظيم ابتغاء لرحمته والتماسًا، والرضا عن آله الذين اختارهم له ناسًا، وجعلهم مصابيح من بعده اقتداء واقتباسًا، فإنّا كتبناه إليكم.

كتب اللّه تعالى إعزازكم! وحرس أحوازكم! وجعل للعمل الصالح اهتزازكم[1]! وبقبول النصائح امتيازكم! - من مستقرّنا بمحروسة الحمراء، حَمَاها اللّه سبحانه، ولا متعرف بفضل اللّه تعالى إلاّ هداية تظهر على الأقوال والأعمال، وعناية تحفُّ من اليمين والشمال، وتوكّل على اللّه يتكفّل لنا ببلوغ الآمال، وأنتم أولياؤنا الذين لا نَدَّخر عنهم نصحًا، ولا نُهمل في تدبيرهم ما يثمر نُجْحًا، وبحسب هذا الاعتقاد لا نغفل عن نصيحةٍ ترشدكم إذا غفلتم، وموعظة نقصُّها عليكم إذا اجتمعتم في بيوت اللّه واختلفتم، وذبّ[2] عنكم تارة بسلم نَعْقِدُها، ومطاولةٍ نُسَدِّدُها، وتارةً بسيوف في سبيل اللّه تعالى نحدّدها، وعمارة[3] للشهادة نردّدها، ونفوس بوعد اللّه نعدها، ونرضى بالسهر لتنام أجفانكم، وبالكَدِّ لتستريح[4] صبيانكم وولْدَانُكم، وباقتحام المخاوف ليتحصل[5] أمانكم، ولو استطعنا أن نجعل عليكم وقاية كوقاية الوليد لجعلنا، أو يمكننا أن لا تفضلكم رعيّةٌ بصلاح دينٍ أو دنيا لفعلْنا، هذا شغْل زمانِنا منذ عرفنا[6]، ومَرْمَى همِّنا مهما استهدفنا، وقد استرعانا اللّه تعالى جماعتكم، ومَلأنا طاعتكم، وحرّم علينا إضاعتكم، والراعي إذا لم يقصد بسائمته المراعي الطيبة، وينتجع مَسَاقط الغمائم الصَّيِّبة، ويوردها الماء النمير، ويبتغ لها النماء والتثمير، ويُصْلح خللها، ويُدَاوِ عللها، قلَّ عَدَدُها، وعدمت غلّتها وولدها، فندم على ما ضيّعه في أمْسِهِ، وجنى عليها وعلى نَفْسِه. وألفيناكم في أيامنا هذه الميامنِ عليكم قد غمرتكم آلاء اللّه تعالى ونعمه، وملأت أيديكم مواهبه وقِسَمُهُ، وشُغل عدوّكم بفتنة قومه فنمتم للعافية فوق مِهَاد، وبَعُدَ عهدكم بما تقدّم من جَهْد وجهاد، ومخمصةٍ[7] وسُهَاد، فأشفقنا أن يجرّكم توالي الرخاء إلى البَطَر، أو تحملكم العافية على الغفلة عن اللّه تعالى وهي أخطرُ الخطر، أو تجهلوا مواقِعَ فضله تعالى وكرمه، أو تستعينوا على معصيته بنعمه، فمن عرف اللّه تعالى في الرخاء وجده في الشِّدة، ومن استعدَّ في المهَل وجد منفعة العدّة، والعاقلُ

---

(١) اهتزازكم: ارتياحكم ومسرّة أنفسكم.

(٢) ذَبٌّ عنكم: دافع. لسان العرب (ذبب).

(٣) في طبعة عبد الحميد (ج ١٠ ص ٢٣٨): «وعساكر للشهادة».

(٤) في طبعة دار صادر (ج ٧ ص ٣٧٩): «ليتَّلِعَ».

(٥) في طبعة دار صادر: «ليتّصل».

(٦) في الطبعة نفسها: «عرفناه.. مهما استهدفناه».

(٧) المخمصة: المجاعة. القاموس المحيط (خمص).

من لا يغترُّ في الحرب أو السلم بطول المدّة، فالدهر مُبْلي الجِدَّة، ومستوعب العِدَّة، والمسلمون إخوانكم اليوم قد شُغِلوا بأنفسهم عن جبركم، وسلموا للّه في نصركم، ونشبت الأيدي ولا حول ولا قوّة إلاّ باللّه بثَغْرِكُمْ، وأهمتهم فتن تركت رسومَ الجهاد خالية خاوية، ورياض الكتائب الخضر ذابلة ذاوية، فإن لم تشمّروا لما بين أيديكم في هذه البرهة فماذا تنتظرون؟ وإذا لم تستنصروا باللّه مولاكم فبمن تستنصرون؟ وإذا لم تستعدّوا في المهل فمتى تستعدّون؟ لقد خسر من رضي في الدنيا والآخرة بالدون، فلا تأمنوا مكر اللّه ﴿فلا يَأمَنُ مَكْرَ اللّهِ إلاَّ القومُ الخاسِرُونَ﴾[1]. ومن المنقول عن المِلَل، والمشهور في الأواخر والأول، أنَّ المعصية إذا فشت في قوم أحاط بهم سوء كَسْبهم، وأظلم ما بينهم وبين ربّهم، وانقطعت عنهم الرحمات، ووقعت فيهم المَثُلاَت[2] والنقمات، وشَحَّتِ السماء وغِيض الماء، واستولت الأعداء، وانتشر الداء، وجَفَّت الضُّرُوع، وأخلفت الرضوع، فوجب علينا أن نستميلكم بالموعظة الحسنة، والذكرى التي توقظ من السِّنَة[3]، ونقرع آذانكم بقوارع الألسِنة، فأفزعوا الشيطان بوَغْيها، وتقرّبوا إلى اللّه تعالى برَعْيها، الصلاةَ الصلاةَ فلا تهملوها، ووظائفَها المعروفةَ فكمّلوها، فهي الركنُ الوثيقُ، والعَلَمُ الماثلُ على جادَّة الطريق، والخاصة التي يتميّز بها هذا الفريق، ويادروا صفوفَها الماثلة، وأتبعوا فريضَتَها النافلة، وأشرعوا إلى تاركها أسنّة الإنكار، واغتنموا بها نواشىء الليل وبوادي الأسحار، والزكاة أختها المنسوبة، ولِدَتُها المكتوبة المحسوبة، فمن مَنَعها فقد بخل على مولاه، باليسير مِمّا أولاه، وما أحَقَّه بذهاب هبة الوهّاب وأولاه، فاشتروا من اللّه تعالى كرائم أموالكم بالصَّدَقات، وأنفقوا في سبيله يربحكم أضعاف النفقات، وواسُوا سؤالكم كلّما نُصِبَت الموائد، وأُعيدت للترفُّه العوائد، وارْعَوْا حقّ الجوار، وخذوا على أيدي الدُّعرة[4] والفجّار، وأخرجوا الشَّنَآن[5] من الصدور، واجعلوا صِلَةَ الأرحام من عَزْم الأمور، وصونوا عن الاغتياب أفواهكم، ولا تعوِّدوا السفاهة شفاهكم، وأقرضوا القرض الحسن إلّهكم،

(١) سورة الأعراف ٧، الآية ٩٩.

(٢) المَثُلات: جمع مَثُلَة وهي العقوبة وما أصاب القرون الماضية من العذاب، وهي عِبَرٌ يُعْتَبَرُ بها. محيط المحيط (مثل).

(٣) السِّنَةُ، بكسر السين وفتح النون: النوم. القاموس المحيط (وسن).

(٤) الدّعرة: جمع داعر وهو الخبيث. القاموس المحيط (دعر).

(٥) الشنآن: البغض والكراهية. القاموس المحيط (شنأ).

وعلّموا القرآن صبيانكم، فهو أُسُّ المبنى، وازرعوه في تراب ترائبهم فعسى أن يُجْنَى، ولا تتركوا النصيحة لمن استنصح، وردّوا السلام على مَنْ بتحية الإسلام أفصح، وجاهدوا أهواءكم فهي أولى ما جاهدتم، وأوفوا بعهد اللّه إذا عاهدتم، وثابروا على حلق العلم والتعلّم، وحفوا بمراقي التكلّم، وتعلّموا من دينكم ما لا يَسَعُكم عند اللّه تعالى جهله، ويتبيّن أنكم أهْلُه، فمن القبيح أن يقومَ أحدكم على وقاية بُرّه وشَعيره، ورعاية شاتِهِ وبَعيره، ولا يقوم على شيء يخلص به قاعدة اعتقاده، ويُعِدُّه منجاة ليوم مَعَاده، واللّه عزَّ وجلّ يقول ولقوله يرحل المنتجعون ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أنما خَلَقْناكُمْ عَبَثًا وأَنَّكُمْ إلينا لا تُرْجَعُونَ﴾[1] واتَّقُوا من الحوادث الشنيعة، والبدع التي تفتُّ في عَضُد الشريعة، فقد شنَّ علينا الملتبسة[2] بأهل التصوّف الغار، ونال حملتها بل جملتها بإغماضهم الصغار، وتؤوّل المعاد والجنّة والنار، وإذا لم يَغَر الرجل على دينه ودين أبيه فعلى مَنْ يَغَار؟ فالأنبياء الكرام وورثتهم العلماء، هم أئمةُ الاقتداء، والكواكبُ التي عيّنها الحقّ للاهتداء، فاحذروا مَعَاطبَ هذا الداء، ودسائس هذه الأعداء. وأهم ما صرفتم إليه الوجوه، واستدفعتم به المكروه، العملُ بأمره جلَّ وعلا في الآية المتلوّة، والحكمة السافرة المجلوّة، من ارتباط الخيل وإعداد القوّة، فمن كان ذا سَعَة في رزقه، فليَقُم للّه بما استطاع من حقِّه، وليتّخذ فرسًا يعمر محلّته بصهيله، ويَقْتنه من أجل اللّه وفي سبيله، فكم يتحمّل من عيالٍ يلتمسُ مرضاتهنّ باتخاذ الزينة، ويتنافس في أن يكون من أشراف المدينة[3]، ومؤونة الارتباط أقلّ، وعلى الهمّة والدين أدلّ، إلى ما فيه من حماية الحَوْزَة[4]، وإظهار العِزّة، ومن لم يحسن الرمي فليتدرّب، وباتّخاذ السلاح إلى اللّه فليتقرّب، وقبل الرمي تُرَاش السّهام، وعلى العباد الاجتهاد وعلى اللّه التمام. والسكّة الجارية في حوادث نواديكم، وأثمان العُروض التي بأيديكم، من تحيَّف[5] حروفها، ونكَّر معروفها، أو سامح في قبول زَيْف، أو مبخوسٍ حَيْف، فقد اتّبع هواه، وخان نفسه وسواه، قال اللّه عزّ وجلّ ﴿أَوفُوا الكَيْلَ ولا تَكُونُوا من المخْسِرينَ، وزِنُوا بالقسْطاسِ المُسْتَقيمِ،

---

(١) سورة المؤمنون ٢٣، الآية ١١٥.

(٢) في طبعة دار صادر (ج ٧ ص ٣٨٠): «الملبّسة».

(٣) في طبعة دار صادر (ج ٧ ص ٣٨١): «والتنافس في ترف المدينة..».

(٤) الحوزة: ما يملكه الإنسان. لسان العرب (حوز).

(٥) في طبعة عبد الحميد (ج ١٠ ص ٢٤١): «من احتف».

ولا تَبْخَسُوا النّاسَ أشياءَهُمْ ولا تَعْثَوا في الأرضِ مُفْسِدِينَ ﴾[1] ولتعلموا أنَّ نبيّكم صلوات اللّه عليه إنّما بعثه اللّه مجاهدًا وبالحقّ قاضيًا، وعن الهفوات حليمًا متغاضيًا، فتمسّكوا بحَبْله، ولا تعدلوا عن سُبْله، يُرْوِكم اللّه تعالى من سَجْله[2]، ويُراعِكم من أجله، مُرَاعاة الرجل لِنَجْلِه، فهو الذي يقول ﴿وما كانَ اللّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وأنتَ فيهِمْ، وما كان اللّهُ مُعَذِّبَهُمْ وهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾[3] وإن كان في وطنكم اليوم سَعَة، وقد ألحفكم أمن من اللّه تعالى ودَعَة، فاْحسبوا أنّكم في بلد محصور، وبين لحيي أَسَدٍ هَصُور، واكتنفكم[4] بَحْرٌ يعبُّ عُبَابه، ودار بكم سُورٌ بيدِ عدوّكم بابه، ولا يدري متى ينتهي السِّلم، وينشعب الكَلْم، فإن لم تكونوا بناءً مَرْصُوصًا، وتستشعروا الصبر عمومًا وخصوصًا، أصبح الجناح مقصوصًا، والرأي قد سلبته الحيرة، والمال والحريم قد سلبت فيه الضغانة والغيرة، وإن شاء اللّه تَهُبُّ ريح الحميّة، ونصرة النفوس على الخيالات الوهميّة، فإنَّ العزّة للّه ولرسوله وللمؤمنين، واللّه مُتِم نوره على رغم الجاحدين وكره الكافرين، و ﴿كَمْ مِنْ فئةٍ قليلةٍ غَلَبَتْ فئةً كثيرةً بإذْنِ اللّهِ واللّهُ مَعَ الصابرينَ ﴾[5]. واعتقدوا أنَّ اللّه تعالى لم يجعلِ الظهورَ مقرونًا بعدد كثير، ولو مثل جراد مَزْرَعَةٍ أثارها مثير، بل بإخلاص لا يبقي لغير اللّه افتقارًا، ونفوس توسع ما سوى الحقّ اقتدارًا، ووعد يصدق، وبَصَائر أبصارها إلى مَثَابة الجزاء تحدق، وهذا الدين ظهر مع الغُرْبة، وشَظَف التربة، فلم تَرُعْه الأكاسرة وفيولها، والقياصرة وخُيُولها، دين حنيف، وعلم مُنِيف، من وُجُوه شطر المسجد الحرام تولى، وآيات على سبعة أحرف تتلى، وزكاة من الصميم تنتقى، ومعارج ترتقى، وحجّ وجهاد، ومَوَاسم وأعياد، ليس إلاّ تكبير شهير، وأذان جَهير، وقوّة تعدّ، وثغور تسدّ، وفيء يقسم، وفخر يرسم، ونصيحة تهدى، وأمانة تؤدّى، وصدقة تخفى وتبدى، وصدور تشرح وتشفى، وخلق على خلق القرآن تحذى وتقفى، قُبِض رسول اللّه ﷺ وهذا العقد قد سُجِّل، والوعدُ به قد عُجِّل ﴿اليومَ أَكْمَلْتُ لكُمْ دِيْنَكُمْ، وأَتْمَمْتُ عليكم نِعْمَتي، ورَضِيتُ لكُمُ الإسلامَ

---

(١) سورة الشعراء ٢٦، الآيات ١٨١، ١٨٢، ١٨٣.

(٢) السَّجْلُ: مصدر سجل الماءَ إذا صبّه. محيط المحيط (سجل).

(٣) سورة الأنفال ٨، الآية ٣٣.

(٤) في طبعة دار صادر (ج ٧ ص ٣٨١): «اكتنفكم».

(٥) سورة البقرة ٢، الآية ٢٤٩.

دِينًا﴾[1] ولا ينقطع لهذا الفرع عادةُ وَصْلِهِ، ما دام شبيهًا بأصله، وإنما هو حَلَبٌ لكم زبدته الممخوضة، وخلاصته الممحوضة، والعاقبةُ للمتّقين ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ﴾[2].
وحضرتكم اليوم قاعدة الدين، وغاب المجاهدين، وقد اخترعت بنا أيامنا هذه وأيام والدنا المقدّس الآثار الكبار، والحسنات التي تنوقلت بها الأخبار، وأغفلت إلى زمنكم الحسنة المذخورة، والمنقبة المبرورة، وهي بيمارستان يقيم منكم المرضى المطّرحين، والضعفاء المغتربين منهم والمعترضين في كلّ حين، فأنتم تطأونهم بالأقدام، على مرّ الأيام، ينظرون إليكم بالعيون الكليلة، ويعربون عن الأحوال الذليلة، وضرورتهم غيرُ خافية، وما أنتم بأوْلىٰ منهم بالعافية، والمجانين تكثر منهم الوقائع، وتفشو منهم إماتةُ العهد الذائع، عار تحظره الشرائع، وفي مثله تُسَدُّ الذرائع. وقد فَضَلْتُم أهلَ مصر وبغداد، بالرباط الدائم والجهاد، فلا أقل من المساواة في معنى، والمنافسة في مَبْنى، يذهب عنكم لؤم الجوار، ويزيل عن وجوهكم سِمَات العار، ويدلّ على همّتكم، وفضل شيمتكم، أهلَ الأقطار، وكم نفقة تلفت[3] على الرجل في مشروع، وحرص اعتراه على ممنوع، فأسرعوا فالنظر في هذا المهم خير مشروع، ولولا اهتمامنا بمرتزقة ديوانكم، وإعدادنا مال الجباية للمجاهدين من إخوانكم، لسبقناكم إلى هذه الزُّلْفة، وقمنا في هذا العمل الصالح بتحمّل الكُلْفة، ومع ذلك فإذا قدناكم إلى الجنّة ببنائه، وأسْهَمْنَاكم في فريضةِ أجره وثنائه، فنحن إن شاء اللّه تعالى نعيّن له الأوقافَ التي تجري عنها المرفقة، وتتّصل عليه بها الصدقة، تأصيلاً لفخركم، وإطابةً في البلاد لذكركم، فليشاور أحدُكم هِمَّتَه ودينه، ويستخدم يساره في طاعة القصد الكريم ويمينه، ونسأله اللّه تعالى أن يوفّق كلاً لهذا القصد ويُعينه، ومن وراء هذه النصائح عزم ينهيها إلى غايتها، ويجبر الكافةَ على اتّباع رأيها ورايتها، فأعملوا الأفكار فيما تضمنته من الفصول، وتلقّوا داعيَ اللّه تعالى فيها بالقَبُول، والدنيا مزرعة الآخرة، وكم معتبر للنفوسِ الساخرة، بالعظام الناخرة ﴿يا أيُّها الناسُ إنَّ وَعْدَ اللّهِ حَقٌّ فلا تَغُرَّنَّكُمُ الحياةُ الدنيا، ولا يَغُرَّنَّكُم باللّهِ الغَرُورُ﴾[4] وأنتم اليوم أحَقُّ الناس بقبول الموعظة نفوسًا زكية، وفُهُومًا لا

---

(١) سورة المائدة ٥، الآية ٣.
(٢) سورة ص ٣٨، الآية ٨٨.
(٣) في طبعة دار صادر (ج ٧ ص ٣٨٣): «هانت على الرجل. .».
(٤) سورة فاطر ٣٥، الآية ٥.

قاصرة ولا بَطِيئة، وموطن جهاد، ومستقى غمام من رحمة اللّه تعالى وعِهَاد[1]، وبقايا السلف بالأرض التي فتحوا فيها هذا الوطن، وألقوا فيها العَطَن، فإلى أين يذهب حسن الظنّ بأديانكم، وصحة إيمانكم، وتساوي إسراركم وإعلانكم؟ اللهمّ إنّا قد خرجنا لك فيهم عن العهدة المتحمَّلَة، وبلَّغناهم نصيحتك المكملة، ووعدْناهم مع الامتثال رحمتك المؤملة، فيسِّرْنَا وإياهم لليسرى، وعرِّفْنا لطائفك التي خفي فيها المَسْرَى، ولا تجعلْنا مِمَّن صَمّ عن النداء، وأصبح شماتة الأعداء، فما ذَلّ من استنصر بجنابك، ولا ضلّ من استبصر بسنَّتك وكتابك، ولا انقطع مَنْ توسَّل بأسبابك، واللّه سبحانه يَصِلُ لكم عوائد الصنع الجميل، ويحملكم وإيّانا من التوفيق على أوضح سبيل، ويصل سعدكم، ويحرسُ مجدكم، والسلام الكريمُ يخصّكم ورحمة اللّه تعالى وبركاته»؛ انتهى.

ومن ذلك قوله رحمه اللّه تعالى على لسان السلطان بعد كلام:

«اللّه اللّه في الهمم فقد خمدَت ريحُها، واللّه اللّه في العقائد فقد خَبَتْ[2] مصابيحُها، واللّه اللّه في الرجولية فقد فُلّ حَدُّها، واللّه اللّه في الغيرة فقد تعسّر جَدُّها، واللّه اللّه في الدين فقد طمع الكفر في تحويله، واللّه اللّه في الحريم فقد مَدَّ إلى استرقاقه يدَ تأميله، واللّه اللّه في الملّة التي يريد إطفاء سَنَاها، وقد كمل فضلها وتناهى، واللّه اللّه في الحريم، واللّه اللّه في الدين الكريم، واللّه اللّه في القرآن، واللّه اللّه في الجيران، واللّه اللّه في الطارف والتالد، واللّه اللّه في الوطن الذي توارثه الولد عن الوالد، اليوم تستأسد النفوس المَهِينة، اليوم يستنصر الصبر والسكينة، اليوم ترعى لهذه المساجد الكرام الذِّمَم، اليوم يسلك سبيل العزم والحزم والشدّة والشَّمم، اليوم يرجع إلى اللّه المصرُّون، اليوم يفيق من نوم الغفلة المغترُّون، قبل أن يتفاقم الهول، ويحقّ القول، ويُسدّ الباب، ويحيق العذاب، ويسترق الكفر الرقاب، فالنساء تقي بأنفسهن أولادهنّ الصغار، والطيورُ ترفرف لتحمي الأوكار[3]، إذا أحست العَيْث بأفراخها والإضرار، تمرّ الأيام عليكم مرَّ السحاب، وذهابُ الليالي لكم ذهاب، فلا خبر يفضي إلى العين، ولا حديث في اللّه تعالى يُسمع بين

---

(١) العِهاد: جمع عهد وهو المطر. محيط المحيط (عهد).
(٢) في طبعة دار صادر (ج ٧ ص ٣٨٤): «فقد خفيت».
(٣) الأوكار: جمع وكر وهو عش الطائر. لسان العرب (وكر).

اثنين، ولا كد إلاَّ لزينة يُحَلَّى بها نَحْرٌ وجِيد، ولا سعي إلاَّ متاع لا يغني في الشدائد ولا يفيد، وبالأمس نُدِبْتُم إلى التماس رُحْمى مسخِّرِ السحاب، واستقالة كاشف العذاب، وسؤال مرسل الدِّيمة، ومحيي البشر والبهيمة، وقد أمسكت عليكم رحمة السماء، وأغبرَّتْ جوانبكم المخضرّة احتياجًا إلى بلالة الماء ﴿وفي السماءِ رِزْقُكُمْ وما تُوعَدُونَ ﴾[1] وإليها الأكفّ تمدّون، وأبوابها بالدعاء تقصدون، فلم يُضْحِر[2] منكم عدد معتبر، ولا ظهر للإنابة ولا الصَّدَقة خبر، وتتوقون[3] من إعادة الرغبة إلى الولي الحميد، والغني الذي ﴿إن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ ويأتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾[4] وايم اللّه لو كان لهوًا لارتقبت الساعات، وضاقت المتّسعات، وتزاحمت على أنديته الجماعات. أتعزّزًا على اللّه وهو القوي العزيز؟ أتلبيسًا على اللّه وهو الذي يميّز الخبيث من الطيب والشَّبَه من الإبريز؟ أمُنَابذة[5] والنواصي في يديه؟ أغرورًا بالأمل والرجوع بَعْدُ إليه؟ مَنْ يبدأ الخلق ثم يعيده؟ من ينزل الرزق ويفيده؟ مَنْ يُرْجَعُ إليه في الملمّات؟ مَنْ يُرجَّى في الشدائد والأزماتِ؟ من يوجد في المحيا والممات؟ أفي اللّه شكّ يختلج القلوب؟ أثَمَّ غير اللّه يدفع المكروه وييسّر المطلوب؟ تفضلون على اللجإ إليه موائد الفضل، ونزه[6] الجهل، وطائفة منكم قد برزت إلى استسقاء رحمته تمدّ إليه الأيدي والرقاب، وتستكشف بالخضوع لعظمته العقاب، وتستعجل إلى مواعيد إجابته الارتقاب، وكأنكم عن كرمه قد استغنيتم، أو على الامتناع من الرجوع إليه بنيتم. أما تعلمون كيف كان نبيّكم صلوات اللّه عليه من التبلُّغ باليسير، والاستعداد للرحيل إلى دار الحقّ والمسير، ومُدَاومة الجوع، وهجر الهجوع، والعمل على الإياب إلى اللّه تعالى والرجوع: دخلت فاطمة، رضي اللّه تعالى عنها، وبيدها كسرة شعير فقال: ما هذا يا فاطمة؟ فقالت: يا رسول اللّه، خبزت قرصة وأحببت أن تأكل منها، فقال: يا فاطمة، أما إنه أول طعام دخل جوف أبيك منذ ثلاث. وكان، ﷺ، يستغفر في اليوم سبعين مرة يلتمس رحماه، ويقوم وهو مغفور له ما تقدّم من ذنبه وما تأخّر حتى ورمت قدماه، وكان شأنه

---

(١) سورة الذاريات ٥١، الآية ٢٢.

(٢) يُضْحِرُ: يسير في الصحراء. لسان العرب (صحر).

(٣) في طبعة دار صادر (ج ٧ ص ٣٨٥): «وتثوقل عن إعادة».

(٤) سورة إبراهيم ١٤، الآية ١٩.

(٥) في طبعة دار صادر: «أمعاندة».

(٦) في طبعة عبد الحميد (ج ١٠ ص ٢٤٥): «وتره الجهل».

الجهاد، ودأبه الجدّ والاجتهاد، ومواقف صبره تعرفها الرُّبا والوهاد، ومقامات رفقه تحوم على مراتبها الزهاد، فإذا لم تقتدوا به فبمن تقتدون؟ وإذا لم تهتدوا[١] به فبمن تهتدون؟ وإذا لم ترضوه باتّباعكم فكيف تعتَزُونَ[٢] إليه وتنتسبون؟ وإذا لم ترغبوا في الاتّصاف بصفاته غضبًا للّه تعالى وجهادًا، وتقلّلاً من العَرَضِ الأدنى وسهادًا، ففيم ترغبون؟ فابتروا حبال الآمال فكلّ آت قريب، واعتبروا بمَثُلاَت من تقدّم من أهل البلاد والقواعد فذهولكم عنها غريب، وتفكّروا في منَابرها التي يعلو عليها واعظ وخطيب، ومطيل ومطيب، ومساجدها المتعدّدة الصفوف والجماعة، المعمورة بأنواع الطاعة، وكيف أخذ اللّه تعالى فيها بذنب المترفين من دونهم، وعاقب الجمهور بما أغْضَوْا[٣] عنه عيونهم، وساءت بالغفلة عن اللّه تعالى عُقْبى جميعهم، وذهبت النقمات بعاصيهم ومن داهن في أمره من مطيعهم، وأصبحت مساجدهم مناصبَ للصلبان، واستبدلت مآذنهم بالنواقيس من الأذان، هذا والناس ناس والزمان زمان. فما هذه الغفلة عَمَّن إليه الرجعى وإليه المصير؟ وإلى متى التساهل في حقوقه وهو السميع البصير؟ وحتى متى مدّ الأمل في الزمن القصير؟ وإلى متى نسيان اللجإ إلى الولي النصير؟ قد تداعت الصلبان متراكمة[٤] عليكم، وتحرّكت الطواغيت من كلّ جهة إليكم، أفيخذلكم الشيطان وكتاب اللّه قائم فيكم؟ وألسنة الآيات تناديكم، لم تُمحَ[٥] سطورها، ولا احتجب نورها، وأنتم بقايا من فتحها من عدد قليل، وصابر فيها كلّ خطب جليل، فواللّه لو تمحض الإيمان، ورضي الرحمن، ما ظهر التثليث[٦] في هذه الجزيرة على التوحيد، ولا عدم الإسلام فيها عادة التأييد، لكن شمل الداء، وصمّ النداء، وعميت الأبصار فكيف الاهتداء؟ والباب مفتوح، والفضل ممنوح، فتعالوا نستغفر اللّه جميعًا فهو الغفور الرحيم، ونستقل مُقِيل العثار فهو الرؤوف الحليم، ونصرف الوجوه إلى الاعتراف بما قدمت أيدينا فقبول المعاذير من شأن الكريم، سُدّت الأبواب، وضعفت الأسباب، وانقطعت الآمال إلاّ منك يا فتّاح يا وهّاب ﴿يا أيُّها الذين آمَنُوا إنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ

---

(١) في طبعة عبد الحميد (جـ ١٠ ص ٢٤٦): «تهدوا».

(٢) تعتزون: تنتسبون. لسان العرب (عزا).

(٣) أغضى عينه: أغمضها. لسان العرب (غضا).

(٤) في طبعة دار صادر (جـ ٧ ص ٣٨٧): «مجلبة عليكم».

(٥) في طبعة دار صادر: «لم تمتحِ».

(٦) في طبعة عبد الحميد: «التلبس».

يَنصُرْكُمْ، ويُثَبِّتْ أَقْدامَكُمْ ﴾[1] ﴿يا أَيُّها الذين آمَنُوا قاتِلُوا الذين يَلُونَكُمْ من الكُفّارِ ولْيَجِدُوا فيكُمْ غِلْظَةً واعْلَمُوا أَنَّ اللّهَ مَعَ المُتَّقِينَ ﴾[2] ﴿ولا تَهِنُوا ولا تَحْزَنُوا وأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إن كُنتُمْ مؤمنينَ ﴾[3] ﴿يا أيها الذين آمَنُوا اصْبِرُوا وصابِرُوا ورابِطُوا واتَّقُوا اللّهَ لعلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾[4] أعدّوا الخيل وارتبطوها، وروّضوا النفوس على الشهادة وغبطوها، فمن خاف الموت رضي بالدنيّة، ولا بُدَّ على كلِّ حال من المنيّة، والحياة مَعَ الذّلّ ليست مِنْ شيم النفوس السنيّة، واقتنوا السلاح والعدّة، وتعرفوا إلى اللّه تعالى في الرخاء يعرفكم في الشدّة، واستشعروا القوة باللّه تعالى على أعدائه وأعدائكم، واستميتوا من دون أبنائكم، وكونوا كالبناء المرصوص لحملات هذا العدوّ النازل بفِنائكم، وحوطوا بالتعويل على اللّه تعالى وحده بلادكم، واشتروا من اللّه جلَّ جلاله أولادكم.

ذكروا أنَّ امرأة احتمل السبع ولدها وشكت إلى بعض الصالحين، فأشار عليها بالصدقة، فتصدّقت برغيف، فأطلق السبع ولدها، وسمعت النداء: يا هذه لقمة بلقمة، وأنّا لما اسْتُودِعناه لحافظون.

واهجروا الشهوات، واستدركوا البقيّة من بعد الفوات، وأفضلوا[5] لمساكينكم من الأقوات، واخشعوا لما أنزل اللّه تعالى من الآيات، وخذوا نفوسكم بالصبر على الأزمات، والمواساة في المهمّات، وأيقظوا جفونكم من السُّنات، واعلموا أنكم[6] رضعاء ثدي كلمة التوحيد، وجيران البلد الغريب والدين الوحيد، وحزب التمحيص، ونفر المَرَام العويص[7]، فتفقّدوا معاملاتكم مع اللّه تعالى، ومهما لقيتم[8] الصدق غالبًا، والقلب للمولى الكريم مراقبًا، وشهاب البنين ثاقبًا، فثقوا بعناية اللّه التي لا يغلبكم معها غالب، ولا ينالكم لأجلها عدوّ مطالب، فإنكم في الستر الكثيف، وكنف الخبير اللطيف، ومهما

---

(١) سورة محمد ٤٧، الآية ٧.
(٢) سورة التوبة ٩، الآية ١٢٣.
(٣) سورة آل عمران ٣، الآية ١٣٩.
(٤) سورة آل عمران ٣، الآية ٢٠٠.
(٥) أَفْضَلَ من الشيء: ترك منه بقيّة. محيط المحيط (فضل).
(٦) في طبعة عبد الحميد (ج ١٠ ص ٢٤٧): «واعلموا أنَّ».
(٧) العويص: الصعب. لسان العرب (عوص).
(٨) في طبعة دار صادر (ج ٧ ص ٣٨٨): «ومهما رأيتم».

رأيتم الخواطر متبدّدة، والظنونَ في اللّه متردّدة، والجهات التي تخاف وترجى متعدّدة، والغفلة عن اللّه ملامسها متجدّدة، وعادة دواعي الخذلان دائمة، وأسواق الشهوات قائمة، فاعلموا أنّ اللّه تعالى منفّذ فيكم وعده ووعيده في الأمم الغافلين، وأنكم قد ظلمتم أنفسكم ولا عُدْوَان إلاّ على الظالمين، والتوبة تردُّ الشارد إلى اللّه تعالى واللّه يحبُّ التوابين ويحبُّ المتطهرين، وهو القائل ﴿إنَّ الحسناتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئاتِ ذلكَ ذِكْرَى للذاكرينَ﴾[1].

ومـا أقرب صلاح الأحوال مع اللّه تعالى إذا صحّت العزائم، وتوالت على حزب الشيطان الهزائم، وخملت الدنيا الغريبة في العيون، وصدقت فيها عند اللّه الظنون ﴿يا أيُّها الناسُ إنَّ وَعْدَ اللّهِ حَقٌّ فلا تَغُرَّنَّكُمُ الحياةُ الدنيا ولا يَغُرَّنَّكُمْ باللّهِ الغَرُورُ﴾[2] وثُوبُوا[3] سراعًا إلى طهارة الثوب، وإزالة الشَّوْب[4]، واقصدوا أبواب غافر الذنب وقابل التوب، واعلموا أنّ سوء الأدب مع اللّه تعالى يفتح أبواب الشدائد، ويسدّ طرق العوائد، فلا تمطلوا بالتوبة أزمانكم، ولا تأمنوا مكر اللّه فتغشوا إيمانكم، ولا تعلقوا مَتَابكم بالضَّرائر[5]، فهو علاّم السرائر، وإنما علينا أن ننصحكم وإن كنّا أولى بالنصيحة، ونعتمدكم بالموعظة الصريحة، الصادرة - علم اللّه تعالى - عن صدق القريحة، وإن شاركناكم في الغفلة فقد سبقناكم إلى الاسترجاع والاستغفار، وإنما لكم لدينا نفس مبذولة في جهاد الكفار، وتقدم قبلكم إلى مواقف الصبر التي لا ترضى بالفرار، واجتهاد فيما يعود بالحسنى وعُقْبَى الدار، والاختيار للّه ولي الاختيار، ومصرِّف الأقدار، وها نحن نسرع في الخروج إلى مدافعة هذا العدو ونفدي بنفوسنا البلاد والعباد، والحريم المستضعَف والأولاد، ونَصْلَى[6] من دونهم نار الجِلاد، ونستوهب منكم الدعاء لمن وَعَدَ بإجابته، فإنه يقبل من صرف إليه وَجْهَ إنابته، اللّهمّ كن لنا في هذا الاهتمام نصيرًا، وعلى أعدائك ظهيرًا، ومن انتقام عَبَدَة الأوثان كفيلاً، اللهمّ قوِّ مَنْ ضَعُفَت حيلته فأنت القوي المعين، وانصر من لا نصير له إلاَّ أنت فإياك نعبد وإياك نستعين، اللهمّ ثبِّتْ أقدامَنا وانصرْنا عند تزلزل الأقدام، ولا تُسْلِمْنَا عند لقاء عدوّ

---

(١) سورة هود ١١، الآية ١١٤.
(٢) سورة فاطر ٣٥، الآية ٥.
(٣) ثاب: رَجَع. لسان العرب (ثوب).
(٤) الشَّوْبُ: المخالط من الأدران. لسان العرب (شوب).
(٥) في طبعة عبد الحميد (ج ١٠ ص ٢٤٨): «ولا تعلقوا... بالصرائر».
(٦) نَصْلَى النارَ: نحترق بها. قال اللّه تعالى: ﴿لا يَصْلاها إلاّ الأشقَى﴾. سورة الليل ٩٢، الآية ١٥.

الإسلام، فقد ألقينا إليك يَدَ الاستسلام، اللهمّ دافعْ بملائكتك المُسَوَّمين، اللهمّ اجْعَلْنا على تيقّظ وتذكّر من ﴿قالَ لهمُ الناسُ إنَّ الناسَ قد جَمَعُوا لَكُمْ فاخْشَوهُمْ فَزادَهُمْ إيمانًا وقالوا حَسْبُنا اللَّهُ ونِعْمَ الوكيلُ فانْقَلَبُوا بنعمةٍ مِنَ اللَّهِ وفَضْلٍ لم يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ واتَّبَعُوا رِضْوانَ اللَّهِ واللَّهُ ذو فَضْلٍ عَظيمٍ﴾[1].

وقـد وردت علينا المخاطبات من إخواننا المسلمين الذين عرفنا في القديم والحديث اجتهادهم، وشكرنا في ذات اللَّه تعالى جهادهم، بني مَرِين أُولي الامتعاض للَّه تعالى والحميّة، والمخصوصين بين القبائل الكريمة بهذه المزيّة، بعزمهم على الامتعاض لحقّ الجوار، والمصارخة التي تليق بالأحرار، والنفرة لانهتاك ذِمار نبيِّهم المختار، وحركة سلطانهم بتلك الأقطار والأمصار، ومدافعة أحزاب الشيطان وأهل النار، فاسألوا اللَّه تعالى إعانتهم على هذا المقصد الكريم الآثار، والسعي الضمين للعزّ والأجر والفخار، والسلام الكريم يخصّكم أيها الأولياء ورحمة اللَّه وبركاته؛ انتهى.

ومِمّا كتبه ابنُ لسان الدين رحمه اللَّه تعالى على لسان سلطانه الغني باللَّه تعالى والنظر إليهم بعين الشفقة ما صورتُه:

«هذا كتاب كريم أصدرْناه بتوفيق اللَّه تعالى شارحًا للصدور، مصلحًا بإعانة اللَّه تعالى للأمور، مُلْحفًا العدل والإحسان الخاصّة والجمهور، يعلم من يسمعه أو يقف عليه، ومَنْ يقرأه ويتدبّر ما لديه، ما عاهدْنا اللَّه تعالى عليه من تأمين النفوس وحَقْن الدماء، والسير في التجافي عنها على السَّنَن السَّواء[2]، ورفع التناوب[3] عن البعيد منها والقريب، والمُسَاواة في العفو والغفران بين البريء منها والمريب، وحمل من ينظر بعين العداوة في باطن الأمر مَحْمل الحبيب، وترك ما يتوجّه بأمر المطالبات، ورفض التبعات، مِمّا لا يعارض حكمًا شرعيًا، ولا يناقض سَنَنًا في الدين مرعيًا، فمن كان رهن تبعة أو طريد تُهَمَة، أو منبوزًا في الطاعة بريبة توجب أن نريق دَمَه، فقد سحبنا عليه ظلال الأمان وألحفْناه أثواب العفو والغفران، ووعدناه من نفسنا مواعد الرفق والإحسان، حكمًا عامًا، وعفوًا تامًا، فاشيًا في

---

(١) سورة آل عمران ٣، الآيتان ١٧٣، ١٧٤.
(٢) السَّواء: السويّ المستقيم. محيط المحيط (سوى).
(٣) في طبعة عبد الحميد (ج ١٠ ص ٢٥٠): «التثاور».

جميع الطبقات، منسحبًا على الأصناف المختلفات، عاملنا في ذلك من يتقبّل الأعمال، ولا يضيع السؤال، واستغفرنا عن نفسنا وعمّن أخطأ علينا من رعيّتنا مِمَّنْ يدرأ الشرع غلطته، ويَقْبَل الحقَّ فَيْأته ﴿ومن [يَعْمَلْ سُوءًا أو يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثم][1] يستغفر اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رحيمًا﴾[2] لما رأينا من سر اتّفاق الأهواء والضمائر، وخلوص القلوب والسرائر، في هذا الوطن الذي أحاط به العدوّ والبحر، ومَسَّه بتقدّم الفتنة الضرّ، وصلة لما أجراه اللَّه تعالى على أيدينا، وهيأه بنا في نادينا، فلم يخف ما سكن بنا من نار فتنة، ورفع من بأسٍ وإحنة[3]، وكَشَف من ظلْمة، وسَدَل من نعمة، وأصفى من مورد عافية، وأولى من عصمة كافية، بعد ما تخرّبت الثغور، وفسدت الأمور، واهتضم الدين، واشتدّ على العباد كَلَبُ الكافرين المعتدين ﴿ذلك مِنْ فضلِ اللَّهِ علينا وعلى الناس﴾[4] فله الحمد دائبًا، والشكر واجبًا، ومن اللَّه نسأل أن يتمّم نعمته علينا كما أتمّها على أبوينا من قبل إنّ ربّك حكيم عليم. ونحن قد شَرَعْنا في تعيين مَنْ ينوب عنّا منَ أهل العلم والعدالة، والدين والجلالة للتطوّف في البلاد الأندلسية، ومباشرة الأمور بالبلاد النَّصْرية، يُنْهُونَ إلينا ما يستطلعونه، ويبلغون من المصالح ما يتعرّفونه، ويقيّدون ما تحتاج إليه الثغور، وتستوجبه المصلحة الجهادية من الأمور، ونحن نستعين بفضلاء رعيّتنا وخيارهم، والمراقبين اللَّه تعالى منهم في إيرادهم وإصدارهم، على إنهاء ما يخفى عنّا من ظلامة تقع، أو حادث يُبتدع، ومن اتّخذت بجواره خمر فاشية، أو نشأت في جهته للمنكر ناشية، فنحن نقلّده العهد، ونطوّقه القلادة، ووراء تنبيهنا على ما خفي من الشكر لمن أهداه، وإحماد سعي من أبلغه وأدّاه، ما نرجو ثواب اللَّه تعالى عليه، والتقرّب به إليه، فمن أهدى لنا شيئًا من ذلك فهو شريك في أجره، ومقاسم في مثوبته يوم ربح تجره، وحسبنا اللَّه ونعم الوكيل»؛ انتهى.

وإذ أجريْنا طرفَ القلم ملء عنانه فيما للسان الدين رحمه اللَّه تعالى من النصائح والمواعظ والوصايا، وما يرجع بالنفع على الخاصة وجمهور الرعايا، ما كَلَّ[5] دون شأوه، وقصر عن أمده مَدِيدُ خَطْوه، وقد تقدّم في هذا الكتاب من ذلك جملة وافرة، فلتراجَع في

---

(١) ما بين قوسين ساقط من طبعة عبد الحميد.
(٢) سورة النساء ٤، الآية ١١٠.
(٣) الإحنة: الحقد. لسان العرب (أحن).
(٤) سورة يوسف ١٢، الآية ٣٨.
(٥) كَلَّ: ضعف وفتر. لسان العرب (كلل).

محالها المتكاثرة، وقد آن أن نسرد في هذا المحلّ الوصيّة التي أوصى لسانُ الدين رحمه اللّه تعالى بها أولاده، وهي وصيّة جامعة نافعة، يحصل بها انتعاش؛ لاشتمالها على ما لا بُدَّ منه في المعاد والمعاش، ونصُّها[(١)]:

«الحمد للّه الذي لا يروعه الحِمام المرقوب إذا شيم نجمه المثقوب، ولا يبغته الأجل المكتوب، ولا يفجؤه الفراق المعتوب، مُلْهِم الهدى الذي تطمئن به القلوب، ومُوضِحِ السبيل المطلوب، وجاعل النصيحة الصريحة في[(٢)] قسم الوجوب، لا سيما للولي المحبوب، والولد المنسوب، القائل في الكتاب المعجز الأسلوب، ﴿أم كُنْتُمْ شُهداءَ إذ حَضَرَ يَعْقُوبَ ﴾[(٣)] ﴿ووصّى[(٤)] بها إبراهيمُ بنيه ويَعْقوبُ ﴾[(٥)].

والصلاة والسلام على سيّدنا ومولانا محمد رسوله أكرم من زُرَّتْ على نورِه جيوبُ الغيوب، وأشرف مَنْ خُلعت عليه حلل المهابة والعصمة فلا تقتحمه العيون ولا تَصِمُه[(٦)] العيوب، والرضا عن آله وأصحابه المثابرين على سبيل[(٧)] الاستقامة بالهوى المغلوب، والأمل المسلوب، والاقتداء الموصل للمرغوب[(٨)]، والعزّ والأمن من اللغوب.

وبعد، فإني لما علاني المشيب بقمّته، وقادني الكبر في رُمَّته[(٩)]، وادكرت الشباب[(١٠)]بعد أُمّته، أسفت لما أضعت، وندمت بعد الفطام على ما رضعت، وتأكّد وجوب نصحي لمن لزمني رَعْيُه، وتعلّق بعيني[(١١)] سَعْيُه، وأمّلت أن تتعدّى إلى ثمرة[(١٢)] استقامته وأنا رهين فَوَات، وفي برزخ أموات، ويأمن العثور في الطريق التي اقتضت

---

(١) الوصية في أزهار الرياض (ج ١ ص ٣٢٠ وما بعدها).
(٢) في طبعة عبد الحميد (ج ١٠ ص ٣٥٢): «من قسم..».
(٣) سورة البقرة ٢، الآية ١٣٣.
(٤) في طبعة عبد الحميد: «وأوصى».
(٥) سورة البقرة ٢، الآية ١٣٢.
(٦) تصمه العيوب: تنقصه. لسان العرب (وصم).
(٧) في طبعة عبد الحميد: «لسان الاستقامة».
(٨) في طبعة عبد الحميد: «إلى المرغوب».
(٩) في الطبعة نفسها: «برمته». والرُّمّة: القطعة من الحبل. محيط المحيط (رمم).
(١٠) كلمة «الشباب» ساقطة من طبعة عبد الحميد.
(١١) في أزهار الرياض: «بسعيي سعيه».
(١٢) في أزهار الرياض: «إلى ثمرات».

عثاري، إن سلك - وعسى أن لا يكون ذلك - على آثاري، فقلت أخاطب الثلاثة الولد، وثمرات الخلد، بعد الضراعة إلى اللّه تعالى في توفيقهم، وإيضاح طريقهم، وجَمْع تفريقهم، وأن يمنّ عليّ منهم بحسن الخلف، والتلافي من قبل التلف، وأن يرزق خلفهم التمسّك بهدي السلف، فهو ولي ذلك، والهادي إلى خير المسالك.

اعلموا، هداكم اللّه تعالى الذي بأنواره تهتدي الضُلاّل، وبرضاه تُرفع الأغلال، وبالتماس قربه يحصل الكمال، إذا ذهب المال، وأخلفت الآمال، وتبرّأت من يمينها الشمال - أني مُودعكم وإن سالمني الردى، ومفارقكم وإنْ طال المَدَى، وما عدا مِمّا بدا[1]، فكيف وأدوات السفر تجمع، ومنادي الرحيل يسمع، ولا أقل للحبيب المودّع من وصيّة محتضر، وعجالة مقتصر، ورتيمة[2] تُعْقد في خنصر، ونصيحة تكون نشيدة واع مبصر، تتكفّل لكم بحسن العواقب مِنْ بَعْدِي، وتوضح لكم من الشفقة والحنوّ قصدي، حسبما تضمّن وعدُ اللّه من قبلِ وعدي، فهي أرَبُكم الذي لا يتغيّر وقفه، ولا ينالكم المكروه ما رفّ عليكم سقفه، وكأني بشبابكم قد شاخ، وبراحلكم قد أناخ، وبناشطكم قد كسل، واستبدل الصاب من العسل، ونصول الشيب تروع بأسل، لا بل السام[3] من كل حدب قد نَسَل، والمعاد اللحد ولا تسل، فبالأمس كنتم فراخ حجر، واليوم أبناء[4] عسكر مَجْر، وغدًا شيوخ مضيعة وهجر، والقبور فاغرة، والنفوس عن المألوفات صاغرة، والدنيا بأهلها ساخرة، والأولى تعقبها الآخرة، والحازم من لم يُتَّعظ به في أمر، وقال: بيدي لا بيد عمرو[5]، فاقتنوها من وصيّة، ومَرَام في النصح قَصِيّة، وخصُّوا بها أولادكم إذا عقلوا، ليجدوا زادها إذا انتقلوا، وحسبي وحسبكم اللّه الذي لم يخلق الخلق هَمَلاً، ولكن ليبلوهم أيهم أحسن عملاً، ولا رضي الدنيا منزلاً، ولا لطف بمن أصبح عن فئة الخير منعزلاً. ولتلقنوا تلقينًا، وتعلموا علمًا يقينًا، أنكم لن تجدوا بعد أن أنفرد بذنبي، ويفترش الترابَ جنبي، ويسحّ انسكابي، وتهرول عن المصلّى ركابي، أحرص مني على سعادة إليكم

---

(١) أخذه من المثل: «ما عَدَا مِمّا بَدَا؟» مجمع الأمثال (جـ ٢ ص ٢٩٦).

(٢) الرتيمة: الخيط الذي يشدّ في الإصبع لتتذكّر به الحاجة. لسان العرب (رتم).

(٣) السام، بتخفيف الميم: الموت. محيط المحيط (سوم).

(٤) في أزهار الرياض: «آباء عسكر». والمَجْرُ: الكثير. لسان العرب (مجر).

(٥) هو مثل قالته الزبّاء حين انتحرت ورفضت أن تستسلم لعمرو بن عديّ. محيط المحيط (زبب).

تُجلَب، أو غاية كمال بسببكم تُرْتاد وتُطْلب، حتى لا يكون في الدين والدنيا أوْرَفَ منكم ظلاً، ولا أشرف محلاً، ولا أغبط نَهَلاً وعلاً، وقل ما يوجب ذلك عليكم أن تصيخوا إلى قولي الآذان، وتستلمحوا صُبْحَ نصحي فقد بان، وسأعيد عليكم وصيّة لقمان: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ﴿وإذ قالَ لُقمانُ لابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ: يا بُنَيَّ، لا تُشْرِكْ باللَّهِ إنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عظيمٌ، يا بُنَيَّ أَقِمِ الصلاةَ، وأمُرْ بالمعروفِ، وانْهَ عن المُنْكَرِ، واصْبِرْ على ما أصابَكَ، إنَّ ذلك من عَزْمِ الأمورِ، ولا تُصَعِّرْ خَدَّكَ للناسِ، ولا تَمْشِ في الأرضِ مَرَحًا، إنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كلَّ مُخْتالٍ فَخُورٍ، واقْصِدْ في مَشْيِكَ، واغْضُضْ مِنْ صوتِكَ، إنَّ أنْكَرَ الأصواتِ لَصَوتُ الحميرِ﴾[1] وأعيد وصية خليل الله وإسرائيله، حكم ما تضمّنه حكم تنزيله ﴿يا بَنِيَّ، إنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لكُمُ الدِّينَ فلا تَمُوتُنَّ إلاّ وأنْتُم مُسْلِمونَ﴾[2] والدين الذي ارتضاه واصطفاه، وأكمله ووفّاه، وقرّره مصطفاه، من قبل أن يتوفّاه، إذا أعمل فيه انتقاد، فهو عمل واعتقاد، وكلاهما مقرّر، ومستمدّ من عقل أو نقل محرّر، والعقل متقدّم، وبناؤه مع رفض أخيه متهدّم، فاللّه واحد أحد، فَرْدٌ صَمد، ليس له والد ولا ولد، تنزّه عن الزمان والمكان، وسبق وجوده وجود الأكوان، خالق الخَلْق وما يعملون، الذي لا يُسْأل عن شيء وهم يُسْألون، الحيّ العليم المدبّر القدير ﴿ليس كَمِثْلِهِ شيءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ﴾[3] أرسل الرسل رحمة لتدعو الناس[4] إلى النجاة من الشقاء، وتوجّه الحجّة في مصيرهم إلى دار البقاء، مؤيدة بالمعجزات التي لا تتّصف أنوارها بالاختفاء، ولا يجوز على تواترها دعوى الانتفاء، ثم ختم ديوانهم بنبيّ ملّتنا المرعيّة الهمل[5]، الشاهدة على الملل، فتلخّصت الطاعة، وتعيّنت[6] الإمرة المُطّاعة، ولم يبق بعده إلاّ ارتقاب الساعة، ثم إنّ اللّه تعالى قبضه إذ كان بشرًا، وترك دينه يضمّ من الأُمّة نشرًا، فمن تبعه لحق به، ومن تركه تورّط عنه في متنشبه[7]، وكانت نجاته على قدر سببه، روي عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال «تركت

---

(١) سورة لقمان ٣١، الآيات ١٣، ١٧، ١٨، ١٩.
(٢) سورة البقرة ٢، الآية ١٣٢.
(٣) سورة الشورى ٤٢، الآية ١١.
(٤) في أزهار الرياض: «لتدعو العباد».
(٥) في أزهار الرياض: «للهمل».
(٦) في المصدر نفسه: «وتبيّنت».
(٧) في طبعة عبد الحميد (ج ١٠ ص ٢٥٤): «تورط عنه في منسبه».

فيكم ما إن تمسكتم به لم تضلّوا بعدي: كتاب اللّه، وسنّتي، فعضّوا عليهما بالنواجذ»[1].

فاعملوا يا بني، بوصيّة من ناصحٍ جاهد، ومشفقٍ شفقة والد، واستشعروا حبّه الذي توفّرت دواعيه، وَعُوا مَرَاشد هديه فيا فوز واعيه، وصِلُوا السبب بسببه، وآمنوا بكلٍّ ما جاء به مجملاً أو مفصّلا[2] على حسبه، وأوجبوا التجلّة لصحبِه الذين اختارهم اللّه تعالى لصحبته، واجعلوا محبّتكم إياهم من توابع محبّته، واشملوهم بالتوقير، وفضلوا منهم أُولي الفضل الشهير، وتبرأوا من العصبية التي لم يدعُكم إليها داع، ولا تَعِ التشاجرَ بينهم أذنٌ واع، فهو عنوان السداد، وعلامة سلامة الاعتقاد، ثم اسحبوا فضل تعظيمهم على فقهاء الملّة، وأئمّتها الجِلّة، فهم صَقَلة نصولهم[3]، وفروع ناشئة من أصولهم، وورثتهم وورثة رسولهم. واعلموا أنني قطعت في البحث زماني، وجعلت النظر شاني، منذ بَرَاني اللّه تعالى وأنشاني، مع نبل يعترف به الشاني، وإدراك يسلّمه العقل الإنساني، فلم أجد خابط وَرَق، ولا مصيب عرق، ولا نازع خطام، ولا متكلّف فطام، ولا مقتحم بحرٍ طام، إلاّ وغايته التي يقصدها قد نضلتها[4] الشريعة وسبقتها، وفَرَعَتْ ثنيتها وارتقتها، فعليكم بالتزام جادّتها السابلة، ومصاحبة رفقتها الكاملة[5]، والاهتداء بأقمارها غير الآفلة، واللّه تعالى يقول وهو أصدق القائلين ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيرَ الإسلامِ دِينًا فلن يُقْبَلَ منه، وَهُوَ في الآخرةِ مِنَ الخاسِرِينَ﴾[6] وقد علت شرائعه، وراع الشكوك رائعه، فلا تستنزلكم الدنيا عن الدين، وابذلوا دونه النفوس فعل المهتدين، فلن ينفع متاع بعد الخلود في النار أبد الآبدين، ولا يضرّ مفقود مع الفوز بالسعادة واللّه أصدق الواعدين، ومتاع الحياة الدنيا أخس ما ورث الأولاد عن الوالدين، اللهمّ قد بلّغت فأنت خير الشاهدين، فاحذروا المَعَاطب التي توجب في الشقاء الخلودَ، وتستدعي شَوْه الوجوه ونضج الجلود، واستعيذوا برضا اللّه من سخطه، وارْبَأوا بنفوسكم عن غَمْطه[7]، وارفعوا آمالكم عن القنوع بغرور قد خدع أسلافكم، ولا

---

(١) عضّوا عليهما بالنواجذ: أي تمسّكوا بهما كما يتمسّك العاضُّ بجميع أضراسه. لسان العرب (عضض).

(٢) «أو مفصّلا»: سقطت من أزهار الرياض.

(٣) الصقلة: جمع صاقل وهو الذي يصقل سيفه ويجلوه. النصول: جمع نصل وهو حديدة السيف والرمح والسهم. لسان العرب (صقل) و (نصل).

(٤) في أزهار الرياض: «قد فضلتها». ونَضَلَتْها: سبقتها وبَذَّتْها في الرمي. لسان العرب (نضل).

(٥) في أزهار الرياض: «الكافلة».

(٦) سورة آل عمران ٣، الآية ٨٥.

(٧) يقال: غمطه حقَّه غمطًا إذا جحده. لسان العرب (غمط).

تحمدوا على جيفة العرض الزائل ائتلافكم، واقتَنعوا منه بما تيسّر، ولا تأسَوْا على ما فات وتعذّر، فإنما هي دُجُنّة ينسخها الصباح، وصفقة يتعاقبها[1] الخسار[2] والرباح، ودونكم عقيدة الإيمان فشدّوا بالنواجذ عليها، وكفكفوا الشبه أن تدنوا إليها.

واعلموا أن الإخلال بشيء من ذلك خرق لا يرفؤهُ عمل، وكل ما سوى الراعي همل، وما بعد الرأس في صلاح الجسم أمل[3]، وتمسّكوا بكتاب اللّه تعالى حفظًا وتلاوة، واجْعَلُوا حمله على حمل التكليف علاوة، وتفكّروا في آياته ومعانيه، وامتثلوا أوامره ونواهيه، ولا تتأوّلوه ولا تَغْلُوا فيه، وأشْرِبوا قلوبكم حبَّ مَنْ أُنزل على قلبه، وأكثروا من بواعث حبِّه، وصونوا شعائر اللّه صون المحترم، واحفظوا القواعد التي ينبني عليها الإسلام حتى لا ينخرم.

اللّه اللّه في الصلاة ذريعة التجلّة، وخاصة الملّة، وحاقنة الدم، وغنى المستأجر المستخدم، وأمّ العبادة، وحافظة اسم المراقبة لعالم الغيب والشهادة، والناهية عن الفحشاء والمنكر وإن[4] عرض الشيطان عرضهما، ووطّأ للنفس الأمّارة سماءهما وأرضهما، والوسيلة إلى بلِّ الجوانح ببرود الذكر، وإيصال تحفة اللّه إلى مريض الفكر، وضامنة[5] حسن العشرة من الجار، وداعية للمسالمة من الفجار، والواسمة بسمة السلامة، والشاهدة للعبد[6] برفع الملامة، وغاسول الطبع إذا شانه طَبَع[7]، والخير الذي كلّ ما سواه له تبع[8]، فاصبروا النفس على وظائفها بين بدء وإعادة، فالخير عادة، ولا تفضلوا عليها الأشغال البدنية، وتؤثروا على العلية الدنيّة، فإنّ أوقاتها المعينة بالانفلات تنبس[9]، والفلك بها من أجلكم لا يحبس، وإذا قورنت[10] بالشواغل فلها الجاه الأصيل، والحكم الذي لا

---

(١) في أزهار الرياض: «يتعقبها».
(٢) في طبعة عبد الحميد (ج ١٠ ص ٢٥٦): «أو الرباح».
(٣) في طبعة دار صادر (ج ٧ ص ٣٩٧): «الجسم الميت أمل».
(٤) في أزهار الرياض: «مهما عرض».
(٥) في أزهار الرياض: «وضابطة».
(٦) في الطبعة نفسها: «للعقد».
(٧) الطَّبَعُ، بالفتح: الدنس. لسان العرب (طبع).
(٨) في أزهار الرياض: «كل خير له تبع».
(٩) في طبعة عبد الحميد (ج ١٠ ص ٢٥٦): «تبيس». وتنبس: تسرع. لسان العرب (نبس).
(١٠) في أزهار الرياض: «قرنت».

يغيّره الغدوّ ولا الأصيل، والوظائف بعد أدائها لا تفوت، وأين حقّ من يموت من حقّ الحي الذي لا يموت؟ وأحكموا أوضاعها إذا أقمتموها وأتبعوها النوافل ما أطقتموها، فبالإتقان تفاضلت الأعمال، وبالمراعاة استحقت(1) الكمال، ولا شكر مع الإهمال، ولا ربح مع إضاعة رأس المال، وذلك أحرى بإقامة الفرض، وأدعى إلى مساعدة البعض البعض. والطهارة التي هي في تحصيلها سبب موصل، وشرط لمشروطه محصل، فاستوفوها، والأعضاء نظفوها، ومياهها بغير أوصافها الحميدة فلا تصفوها(2)، والحجول والغرر(3) فأطيلوها، والنيّات(4) في كلّ ذلك فلا تهملوها، فالبناء بأساسه، والسيف بمراسه(5).

واعلموا أنَّ هذه الوظيفة من صلاة وطهور، وذكر مجهور وغير مجهور، تستغرق الأوقات، وتنازع شتّى الخواطر المفترقات، فلا يضبطها إلاّ من ضبط نفسه بعِقَال، [وكان في درج الرجولية ذا انتقال](6) واستعاض(7) صدأه بصِقَال، وإن تراخى فهقر الباع، وسَرَقته الطباع، وكان لما سواها أضيع فشمل الضياع.

والزكاة أختها الحبيبة، ولِدَتها القريبة، مفتاح السعادة بالعرض الزائل، وشكران المسؤول على الضدّ من درجة السائل، وحقّ اللّه تعالى في مال مَنْ أغناه، لمن أجهده في المعاش وعَنّاه، من غير استحقاق ملء(8) يده وإخلاء يد أخيه، ولا علّة إلاّ القدر الذي يخفيه، وما لم ينلْهُ حظّ اللّه تعالى فلا خير فيه. فاسمحوا بتفريقها للحاضر لإخراجها، في اختيار عرضها ونتاجها، واستحْيُوا من اللّه تعالى أن تبخلوا عليه ببعض ما بذل، وخالفوا الشيطان كلّما عذل، واذكروا خروجكم إلى الوجود لا تملكون، ولا تدرون أين تسلكون،

---

(1) في أزهار الرياض: «استحقّ».
(2) في طبعة عبد الحميد (ج ١٠ ص ٢٥٧): «تصغوها».
(3) أراد بالحجول والغرر: إسباغ الوضوء وتوفير الغسل لكل الأعضاء وبخاصة الوجه والقدمين؛ لأن النبيّ ﷺ يقول: «أنا قائد الغر المحجلين يوم القيامة».
(4) في طبعة عبد الحميد: «والنبات».
(5) في طبعة دار صادر (ج ٧ ص ٣٩٨): «برئاسه».
(6) ما بين قوسين ساقط من طبعة عبد الحميد.
(7) في طبعة دار صادر: «واستقاض».
(8) في طبعة دار صادر: «ملأ يده وأخلى..».

فوهب وأقْدَر، وأورد بفضله وأصدر، ليرتّب بكرمه الوسائل، أو يقيم الحجج والدلائل، فابتغوا إليه الوسيلة بماله، واغتنموا رضاه ببعض نَوَاله.

وصيام رمضان عبادة السّرّ المقرّبة إلى اللّه زُلْفَى، الممحوضة لمن يعلم السّرّ وأخفى، مؤكدة بصيام الجوارح عن الآثام، والقيام ببر القيام، والاجتهاد، وإيثار السهاد[1] على المهاد، وإن وسع الاعتكاف فهو من سننه المرعيّة، ولواحقه الشرعيّة، فبذلك تحسن الوجوه، وتحصل من الرقّة على ما ترجوه، وتذهب قسوة الطباع، ويمتدّ في ميدان الوسائل الباع.

والحجّ ـ مع الاستطاعة ـ الركن الواجب، والفرض على العين لا يحجبه الحاجب، وقد بيّنَ رسولُ اللّه ﷺ قدره فيما فَرَض عن ربّه وسَنَّه، وقال ليس له جزاء عند اللّه إلاّ الجنّة. ويلحق بذلك الجهاد في سبيل اللّه تعالى إن كانت لكم قوّة عليه، وغنى لديه، فكونوا مِمَّنْ يسمع نفيره ويطيعه، وإن عجزتم فأعينوا من يستطيعه.

هذه عمد الإسلام وفروضه، ونقود مهره وعروضه، فحافظوا عليها تعيشوا مبرورين، وعلى من يناويكم ظاهرين[2]، وتلقوا اللّه لا مُبَدِّلين ولا مُغَيرين، ولا تضيعوا حقوق اللّه فتهلكوا مع الخاسرين.

واعلموا أنَّ بالعلم تُسْتكمل[3] وظائف هذه الألقاب، وتجلى محاسنها من بعد الانتقاب[4]، فعليكم بالعلم النافع، دليلاً بين يدي السامع، فالعلم مفتاح هذا الباب، والموصل إلى اللُّباب، واللّه عزّ وجلّ يقول ﴿قُلْ هل يَسْتوي الذين يَعْلَمُونَ والذين لا يَعْلَمُونَ، إنّما يَتَذَكَّرُ أُولُو الألْبابِ﴾[5] والعلم وسيلة النفوس الشريفة، إلى المطالب المنيفة، وشَرْطُه الخشية للّه تعالى والخيفة، وخاصة الملأ الأعلى، وصفة اللّه في كتبه التي تُتْلى، والسبيل في الآخرة إلى السعادة، وفي الدنيا إلى النحلة عادة، والذخر الذي قليله يشفع[6]، وكثيره ينفع، لا يغلبه الغاصب، ولا يسلبه العدوّ المناصب، ولا يبتزّه الدهر إذا

---

(١) في طبعة دار صادر (ج ٧ ص ٣٩٩): «التهجّد».
(٢) ظاهرين: غالبين. لسان العرب (ظهر).
(٣) في طبعة عبد الحميد (ج ١٠ ص ٢٥٨): «تستعمل».
(٤) الانتقاب: الاستتار.
(٥) سورة الزمر ٣٩، الآية ٩.
(٦) في أزهار الرياض: «يشفع وينفع، وكثيره يعلي ويرفع..».

مال[1]، ولا يستأثر به البحر إذا هال، من لم ينله فهو ذليل وإن كثرت آماله، وقليل وإن جم ماله، وإن كان وقته قد فات اكتسابكم، وتخطى حسابكم، فالتمسوه لبنيكم، واستدركوا منه ما خرج عن أيديكم، واحملوهم على جمعه ودَرْسِه، واجعلوا طباعهم ثَرًى لغرسه، واستسهلوا ما ينالهم من تعب من جَرَّاه، وسهر يهجر له الجفنُ كَرَاه، تعقدوا لهم ولايةَ عزّ لا تُعزل، وتُحلّوهم مثابة رفعة لا يُحَطُّ فارعها ولا يُستنزل، واختاروا[2] في العلوم التي يتعقبها الوقت، فلا يناله في غيره المقت.

وخير العلوم علوم الشريعة، وما نجم بمنابتها المَريعة، من علوم لسان لا تستغرق الأعمار فصولها، ولا يضايق ثمرات المعاد حصولها، فإنما هي آلات لغير، وأسباب إلى خَيْر منها وخير، فمن كان قابلاً للازدياد، وألفى فهمه ذا انقياد، فليخص تجويد القرآن بتقديمه، ثم حفظ الحديث ومعرفة صحيحه من سقيمه، ثم الشروع في أصول الفقه فهو العلم العظيم المنّة، المهدي كنوز الكتاب والسّنّة، ثم المسائل المنقولة عن العلماء الجلّة، والتدرُّب في طرق النظر وتصحيح الأدلّة، وهذه هي الغاية القصوى في الملّة، ومن قصر إدراكه عن هذا المرمى، وتقاعد عن التي هي أسمى، فليروِ الحديث بعد تَجْوِيد الكتاب وإحكامه، وليقرإِ المسائل الفقهية على مذهب إمامه، وإياكم والعلومَ القديمة، والفنون المهجورة الذميمة، فأكثرها لا يفيد إلاّ تشكيكًا، ورأيًا ركيكًا، ولا يثمر في العاجلة إلاّ اقتحام العيون، وتَطْريق الظنون، وتطويق الاحتقار، وسِمَة الصَّغَار[3]، وخمول الأقدار، والخَسْف من بعد الإبدار[4]، وجادة الشريعة أعرق في الاعتدال، وأوفق من قطع العمر في الجِدَال، هذا ابن رشد قاضي المصر ومُفْتيه، وملتمس الرشد ومُولِيه[5]، عادت عليه بالسخطة الشنيعة، وهو إمام الشريعة، فلا سبيل إلى اقتحامها، والتورُّط في ازدحامها، ولا تخلطوا سامكم بحامها[6]، إلاّ ما كان من حساب ومساحة، وما يعود بجدوى فلاحة،

---

(١) في طبعة عبد الحميد: «إذا نال».
(٢) في طبعة دار صادر (جـ ٧ ص ٤٠٠): «من العلوم التي ينفقها الوقت، ما لا يناله..».
(٣) الصَّغار، بالفتح: المذلّة والمهانة. لسان العرب (صغر).
(٤) الإبدار: مصدر أبدر، أي طلع البدر. لسان العرب (بدر).
(٥) في أزهار الرياض: «ومؤتيه».
(٦) في طبعة عبد الحميد (جـ ١٠ ص ٢٦٠): «جامكم بجامها».

وعلاج يرجع على النفس والجسم براحة، وما سوى ذلك فمحجور[1]، وضَرَمٌ مسجور، وممقوت مهجور. وأمُرُوا بالمعروف أمرًا رفيقًا، وانهوا عن المنكر نهيًا حَريًا بالاعتدال حقيقًا، واغبطوا من كان من سِنَةِ[2] الغفلة مُفيقًا، واجتنبوا ما تُنْهَوْنَ عنه حتى لا تسلكوا منه طريقًا.

وأطيعوا أمرَ مَنْ ولاّه اللّه تعالى من أموركم أمرًا، ولا تقربوا من الفتنة جَمْرًا، ولا تُدَاخِلوا في الخلاف زيدًا ولا عَمرًا.

وعليكم بالصدق فهو شعار المؤمنين، وأهمّ ما أضرى عليه الآباء ألسنة البنين، وأكرم منسوب إلى مذهبه، ومَنْ أكْثَرَ من شيء عُرف به.

وإياكم والكذب فهو العورة التي لا تُوَارَى، والسوأةُ التي لا يُرتاب في عارها ولا يُتَمَارى، وأقلُّ عقوبات الكذاب، بين يدي ما أعدّ اللّه له من العذاب، أن لا يقبل منه[3] صدقه إذا صدق، ولا يعول عليه إن كان بالحقّ نَطَق.

وعليكم بالأمانة فالخيانة لُوم، وفي وجه الديانة كُلُوم، ومن الشريعة التي لا يعذر بجهلها، أداء الأمانات إلى أهلها، وحافظوا على الحشمة والصِّيانة، ولا تجزوا من أقرضكم دَيْنَ الخيانة، ولا توجدوا للغدر قَبُولاً، ولا تقرّوا عليه طبعًا مجبولاً ﴿وأَوفُوا بالعَهْدِ إنَّ العَهْدَ كان مسؤولاً﴾[4] ولا تستأثروا بكنز ولا خَزْن، ولا تذهبوا لغير مناصحة المسلمين في سهل ولا حَزْن، ولا تبخسوا الناس أشياءهم في كيل أو وزن، واللّه اللّه أن تعينوا في سفك الدماء ولو بالإشارة أو بالكلام، أو ما يرجع إلى وظيفة الأقلام، واعلموا أنَّ الإنسان في فُسْحة ممتدّة، وسبل اللّه تعالى غير مُنسدّة، ما لم ينبذ إلى اللّه تعالى بأمانِهِ، ويمس[5] الدم الحرام بيده أو لسانه، قال اللّه تعالى في كتابه الذي هدى به سَنَنًا قويمًا، وجلى من الجهل والضلال ليلاً بَهِيمًا ﴿ومَنْ يَقْتُلْ مُؤمِنًا مُتَعَمِّدًا فجزاؤه جَهَنَّمُ خالدًا فيها وغَضِبَ اللّهُ عليه ولَعَنَهُ وأَعَدَّ له عَذابًا عظيمًا﴾[6].

---

(١) محجورٌ: ممنوع. لسان العرب (حجر).

(٢) السِّنَة، بكسر السين: النوم أو أول النوم. لسان العرب (وسن).

(٣) كلمة «منه» ساقطة من طبعة عبد الحميد.

(٤) سورة الإسراء ١٧، الآية ٣٤.

(٥) في طبعة دار صادر (جـ ٧ ص ٤٠٢): «ويغمس في الحرام بيده..».

(٦) سورة النساء ٤، الآية ٩٣.

واجتناب الزنى وما تعلّق به من أخلاق من كرمت طباعه، وامتدَّ في سبيل السعادة باعه، لو لم تتلقَّ نور اللَّه الذي لم يهد شعاعه، فالحلال لم تضق عن الشهوات أنواعه، ولا عدم إقناعه، ومن غلبت غرائز جهله، فلينظر هل يحب أن يُزْنَى بأهله، واللَّه قد أعدَّ للزاني عذابًا ووبيلاً، وقال: ﴿ولا تَقْرَبُوا الزِّنَى إنه كان فاحِشَةً[1] وساء سبيلاً ﴾[2].

والخمر أم الكبائر، ومفتاح الجرائم والجرائر، واللهو لم يجعلْه اللَّه في الحياة شرطًا، والمحرم قد أغنى عنه بالحلال الذي سوّغ وأعطى، وقد تركها في الجاهلية أقوامٌ لم يرضوا لعقولهم بالفساد، ولا لنفوسهم بالمضرّة في مرضاة الأجساد، واللَّه تعالى قد جعلها رجسًا محرمًا على العباد، وقرَنَها بالأنصاب والأزلام في مباينة السَّداد.

ولا تقربوا الربا فإنه من مَنَاهي الدين، واللَّه تعالى يقول: ﴿وذَرُوا ما بقيَ مِن الرِّبا إن كُنتُم مؤمنينَ ﴾[3] وقال: ﴿فإنْ لم تَفْعَلُوا فأْذَنُوا بحربٍ مِنَ اللَّهِ ورسولِهِ ﴾[4] في الكتاب المبين، ولا تأكلوا مال أحد بغير حقّ يبيحه، وانزعوا الطعم عن ذلك حتى تذهب ريحه، والتمسوا الحلال يسعى فيه أحدكم على قدمه، ولا يكل خياره[5] إلاً للثقة من خدمه، ولا تلجأوا إلى المتشابه إلاً عند عدمه، فهو في السلوك إلى اللَّه تعالى أصل مشروع، والمحافظ عليه مغبوط، وإياكم والظلم فالظالم ممقوت بكلّ لسان، مجاهر اللَّه تعالى بصريح العصيان، والظلم ظلمات يوم القيامة كما ورد في الصحاح الحسان. والنميمة فساد وشتات، لا يبقى عليه متات، وفي الحديث «لا يدخلُ الجنّةَ قَتّاتٌ»[6]. واطرحوا الحسد فما ساد حسود، وإياكم والغيبة فبابُ الخير معها مسدود، والبخل فما رؤي البخيل وهو مودود. وإياكم وما يُعتذر منه فمواقع الخزي لا تستقال عثراتها، ومظنّات الفضائح لا تؤمن غمراتها، وتفقَّدوا أنفسكم مع الساعات، وأفشوا السلام في الطرقات والجماعات، ورقوا على ذوي الزمانات والعاهات، وتاجروا مع اللَّه بالصدقة يربحكم في البضاعات، وعوّلوا

---

(١) في أصول النفح: «فاحشة ومقتًا وساء..».
(٢) سورة الإسراء ١٧، الآية ٣٢.
(٣) سورة البقرة ٢، الآية ٢٧٨.
(٤) سورة البقرة ٢، الآية ٢٧٩.
(٥) في طبعة دار صادر (ج ٧ ص ٤٠٢): «اختياره».
(٦) القَتّات: النّمّام الذي ينقل الحديث أو الذي يتسمّع على القوم وهم لا يعلمون. لسان العرب (قتت).

عليه وحده في الشدائد، واذكروا المساكين إذا نَصَبتم الموائد، وتقرّبوا إليه باليسير من ماله، واعلموا أنّ الخلق عيال اللّه وأحبّ الخلق إليه المحتاط لعياله، وارعوا حقوق الجار، واذكروا ما ورد في ذلك من الآثار، وتعاهدوا أُولي الأرحام، والوشائج[1] البادية الالتحام، واحذروا شهادة الزور فإنها تقطع الظهر، وتفسد السّرّ والجهر، والرُّشا[2] فإنها تحطّ الأقدار، وتستدعي المذلّة والصَّغار، ولا تسامحوا في لعبة قمر، ولا تشاركوا أهل البطالة في أمر. وصونوا المواعيد من الإخلاف، والأيمان من حِنْث الأوغاد والأجلاف، وحقوقَ اللّه تعالى من الازدراء[3] والاعتساف، ولا تلهجوا بالآمال العِجَاف[4]، ولا تكلفوا بالكَهَانة والإرجاف. واجعلوا العمر بين معاش ومَعَاد، وخصوصية وابتعاد، واعلموا أنّ اللّه سبحانه بالمِرْصَاد، وأنّ الخلق بين زَرْع وحَصَاد، وأقلوا بغير الحالة الباقية الهموم، واحذروا القواطع عن السعادة كما تُحذر السموم. واعلموا أنَّ الخير أو الشرّ في الدنيا محال أن يدوم، وقابلوا بالصبر أذاية المؤذين، ولا تَقارضوا[5] مقالات الظالمين، فاللّه لمن بُغِيَ عليه خير الناصرين، ولا تستعظموا حوادث الأيام كلّما نزلت، ولا تضجّوا للأمراض إذا أعضلت، فكل منقرض حقير، وكل مُنْقَض وإن طال قصير، وانتظروا الفَرَج، وانتشقوا من جناب اللّه تعالى الأرَج، وأوسعوا بالرجاء الجوانح، [واجنحوا إلى الخوف من اللّه تعالى فطوبى لعبد إليه جانح][6]، وتضرّعوا إلى اللّه تعالى بالدعاء، والجأوا إليه في البأساء والضَّرّاء، وقابلوا نعم اللّه تعالى بالشكر الذي يقيد به الشارد، ويَعْذُب الوارد، وأسهموا منها للمساكين وافضُلوا عليهم، وعَيِّنوا الحظوظ منها لديهم، فمن الآثار «يا عائشة، أحسني جوار نعم اللّه، فإنها قلّما زالت عن قوم فعادت إليهم». ولا تطغوا في النعم فتقصروا عن شكرها، وتلفّكم[7] الجهالة بسكرها، وتتوهّموا أنّ سعيكم جلبها، وجدّكم حَلَبها، فاللّه خيرُ الرازقين، والعاقبة للمُتّقين، ولا فعل إلاّ للّه إذا نظر بعين اليقين، واللّه اللّه لا تنسوا

---

(١) الوشائج: جمع وشيجة وهي صلة القرابة أو المصاهرة. لسان العرب (وشج).

(٢) الرُّشا، بضمّ الراء: جمع الرشوة. لسان العرب (رشا).

(٣) في طبعة دار صادر (جـ ٧ ص ٤٠٣): «الإزراء».

(٤) العِجاف: الهزيلة. لسان العرب (عجف).

(٥) في طبعة عبد الحميد (جـ ١٠ ص ٢٦٢): «ولا تعارضوا».

(٦) ما بين قوسين ساقط من أزهار الرياض.

(٧) في طبعة عبد الحميد (جـ ١٠ ص ٢٦٣): «وتلقيكم».

الفضل بينكم، ولا تُذهبوا بذهابه زينكم، وليلتزم كلّ منكم لأخيه، ما يشتدّ به تواخيه، بما أمكنه من إخلاص وبرّ، ومُرَاعاة في علانية وسرّ، وللإنسان مزية لا تُجهل، وحقّ لا يُهمل. وأظهروا التعاضد والتناصر، وصِلُوا التعاهدَ والتزاور، تُرْغِمُوا بذلك الأعداء، وتستكثروا الأوداء، ولا تتنافسوا في الحظوظ السخيفة، ولا تتهارشوا تهارش السباع على الجيفة، واعلموا أنَّ المعروف يكدر بالامتنان، وطاعة النساء شرُّ ما أفسد بين الإخوان، فإذا أسديتم معروفًا فلا تذكروه، وإذا برز قبيح فاستروه، وإذا أعْظَمَ النساءُ أمرًا فاحْقِرُوه.

واللَّه اللَّه لا تنسوا مقارضة سَجْلي، وبروا أهلَ مودّتي من أجلي، ومن رزق منكم مالاً بهذا الوطن القَلِق المهاد، الذي لا يصلح لغير الجهاد، فلا يستهلكه أجمع في العَقَار، فيصبح عرضة للمذلّة والاحتقار، وساعيًا لنفسه إن تغلّب العدوّ على بلده في الافتضاح والافتقار، ومعوقًا عن الانتقال، أمام النُّوَب الثقال، وإذا كان رزق العبد على المولى، فالإجمال في الطلب أوْلى، وازهدوا جهدكم في مصاحبة أهل الدنيا فخيرها لا يقوم بشرِّها، ونفعُهَا لا يقوم بضرِّها، وأعقاب من تقدّم شاهدة، والتواريخ لهذه الدعوى عاضدة، ومَنْ بُلِيَ بها منكم فليستظهر بسعة الاحتمال، والتقلّل من المال، وليحذر معاداة الرجال، ومزلات الإدلال، وفساد الخيال، ومداخلة العيال، وإفشاء السرّ، وسكر الاغترار [فإنه دأب الغِر][(1)]، ولْيَصُنِ الديانة، ويؤثر الصمت ويلازم الأمانة، ويَسِرْ من رضا اللَّه على أوضح الطرق، ومهما اشتبه عليه أمران قصد أقربهما إلى الحقّ، وليقف في التماس أسباب الجلال دون الكمال غير النقصان، والزعازع[(2)] تسالم اللّدْن اللطيف من الأغصان، وإياكم وطلب الولايات رغبةً واستجلابًا، واستظهارًا على الخطوب[(3)] وغِلابًا، فذلك ضرر بالمروءات والأقدار، داعٍ إلى الفضيحة والعار، ومن امتحن بها منكم اختيارًا، أو جبر عليها إكراهًا وإيثارًا، فليتلَقَّ وظائفها بسعة صدره، ويبذل من الخير فيها ما يشهد أن قدرها دون قدره، فالولايات فتنة ومحنة، وأسر وإِحْنَة[(4)]، وهي بين إخطاء سعادة، وإخلال بعبادة، وتوقّع عزل، وإدالة بإزاء بيع جدّ من الدنيا[(5)] بهزل، ومزلّة قَدَم، واستتباع نَدَم، ومآل العمر كلّه

---

(1) ما بين قوسين ساقط من طبعة دار صادر (جـ ٧ ص ٤٠٤) ومن أزهار الرياض.

(2) الزعازع: جمع زعزع وهي الريح الشديدة الهبوب. لسان العرب (زعزع).

(3) في طبعة دار صادر: «الحظوظ».

(4) الإحنة: الحقد والضغينة. لسان العرب (أحن).

(5) «من الدنيا»: ساقطة من طبعة عبد الحميد (جـ ١٠ ص ٢٦٤).

موت ومعاد، واقتراب من اللّه وابتعاد، جعلكم اللّه مِمَّنْ نفعه بالتبصير والتنبيه، ومِمَّنْ لا ينقطع بسببه عمل أبيه.

هـذه أسعدكم اللّه وصيتي التي أصدرتُها، وتجارتي التي لربحكم أدرتُها، فتلقّوها بالقبول لنصحها، والاهتداء بضوء صبحها، وبقدر ما أمضيتم من فروعها، واستغشيتم من دروعها، اقتنيتم من المناقب الفاخرة، وحصلتم على سعادة الدنيا والآخرة، وبقدر ما أضعتم لآليها النفيسة القِيَم، استكثرتم من بواعث النَّدَم.

ومهما سئمتم إطالتها، واستغزرتم مقالتها، فاعلموا أنَّ تقوى اللّه فذلكة الحساب، وضابط هذا الباب، كان اللّه خليفتي عليكم في كلّ حال، فالدنيا مناخ ارتحال، وتأميل الإقامة فرض محال، فالموعد للالتقاء، دار البقاء، جعل[1] اللّه من وراء خطته النجاة، ونَفَّقَ بضائعها المزجاة، بلطائفه المرتجاة، والسلام عليكم من حبيبكم المودع، واللّه سبحانه يلأمه حيثُ شاء من شمل متصدّع، والدكم محمد بن عبد اللّه بن الخطيب، ورحمة اللّه وبركاته». انتهت الوصية الفريدة في حسنها، الغريبة في فنّها، المبلغة نفوس الناظرين فيها فوق ظنّها، ولأجل ذلك كان شيخ شيوخنا المؤلف الكبير الفقيه الإمام قاضي القضاة العلامة سيدي الشيخ عبد الواحد ابن الشيخ الإمام عالم المالكية صاحب التآليف العديدة كـ «المعيار المعرب، والجامع المغرب عن فتاوى إفريقية والأندلس والمغرب». وهو في ست مجلدات [ولو لم يكن له غيره][2] لكان كافيًا، وله مصنّفات كثيرة غيره أكثرها في مذهب مالك، ولم يؤلف في المذهب مثلها. [كثيرًا ما يدخل منها في خطبه][2].

رجع إلى ما كنّا فيه:

أقول: لم تزل عادة الأكابر من العلماء والملوك الوصيّة لأولادهم وعمالهم باقتفاء النهج الذي يرون فيه السلوك، وقد وقفت للفقيه الكاتب أبي عبد اللّه محمد بن الجنان[3] المرسي الأندلسي رحمه اللّه تعالى على وصيّة ضمن رسالة كتبها عن ابن هود ملك الأندلس إلى أخيه اشتملت على ما لا بُدَّ منه، فرأيت أن أذكرها هنا تتميمًا للفائدة، ونصُّها بعد الصدر:

---

(١) في طبعة دار صادر (جـ ٧ ص ٤٠٥): «جعلها اللّه من وراء خطّة النجاة».
(٢) ما بين قوسين ساقط من طبعة عبد الحميد (جـ ١٠ ص ٢٦٥).
(٣) في طبعة عبد الحميد: «الجيان» بالياء.

«من مجاهد الدين، وسيف أمير المؤمنين، عبد اللّه المتوكّل عليه أمير المسلمين محمد بن يوسف بن هود، أيّده اللّه تعالى بنصره! وأمدّه بتمكينه! وأعانه على ما ينويه من إحياء معالم دينه! إلى صِنْوِنا المبارك، وقسيمنا وأخينا[1] المخصوص بتبجيلنا وتكريمنا، وحُسَامنا المنتضى[2] المرتضى لإمضاء عزمنا وتصميمنا، الأمير الأعلى، الموقّر الأسمى، الميمون النقيبة المحمود السجيّة، الأحبّ النيّة، الأعزّ علينا، المتمّم بمساعيه الصالحة كلّ ما نَوَيْنَا، أدام اللّه تعالى تظفيره وإسعاده! وأمضى في الحقّ قَوَاضبه وصِعَاده[3]! ووالى معونته وإنجاده! وتولى توفيقه وإرشاده!

سلام طيب كريم زاكٍ يخصّكم ورحمة اللّه تعالى وبركاته.

أمّا بعد . فالحمد للّه الذي أوضح للحقّ سبيلاً، ومدّ ظلّ رحمته على الخلق ظليلاً، وجعل العدل بحفظ نظام الإسلام كفيلاً، ونزّل الأحكام على قدر المصالح تنزيلاً، ونَصَب معالم الهدى عَلَمًا لمن اقتدى ودليلاً، وألهم إلى ما يرضاه عملاً ومعتقدًا وقيلاً، وصلواته الطيبة، وبركاته الصَّيِّبة[4]، على سيّد العالمين، وخاتم النبيّين، محمد رسوله الذي فضّله بخلّته واصطفائه تفضيلاً، وبعثه بالحنيفية السمحة فبيّنها تبيينًا وفصّلها تفصيلاً، ورتّبها كما أمره ربّه إباحة ونَدْبًا وتحريمًا وتحليلاً، حتى ثبتت سنة اللّه ﴿فلن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللّهِ تبديلاً، ولن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللّهِ تَحْوِيلاً﴾[5] وعلى آله وصحبه الذين فهموا ما جاءهم به عليه الصلاة والسلام نصًّا وتأويلاً، وأبقوا من سيرتهم الفاضلة، وأحكامهم العادلة، أساسًا للمتّقين جليلاً، ومآثر للمقتفين تَسْبَح الأفهام والأقلام في بحارها سَبْحًا طويلاً، وأمضوا عزائمهم تنسخ بالحقّ باطلاً وبالهدى تضليلاً، ورضوان اللّه تعالى يتوالى على خليفته، وحامل أمانته إلى خليقته، الذي كمل اللّه تعالى له موجبات الإمامة تكميلاً، وأناله من هدي النبوّة أفضل ما كان للهداة منيلاً، سيّدِنا ومولانا الإمام المنتصر باللّه تعالىٰ أبي جعفر المنصور أمير المؤمنين المتبوّىء من ساحة الشرف والجلالة محلاً شريفًا جليلاً، والمنتخب من بحبوحة

---

(١) كلمة «وأخينا» ساقطة من طبعة عبد الحميد.

(٢) المنتضى: المسلول. لسان العرب (نضا).

(٣) القواضب: جمع قاضب وهو السيف. الصعاد: جمع صعدة وهي الرمح. لسان العرب (قضب) و (صعد).

(٤) الصَّيِّبة: المتتابعة. لسان العرب (صيب).

(٥) سورة فاطر ٣٥، الآية ٤٣.

بيت الرسالة الذي وجد الوحي عنده مُعَرَّسًا ومقيلاً[1]، والدعاء له من لدن العزيز القوي بنصر يأتي لإمداده بمدد الملائكة قبيلاً، وفتح يولي[2] الآمال من الظهور بغيةً وتأميلاً..

فإنّا[3] كتبناه إليكم كتب اللّه تعالى لكم عزمًا لا يزال غَضْبه صقيلاً، وعزًّا يروق بإظهار الحقّ غرّة وتحجيلاً، ورأيًا لقداح السداد والنجاح مُجِيلاً، وسعدًا يوصل إلى الإسعاد برضاه توصيلاً، من حضرتنا بمرسية حرسها اللّه تعالى! ونحن نحمد إليكم اللّه الذي لا إلَهَ إلاّ هو على فضله الذي أناله جسيمًا جزيلاً، ونتوكل عليه، توكّل من يلجأ من كلّ أحواله إليه، وكفى باللّه وكيلاً، ونستعينه على أمور المسلمين التي حملنا منها أمانة كبيرة وعِبْئًا ثقيلاً، ونقف بالضراعة بين يديه، طَلَبًا لما يخلصنا لديه، عساه أن يجعل لرغبتنا قَبُولاً وتوسيلاً، ونعوذ به من كلّ عمل لا يكون حاصله إلاّ مآلاً وبيلاً، وعَرَضًا من الدنيا قريبًا ومتاعًا قليلاً. إنّا - واللّهُ المرشدُ - لنعلم أنّ هذا الأمر الذي قلّدنا اللّه تعالى منه ما قلّده، وأسنده إلينا من أمور خلقه فيما أسنده، قد ألزمنا من حقوقه الواجبة، وفروضه الراتبة، ما لا يستطاع إلاّ بمعونته أداؤه، ولا يستتبُّ إلاّ بتوفيق اللّه تعالى انتهاؤه وابتداؤه، فهو المشكور عزّ وجهه على نعمته، والمستعان على ما يدني من رضاه ويقرب من رحمته، وأن كلّ امرىء بشأنه مشغول، وعن خُوَيْصة نفسه مسؤول، ونحن بما استرعانا اللّه تعالى مشغولون، وعن الكبير والصغير مسؤولون، وعلينا النصيحة للّه في عباده وبلاده، والنظر لهم بمنتهى جدّ المجتهد واجتهاده، ولا قوّة إلاّ باللّه عليه توكّلنا، وبه إليه توسّلنا، فعيننا تسهر لتنام الرعيّة عيونهم، وتحركنا يتّصل ليحصل لهم سكونهم، وأملنا أن لا نقرّ فيهم بحول اللّه تعالى ظلمًا ولا هضمًا، ولا نخرم لهم في إقامة حقوق اللّه ما استطعنا نظمًا، وأنّى ينصرف عن هذا القصد بعمله ونيّته، من يعرف أنّ اللّه جلّ جلاله لا يجوّز ظلم ظالم في بريته، ولعلّ اللّه الذي حملنا ما حملنا، واستعملنا بمشيئته فيما استعملنا، أنْ يَهَبَ لنا توفيقه، ويسلك بنا إلى هداه طريقه.

---

(١) المُعَرَّس: مكان النزول ليلاً. المقيل: مكان القيلولة وهي النوم في النهار. لسان العرب (عرس) و (قيل).

(٢) في طبعة دار صادر (ج ٧ ص ٤٠٧): «وفتح يؤتي الإيمان من..».

(٣) كلمة «فإنّا» ساقطة من طبعة عبد الحميد (ج ١٠ ص ٢٦٦).

ألاَ وإن مَنْ وَلَّيناه أمرًا من أمور المسلمين فهو مطلوب به، وموقوف عليه عند ربّه، فلينظر امرؤ في جزئية ما نيط به وكليته، وليراقب فيما لديه عالم خفيته وجليته، ألاَ وكلكم راعٍ وكلّ راعٍ مسؤول عن رعيّته، فمن حفظ اللّه حفظه اللّه في نفسه وماله[1]، وقضى له بالسعادة في حاله ومآله، وأنجاه يوم عرضه وسؤاله، والخلق عيال اللّه فأحبّهم إليه أحبّهم لعياله. العدلَ العدلَ فبه قامت السموات والأرض، وبإقامته أقيمت السُّنَّة والفرض ﴿اعدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾[2] وأقوى ما تشتدّ به أركان الدين وتقوى، أمَا إنَّ الحقّ في أن لا تتعدّى أساليبَ الشرع وقوانينه، وأن لا يتجاوز في قضية من القضايا إفصاحه وتبيينه، وأن يجازى بحكمه المسيئون والمحسنون، ومن أحسن من اللّه حكمًا لقوم يوقنون. ألاَ وإنّا قد عثرنا لبعض قوّاد الجهادية وحكّامها، على أمور أنكرْنا معرفاتها، واستقبحْنا مستوصفاتها، وبرئنا إلى اللّه تعالى من متغيّراتها ومحرفاتها، وعلمنا أنَّ منهم أقوامًا لا يتورَّعون عن الأموال والدماء، ولا يحذرون فيما يأتون ويَذَرون جبّار الأرض والسماء، فأزلنا بحمد اللّه ذلك ونحوه، وعجلنا ابتغاء رضاه محقَه ومَحْوَه، وانبعثنا لنظر جديد، واستئناف لإصلاح أحوال وتسديد، وتغليظ في المحرمات وتشديد، واستقبلنا ما يوسع الأمور ربطًا وضَبْطًا، ويفيض على الأُمّة بعون اللّه تعالى عدلاً وقسطًا، وتعين علينا فيما رأيناه إنفاذ الخطاب إلى كلّ من استكفيناه بالبلاد، ووليناه النظر عنّا في مصالح العباد، بما يكون إن شاء اللّه تعالى الاعتماد على فُصُوله، والاستناد إلى محصوله، والاجتهاد بحسب فروعه وأصوله.

فأوّل ما نوصيكم به وأنفسَنا تقوى اللّه في كلّ حال، ومراقبة أوامره ونواهيه عند كل انتحاء[3] وانتحال، والوقوف عند حدود اللّه التي حدّها، وأرصدها بإزاء موجباته وعدّها، فإنه لا يتعدّاها إلاَّ من رام تَعَفِّي رسمها وطَمْسَه ﴿وَمَنْ يَتَعَدَّ حدودَ اللَّهِ فقد ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾[4] والمحافظة على ما به تحفظ الشريعة، والملاحظة لما يضمّ الرعايا من حوزة أُولي الحياطة المنيعة، والمُثَابرة على ما تكف به أكفُّ الاعتداء، والمبادرة إلى الاهتمام بالسلف الصالح والاقتداء، والطريقة المثلى، وآيات اللّه التي تُتْلَى، وهداياته التي لأبصار البصائر تجلى،

---

(١) في طبعة دار صادر (جـ ٧ ص ٤٠٨): «وآله».

(٢) سورة المائدة ٥، الآية ٨.

(٣) انتحاه انتحاءً: قصده. لسان العرب (نحا).

(٤) سورة الطلاق ٦٥، الآية ١.

وخَفْض الجناح، والأخذ بالرفق والإنجاح، وتوخّي الحقّ الذي هو أوضح انبلاجًا من فلق الإصباح، والحلم والأناة، والمذاهب المستحسنات، والأمور البيّنات.

واللّه اللّه في الدماء فإنها أوّل ما يقضى بين الناس يوم القيامة فيها، ولا سبيل لاستحلالها إلاّ بعد ثلاث: كفر بعد إيمان، أو زنا بعد إحصان، أو قتل المسلم لأخيه، وقد قال مالك الأمر والخلق ﴿ولا تَقْتُلُوا النَّفْسَ التي حَرَّمَ اللّهُ إلاّ بالحَقّ ﴾[1] فتثبّتوا فيها فأمرها جليل، وتحريمُها لا يدخله تحليل، وإياكم أن تجعلوا فيها لأحد من ولاة الجهاد حكمًا أو نظرًا، أو تَكِلُوا إليهم منها مستكثرًا أو مستنزرًا، فإنه إذا استبدّ بالقضاء فيها كلّ والٍ ذهبت هَدَرًا، واستباحها الجاهل والجائر أشَرًا وبَطَرًا، وربما كان فيهم من في طباعه سَبُعية فيقتل بها الناس قتلاً ذريعًا، ويستسهل[2] من ذلك بجوره صعبًا ويرتكب بجهله شنيعًا، ويذهل عن قول اللّه تعالى ﴿مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بغيرِ نَفْسٍ أو فسادٍ في الأرضِ فكأنما قَتَلَ الناسَ جميعًا، ومَنْ أَحْياها فكأنما أَحْيا الناسَ جميعًا ﴾[3] فأنّى تحل المسامحة في هذا الشان، أو يحكم به كلّ إنسان في نفوس أهل الإيمان؟ معاذ اللّه أن يكون هذا ونحن نعرفه، أو ينصرف إليه نظرنا فلا نزيله ولا نصرفه، فسدُّوا هذا الباب سَدًّا، وصدّوا عنه مَنْ أَمّه صدًّا، وكفوا كلّ ما كان من الأيدي للدماء ممتدًّا، ومَنْ وجب عليه القتل شرعًا وتعيّن، واتّضح موجب القصاص فيه وتبيّن، فليس لكم إلاّ القاعدة الكبرى، تُتَحَرّى فيها الأحكامُ عليه بمحضر القاضي والشهود كما يجب أن يتحرّى، بعد أن يتثبّت في نازلته ويستحل ويُسْتَبْرا[4]، فلا تحل القضية إلاّ على بصيرة، وحقيقة مستنيرة، فقد يلوح في اليوم ما خفي بالأمس، ويتعذّر بعد الإقادة إعادة النفس.

ومِلاكُ الأمر في انتقاء من يتصرّف، وتولية من لا يضيم ولا يتحيّف، فتخيروا للأنظار والجهات، مَنْ تُرْتَضَى سيرته من الولاة، ولا تستعملوا أهل الفظاظة[5] والجهالة،

---

(١) سورة الأنعام ٦، الآية ١٥١.

(٢) في طبعة دار صادر (جـ ٧ ص ٤١٠): «ويتسهّل بذلك من جوره..».

(٣) سورة المائدة ٥، الآية ٣٢.

(٤) في طبعة دار صادر: «ويستجلي ويُسْتَبْرَا». ويستبرا: أصل القول: ويستبرأ، فسهّل الهمزة بقلبها ألفًا مراعاة للسجع.

(٥) الفظاظة: سوء الخلق. لسان العرب (فظظ).

والمصرّين على الراحة والبطالة، فإنهم إذا استرعوا أضاعوا، وإذا دعاهم شيطان الهوى أطاعوا، وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا، وميلوا باختياركم إلى المتَّسمين بالصلاح، المرتسمين في ديوان الكفاة النصاح، وأطيلوا مَعَ ذلك التنقير عنهم والتنقيب، ولا تغفلوا عن التعهّد بالبحث البعيد منهم والقريب، ومَنْ عثرتم له على منكر من استباحة دم أو مال، وإضاعة للحقوق وإهمال، فخذوا على يده، وجازوه بفاسد مَقْصِده، وأنزلوه بالمنزل الأقصى، وعاملوه معاملة من أُوصِيَ بتقوى الله فما استوصى.

واصرفوا نظركم إلى القُضَاة فإنَّ مدار الشريعة إنما هو على ما يستند إليهم، ويقصر من الأحكام عليهم، فإذا كانوا من أهل العلم والديانة، وذوي النزاهة والصيانة، أمسكهم الورع بزمامه، وبلغ العهد بهم غاية تمامه، وإذا كانوا بضدِّ هذا قبلوا الرشوة، وأوطأوا العشوة، وأطالوا النشوة، وأحلُّوا من الدماء والفروج محرمها، وطمسوا من السنّة بالميل والمين معلمها، وحكموا بالهوادة والهوى، وطووا من الحقّ ما انتشر ونشروا من الباطل ما انطوى، فانتقوهم فهم أوْلى بالانتقاء، وشَرُّ جاسِرِهم وجاهلهم أحقّ بالاتّقاء، ولا تقدموهم ولا غيرهم بالشفاعات والوسائل، ولكن قدموهم بتورّعهم في القضايا وعلمهم بالمسائل.

ومِمَّا نؤكّد عليهم فيه أمر الشهود؛ فإنَّ شهادة الزور هي الداء العُضَال، والظُّلمة التي يتستّر بها الظَّلَمة والضُّلاّل، والحجّة الداحضة التي بها يحلّل الحرام ويحرم الحلال، وقد كثر في هذا الزمان أهل الشهادة الفاسدة، ونفقت بهم سوق الأباطيل الكاسدة، فتقدّموا إلى القضاة وفّقهم الله تعالى أن لا يقبلوا إلاَّ مشهورًا بزكاء وعدل، مُوَفى[1] حظّه من رجاحة وعقل، ومن كان مغموزًا عليه في أحواله، منبوزًا بالاسترابة في شهادته وأقواله، فلتُرَدَّ شهادته على أدراجها، وليبطل ما يكون من حِجاجها.

وأكدوا عليهم عند تعارض العقود في الترجيح، والنظر في التعديل والتجريح، لتجري أمور المسلمين على سنن[2] الحقّ المستبين، وتبدو المَعْدَلَةُ مشرقةَ الغُرّة مؤتلقة الجبين.

(١) في طبعة دار صادر (ج ٧ ص ٤١١): «موفورًا حظّه».
(٢) في طبعة دار صادر: «على مستوى الحقّ».

وممّا نأمركم به أن تبحثوا عن العمال، ولا تولُّوا منهم إلاّ الحسن الطريقة المرضيّ الأعمال، ومن لم يكن منهم جاريًا على القوانين المرعيّة، ناصحًا لبيت المال رفيقًا بالرعيّة، وكان في أمانته حائدًا عن الجادة السويّة[1]، قائلاً كما قال قبله ابن اللتبية[2]، فليُعَوَّض منه غيره، وليُرْفع عن الجانبين ضيره، فإنه ما كانت الخيانة قطّ في شيء إلاّ أهلكته، ولا وضعت في إنسان طبيعة سوء إلاّ ملكته.

وإنما هو مال اللّه تعالى الذي يرزق منه الحماة، وبه تُسدّ الثغور المهمات، فينبغي أن يختار له محتاط في اقتضائه وقبضه، حافظ لدينه ومروءته في كلّه وبعضه، فخذوا في انتقاء هذه الأصناف المسمين، واطلبوا بهذه الأوصاف المصرفين والمولين، واجمعوا من الاجتهاد الحميد والقصد والاعتماد الأثر والعين، وأنصفوا منهم إن تظلّم من أحدهم متظلّم، واشفوا شكوى كلّ متشك وألم كلّ متألّم، واعلموا أنّ حرمة الأموال بحرمة الدماء لاحقة، وأنّ إحدى القضيتين للأخرى مساوية ولاحقة، ومن أكبر ما ورد في ذلك وأعظمه، قول رسول اللّه ﷺ: «حرمة مال المسلم كحرمة دمه».

وليكن الناس في الحقّ سواء لا محاباة ولا مفاضلة، ولا محاورة[3] في تغليب قوي على ضعيف ولا محاولة، إنّ هذه أمتكم أُمّة واحدة، وإنّ دلائل الشرع بمراد اللّه سبحانه وتعالى لشاهدة، ولا يؤخذن أحد بجريرة[4] أحد، ولا يجني[5] ولد على والد ولا والد على ولد، فكتاب اللّه تعالى أولى بالاتباع وأحرى، لقول اللّه عزّ وجلّ ﴿ولا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أخرى﴾[6] اللهمّ إلاّ من آوى محدثًا فإنه مأخوذ بما أجرم، وملعون على لسان رسول اللّه ﷺ. فارفعوا ـ أعاننا اللّه تعالى وإياكم! ـ للعدل بكلّ علم منارًا، واتّخذوا الرفق بالإمامة شعارًا. فقد قال: قال رسول اللّه، ﷺ: «إنّ الرفق لا يكونُ في شيء إلاّ زانه، ولا يُنزع من

---

(١) الجادة السويّة: الطريقة المستقيمة. لسان العرب (جدد) و (سوا).
(٢) هو عبد الله بن اللتبيّة بن ثعلبة الأزدي. الإصابة في تمييز الصحابة (ج ٤ ص ١٢٣).
(٣) في طبعة دار صادر (ج ٧ ص ٤١٢): «ولا مجاوزة».
(٤) الجريرة: الذنب والخطيئة. لسان العرب (جرر).
(٥) في طبعة عبد الحميد (ج ١٠ ص ٢٧٢): «يجنِ».
(٦) سورة الأنعام ٦، الآية ١٦٤؛ وسورة الإسراء ١٧، الآية ١٥؛ وسورة فاطر ٣٥، الآية ١٨؛ وسورة الزمر ٣٩، الآية ٧.

شيء إلاَّ شانه» وقد نصَّ الكتاب والسُّنَّة على مواضع اللين والاشتداد، ونبَّها على منازع المقاربة والسَّدَاد، فلا غضب لأمر إلاَّ بما غضب له اللَّه عزَّ وجلَّ، ولا رِضًا به إلاَّ إذا استقرّ فيه رضا اللَّه تعالى وحلّ، قال رسول اللَّه ﷺ: «الذي يجلد فوق ما أمر اللَّه تعالى به يقول له اللَّه عزَّ وجلَّ: عبدي، لِمَ جلدت فوق ما أمرتك به؟ فيقول: ربّ غضبت لغضبك، فيقول: أكان ينبغي لغضبك أن يكون أشدّ من غضبي؟ ثم يؤتى بالمقصّر فيقول: عبدي، لِمَ قصّرت عمّا أمرتك به؟ فيقول: ربّ رحمته، فيقول: أكان ينبغي لرحمتك أن تكون أوسع من رحمتي؟» قال: فيأمر فيهما بشيء قد ذكره لم يحفظه الراوي، إلاَّ أنه قال: صيّروهما إلى النار، أعاذنا اللَّه تعالى منها بفضله ورحمته! فليوقف بالقضايا حيث وقف بها الشرع، ويحفظ الأصل من هذه الوصايا والفرع، واحتاطوا في الرعيّة فإنه رأس المال، والأمانة التي لا ينبغي أن يكون فيها شيء من الإهمال، ومع توفيقكم لما سطّرْناه، في هذا الكتاب وشرحْناه، من أبواب الخير المسعد في المآب والمآل، فاستوفوا ضروب الصالحات واستقصوها، واعملوا أعمال البرّ وخصوها، واذكروا آلاء اللَّه وقصوها، ﴿وإنْ تَعُدُّوا نعمةَ اللَّهِ لا تُحْصُوها﴾[1] واشتدّوا في تغيير المنكرات كلّها، واحسموا أدواءها من أصلها، ورغّبوا الناس في الطاعات واندبوهم إليها، ووضّحوا لهم أعمالهم وحرّضوهم عليها، وانتهوا في كل سعي ناجح، ورأي راجع، إلى أفضل ما ينتهي إليه المنتصحون، ﴿ولْتَكُنْ منكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إلى الخيرِ ويَأْمُرُونَ بالمَعْرُوفِ ويَنْهَوْنَ عن المُنْكَرِ وأُولئكَ هُمُ المُفْلِحُونَ﴾[2].

وخذوا بعمارة مساجد اللَّه التي هي بيوت الأتقياء، ومحلّ مناجاة ذي العظمة والكبرياء، إنما يعمُرُ مساجدَ اللَّه مَنْ آمن باللَّه واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يَخْشَ إلاَّ اللَّه فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين.

ومُرُوهم بأن يعلّموا أولادهم كتاب اللَّه تعالى فإنَّ تعليمه للصغار يطفىء غضبَ الرَّب ونعم الشفيع هو يوم القيامة، والمتوسّل فيما يتوّج القارىء وأباه تاجَ الكرامة، وأرشدوا للخير ما استطعتم، واتّبعوا سبيله فهو أشرف ما اتبعتم، واللَّه ولي التوفيق والإرشاد، والملجىء بالهداية إلى طريق الفوز والسداد.

---

(١) سورة إبراهيم ١٤، الآية ٣٤.

(٢) سورة آل عمران ٣، الآية ١٠٤.

وهـذه أوامرنا إليكم امتثلنا أمرَ اللّه تعالى فامتثلوها، وأحضروها في خواطركم مع كلّ لحظة ومثلوها، وإنّا لما يكون منكم فيها لمستمعون، ولآثاركم فيما يوفيها لمتطلعون، وقد خرجنا لكم عن عهدة لزمتنا في التذكير، ونهجنا لكم منها التقديم والتأخير، واللّه تعالى يعلم أنّا إنما قصدنا ما نرجو الخلاص به يوم الحساب، وأردنا رضاه فيما أوردْناه من هذا الحظر والإيجاب، لنرعى حقّه سبحانه فيمن استرعانا، ونسعى في صلاح الأمة عسى اللّه تعالى أن ينجح فيه مسعانا. اللهمّ عَبْدُكَ يضرع إليك، ويخضع بين يديك، في أن تلهمه إلى ما يجمل قصدًا ومعتمدًا، وتَهَبَ له من لَدُنْكَ رحمةً وتهيىء له من أمره رشدًا، اللهمّ منك المعونة على ما وليت، ولك الشكر على ما أوليت، فالمهديُّ من هَدَيْت، والخير كلّه فيما قضيت. اللهمّ من أعاننا على مرضاتك فكن له مُعينًا، وأورده من توفيقك عذبًا مَعينًا، إنك الولي النصير، العلي الكبير.

وإذا وصلكم كتابنا هذا فقصُّوه على الناس مفصّلاً ومجملاً، وأظهروا مضمونه لهم قولاً وعملاً، واسلكوا بهم من مراشدهِ سَنَنًا مستجملاً، إن شاء اللّه تعالى، واللّه سبحانه يديم علاكم، ويصل إعادتكم في كلّ مَحْمَدٍ[1] وإبداكم، ويجزل حظوظكم من السعادة وأنصباكم[2]، بمنّه وكرمه لا ربَّ سواه، والسلام الأكرم الأزكى يخصّكم، ورحمة اللّه تعالى وبركاته.

وكتب في الرابع والعشرين لجمادى الأولى سنة أربع وثلاثين وستمائة»؛ انتهى.

وهذا ابن الجنان[3] له الباع المديد في النظم والنثر، ومن شعره رحمه اللّه تعالى في مرضه الذي توفي فيه، وهو آخر كلامه: [الكامل]

جَهلَ الطبيبُ شكايتي، وشكايتي ... إنَّ الطبيبَ هو الذي هو ممرضي
فإن ارتضى برئي تَداركَ فَضْلَهُ ... وإن ارتضى سَقَمي رضيتُ بما رضي
ما لي اعتراضٌ في الذي يقضي به ... لكنْ لرحمته جعلتُ تعرُّضي

---

(١) في طبعة عبد الحميد (ج ١٠ ص ٢٧٤): «مجد».

(٢) أنصباكم: أصل القول: أنصباءكم، فحذف الهمزة وسهّلها وقلبها ألفًا، والأنصباء: جمع نصيب وهو الحظ. لسان العرب (نصب).

(٣) في طبعة عبد الحميد: «الجيان» بالياء. وترجمة ابن الجنان في الإحاطة (ج ٢ ص ٣٤٨) وعنوان الدراية (ص ٢١٣).

ومن نظمه رحمه اللّه تعالى ملغزًا في بطيخة: [الطويل]

وحُبْلَى بأبناءٍ لها قد تمخّضوا   بأحشائها من بعد ما ولدوها
كسوها غداة الطلقِ بُرْدًا معصفرًا   على يَقَقٍ[1] أزرارها عقدُوها
ولمّا رأوها قد تكاملَ حُسْنُها   وأبدرَ منها طالعٌ حَسَدُوها
فقدُّوا قميصَ البدرِ بالبرقِ واجتلوا   أهِلَّتها من بعد ما فقدوها
ولو أنصفوا ما أنصفوا بدر تمّها   ولا أعدموا الحسناء إذ وجدوها

وقال أيضًا ملغزًا في الميل، وهو المِرْوَد[2]: [المجتث]

مسترخص السوم غالٍ   عالٍ له أيُّ حظْوَهْ
ما جاوز الشبر قدرًا   لكنه ألفُ خطوه

وهذا استخدام ما به باس؛ لأنه اكتسى من الحسن خير لباس، وكم لهذا الكاتب من محاسن، ماؤها غير آسن.

وقد عرّف لسان الدين في الإحاطة بابن الجنان[3]، وأطال في ترجمته، ونشير إلى بعض ذلك باختصار.

وهو محمد بن محمد بن أحمد، الأنصاري، من أهل مرسية، أبو عبد اللّه، ابن الجنان[3].

كان محدّثًا راويةً ضابطًا، كاتبًا بليغًا شاعرًا بارعًا، رائق الخَطّ، ديّنًا فاضلاً، خيرًا ذكيًا[4]، استكتبه بعض أمراء الأندلس فكان يتبرّم من ذلك ويَقْلَقُ منه، ثم خلّصه اللّه تعالى منه، وكان من أعاجيب الزمان في إفراط القَمَاءة[5] حتى يظنّ رائيه الذي استدبره أنه طفل

---

(١) اليَقَقُ: الناصع البياض. لسان العرب (يقق).

(٢) المِرْوَدُ: الميل الذي يكتحل به. لسان العرب (رود).

(٣) في طبعة عبد الحميد (جـ ١٠ ص ٢٧٥): «الجيان» بالياء.

(٤) في الإحاطة (جـ ٢ ص ٣٤٩): «زكيًا».

(٥) القماءة: القصر. لسان العرب (قمأ).

ابن ثمانية أعوام أو نحوها، متناسب الخِلْقة، لطيف الشمائل، وقورًا. خرج من بلده حين تمكّن العدوّ من قبضته[1] سنة ٦٤٠، فاستقرّ بأريولة[2] إلى أنْ دعاه[3] إلى سبتة الرئيسُ أبو علي بن خلاص[4]، فوفد عليه، فأجلّ وفادته، وأجزل إفادته، وحَظِيَ عنده حُظْوة تامّة. ثم توجّه إلى إفريقية، فاستقرّ ببجاية. وكانت بينه وبين كُتّاب عصره مكاتبات ظهرت فيها براعته. وروى ببلده وغيره[5] عن أبي بكر بن خطاب[6]، وأبي الحسن سهل بن مالك، وابن قَطْرال، وأبي الربيع بن سالم، وأبي عيسى بن أبي السداد، وأبي علي الشلوبين وغيرهم. وكان له في الزهد ومدح النبي ﷺ بدائع، ونظم في المواعظ للمذكرين كثيرًا؛ انتهى مختصرًا، وإلاّ فترجمته في الإحاطة متّسعة[7]، رحمه اللّه تعالى!.

ولمّا كتب له أبو المطرف بن عميرة برسالته الشهيرة التي أوّلها[8] «تحييك الأقلامُ تحيّة كسرى، وتقف دون مَدَاك حَسْرَى»، وهي طويلة، أجابه بما نصُّه[9]: «ما هذه التحيّة الكِسْرَويّة؟ وما هذا الرأي وهذه[10] الرويّة؟ أتَنْكِيتٌ من الأقلام؟ أو تَبْكِيتٌ من الأعلام؟ أو[11] كلا الأمرين توجَّهَ القصدُ إليه، وهو الحقّ مُصَدِّقًا لما بين يديه؟ وإلاّ فعهدي بالقلم يتسامى عن عكسه[12]، ويترامى للغاية البعيدة بنفسه، فمتى لانَتْ أنابيبُه للعاجم، ودانتْ

---

(١) في الإحاطة: «من بيضته».

(٢) في الإحاطة: «بأوريولة». وهي بالإسبانية Orihuela، من بلاد شرقي الأندلس. تقع على نهر شقوره شمال شرقي مرسية. سقطت في أيدي الأرجونيين سنة ٦٦١ هـ. الروض المعطار (ص ٦٧).

(٣) في الإحاطة: «استدعاه إلى سبتة الرئيس بها أبو..».

(٤) هو الحسن بن خلاص؛ تولّى سبتة سنة ٦٣٧ هـ، ثم ثار فيها في عهد السعيد أبي الحسن بن المعتضد باللّه الموحدي سنة ٦٤١ هـ، وبايع للأمير أبي زكريا الحفصي، صاحب تونس. توفي سنة ٦٤٦ هـ. البيان المغرب ـ القسم الخاص بتاريخ الموحدين (ص ٣٥٩).

(٥) في الإحاطة: «وغيرها».

(٦) في الإحاطة: «أبي بكر عزيز بن خطاب، وأبي الحسن بن سهل بن مالك».

(٧) ترجمة ابن الجنان في الإحاطة مطابقة للترجمة التي يوردها المقري هنا، وبذلك لا تكون الترجمة متسعة كما يذكر المقري.

(٨) الإحاطة (جـ ٢ ص ٣٥٣).

(٩) المصدر نفسه (ص ٣٥٣ ـ ٣٥٩).

(١٠) في الإحاطة: «وما هذه الروية؟».

(١١) في الإحاطة: «أم كلا..».

(١٢) عكس القلم هو: المَلَق.

أعاريه للأعاجم[١]؟ واعَجَبًا لقد استنوق الجمل[٢]، واختلف القول والعمل، لأمرٍ ما جَدَعَ أنفَه قصير[٣]، وارتدّ على عقبِه الأعمى أبو بصير، أمسِ أستسقي من سَحَابِهِ فلا يسقيني، وأستشفي بأسمائه فلا يشفيني، واليوم يُحلّني محلَّ أنوشروان، ويشكو مني شكوى الزيدية[٤] من بني مروان، ويزعم أني أبطلت سحره ببئر ذَرْوان[٥]، ويخفي في نفسه ما اللّه مبديه[٦]، ويستجدي بالأثر[٧] ما عند مُسْتَجْديه، فمن أين جاءت هذه الطريقة المُتَّبعة، والشريعة[٨] المبتدعة؟ أيظنّ أن مُعَمّاه لا ينفكّ[٩]، وأنه لا ينجلي هذا الشكّ؟ هل ذلك منه إلاّ إمحاض التّيه، وإحماض تَفَتِّيه، ونشوة من الهزل، ونخوة من ذي ولاية آمِنٍ[١٠] من العَزْل؟ تاللّه لولا محلّه من القسم، وفضله في تعليم النَّسَم، لأسلمته[١١] ما ينقطع به صَلَفه، وأودعته ما يَنْصَدع به صَدَفه، وأشرت[١٢] بطرف المشرفي وحدِّه[١٣]، وأشرت إلى تعاليه عن اللعب بجدِّه. ولكن هو القلم الأوّل، فقوله على أحسن الوجوه

---

(١) في الإحاطة: «أعاريه بدين الأعاجم».

(٢) أخذه من المثل: «قد استنوق الجملُ» أي صار ناقة، يضرب هذا المثل في التخليط، والمراد: تغيّرت الطباع. محيط المحيط (نوق) ومجمع الأمثال (جـ ٢ ص ٩٣).

(٣) هو مثل آخر، قيل في قصة احتيال قصير بن سعد القضاعي على الزباء ملكة تدمر حتى أخذ منها بالثأر. محيط المحيط (زبأ).

(٤) في الإحاطة (ص ٣٥٤): «اليزيدية». والزيدية: نسبة إلى زيد بن علي، الذي قتله الأمويون في زمن هشام بن عبد الملك.

(٥) في الإحاطة: «سحره كما أُبطل سِحْرُ بردوران». وبئر ذَرْوان: بئر بناحية المدينة. معجم البلدان (جـ ١ ص ٢٩٩).

(٦) أخذه من قوله تعالى: ﴿وتُخْفي في نفسك ما اللّهُ مُبْديهِ وتَخْشَى الناسَ﴾. سورة الأحزاب ٣٣، الآية ٣٧.

(٧) في طبعة عبد الحميد (جـ ١٠ ص ٢٧٦): «بالأشر».

(٨) في الإحاطة: «والطريقة».

(٩) في الإحاطة: «لا يُفكُّ، وأنه لا يتجلّى. .».

(١٠) في طبعة عبد الحميد: «أَمِنَ».

(١١) في الإحاطة: «لأسمعته».

(١٢) في الإحاطة: «وأشذتُ».

(١٣) في طبعة عبد الحميد وفي الإحاطة: «ومجده».

يَتَأوّل، ومعدود في تهذيبه، كلّ ما لسانه يهذي به، وما أنساني [1] إلاَّ الشيطان أياديه أن أذكرها [2] ، وإنما أقول: [البسيط]

ليت التحيَّةَ كانت لي فأشكرها [3]

ولا عتب إلاَّ على الحاء [4] ، المُبَرِّحَة بالبُرَحاء، فهي التي أقامت [5] قيامتي في الأندية، وقامت عليَّ قيام المتعدية[6]، يتظلَّم وهو عين الظالم، ويُلين القول وتحته سمّ الأراقِم[7]. ولعمر اليراعة وما رضعت[8]، والبراعة وما صنعت، ما خامرني هواها[9]، ولا كَلِفتُ بها دون سواها، ولقد عَرَضَتْ نفسها عليّ مرارًا، فأعرضتُ عنها ازورارًا، ودفعتها عني بكلّ وَجْه، تارة بلطفٍ وأخرى بنَجْه[10]، وخفتُ منها السآمة، وقلت: انكحي أسامة، فرضيت مني بأبي جهم[11]وسوء ملكته[12]، وابن أبي سفيان وصَعْلكته، وكانت أسرع من أمّ خارجة للخِطْبة، وأسمح من سجَاح[13] في استنجاح تلك الخطبة. ولقد كنت أخافُ من

---

(١) في الإحاطة: «أنسانيه».
(٢) أخذه من قوله تعالى: ﴿وما أنسانيهُ إلاَّ الشيطانُ أن أَذْكُرَهُ﴾. سورة الكهف ١٨، الآية ٦٣.
(٣) هو صدر بيت لكثير عزة، والبيت بتمامه هو:
ليت التحيّة كانت لي فأشكرَها   مكانَ يا جملُ حُيِّيتَ يا رجلُ
الأغاني (جـ ٩ ص ٤٣) والشعر والشعراء (ص ٤١٨).
(٤) قد تكون قصيدة حائية، أو رسالة بُنيت على تكرير حرف الحاء في كل كلمة.
(٥) في الإحاطة: «قيَّمت».
(٦) في الإحاطة: «المعتدية».
(٧) الأراقم: جمع أرقم وهو الثعبان. لسان العرب (رقم).
(٨) في الإحاطة: «ولعمر البراعة وما نصعت، واليراعة..».
(٩) هاء الضمير يعود إلى «الحاء».
(١٠)النَّجْهُ: الردُّ القبيح. لسان العرب (نجه).
(١١) في طبعة عبد الحميد (جـ ١٠ ص ٢٧٧): «بأبي جهل». وفي الإحاطة (ص ٣٥٥): «فرضيت منها بأبي جهم». وهنا يشير إلى قصة فاطمة بنت قيس، أخت الضحاك، حين خطبها معاوية بن أبي سفيان وأبو جهم، فتزوجت أسامة بن زيد؛ لأن معاوية وصف بأنه صعلوك لا مال له، وأبو جهم كان لا يضع عصاه عن عاتقه، أي كان يضرب النساء.
(١٢) في الإحاطة: «وسوء سلْكته».
(١٣) في الإحاطة: «وأسمج». وأخبار سجاح مع مسيلمة الكذاب معروفة، وقد ضرب بها المثل في الإسماح.

انتقال الطباع في عشرتها، واستثقال الاجتماع من عترتها[1]، وأرى من الغبن والسفاه، أخذها وترك بنات[2] الأفواه والشفاه، إذ هي أيسر مؤونة، وأكبر[3] معونة، فغلطني فيها أن كانت بمنزل تتوارى صونًا عن الشمس، ومن نسوة خفرات لا ينطقن إلاَّ بالهَمْس، ووجدتها أَطْوَعَ من البنان للكَفّ، والعنان للكفّ[4] ، والمعني للاسم، والمغني للرسم، والظلّ للشخص، والمستدلّ للنصّ. فما عرفت منها إلاَّ خيراً[5] أرضاه، وحسبتها من الحافظات للغيب بما حفظ اللّه، فعجبت لها الآن كيف زلّت نعلُها، ونشزت فنشرت ما اسْتَكْتَمَها بعلُها، واضطربت في رأيها اضطراب المختار بن[6] أبي عُبَيْد، وضربت في الأرض تسعى عليَّ بكلِّ مكر وكيد، وزعمت أنّ الجيم خدعها، وألان[7] أَخْدَعَهَا، وأكبرها أن سيبلّغ بخبرها الخابور[8] ، وأحضرها لصاحبها كما أحضر بين يدي قيصر سابور[9] . فقد جاءت إفكًا وزورًا، وكثرت من أمرها متزورًا[10]، وكانت كالقوس أرنَّتْ وقد أصمت القنيص، والمُرَاوِدة قالت ﴿ما جَزاءُ﴾[11] وهي التي قَدَّتِ القميص[12]، وربما يظنّ بها الصدق وظنّ الغيب ترجيم، ويقال: لقد خفضت الحاء بالمجاورة[13] لهذا الجيم، وتنتصر لها التي[14] خيمت بين النرجسة والريحانة، وختمت السورة باسم جعلت ثانيه

---

(١) في الإحاطة: «الطباع في عِتْرتها... من عشرتها».
(٢) بنات الأفواه والشفاه: الحروف مثل الباء والميم وغيرهما.
(٣) في الإحاطة: «وأكثر».
(٤) في الإحاطة: «للوكف». والكف هنا بمعنى الكبح والمنع. لسان العرب (كفف).
(٥) في الإحاطة: «خيرًا أرضاه حتى حسبتها..».
(٦) كلمة «بن» ساقطة من طبعة عبد الحميد (جـ ١٠ ص ٢٧٧) ومن الإحاطة. وهو المختار بن أبي عبيد الثقفي، الذي ثار عام ٦٥ هـ مطالبًا بدم الحسين بن علي رضي اللّه عنهما.
(٧) في الإحاطة: «والآن أخدعها، وأخبرها..».
(٨) الخابور: من روافد الفرات؛ يريد أن يقول: إنه سيبلغ خبرها إلى مكان ناءٍ.
(٩) هو سابور ذو الأكتاف، يقال إنه تنكّر ودخل بلاد الروم فوقع في يد قيصر.
(١٠) في الإحاطة: «شزورًا».
(١١) سورة يوسف ١٢، الآية ٢٥.
(١٢) إشارة إلى قصة امرأة العزيز في قوله تعالى: ﴿وراوَدَتْهُ التي هو في بيتها عن نَفْسِهِ وغَلَّقَتِ الأبوابَ﴾. سورة يوسف ١٢، الآية ٢٣. وعندما انفضح أمرها قالت: ﴿ما جزاء...﴾ الآية.
(١٣) في طبعة دار صادر (جـ ٧ ص ٤١٩): «بالجوار». وفي الإحاطة (ص ٣٥٦): «بالمجاورة لهذا الأمر الجسيم..».
(١٤) في الإحاطة: «لها أختها التي».

أكرم نبيّ على اللّه سبحانه، فإن امْتَعَضْتَ لهذه التكلمة[1]، تلك التي سبقت بكلمتها بشارة الكلمة[2]، فأنا ألوذ بعدلها، وأعوذ بفضلها، وأسألها أن تقضي قضاء مثلها، وتعمل بمقتضى ﴿فابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وحَكَمًا مِنْ أَهْلِها﴾[3] على أنَّ هذه التي قد أبْدَتْ مَيْنها[4]، ونسيت الفضل بيني وبينها، إن قال الحَكَمان: منها كان النشوز، عادت حَرورية[5] العجوز، وقالت: التحكيم[6] في دين الله تعالى لا يجوز، فعند ذلك يُحَصْحص[7] الحقّ، ويعلم من الأولى بالحكم والأحقّ، ويصيبها ما أصاب أروى، من دعوة سعدية[8] حين الدعوى، ويا ويحها أرادت أن تجني عليَّ فجنت لي، وأناختْ لي مركب السعادة وما ابتغت إلاَّ خَتْلي، فأتى شرُّها بالخير، وجاء النفعُ من طريق ذلك الضير. أتراها علمت بما يثيرُه اعوجاجُها، وينجلي عنه عجاجُها؟ فقد أفادت عظيم الفوائد، ونظيم الفرائد، ونفس الفخر، ونفيس الدرّ[9]، وهي لا تشكر[10] أن كانت من الأسباب، ولا تذكر إلاَّ يوم الملاحاة والسِّباب. وإنما يستوجب الشكر جسيمًا، والثناء الذي يتضوّع نسيمًا، الذي شرَّف إذ أهدى أشرف السِّحاءات، وعرَّف بما كان من انتحاء تلك الحاء المذمومة في الحاءات، فإنه وإن ألَمَّ بالفكاهة، بما أملَّ[11] من البداهة، وسمَّى باسم السابق السُّكَيْت، وكان من أمر مداعبته كَيْت وكيت، وتلاعب في الصفات[12] تلاعب الصفاح والصَّبا بالبانة، والصَّبا بالعاشق ذي اللُّبانة، فقد أغرب بفنونه، وأغرى القلوب بفُتُونه، ونفث بخفية[13] الأطراف، وعبث من الكلام المشقَّق بالأطراف[14]، وعلم كيف

(١) في الإحاطة: «المتظلّمة».
(٢) في الإحاطة: «المتكلّمة».
(٣) سورة النساء ٤، الآية ٣٥.
(٤) المَيْنُ: الكذب. لسان العرب (مين).
(٥) حروريّة: أي ترفض التحكيم وتقول: لا حكم إلاَّ للّه.
(٦) في الإحاطة: «التحكّم».
(٧) يُحَصْحِصُ الحقّ: يظهر ويبين. لسان العرب (حصحص).
(٨) في الإحاطة: «سعيدة».
(٩) في الإحاطة: «الذُخر».
(١٠) في الإحاطة: «لا تنكر».
(١١) في الإحاطة (ص ٣٥٧): «أملى».
(١٢) في الإحاطة: «بالصفات، تلاعب السَّيل بالصفاة، والصَّبا بالبانة..».
(١٣) في الإحاطة: «بجفنه».
(١٤) في الإحاطة: «الأطراف».

يمحض[1] البيان، ويخلِّص العقيان. فمن الحقّ أنْ أشكره [2] على أياديه البيض، وإن أخذ لفظة من معناه في طرف النقيض. تاللّه أيها الإمام الأكبر، والغمام المُسْتمطر، والحبر[3] الذي يشفى سائله، والبحر الذي لا يُرَى ساحله، ما أنا المراد بهذا المسلك، ومن أين حصل ذلك[4] النور لهذا الحَلَك[5]؟ وصحَّ أن يُقاس بين الحدّاد والملك؟ إنه لتواضُع الأعِزَّة، وما يكون عند[6] الكرام من الهزّة، وتحريض الشيخ للتلميذ، وترخيص[7] في إجازة الوضوء بالنبيذ، لو حضر الذي قُضيَ له بجانب الغربيّ أمرُ البلاغة، وارتضى ما له في هذه الصناعة، من حُسْن السَّبك لِحَلْيها والصياغة، وأطاعته فيما أطلعته طاعة القوافي الحسان، واتبعته فيما جمعته لكن بغير إحسان، لأذعن كما أذعنت، وظعن عن محلّ[8] الإجادة كما ظعنت، وأنّى يُضاهى الفرات بالنغبة[9]، ويباهى بالفلوس من أوتي من الكنوز ما إنَّ مفاتحه لتنوء بالعصبة، وأي حظّ للكَلالة بالنشب[10]، وقد اتّصل للورثة عمود النَّسَب، هيهات واللّه المطلب[11]، وشتّان الدُّرّ والْمَخْشَلَب[12]، وقد سيم الغَلَب، ورجع إلى قيادة السّلب. وإن كنّا مِمَّنْ تقدّم لشدّة الظمإ إلى المنهل، وكمن[13] أقدم إلى عين تَبُوكَ بعد النّهي للعلل والنّهل، فقد ظهرت بعد ذلك[14] المعجزةُ عِيانًا، وملأ ما هنالك جِنانًا[15]، وما تعرَّضْنا بإساءة الأدب واللّوم، ولكن علمنا أنّ آخر الشُّرْب ساقي القوم، وإن أَسْهَبْنا فما

---

(١) في الإحاطة: «يلخّص».

(٢) في طبعة دار صادر (ج ٧ ص ٤٢٠): «الحقّ شكره».

(٣) في الإحاطة: «والخبر».

(٤) كلمة «ذلك» غير واردة في الإحاطة.

(٥) الحَلَكُ، بالفتح: الظلام الشديد. لسان العرب (حلك).

(٦) في الإحاطة: «وما يكون للأكارم من الحِزّة».

(٧) كلمة «وترخيص» غير واردة في الإحاطة.

(٨) في الإحاطة: «عن محل دعوى الإجادة».

(٩) في الإحاطة: «الفرات المَعين بالنُّغْبة». والنُّغْبَةُ: الجرعة من الماء. لسان العرب (نغب).

(١٠) في الإحاطة (ص ٣٥٨): «في النشب».

(١١) في الإحاطة: «واللّه بُعْدُ المطلب».

(١٢) في الإحاطة: «والخشلب».

(١٣) في طبعة دار صادر (ج ٧ ص ٤٢٠): «كمن».

(١٤) في الإحاطة: «بذلك».

(١٥) في طبعة عبد الحميد (ج ١٠ ص ٢٧٩): «جيانًا».

نِلْنا رتبة ذلك الإيجاز، وإن أعرقنا فهوانا في الحجاز، فلكم قصيرات الحِجال، ولنا قصيرات الخطا في هذا المجال، وإكثارنا في قلّة، وجارنا من الفقر في فقر وذلّة. ومَنْ لنا بواحدة يُشْرق ضياؤها، ويخفي النجوم خجلُها منها وحياؤها؟ إن لم تُطل فلأنها للفروع كالأصل، وفي الجموع كليلة الوَصْل، فلو سطع نورها الزاهر، ونورها الذي تطيب منه الأنوار الأزاهر، لَسَجَدَتِ النيرانُ ليوسف ذلك الجمال، ووجدت نفحات ريّاها في أعطاف الجنوب والشمال، وأسرعت نحوها النفوس إسراع الحَجِيج يوم النَّفْر، وسار خبرُها وسرى فصار حديث المقيمين والسَّفْر، وما[1] ضرَّ تلك الساخرة في تجلّيها، الساحرة بتجنّيها، أن كانت بمنزلة ربيبتها بل تِرْبها[2]، هذه التي سبقتني لما سقتني بسَيْبِها[3]، ووجدت ريحها لما فَصَلَتْ من مصر عِيْرها[4]، وحين وصلت لم يدلني على ساريها[5] إلاَّ عَبِيرُها، وكم رامت أن تَسْتَتِرَ عنّي بليلِ حَبَرِها في هذه المغاني، فأغراني بهاؤها وكلّ مُغْرَم مُغْرى ببياض صبح الألفاظ والمعاني، وهل كان ينفعها، تلفُّحها بِمِرْطِها وتلفُّعها؟ إذ نادتها المودّة، قد عرّفْناك يا سَوْدَة، فأقبلْتُ على شَمّ نَشْرها وعَرْفها، ولَثْم سَطْرها وحرفها، وَقَرَيْتُها الثناء الحافل، وقرأْتُها فَزُيِّنَتْ بها المحافل، ورُمْتُ أمرَ الجواب، فعزّني[6] في الخطاب، لكن رسمت هذه الرقعة التي هي لديكم بِعَجْزِي واشية، وإليكم منّي على استحياء ماشية، وإن رقّ وجهها فما رقّت لها حاشية، فمُنوا بقبولها على عللها[7]، وانْقَعُوا بماء سماحتكم حَرَّ غُلَلها، فإنها وافدةُ مَن استقرَّ قلبُه عندكم وثَوَى، وأقرَّ بأنه يَلْقُطُ في هذه الصناعة ما يُلْقى للمساكين من النَّوى. بقيتُمْ سيدي[8] للفضل والإغضاء، ودمتم غرّة في جبين السَّمْحة البيضاء، واقْتَضَيْتم السعادة المتّصلة مدّة الاقتضاء، بِيُمْن الله سبحانه»؛ انتهى.

---

(١) في الإحاطة: «وما أظنُّ تلك... في تدلُّيها إلاَّ الساحرة..».

(٢) في طبعة دار صادر (جـ ٧ ص ٤٢١): «بل ربيثها... سقتني بسيئتها». وفي الإحاطة: «بتجنُّيها، إذ كانت ربيبتها، بل ربيثتها..». والسيئة: اللبن ينزل قُبُل الدِّرَّة يكون في أطراف الأخلاف. لسان العرب (سيأ).

(٣) في الإحاطة: «بسينها».

(٤) في الإحاطة: «من مصرها غيرها». والعِيْرُ: القافلة. لسان العرب (عير).

(٥) في الإحاطة: «على سابقها».

(٦) في الإحاطة: «فغرَّتْني».

(٧) في الإحاطة: «على عِلاّتها».

(٨) في الإحاطة: «سيدي الأعلى».

ومن نثر ابن الجنان[1] رحمه الله تعالى في شرف المصطفى ﷺ: «المحمد خير الأنام، ولَبِنَةِ التمام، عليه أفضل الصلاة والسلام، خيرة[2] المفاخر، يتضاءل لعظمتها المُفاخر، والمعالي، يتصاغر لعزّتها المعالي، والمكارم، يعجز عن مساجلتها الْمُكارِم، والمناقب، لا تضاهي سناها النجوم الثواقب، والمحامد، لا يبلغ مداها الحامد، والمَمَاجد، لا يتعاطى رتبهنّ المُمَاجد، والمَنَاسب، سمت بجلالهن المناصب، والعناصر، طَيِّبَها الشرف المتناصر، والفضائل، تفجّرت في أرجائهنّ الفواضل، والشمائل، تأرَّجَتْ بعرفهنّ الجنائب والشمائل، فلا مُجاري لسيد البشر، الآتي بالنذارات والبُشَر، فيما حباه الله تعالى به وخصّه، وقصّه علينا من خلقه العظيم ونَصَّه، عند رسم مدائحه يوجد المعوَّل، وفي الثناء عليه يُسْتَقْصَرُ[3] الكلام المطوَّل، هو الآخر في ديوان الرسالة والأوّل، وله في الفضيلة، وقبول الوسيلة، النصّ الذي لا يؤوَّل، نوره صدع الظُّلَم[4]، وظهوره رفع لدين الله تعالى العَلَم، بدأه الوحي وهو بحراء، وأسرَّ إليه سرّ تقدم الإسراء، حتى إذا نصب له المعراج، وتوقد في منارة السماء ذاك السراج، ناجى الحبيب حبيبه، وجلا عن وجه الجلاء جلابيبه، فتلقّى ما تلقّى، لما علا وترقّى، ثم صدر[5] عن حضرة القدس، وجبين هدايته يَبْهَرُ سنا الشمس، فشقّ لمعجزاته القمر، ونهى بأمر ربّه وأمر، وأزال الجهالة، وأزاح الضلالة، وكسر منصوب الأوثان، ونصر من قال واحد أحد على من قال ثالث ثلاثة أوثان، وبنى الملّة على قواعدها الخمس[6]، وأحيا دين إبراهيم وكان رُفَاتًا بالرمس، فرفلت الحنيفية البيضاء في بردة الجدّة، وبيضت بضياء غرّتها أوجه الأيام المسودّة، وانتشرت الرحمة بنبيّها، ومطرت المرحمة من سحب حيّها، وافتننت الآيات الباقيات[7] البينات في مساقها واتّساقها، وإشرافها في آفاقها وائتلافها. وشهد الحجر والشجر، والماء من بين البنان يتفجّر، والظبية والضب، والجذع المشتاق الصَّبّ[8]، والشاة والبعير، والليث إذا هدأ

---

(١) في طبعة عبد الحميد (ج ١٠ ص ٢٨٠): «الجيان» بالياء.

(٢) في الطبعة نفسها: «خيرت».

(٣) في طبعة عبد الحميد (ج ١٠ ص ٢٨١): «يُسْتَصَرُ».

(٤) الظُّلَمُ: جمع ظلمة. لسان العرب (ظلم).

(٥) صدر عنها: رجع. لسان العرب (صدر).

(٦) يشير إلى قول رسول الله ﷺ: «بُني الإسلام على خمس».

(٧) كلمة «الباقيات» ساقطة من طبعة عبد الحميد.

(٨) الصَّبُّ: المشتاق. لسان العرب (صبب).

أو سمع منه الزئير، والحي والجماد، والقَصْعة والزاد، بأنَّ محمدًا رسول الملك الحقّ، والمبلغ عنه بواسطة الملك إلى الخلق، وصاحب اللواء المعقود، والمقام المحمود، والحوض المورود، والقول المسموع، والذكر المرفوع، والصدر المشروح، والفخر الباهر الوضوح، والأنوار المتناقلة، والآثار المتداولة، والنبوّة التي عَهْدُها تقادم، من قبل خلق آدم، والمزية المعروف قدرها الجليل، المقبول فيها ما دعا به الخليل، والرتبة التي استشرفَ إليها الكليم، حتى قال له ﴿وكُنْ مِنَ الشاكِرِينَ﴾[1] ربُّه الكريم، والبشارة التي كان بها يصبح حين يسيح، روح اللَّه تعالى وكلمته عيسى المسيح، والشفاعة التي يرجوها الرسل والأمم، ويقرع بها الباب المرتج المبهم، فما لنبيّنا المختار، من علوّ المقدار، واصطفاء الجبّار، والاختصاص بالأثرة، والاستخلاص للحضرة، ذلك الفضل من اللَّه وكفى باللَّه عليمًا. وحسب هذا الوجود من الفضل الرباني والجود الذي لم يزل عظيمًا، أن بعث اللَّه تعالى فيه رسولاً رؤوفًا بالمؤمنين رحيمًا، عزيزًا على ربّه الكريم كريمًا، بسرّه سجدت الملائكة لآدم تعظيمًا، وبذكره ينتظم سلك المادح لحضرته العليّة تنظيمًا، صلّى اللَّه عليه وعلى آله الطيبين الطاهرين وسلّم تسليمًا، صلاة تتّصل ما دار كأس محبته على محبّيه[2] فكان مزاجه تَسْنيمًا، وسلامًا ينزل دار دارين فيرسل ببضائعها إلى روضة الرضا نسيمًا».

ومن خطبه المرتجلة قوله سامحه اللَّه تعالى:

«الحمد للَّه الذي حَمْدُه من نَعْمائه، وشُكْرُه على آلائه من آلائه، أَحْمَدُهُ حَمْدَ عارف بحقّ سنائه، واقف عند غاية العجز عن إحصاء ثنائه، عاكف على رسم الإقرار بالافتقار إليه والاستغناء به في كل آنائه.

وأشهد أنْ لا إلَه إلاّ اللَّه وحده لا شريكَ له المتوحّد بعظمته وكبريائه، المتقدّس عمّا يقوله الملحدون في أسمائه.

---

(١) سورة الأعراف ٧، الآية ١٤٤.

(٢) في طبعة دار صادر (جـ ٧ ص ٤٢٣): «أحبّته».

وأُصلّي على سيد ولد آدم ونخبة أنبيائه، محمد المفضل على العالمين باجتبائه واصطفائه، المنتقى من صميم الصميم وصريح الصريح بجملة آبائه، المرتضى الأمانة والمكانة بإبلاغ أمر اللّه وأدائه، أرسله اللّه للناس كافة[1] عمومًا لا يتخصّص باستثنائه، وفَضّله بالآيات الباهرة والمعجزات الظاهرة على أمثاله من المرسلين ونُظرائه، ورقّاه إلى الدرجات العلا وأنهاه إلى سِدْرَةِ المنتهى ليلة إسرائه، وحَباه بالخصائص التي لا يضاهى بها بهاء كماله وكمال بهائه، ورَدّاه رِداء العصمة فكانت عناية اللّه تكتفه عن يمينه وشماله وأمامه وورائه، ووفاه من حظوظ البأس والندى ما شهد بمزيته على الليث والغيث في إبائه وانهمائه، صلّى اللّه عليه وعلى آله مصابيح الهدى ونجوم سمائه، صلاة تتّصل ما سمح البدر بائتلاق أنواره والقطر باندقاق أنوائه، وسلّم تسليمًا».

ومن نثره رحمه اللّه تعالى رسالة كتب بها من الأندلس إلى سيد الكونين ﷺ، وهي:

«السلام العميم الكريم، والرحمة التي لا تبرح ولا تَرِيم[2]، والبركة التي أوّلها الصلاة وآخرها التسليم، على حضرة الرسالة العامة الدعوة والنبوّة، المؤيّدة بالعصمة والأيْدِ[3] والقوة، ومَثابة البرّ والتقوى فهي لقلوب الطيبين صَفًا ومَرْوَة، مقام سيد العالمين طُرًّا، وهاديهم عبدًا وحرًّا، ومنقذهم من أشراك الهلاك وقد طالما ألفوا العيش ضنكًا والدهر مُرًّا، ومقرّ الأنوار المحمدية، والبركات السرمدية، أمتع اللّه تعالى الإسلام والمسلمين بحراسة أضوائها، وكلاءة ظلالها العلية وأفيائها، وأقرّ عين عبدها بلثم ثراها، والانخراط في سلك من يراها.

السلام عليك يا محمد، السلام عليك يا أحمد، السلام عليك يا أبا القاسم، سلام من يمدّ إليك يد الغريق، ويَرْجُو الإنقاذ ببركتك من نكد المَضِيق، ويتقطّع أسفًا ويتنفّس صعدًا كلّما ازدلف إليك فريق، وعمرت نحوك طريق، ولا يفتر صلاة عليك له لسان ولا يجف ريق. كتبته، يا رسولَ اللّه، وقد رحل المجدّون وأقمت، واستقام المستعدّون وما استقمت، وبيني وبين لثم ثراك النبوي، ولمح سناك المحمدي، مَفَاوز لا يفوز بقطعها إلاّ

---

(١) في طبعة عبد الحميد (ج ١٠ ص ٢٨٢): «اللّه كافة للناس».
(٢) لا تريم: لا تفارق مكانها. محيط المحيط (رام).
(٣) الأَيْدُ: القوة. محيط المحيط (آد).

من طهر دنس ثوبه، بماء تَوْبه، وستر وَصْم عيبه، بظهر غيبه، فكلّما رُمْت المتاب رُدِدْتُ، وكلّما يمّمت البابَ صُدِدْت، وقد أمرنا اللّه تعالى بالمجيء إليك، والوفادة عليك، ومن لي بذلك يا رسول اللّه والآثام تُثْنِي وتُبْعِدُ، والأيام لا تُدْني ولا تُسعد، وبين جنبي أشواق لا يزال يهزّني منها المُقِيم المُقْعِد، ولئن كنت مِمَّنْ خَلَّفته عيوبه، وأوبقته[1] ذنوبه، ولم يرض للوفادة وهو مدنس، على ذلك المقام وهو المطهر المقدّس، فعندي من صدق محبّتك، وحُبِّ صحبتك، والاعتلاق بذمّتك، ما يُقَدمني وإن كنت مبطئًا، ويقربني وإن كنت مخطئًا. فاشفع لي يا رسول اللّه في زيارتك فهي أفضل المنى، وتوسّل لي إلى مَوْلى بَيَّنَ فضيلتك، وتقبَّل وسيلتك، في النقلة من هناك إلى هنا، واقبلني وإن كنت زائفًا[2]، وأقبلْ عليَّ وإن أصبحت إلى الإثم متجانفًا، فأنت عماد أُمّتك جميعًا وأشتاتًا، وشفيعهم أحياء وأمواتًا. ومن نأت به الدار، وقعدت بعزمه الأقدار، ثم زار خَطُّه ولفظُه، فقد عظم نصيبه من الخير وحَظُّه، وإن لم أكن سابقًا فعسى أن أكون مُصَلِّيًا[3]، وإن لم أُعَدَّ مُقْبلاً فلعلي أُعدّ مُوَلِّيًا، ووحقك وهو الحقّ الأكيد، والقَسَم الذي يبلغ به المُقْسِم ما يريد، ما وَخَدَت إليك ركاب، إلاَّ وللقلب أثرها التهاب، وللدمع بعدها سَحّ وانسكاب، ويا ليتني مِمَّنْ يزورك معها ولو على الوجنتين، ويحييك بين ركبها ولو على المقلتين، وما الغنى دونك إلاَّ بؤس وإقلال، ولا الدنيا وإن طالت إلاَّ سجون وأغلال، واللّه تعالى يمنّ على كتابي بالوصول والقبول، وعليّ بلحاقي ببركتك ولو بعد طول. ثم السلام ورحمة اللّه تعالى وبركاته عليك يا سيِّدَ الخلق، وأقربهم من الحقّ، ولمولاه بإحراز قَصَب السَّبْق، ومن طهَّر اللّه تعالى مثواه وقدَّسه، وبناه على التقوى والرضوان وأسسه، وآتاه من كلِّ فضل نبوي أعلاه وأسناه وأنفَسه، وعلى ضجيعيك السابقين لمهاجريك وأنصارك، الفائزين بصحبتك العليّة وجوارك، وعلى أهل بيتك المطهّرين أوائلَ وأواخِرَ، الشهيرين مناقب ومفاخر، وصحابتك الذين عزروك ووقّروك، وآووك ونصروك، وقدّموك على الأنفس والأموال والأهل وآثروك، وأقرئك سلامًا تنال بركته مَنْ مضى من أمّتك وغَبَر، ويخصّ بفضل اللّه تعالى وجاهك من كتب وسَطَر، إن شاء اللّه تعالى. كتبه عبدك المستمسك بعروتك الوثقى، اللائذ بحرمك

---

(١) أوبقته الذنوب: أهلكته. لسان العرب (وبق).

(٢) الزائف: الدرهم الرديء الذي فيه غش، والمراد قوله: وإن كنت رديئًا.

(٣) المصلّي: الذي يأتي في السباق بعد المجلّي، أي يأتي ثانيًا في السباق. لسان العرب (صلا).

الأمنع الأوقى، المتأخّر جسمًا المتقدّم نطقًا، فلان، والسلام عليك يا رسول اللّه ﷺ تسليمًا كثيرًا ورحمة اللّه تعالى وبركاته».

وله من خطبة طويلة: «ونشهد أنَّ محمدًا عبد اللّه ورسوله الصفوة المجتبى، الكريم أُمًّا طاهرة وأبًا، المختار من الطيبين مباركًا طيّبًا، المصطفى نبيًّا إذ كان آدم بين الماء والطين مُتَقَلِّبًا، المتقدّم بمقام تأخّر عنه مقام الملائكة المقربين، انتخبه اللّه وانتجبه[1]، وأظهره على غيبٍ عن غيره حَجَبَه، وشرفه في الملإ الأعلى وأعلى رُتَبَه، وخَطَّ اسمه على العرش سطرًا وكتبه، فهو وسيلة النبيين، والمرشَّح أولاً لإمامة المرسلين، بعثه ربّه لختم الرسالة، ونعته بنعت الشرف والجلالة، وأيّده بالحجّة البالغة والدلالة، وجعله نورًا صادعًا لظلام الضلالة، وأثنى في ذكره الحكيم، على خُلُقِهِ العظيم[2]، فما عسى أن يبلغ بعدُ ثناءُ المُثْنِين، بفضله التصريح[3] وإليه الإشارة، وبه سبقت من إبراهيم الدعوة ومن عيسى البشارة، وعليه راقت من صفة الرؤوف الرحيم الحلية والشارة، وهو المخيّر بين المُلْك والعبودية فاختار العبودية بعد الاستخارة والاستشارة، فبتواضعه حلّ بمكان عند ذي العرش مكين أسرى به ربّه إليه، ووفده أكرم وفادة عليه، وأدناه قاب قوسين لديه، ووضع إمامة الرسالة العظمى في يديه، وقال له ﴿فَٱصْدَعْ[4] بما تُؤْمَرُ وأَعْرِضْ عن المُشْرِكِينَ ﴾[5] فصدع بأمر اللّه صَدْعًا، وأُوتي من المثاني سبعًا[6]، ومن الآيات البيّنات آلافًا وإن كان أوتي موسى تسعًا. فما مشيُ الشجرِ إليه يجرّ عروقَهُ إلاّ كرجوع العصا حيّة تسعى، وما تفجُّر الحجر بالماء بأعجب من بنانه نبعت بالعذب الفرات نبعًا، فارتوى منه خمسمائة وقد كان يكفي آلافًا فكيف المئين، وكم له عليه الصلاة والسلام من معجزة تبهر، وآية هي من أختها أكبر، رجعت له الشمس وانشقّ القمر، وكلّمه الضبّ وأخبر به الذئب وسلّم عليه الشجر

---

(١) انتجبه: اصطفاه واختاره. محيط المحيط (جبا).

(٢) يشير إلى قول اللّه تعالى في وصف النبي ﷺ: ﴿وإنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيم ﴾. سورة القلم ٦٨، الآية ٤.

(٣) في طبعة عبد الحميد (ج ١٠ ص ٢٨٥): «الصريح».

(٤) في أصول النفح: «اصدع».

(٥) سورة الحجر ١٥، الآية ٩٤.

(٦) يشير إلى قول اللّه تعالى: ﴿ولقد آتيناكَ سَبْعًا مِن المثاني والقرآنَ العظيمَ ﴾. سورة الحجر ١٥، الآية ٨٧.

والحجر، وكان للجذع عند فراقه إعلانًا بوجده واشتياقه أنّة وحنين[1]، أعطي من المعجزات ما مثله آمن[2] عليه البشر، وكانت له في الغار آيات بيّنات خفي بها على القوم الأثر، وارتج لمولده إيوان كسرى وخمدت نار فارس وكان ضرمها يتسعّر، وأتته أخبار السماء فما عمي في الأرض الخبر، فحدث عن الغيوب وما هو على الغيب بضنين، وجعل له القرآن معجزة تُتْلَى، يَبْلَى الزمانُ وهي لا تَبْلَى، وتعلو كلماتها على الكلم ولا تُعْلَى، وتجلى آياتها في عين آيات الشمس حين تُجْلى، فيتوارى منها بالحجاب حاجب وجبين، بهر إعجاز التنزيل العلي، وظهر به صدق النبي العربي، فكم نادى لسان عزّه في النَّدِيِّ، يا أهل البديهة من الفصحاء والرَّوِيِّ: قُلْ فأْتوا بسورة من[3] مثله فلم يكونوا لها مستطيعين. لقد خصّ نبيّنا عليه السلام بالآيات الكبر، والدلالات الواضحة الغُرَر، والمقامات السامية المظهر، والكرامات المخلّدة للمفخر، فهو سيّدُ الملإ النبوي والمعشر، وحامل لواء الحمد في المحشر، وصاحب المقام المحمود والكوثر، والشفيع المشفّع يوم يقوم الناس لربّ العالمين، صلّى اللّه عليه وعلى آله الطيبين، وذرّيّته المباركين، وصحابته الأكرمين، وأزواجه أمهات المؤمنين، صلاةً موصولة تتردّد إلى يوم الدين، وتصعد إلى السمٰوات العلا فتكون كتابًا في عِلِّيِّين، وسلّم تسليمًا».

ومن نثره في خطبة قوله: «أيها الناس، رحمكم اللّه تعالى! أصيخوا أسماعكم لمواعظ الأيام، واعتبروا بأحاديثها اعتبار أُولي النُّهى والأحلام، وأَحْضِرُوا لفهم موادِّها أوعى القلوبِ وأصَحَّ الأفهام، وانظروا آثارها بأعين المستيقظين ولا تنظروا بأعين النُّوَّام، ولا تخدعنكم هذه الدنيا الدنية بتهاويل الأباطيل وأضغاث الأحلام، ولا تنسينكم خُدَعُها المموّهة وخيالاتها الممثلة ما خلا من مقالاتها في الأنام، فهي دار انتياب النوائب، ومصاب المصائب، وحدوث الحوادث وإلمام الآلام، دارٌ صَفْوُها أكدار، وسلمُها حرب تُدار، وأمنُها خوف وحذار، ونظمها تفرق وانتشار، واتّصالها انقطاع وانصرام، ووجودها فناء وانعدام، وبناؤها تَضَعْضُعٌ وانهدام، ينادي كلّ يوم بناديها منادي الحِمام، فلا قرار بهذه

---

(١) يشير إلى ما يُرْوَى أن النبيّ ﷺ كان يخطب على جذع نخلة، واتُّخِذ له منبرٌ وصعد إليه، فسُمع للجذع حنين، فنزل والتزم الجذعَ، فسكن حنينُه، فقال النبيُّ ﷺ: «لو لم أفعل لظلّ يحنّ إلى يوم القيامة».

(٢) في طبعة عبد الحميد (ج ١٠ ص ٢٨٦): «غبط عليه..».

(٣) كلمة «من» ساقطة من طبعة عبد الحميد.

الغرّارة ولا مُقّام، ولا بقاء لساكنيها ولا دوام. فبئست الدار دارًا لا تدارى، ولا تُقِيلُ لعاثِرِها عِثارًا، ولا تقبل لمعتذر اعتذارًا، ولا تقي من جورها حليفًا ولا جارًا، وليس لها من عهد ولا ذِمام[1]، كم فتكت بقوم غافلين عنها نيام، كم نازلت بنوازلها من قِبَاب وخيام، كم بدلت من سلامة بداء ومن صحة بسَقّام، كم رمت أغراض القلوب بمُضْميات[2] السِّهَام، كم جردت في البرايا للمنايا من حُسَام، كم بدّدت بأكفّ النائبات الناهبات من عطايا جسام، كم أبادت طوارق حوادثها من شيخ وكهل وغلام. لا تبقي على أحد، ولا ترثي لوالد ولا ولد، ولا تخلد سرورًا في خلد، ولا يمتدّ فيها لآمل أمد، بينا يقال قد وُجِد، إذ قيل قد فُقِد، بُعْدًا لها قد طُبعت على نكد وكمد، فالفرح فيها تَرَح، والحبرة عبرة، والضحك والابتسام، بكاء وأدمع سِجام. تفرق الأحبة بعد اجتماعهم، وتسكن الوحشة مؤنس رِباعهم، وتستبيح[3] بالحِمام حمى الأعزّة فلا سبيلَ إلى امتناعهم، وتستحثُّ ركائب الخلائق على اختلاف أنواعهم، إلى مصيرهم إلى اللّه عزَّ وجلَّ وارتجاعهم، فيسيرون طوع الزمام، ويلقون مقادة التذلّل والاستسلام، حتى يلجأوا بالرَّغام[4]، وينزلوا بطون الرّجام[5]، ويحلُّوا الوهد بعد المقام السام، فلا ناج من خطبها العظيم ولا سليم، يتساوى في حكم المنيّة الأغرّ والبهيم، والأعزّ والمضيم. ولو أنه ينجو من ذلك مجدٌ صميم، وجدّ كريم، وحظّ عظيم، ومضاء وعزيم، ومزية وتقديم، وحديث في الفضل وقديم، وشرف لسمك السَّمْوَات مُسَام، وعُلاً على ساق العرش المجيد ذو ارتسام، لنجا حبيبُ الملك العلام، وسيّد السادات الأعلام، وصفوة الصفوة الكرام، وخاتم الأنبياء ولَبِنة التمام، وصباح الهدى ومصباح الظلام، والأبيض المُسْتَسْقَى به غيثُ الغمام، ثِمال الأرامل وعصمة الأيتام، عليه أفضل الصلاة والسلام، لكن مع قدره الجليل وفضله الجلي، أقدم الموت على جانبه العلي، وتقدم ملك الموت لقبض روحه القدسي، وتغيب في الثرى جمال ذلك الوجه البهي، وتغيض ماء السماء والندى، لملك السماحة النبويّة والندى،

---

(١) الذِّمامُ: العهد. لسان العرب (ذمم).

(٢) المُضْميات: جمع مُضْمٍ وهو الذي يصيب المقتل. لسان العرب (صمى).

(٣) في طبعة دار صادر (جـ٧ ص ٤٢٨): «وتبيح».

(٤) الرَّغام: التراب. لسان العرب (رغم).

(٥) الرِّجام، بكسر الراء: جمع رَجَم، بالفتح، وهو القبر. محيط المحيط (رجم).

وأصيب المسلمون وأعْظِمْ بها مصيبة بنبيّهم العربي، الهاشمي القرشي، فيا له للإسلام[1]، من مصاب أسلمنا للحزن أيَّ إسلام، وأسال مياه الدموع عن احتراق للضلوع واضطرام، وأرانا أنَّ الأسى في رزيّة لخير البرية واجب، وأنَّ التأسي حرام. وهل يسوغ الصبر الجميل، في فقيد بَكَتْه الملائكة وجبريل، وكثر له في السموات السبع النحيب والعويل؟ انقطع به عن الأرض الوحي الحكيم والتنزيل، وعظمت الرزيّة به أن يؤدي حقيقتها الوصف والتمثيل، غداة أقفر منه الرَّبْع المُحِيل، وأوحش من أُنسه السفح والنخيل، وكان من تلك الروح الطاهرة الوداع والرحيل، وقامت البَتُولُ[2] تندب أباها بقلب قريح وجفن دام، وتنادت الأُمّة مات الرسول ففي كل بيت بكاء وانتحاب ونوح والتزام، وحارت الألباب والعقول فلا صبر هنالك لقد زلَّت عن الصبر الأقدام. ولمَّا نُعِيَتْ إليه ﷺ نفسه، وآن أن تأفل من تلك المطالع شمسه، آذن[3] أمّته بالفراق وأعلمهم، وناشدهم في أخذ القصاص وكلّمهم، مخافة أن يمضي إلى الملك الحقّ، وعليه تباعة لأحد من الخلق، وحاشاه عليه الصلاة والسلام، من صفات جائرٍ للأُمّة ظَلاَّم، ولكنه تعريف من نبيّ الرحمة بما يجب وإعلام، ثم استمرّ به صلوات اللّه وسلامه عليه وتمادى، وزاد به السقم المنتاب وتهادى، حتى واراه مَلحَده، وخلا منه رَبْعه ومسجده، فعمّ الحزن والاكتئاب، وتوارى النور فأظلم الجناب، وعاد الأصحاب، وكأنما دموعهم السحاب، فقالت فاطمة وقد رابها من دفن أبيها الكريم ما راب: أطابت نفوسكم أن تَحثُوا على رسول اللّه ﷺ التراب؟ فكأنّ كلامها للقلوب المفجعة كِلاَم[4]، وللعيون المفجّرة بالدموع انسفاح وانسجام. وفي مثل هذا الشهر شهر ربيع، المشيد بذكر الأشجان المذيع، كانت وفاة هذا النبيّ الهادي الشفيع، وانتقاله إلى الملإ الأعلى والرفيق الرفيع، حين ناداه ربُّه إلى قربه، فلبّى بشوق قلبه تلبية المهطع[5] المطيع، وحَنَّ إلى حضرة القدس فانتظم حين حلّ بها ما كان من شمله الصَّديع، وانتظر من صنع الربّ جميلَ الصنيع، وإنجاز وعد الشفيع في الجميع، إذا أُعطي لواء الحمد وقام محمود المقام، ووقف على الحوض ينادي: هلمّوا إليَّ أروكم من العطش والأوام. اللهمَّ اسقنا من

---

(١) في طبعة دار صادر (ج ٧ ص ٤٢٩): «وللإسلام».

(٢) البتول: هي فاطمة الزهراء رضي اللّه عنها.

(٣) آذن أمّته: أعلمها. لسان العرب (أذن).

(٤) الكِلام، بكسر الكاف: الندوب والجروح. لسان العرب (كلم).

(٥) المهطع: المسرع. لسان العرب (هطع).

حوضه المورود، وشرِّفنا بلوائه المعقود، وشفِّعه فينا في اليوم المشهود، وارحمْنا به إذا صرنا تحت أطباق اللّحود، اللهمَّ اجعلْه لنا تعزية من كلِّ مفقود، وأوجد لنا من بركاته أشرفَ موجود، وجازه عنّا بما أنت أهله من فضل وإحسان وجُود، وانفعْنا بمحبّته ومحبّة آله وصحابته الرُّكَّع السُّجود، واجعلْنا معهم في الجنّة دار الخلود ودار السلام، واخصُصهم عنّا بأكرم تحيّة وأفضل سلام، وصلِّ عليهم صلاة تستلم أركان رضوانك أيَّ استلام، وتنظم له كرامات إحسانك أيَّ انتظام. فصلوات اللّه عليه، وأطيب تحيّاته ورحمته تتوالى لديه، وأجزل بركاته، ما تجدّد في ربيع ذكر وفاته، وتمهد كهف القبول لطالِبِي فضله وعُفَاته، وتعزى به كلّ مصاب في مصيباته، وتَرَجَّى شفاعته كلّ محبّ فيه متبع لهداياته، وتوفّرت للمصلّين عليه والمسلمين على جنباته، حظوظ من بِرِّ اللّه تعالى وأقسام ﴿إنَّ اللَّهَ وملائكَتَهُ يُصَلُّونَ على النبيِّ يا أيُّها الذين آمَنُوا صَلُّوا عليه وسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾[1] اللهمَّ صَلِّ عليه من نبيّ لم يزل بالمؤمنين رؤوفًا رحيمًا، اللهمَّ صَلِّ عليه من نبيّ أوجبتَ حبّه وعظَّمته تعظيمًا، اللهمَّ صَلِّ عليه من نبي صلّيت عليه تَجِلَّةً وتكريمًا، وأمرتنا بالصلاة عليه إرشادًا وتعليمًا، فلنا بأمرك اقتداء وائتمام، وبحمدك على ما هديتنا افتتاح واختتام، وكلامك يا ربَّنا أشرف الكلام، ولوَجْهِك وحده البقاء والدوام ﴿كُلُّ مَنْ عليها فانٍ ويَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذو الجَلالِ والإكرامِ ﴾[2] ﴿هُوَ الحَيُّ لا إلَهَ إلاَّ هُوَ فادْعُوهُ مُخْلِصِينَ له الدينَ، والحَمْدُ للَّهِ ربِّ العالمِينَ ﴾[3] انتهى.

وترجمة ابن الجنان[4] واسعة جدًّا، وكلامه في النبويات نظمًا ونثرًا جليل، رحمه اللّه تعالى!

وقال لسان الدين في «الإحاطة» بعد أن عرّف به وأورد له الرسالة ما صورته[5]: ومحاسنه عديدة، وآماده[6] بعيدة، ثم قال[7]: إنه انتقل إلى بجاية فتوفي بها في عشر الخمسين وستمائة؛ انتهى.

---

(١) سورة الأحزاب ٣٣، الآية ٥٦.
(٢) سورة الرحمن ٥٥، الآيتان، ٢٦، ٢٧.
(٣) سورة غافر ٤٠، الآية ٦٥.
(٤) في طبعة عبد الحميد (جـ ٤ ص ٢٩٠): «الجيان» بالياء.
(٥) الإحاطة (جـ ٢ ص ٣٥٩).
(٦) في طبعة عبد الحميد (جـ ١٠ ص ٢٩٠): «وآماله».
(٧) الإحاطة (جـ ٢ ص ٣٥٩).

وقال صاحب «عنوان الدراية» في حق ابن الجنَّان[1] المذكور ما ملخصه[2]: الفقيه الخطيب، الكاتب البارع الأديب، أبو عبد الله بن الجنان[1]، من أهل الرواية والدراية والحفظ والإتقان، وجودة الخطّ وحسن الضبط، وهو في الكتابة من نظراء الفاضل أبي المطرف بن عميرة المخزومي، وكثيرًا ما كانا يتراسلان بما يعجز عنه الكثير من الفصحاء، ولا يصل إليه إلاّ القليل من البلغاء، ونثره ونظمه كلّه حسن، ونظمه غزير، وأدبه كثير، ومن ذلك قصيدته الدالية التي مطلعها: [البسيط]

يا حاديَ الركبِ قِفْ بالله يا حادي ... وارحمْ صبابةَ ذي نأيٍ وإبعادِ

وله أيضًا: [مجزوء الكامل]

تركُ النزاهة عندنا ... أدّى إلى وصف النزاهَهْ
ما ذاك إلاّ أنها ... تدعو الوقورَ إلى الفكاهَهْ
وإذا أمرؤٌ نبذ الوقا ... رَ فقد تَلَبَّسَ بالسفاهَهْ

ومن بديع نظم ابن الجنان[1] رحمه الله تعالى هذا التخميس في مدح سيد الوجود، صلى الله عليه وسلم وشرف وكرم: [الكامل]

اللَّهُ زادَ محمدًا تكريمًا ... وحَباهُ فَضْلاً من لدنه عَظيما
واختصَّهُ في المرسلين كريما ... ذا رأفةٍ بالمؤمنين رحيما

﴿صَلُّوا عليه وسَلِّمُوا تَسْلِيما﴾[3]

جلَّتْ معاني الهاشميِّ المرسَلِ ... وتَجلَّتِ الأنوارُ منه لمجتلي
وسَمَا به قدرُ الفخار المعتلي ... فاحتلَّ في أُفقِ السماء مُقيما

صلّوا عليه وسلّموا تسليما

حاز المحامدَ والممادحَ أحمدُ ... وزكت مناسبُه وطابَ المحتِدُ[4]
وتَأثَّلَتْ علياؤه والسؤددُ ... مجدًا صميمًا حادثًا وقديما

صلّوا عليه وسلّموا تسليما

---

(١) في طبعة عبد الحميد (ج ١٠ ص ٢٩١): «الجيان» بالياء.
(٢) عنوان الدراية (ص ٢١٣).
(٣) سورة الأحزاب ٣٣، الآية ٥٦.
(٤) المناسب: الأصول من جهة الأم والأب. المحتد: الأصل. لسان العرب (نسب) و (حتد).

شمسُ الهداية، بدرُها الملتاحُ قطبُ الجلالة، نورُها الوضّاحُ
غَيثُ السماحةِ للندى يرتاحُ يروي بكوثره الظماءَ الهِيما[1]

صلّوا عليه وسلّموا تسليما

تاجُ النبوّة، خاتمُ الأنبياء صفوُ الصريح، خُلاَصةُ العلياء
نَجلُ الذبيح، سلالةُ العلماء بُشرى المسيح، دعاء إبراهيما

صلّوا عليه وسلّموا تسليما

فخرٌ لآدم قد تقادم عَصْرُهُ من قبل أن يدرى ويجرى ذِكْرُهُ
سرٌّ طَوَاهُ الطينُ فَهْمَ نَشْرُهُ مَغنى السجودِ لآدمٍ تفهيما

صلّوا عليه وسلّموا تسليما

للّه فَضْلُ المصطفى المختارِ ما إن له في المكرمات مُجَاري
ولا مبارٍ باختصاص الباري بالحقّ قدّم مجدهُ تقديما

صلّوا عليه وسلّموا تسليما

أوصافُ سيّدنا النبيُّ الهادي ما نالَها أحدٌ من الأمجادِ
فالرُّسل في هدي وفي إرشادِ قد سلّموا لنبيّنا تسليما

صلّوا عليه وسلّموا تسليما

آياته بَهَرَتْ سنا وسناءًا وأفادتِ القمرين[2] منه ضياءًا
وعَلَتْ بأعلام الظهور لواءًا فهدى به اللّه الصراط قويما

صلّوا عليه وسلّموا تسليما

دَنَتِ النجومُ الزُّهرُ يومَ ولادَتِهْ ورأتْ حليمةُ آيةً لسيادتِهْ
وتَحَدَّثَتْ سعدٌ بذكر سعادتِهْ فتفاءلوا نعمَ اليتيمُ يتيما

صلّوا عليه وسلّموا تسليما

(١) الهِيمُ: جمع أهيم وهو الشديد العطش. لسان العرب (هيم).
(٢) القمران: الشمس والقمر.

لـمّـا تـرعـرع جـاءه الـمـلَـكـانِ   بـالـطـستِ فـيها حـكـمة الـرحـمنِ
فاستخرجا القلبَ العظيمَ الشانِ   مـنـه وطُـهِّـرَ ثـم عـاد سـلـيـمـا

صـلّـوا عـلـيـه وسـلّـمـوا تـسـلـيـمـا

كرمتْ مناشي أحمدٍ خيرِ الورى   وجرى له القلمُ العليُّ بما جرى
ما كانَ ذلكمْ حديثًا يُفترى[1]   لـكـنـه الـحـقُّ الـجـلـيُّ رسـومـا

صـلّـوا عـلـيـه وسـلّـمـوا تـسـلـيـمـا

مـا زالَ بـرهـانُ الـنـبـيِّ يـلـوحُ   يـغـدو بـه الإعـجـازُ ثـم يـروحُ
حـتـى أتـاهُ بَـعْـدَ ذاك الـروحُ[2]   يـوحـي لـه وحـي الإلَـه حـكـيـمـا

صلّوا عليه وسلّموا تسليما

شـهـدتْ لـه بـمـزيـة الـتـفـضـيـلِ   سُـوَرٌ وآيـاتٌ مـن الـتـنـزيـلِ
وصـلاةُ خـالِـقِـهِ أدلُّ دلـيـلِ   فـافْـهَـمْهُ واسْمَعْ قـولَـهُ تـعظيـمـا

صـلّـوا عـلـيـه وسـلّـمـوا تـسـلـيـمـا

إنَّ الـرسـولَ الـمـعـتـلـي الـمـقـدارِ   لـمـؤيَّـدٌ مِـنْ رَبِّـهِ الـقـهّـارِ
بـالـمعـجـزاتِ جَـلَـتْ عـمـى الأبـصـارِ   وشـفـت مِـنَ أدواء الـضـلال سـقـيـمـا

صـلّـوا عـلـيـه وسـلّـمـوا تـسـلـيـمـا

كـم شـاهـدٍ لـمـحـمـدٍ بـنـبـوَّتِـهْ   فـي أيـدِ تـأيـيـدِ الإلَـهِ وقـوّتِـهْ
فـبـذاك أعـلـى الـلّـه دعـوةَ حـجّـتِـهْ   فـمـضـت حـسـامًـا صـارمًـا وعـزيـمـا

صـلّـوا عـلـيـه وسـلّـمـوا تـسـلـيـمـا

الـبـدرُ شُـقَّ لـه لِـيُـظْـهِـرَ صـدقَـهُ   والـشـمسُ قـد وقـفـت تـعـظِّـمُ حَـقَّـهُ
والـمـزنُ أرسـلَ إذ تـوسَّـلَ وَدْقَـهُ[3]   فـاخـضـرَّ مـا قـد كـان قـبلُ هـشـيـمـا

صـلّـوا عـلـيـه وسـلّـمـوا تـسـلـيـمـا

(١) يُفْتَرَى: يُخْتَلَقُ؛ يقول اللّه تعالى: ﴿ما كان حديثًا يُفْتَرَى ولكن تَصْدِيقَ الذي بَيْنَ يَدَيهِ﴾. سورة يوسف ١٢، الآية ١١١.

(٢) الروح: هو جبريل عليه السلام.

(٣) الوَدْقُ، بفتح الواو وسكون الدال: المطر. محيط المحيط (ودق).

والماءُ بين بَنانِهِ قد سالا عذبًا مَعينًا سائغًا سلسالا
كَنَدَاه يمنحُ رفده من سالا[1] ويُنيلُ راجيهِ النوالَ جسيما

صلّوا عليه وسلّموا تسليما

بركاتُهُ أرْبَتْ على التعدادِ كم أطعمتْ من حاضرين وبادي
مِنْ قصعةٍ أو حثيةٍ من زاد رزقًا كريمًا للجيوشِ عميما

صلّوا عليه وسلّموا تسليما

سَجَدَ البعيرُ له سجودَ تذلّلِ وشكا إليه بحرقةٍ وتململِ
والشاةُ قال ذراعها: لا تأكلِ مني فإني قد ملئتُ سموما

صلّوا عليه وسلّموا تسليما

والغصنُ جاء إليه يمشي مُسْرعا والصخرُ أفصح بالتحيّة مسمعا
والظبيةُ العجماءُ فيها شُفّعا والضبُّ كلّم أحمدًا تكليما

صلّوا عليه وسلّموا تسليما

والجذعُ حنَّ له حنينَ الوالِهِ يبدي الذي يخفيه من بلبالِهِ[2]
أفَلاَ يحنُّ متيَّمٌ بجمالِهِ يشتاقُ وجهًا للنبيِّ وسيما

صلّوا عليه وسلّموا تسليما

ما بالُنا نسلو وحبُّ حبيبنا يقضي ببثِّ غرامنا ونحيبنا
لو صحّ في الإخلاص عقد قلوبنا لم نَنْسَ عهدًا للرسولِ كريما

صلّوا عليه وسلّموا تسليما

أين الدموع نُفيضُها هتّانا أين الضلوعُ نُقِضُها[3] أشجانا
حتى نقيمَ على الأسى برهانا لمتممٍ إرشادنا تَتْميما

صلّوا عليه وسلّموا تسليما

---

(١) سال: أصل الكلام: «سأل»، وقد خفّفت الهمزة للضرورة الشعرية.

(٢) البلبال: شدّة الهمّ. محيط المحيط (بلبل).

(٣) في طبعة عبد الحميد (جـ ١٠ ص ٢٩٥): «نقضها».

أَوَ ليس هادينا إلى سُبُلِ الهدى　　أو ليس منقذُنا مِنَ أشراك الردى
أو ليس أكرمَ من تعمّم وارتدى　　أَوَ لم يَكُن أزكى البريّةِ خِيما[1]

صلّوا عليه وسلّموا تسليما

ذاكَ الشفيعُ مقامُهُ محمودُ　　ولواؤه بيدِ العُلاَ معقودُ
فإذا تَواقَتْ للحساب وفودُ　　قالوا: تقدَّمْ بالأنام زعيما

صلّوا عليه وسلّموا تسليما

فيقومُ بالباب العليّ ويسجدُ　　ويقولُ: يا مولايَ آن الموعدُ
فيجابُ: قُلْ يُسْمَعْ إليك محمدُ　　ونُريك منّا نَضْرَةً ونعيما

صلّوا عليه وسلّموا تسليما

أَعْظِمْ بعزِّ محمدٍ وبجاهِهِ　　أكرمْ به متوسّلاً لإلَهِهِ
شربتْ كرامُ الرُسل فَضْلَ مياهِهِ　　فَغَدَتْ تعظِّمُ حقَّهُ تعظيما

صلّوا عليه وسلّموا تسليما

يا سامعي أخباره ومفاخِرَهْ　　ومُطَالعي آثاره ومآثرَهْ
ومؤملي وَافِي الثوابِ ووافرَهْ　　إنْ شئتمُ فوزًا بذاك عظيما

صلّوا عليه وسلّموا تسليما

قلت: وكثيرًا ما كنت أُنشد هذه القصيدة بالمغرب في مجالس التدريس، وأضيف إليها قبلها أخرى لبعض أهل المغرب الذين لهم في منازل الأمداح النبويّة مَقِيل وتَعْريس، وهي قصيدة ميلادية كأنما لم ينظمها مؤلّفها إلاّ مقدّمة لهذه القصيدة الفريدة، وهي: [الكامل]

اسمعْ حديثًا قد تضمَّنَ شَرْحُهُ　　روضًا من الإيناس أينعَ دَوْحُهُ
فيه الشفاءُ لمن تكاثر بَرْحُهُ　　وافى ربيعٌ قد تَعَطَّرَ نَفْحُهُ

أذكى مِنَ المِسْكِ الفتيقِ نسيما

---

(١) الخِيم، بكسر الخاء: الطبيعة والسجيّة. لسان العرب (خيم).

شَهْرٌ حوى بوجود أحمدَ أسْعُدًا بالمصطفى بين الشهورِ تفرَّدا
يا ما أجلَّ سنا عُلاَه وأمجدًا لولادةِ المختارِ أحمدَ قد غدا

يزهو به فخرًا تراه عظيما

يا مَنْ بأدمع مُقْلتيه يَغْتَذِي كم ذا تنادي حسرة: مَنْ مُنْقِذِي
وتقول للزفرات: هل من منقذِ بُشرى بشهر فيه مولده الذي

سرّ الزمان علوّهُ تعظيما

يا ليلةً رُفعتْ بأحمدَ حُجْبُهَا لَمَّا دنا بعد التباعدِ قربها
وتطلّعتْ للسعد فينا شُهبها ضاءت لها شرقُ البلادِ وغربها

وتأنّقتْ أرجاؤها تنعيما

أسدى إليك الدهر حُسْنَ صنيعه وحَبَاكَ من غَضِّ الجنى ببديعه
وافى هلال محمدٍ بربيعه فاعتزَّ أمر اللّه عند طلوعه

وغدا به دين الإلَهِ قويما

نَظَمَ الزمانُ بِجِيدِ عمرك دُرَّهُ فاشكرْ مآثره وواصل برَّهُ
وافاكَ بالسرِّ المصون فَسُرَّهُ واعرفْ لهذا الشهر حقًّا قَدْرَهُ

فلقد غدا بين الشهور كريما

يا صاحِ جاءتْ بالأماني أسعدُ وأطلَّ بالبشرى الكريمةِ مولدُ
هذا ربيع فيه أُنجز موعدُ شهرٌ كريمٌ جاء فيه محمدُ

صلّوا عليه وسلّموا تسليما

ثم قلت أنا عند ختم دَرْس «الشفا»، موطِّئًا لقصيدة ابن الجنان[(١)] المذكور ولعذب براعتها مرتشفًا، ما نصّه والأعمال بالنيّات:

انْشَقْ[(٢)] أزاهرَ عن فنونِ رياضِ للعلم واكْرَعْ من عِذابِ حِياضِ
واسقِ الرياضَ بذكره الفيّاضِ واحفظْ كلامًا للإمام عياضِ

قد تممت أقسامه تتميما

(١) في طبعة عبد الحميد (ج ١٠ ص ٢٩٧): «الجيان» بالياء.
(٢) نَشِقَهُ: شَمَّهُ. محيط المحيط (نشق).

لـلّـه روضٌ مـنـه أَيْـنَـعَ دَوْحُـهُ يجنى به منُّ الكريمِ ومَنْـحُـهُ
فـهـو الـشـفـاءُ لـمـن تـكـاثـر بَـرْحُـهُ مِـسْـكُ الخِـتـامِ بـه تـعـطـر نَـفـحُـهُ

فـشـذاه فـي الأرجـاء صـار شـمـيـمًـا[1]

فاضتْ علينا من هداه عوارفُ زهــرٌ وأنـــوارٌ وظـــلٌّ وارفُ
ونـمـارقٌ مـصـفـوفـةٌ ومـطـارفُ يـا حُـسْـنَ مـا أبـداه فَـذٌّ عـارفُ

دُرًّا بـأسـلاك الـحـديـث نـظـيـمـا

لم لا وبالملكِ الشفيعِ تشرّفا خيرُ البريّةِ ركن أرباب الصفا
من أسعد الراجي وقصدًا أسعفا طٰهَ النبيّ الهاشميّ المصطفى

صـلّـوا عـلـيـه وسـلّـمـوا تـسـلـيـمـا

وقد رأيت بعد وصولي إلى هذا الموضع من هذا الكتاب أن أذكر قصيدة لابن الجنان[2] المذكور في روي تلك القصيدة غير مخمّسة مستقلّة بنفسها، وهي قوله رحمه اللّٰه تعالى: [الكامل]

صلّوا على أسنى[3] البريّة خِيما وأجلِّ مَنْ حازَ الفخار صميما
صلّوا على من شُرِّفَتْ بوجوده أرجاءُ مكّةَ زمزمًا وحَطيما
صلّوا على أعلى قريشٍ منزلاً بـذَرَاه خَيَّمَتِ الـعُـلا تـخـيـيـمـا
صلّوا على نور تجلّى صبحه فجلا ظلامًا للضلال بهيما[4]
صلّوا على هادٍ أرانا هديه نهجًا من الدين الحنيف رحيما
صلّوا على الزاكي الكريم محمدٍ ما مثله في المرسلين كريما
ذاك الذي حاز المكارمَ فاغتدتْ قد نُظِّمَتْ في سلكه تنظيما
من كان أشجعَ من أُسامةَ[5] في الوغى ولدى الندى يحكي الحَيَا تجسيما

(١) الشميم: المشموم. لسان العرب (شمم).
(٢) في طبعة عبد الحميد (ج ١٠ ص ٢٩٨): «الجيان».
(٣) في طبعة دار صادر (ج ٧ ص ٤٤٠): «خير البرية».
(٤) البهيم: المظلم الذي لا ضوء فيه. لسان العرب (بهم).
(٥) أسامة: السبع.

طَلْقُ المُحَيَّا ذو حياءٍ زانه وسطَ النديِّ وزاده تعظيما
حكمتْ له بالفضل كلُّ حكيمةٍ في الوحي جاء بها الكتابُ حكيما
وبَدَتْ شواهدُ صدقه قد قسّمت بَدْرَ الدُّجَى لقسيمه تقسيما
والشمسُ قد وقفت له لمَّا رأتْ وجهًا وسيمًا للنبيِّ وسيما
كم آيةٍ نطقتْ تصدِّقُ أحمدا حتى الجمادُ أجابه تكليما
والجذعُ حنَّ حنينَ صَبٍّ مُغْرَمٍ أضحى للوعاتِ الفراق غريما
جَلَّتْ مناقبُ خاتمِ الرُّسل الذي بالنور ختَّم والهدى تختيما
وسَمَتْ به فوق السماءِ مراتبٌ بمقام صدق عَزَّ فيه مقيما
فله لواء الحمدِ غيرَ مدافَعٍ وله الشفاعةُ إذ يكون كليما
نرجوه في يوم الحساب، وإنما نرجو لموقفِهِ العظيمِ عظيما
ما إنْ لنا إلاَّ وسيلةُ حُبِّهِ وتحيَّةٌ تذكو شَذًى وشميما
ولخير ما أهدى امرؤ لنبيِّه أَرَجُ الصلاة مع السلام جسيما
يا أيُّها الراجون منه شفاعةً صلّوا عليه وسلّموا تسليما

وهذه قصيدة بديعة مخمسة من كلام الشيخ الأستاذ أبي العلا إدريس بن موسى القرطبي[1] في مدح رسول الله ﷺ، وقف عليها أبو عبد الله بن الجنان[2] المذكور وقرّظها بما سنذكره قريبًا بعدها[3]، وهي: [الكامل]

أهلاً بكم يا أهل هذا النادي أهلَ اعتقادِ الوعدِ والميعادِ
أهدوا الصلاة إلى النبيِّ الهادي وصِلُوا السلامَ له مع الآباد
ينديْ نسيمًا مذكرًا تسنيما

هو أولُ الشفعاءِ يومَ المحشرِ وسواه بين تقدُّم وتأخُّرِ
بهت الحضورُ لهول ذاك المحضرِ والكلُّ في الخطب العميم الأكبر
قد هيَّمَتْ ألبابهم تهييما

---

(١) هو إدريس بن محمد بن موسى الأنصاري القرطبي؛ أقرأ العربية والآداب بقرطبة، إلى أن تملّكها الروم فخرج إلى سبتة وأقرأ هنالك العربية والآداب. توفي سنة ٦٤٧ هـ. التكملة (ص ١٩٧).
(٢) في طبعة عبد الحميد (جـ ١٠ ص ٢٩٩): «الجيان» بالياء.
(٣) في طبعة دار صادر (جـ ٧ ص ٤٤١): «بعدها قريبًا».

ذاك المقامُ الأشهرُ المحمودُ هو للنبيِّ محمد موعودُ
فيه الشفاعةُ ذخرها موجودُ درك المراد وحوضُهُ الموروودُ

فضل الكليمَ[1] به وإبراهيما

عيسى وموسى والخليلُ[2] مروَّعُ مِنْ هول مطّلع هنالك يَفْظَعُ
فيقال أحمدُ قُلْ فإنك تُسْمَعُ فيقومُ يحمد ربّه فيشفَّعُ

فضلاً من الربِّ العظيم عظيما

يا أُمَّةَ المختارِ أنتم أمّه والهولُ قد عَمَّ البسيطةَ يمه
والأنبياء سواه كلٌّ همّه تخليصُ مهجته وليس يهمّه

من كان في الدنيا عليه كريما

صلّى الإلّه على الذي صلّى عليهْ عشرًا بواحدة يزكّيها لديهْ
وأراه في الدارَيْنِ قُرَّةَ ناظريهْ يا قاصدين إلى وصولكم إليهْ

راجين من أرَجِ القبول نسيما

لولا وصيّةُ صاحبِ التنزيلِ أن لا يقالَ له غُلُوّ القيلِ[3]
قولُ الغلاةِ لصاحبِ الإنجيل لغلوتُ في التعظيم والتبجيلِ

عظمُ المكانة يوجبُ التعظيما

طوبى لقلب قد تلالا إذ صَفَا بالسِّرِّ منه قد تثبت إذ هفا
خُطَّتْ به آياتُ حبِّ المصطفى فَغَدَا لصاحبه بذلك مصحفا

يهدي إلى نهج النجاة قويما

فاقتْ علا ذكراه إذ راقتْ حُلاً ملأ النبوّة أمهم حين اعتلى
في ليلةِ الإسراء أعلى معتلى كتب الإلّه له التقدّم في العلا

وعليهمُ التفويضَ والتسليما

---

(١) الكليم: هو موسى عليه السلام.
(٢) الخليل: هو إبراهيم الخليل عليه السلام.
(٣) يشير إلى قول النبي ﷺ: «لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى، ولكن عبد الله ورسوله».

وكذاك يسلم في الشفاعة كلُّهُمْ ومحلُّهُمْ عند الإلّه محلّهمْ
ظلُّ النبيِّ محمدٍ هو ظلّهم يمشون تحت لوائه فيدلهمْ

يندى عليهم بهجةً ونعيما

أوصافُهُ من كلِّ حُسْنٍ أبهجُ العَرْفُ ينفحُ والسنا يتبلَّجُ
فتأرج الأرجاءُ منه وتبهجُ فاقَ الزواهرَ نورها يتوهَّج

والزهرُ نفّاح النسيم وسيما

طَلْقُ المُحَيّا منهلٌ للنائلِ أنحى على الدنيا بزهدٍ كاملِ
هو مَثَّلَ الدنيا بظلّ زائلِ لم تُرْضِهِ حالُ النعيمِ الحائلِ

ما حاول الترفيه والتنعيما

ما وَرَّثَ المختارُ مالَ مؤمّلِ إلاَّ جواهرَ في الكتاب المنزلِ
أشهى لقلبِ الناظرِ المتأمّلِ وأقرَّ إعجابًا لعين المجتلي

من كلِّ قيمةِ مقتضٍ تقويما

وُفِّقْتَ يا مَنْ لم يخالف نَصَّهُ حُزْتَ الكمالَ وليس تخشى نَقْصَهُ
نهج الهدى قولُ النبيِّ اقتصَّهُ بالوحي شَرَّفه الإلّه وخَصَّهُ

شرقًا على شرفِ السناءِ صميما

سبحان مُوحٍ لا يحدُّ له الكلامْ من قال ذات كلام خلاق الأنامْ[1]
خَلْقٌ فذلك آثم كلّ الأثامْ ذاك الذي في الدين ليس له ذِمامْ

إلاَّ ذمامٌ لا يزال ذميما

ضَلَّ الذي يبغي الهدى مِمّا سواه وهوى به في كلِّ مهواة هَوَاه
من فارق الفاروقَ قد تَبَّتْ يداه حيران لم يُهْدَ السبيلَ إلى هداه

لا يعرف التحليل والتحريما

(١) يشير إلى ما ذهب إليه المعتزلة من أنّ القرآن مخلوق، وكان لهم خطب فادح في هذه المسألة، وفيها أوذي كثير من أئمة الهدى كأحمد بن حنبل، شيخ أهل الحديث.

بالمدح مجد المصطفى يمّمته | من حَلْي أوصافٍ له نظمته
لم أبلغِ المعشارَ إذ أحكمته | بعضًا نسيتُ وبعضه أُلهمته

قلّدته جيدَ الزمانِ نظيما

لو فُزْتُ بالإحسان من حَسّانِ | وسَحَبْتُ أذيالي على سحبانِ[1]
أو أيدتني لُسْنُ كلِّ زمانِ | من كلِّ ذي زعم عظيم الشانِ

ما كنتُ بالمعشار منه زعيما

إدريسُ خفّتك الحقوقُ حفوفا | هلاّ خففتَ إلى الرسول خفوفا
وقريتَ بالعزم الهموم ضيوفا | وشدوت أن هال الزمان صروفا

مَهْلاً كفاكَ معلّمي التعليما

ثقةٌ بفضلِ الواحدِ القهّارِ | ملك الملوك مصرِّفُ الأعصارِ
جعلَ النبيّ مكرم الآثارِ | وأمَدَّه بالنصر والأنصارِ

وأتمَّ نِعْمَتَهُ له تتميما

هل أجلون بصري بكحل سناه | يا سعد من كحلَتْ به عيناه
ظفرت يداه، وساعدته مناه | لـأـه ذاكَ الأفق ما أسناه

كرم المحلّ فيقتضي التكريما

ونَصُّ تقريظ ابن الجنان[2] على هذه القصيدة هو قوله: [المجتث]

ما زال كلُّ حليفِ | لـأـه أضحى وليًّا
وللعلوم خليلاً | وعن سواها خليّا
يصوغُ عِقْيانَ مدحٍ | للهاشميِّ حليّا
ويوجبُ الحقَّ فيه | إيجابَهُ الأوليّا
ويقتفي في رضاه | نهجًا جليلاً جليّا

(١) حسان: هو حسان بن ثابت، شاعر النبيّ ﷺ. سحبان: هو سحبان وائل، أحد خطباء العرب في العصر الجاهلي.

(٢) في طبعة عبد الحميد (جـ ١٠ ص ٣٠٢): «الجيان» بالياء.

والكلُّ أحظاه[1] حظٌّ فالفوزُ يُلفَى مليّا
لكنَّ إدريسَ منهم حاز المكانَ العليّا

ولا يخفاك أنه التزم في هذه القطعة ما لا يلزم من اللام قبل الياء، رحمه اللّه تعالى!.

ولا بأس أنْ نورد هنا ما حضر من التخميسات الموافقة لتخميس ابن الجنان[2] المذكور السابق أولاً في البحر والروي والمنحى الذي لا يضلّ قاصده، وكيف لا وهو مدح الجناب الرفيع العظيم النبوي.

فمن ذلك قول أبي إسحٰق إبراهيم بن سهل الإسرائيلي الإشبيلي، فإنَّ بعضًا ذكر أنها من قوله لما أظهر الإسلام، وهي لا تقتضي رفع الريبة فيه والاتهام[3]: [الكامل]

جعل المهيمنُ حبَّ أحمد شيمةً وأتى به في المرسلين كريمةً
فغدا هواه على القلوب تميمةً وغدا هداه لهديهم تتميما

صلّوا عليه وسلّموا تسليما

أبدى جبينُ أبيه شاهدَ نوره سَجعتْ به الكهّانُ قبل ظهوره
كالطير غَرَّدَ معربًا بصفيره عن وجهِ إصباحٍ يطلُّ نسيما

صلّوا عليه وسلّموا تسليما

أُنسُ الرسالة بَعْدَ شدّة نفرةٍ مَنْجَى البريّةِ وهي في يَدِ غمرةٍ[4]
محيي النبوّة والهدى عن فترةٍ فكأنما كفل الرشاد يتيما

صلّوا عليه وسلّموا تسليما

اللّهُ أوضحَ فَضْلَهُ فتوضَّحا واللّه بَيَّنَ حُبَّهُ في (والضحى)[5]
والجذعُ حنَّ هَوًى له فترنّحا والماءُ فاض بكفِّه تسنيما

صلّوا عليه وسلّموا تسليما

---

(١) في الطبعة نفسها: «أخطاه».

(٢) في طبعة عبد الحميد (جـ ١٠ ص ٣٠٣): «الجيان» بالياء.

(٣) هذه المخمسة غير واردة في ديوان «ابن سهل» طبعة دار صادر، ١٩٦٧، ولا طبعة دار الكتب العلمية، ١٩٨٨.

(٤) الغمرة: الشدّة. لسان العرب (غمر).

(٥) «والضحى»: أي في سورة الضحى، وهنا يشير إلى قول اللّه تعالى: ﴿وللآخِرَةِ خيرٌ لكَ مِنَ الأُولَى﴾ =

ريّا الـروايـةِ عـن عُـلاه زكـيّـة[1]   نـجـواهُ ربّـانـيّـةٌ مـلـكـيّـة
أوصـافُـهُ عُـلـويّـةٌ فَـلَـكِـيّـة   فإخـالُ شـعـري عـنـدها تـنـجـيـمـا

صلّوا عليه وسلّموا تسليما

احـتـثّ في السـبع الطبـاق بُرَاقَهُ[2]   والأرضُ واجـمـةٌ تـخـاف فـراقَـهُ
سـبـحـانَ مـن أدنـى سُـرَاه فسـاقَهُ   شخصًا على ملكِ الملوك كريما

صلّوا عليه وسلّموا تسليما

فـاشـتـمَّ ريـحـانَ الـقـلـوبِ الطـيّـبـا   ودَنَـا فـأسـمـع يـا مـحـمـدُ مـرحـبـا
إنـي جَـعـلـتـك جـارَ عـرشـي الأقـربـا   إن كـنـتُ قـبـلَكَ قـد جـعـلـت كـلـيـمـا

صلّوا عليه وسلّموا تسليما

يـا لـيـلـةً يـجـري الـزمـانُ فـتـسـبـقُ   الـحـجـبُ فـيـهـا والأرائـجُ تُـفْـتَـقُ
مـا كـان مـسـكُ الـلـيـلِ قـبـلـك يـعـبـقُ   بُـشْـرَى مـحـمـد اسـتـفـاد نـسـيـمـا

صلّوا عليه وسلّموا تسليما

حـتـى إذا اقـتـعـدَ الـبُـراقَ لـيـنـزلا   نـادَتْـهُ أسـرارُ الـسـمـواتِ الـعُـلا
يـا راحـلاً وَدَّعْـتَـهُ لا عـن قِـلَـى[3]   مـا كـان عـهـدك بـالـغـيـوبِ ذمـيـمـا

صلّوا عليه وسلّموا تسليما

صـعـدَ الـنـجـودَ وسـار فـي الأغـوارِ   سـمـك الـسـمـا طـورًا وبـطـنَ الـغـارِ
مـتـقـسّـمًـا فـي طـاعـةِ الـجـبّـارِ   مـا أشـرف الـمـقـسـومَ والـتـقـسـيـمـا

صلّوا عليه وسلّموا تسليما

= ولَسَوْفَ يُعْطِيكَ ربُّكَ فَتَرْضَى ﴾. سورة الضحى ٩٣، الآيتان ٤، ٥.

(١) في طبعة عبد الحميد (جـ ١٠ ص ٣٠٣): «فريا الرواية عن رياه زكية».

(٢) البُراق، بضم الباء: الذي ركبه رسول الله ﷺ ليلة الإسراء والمعراج. لسان العرب (برق).

(٣) القِلى، بكسر القاف: البغض والكراهية. لسان العرب (قلا).

الشافعُ المتوسّلُ المُتَقَبَّلُ القانتُ المدَّثِّرُ المُزَمِّلُ
وافى وظَهرُ الأرضِ داجٍ مُمْحِلُ فجلا البهيمَ به وأروى الهيما(1)

صلّوا عليه وسلّموا تسليما

دفعتْ كرامتُهُ الزنوجَ عن الحرمْ ودعاه جبريلُ المنزه في الحرمْ(2)
وعزتْ له آياتُ نونٍ والقَلَمْ خُلقًا به شَهِدَ الإلّهُ عظيما(3)

صلّوا عليه وسلّموا تسليما

طاوٍ يُفيض الزاد في أصحابِهِ غيثٌ ولكن كان يُسْتَضْحَى بهِ
طابَتْ ضمائرُ قلبِهِ وترابِهِ منه بسرّ لم يكن مكتوما

صلّوا عليه وسلّموا تسليما

يا شوقيّ الحامي إلى ذاك الحمى فمتى أقضيه غرامًا مغرما
ومتى أُعانقه صعيدًا مكرما بضمير كلِّ مُوَحِّدٍ ملثوما

صلّوا عليه وسلّموا تسليما

ومن ذلك قول بعض الوعّاظ، وأظنّه في أهل المشرق: [الكامل]

جلَّ الذي بَعَثَ الرسولَ رحيما ليردَّ عَنَّا في المَعادِ جحيما
وبه نُرَجِّي جنّةً ونعيما أضحى على الباري الكريم كريما

صلّوا عليه وسلّموا تسليما

ما ضلَّ عن وحي الإلّه وما غوى حاشا رسول اللّه ينطق عن هوى
الصادقُ الثقةُ الأمينُ بما رَوى قد نال من ربِّ السماء علوما

صلّوا عليه وسلّموا تسليما

---

(1) الهِيمُ: جمع أهيم وهو الشديد العطش. لسان العرب (هيم).
(2) يشير إلى انكسار أبرهة الأشرم وفتك الطير الأبابيل به وبجيشه.
(3) يشير إلى قول اللّه تعالى في وصف النبي ﷺ: ﴿وإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾. سورة القلم ٦٨، الآية ٤.

وافى لـه الـروحُ الأمـيـنُ مـبـشّـرا نادى به يا خيرَ من وطيء الثرى
أجِبِ المهيمنَ يا محمدُ كي ترى مـلـكًا كريمًا في السماء عظيـمـا

صلّوا عليه وسلّموا تسليما

فـأجـابـه الـمـخـتـارُ حـيـن دعـا بِـهِ ربُّ الـسـمـواتِ الـعُـلا لـخـطـابِـهِ
ركـبَ الـبُـراقَ وقـد أتـى لـجـنـابِـهِ أمسى لـه الروحُ[1] الأمين نـديـمـا

صلّوا عليه وسلّموا تسليما

فـمـتـى أرى الـحـادي يُبَشِّرُ بـاللُّـقـا ويـضـمّـه بـانُ الـمـحـصَّـبِ والـنَّـقَـا
ورأى ضريحَ المصطفى قد أشرقا مـولّـى حـلـيـمًـا لـن يـزالَ رحـيـمـا

صلّوا عليه وسلّموا تسليما

وأقـول لـلـزوّار قـد نـلـتُ الـمـنـى يـهـنـيـكُـمُ طـيـبُ الـمـسـرّةِ والـهَـنَـا
فاستبشروا من بعد فَقْرٍ بالغنى فـالـلّـه زادكُـمُ بـه تـكـريـمـا

صلّوا عليه وسلّموا تسليما

ثـمَّ الـرِّضـا عـن آلِـهِ الـكـرمـاءِ وكـذاك عـن أصـحـابِـهِ الـخـلـفـاءِ
فـهـواهُـمُ ديـنـي وعـقـد ولائـي قـومًـا تـراهـم فـي الـمـعـاد نـجـومـا

صلّوا عليه وسلّموا تسليما

ومنها قول بعض فضلاء المغاربة رحمه اللّه تعالى: [الكامل]

يـا أُمَّـةَ الـهـادي الـمـبـارك أحـمـدِ يـهـنـيـكُـمُ نـيـلُ الأمـانـي فـي غـدِ
بـمـحـمـدٍ فـزتـم ومَـنْ كـمـحـمـدِ إن شـئـتُـمُ أن تـدركـوا الـتـتـمـيـمـا

صلّوا عليه وسلّموا تسليما

صلّوا على البدرِ المنيرِ الزاهرِ صلّوا على المِسْكِ الفتيقِ العاطرِ
صلّوا على الغصنِ البهيِّ الناضرِ وتَـنَـعَّـمـوا بـصـلاتـكـم تـنـعـيـمـا

صلّوا عليه وسلّموا تسليما

---

(١) الروح الأمين: هو جبريل عليه السلام.

صلّوا على مَنْ بالنبوّة زُيّنا صلّوا على من بالكمال تمكّنا
بمحمّدٍ فزنا بإدراكِ المُنَى فضلاً منحنا حادثًا وقديما

صلّوا عليه وسلّموا تسليما

صلّوا على البدرِ المنيرِ اللائحِ صلّوا على الهادي الحبيبِ الناصحِ
صلّوا على المِسْكِ الفتيق الفائحِ للرشدِ فَهَّمَ والهدى تفهيما

صلّوا عليه وسلّموا تسليما

صلّوا على مَنْ مَجْدُهُ قد أُسِّسا والماءُ بين بَنانِهِ قد بُجِّسا[1]
وأتت إليه سَرْحَة حتى اكتسى بفروعها إذ خيمتْ تخييما

صلّوا عليه وسلّموا تسليما

صلّوا على من كان يبصرُ من قَفَا وعليه سَلّمتِ الجنادلُ والصَّفَا
والذئبُ قال صدقتَ أنتَ المصطفى وشكا إليه بازلٌ قد ضِيمَا[2]

صلّوا عليه وسلّموا تسليما

صلّوا على من قد شفى بالريقِ عينَ الضريرِ ولدغةَ الصدّيقِ
وأعاد طعمَ الماءِ مثلَ رحيقِ إذ مَجَّ فيه العنبر المختوما

صلّوا عليه وسلّموا تسليما

صلّوا على من بالملائك جَيَّشا وغَدَتْ تظلّله الغمامُ إذا مشى
حُرِسَتْ سماءُ اللّه لمَّا أن نَشَا ليكونَ سرُّ حبيبِهِ مكتوما[3]

صلّوا عليه وسلّموا تسليما

صلّوا عليه كلَّ حينٍ تربحوا ويهديه مهما اهتديتم تفلحوا
والأجر يشملكم فجدُّوا تنجحوا وإذا أردتم أن يكون عظيما

صلّوا عليه وسلّموا تسليما

---

(١) بَجَّسَ الماءَ: فجّره. لسان العرب (بجس).
(٢) ضِيمَ: أُنزل به الضَّيمُ. لسان العرب (ضيم).
(٣) يشير إلى قول اللّه تعالى في شأن الجن: ﴿وأنّا لَمَسْنا السماءَ فَوَجَدْناها مُلِئَتْ حَرَسًا شديدًا وشُهُبًا﴾. =

صلّوا بجمعكُمُ على شمسِ الهدى صلّوا على بدرٍ يزينُ المشهدا
صلّوا عليه به الرشادُ تمهَّدا والذكرُ بَيَّنَ فَضْلَهُ تفخيما

صلّوا عليه وسلّموا تسليما

صلّوا بإخلاصٍ على خيرِ البَشَرْ صلّوا على من فاقَ حُسْنًا واشتهرْ
ونَمَتْ فضائلُهُ وشُقَّ له القَمَرْ ولَكَمْ دليل في علاه أُقيما

صلّوا عليه وسلّموا تسليما

صلّوا على مَنْ قد رأى الرحمانا بالقلبِ أو بالعينِ منه عيانا
من قاب أو أدنى مَقام كانا[1] فَخُذِ الفوائدَ كي تفادَ علوما

صلّوا عليه وسلّموا تسليما

صلّوا عليه كلُّكُمْ لا تسأموا وتبرّكوا بصلاته وتَنَعَّموا
فعليه صلّى الأنبياءُ وسلّموا شرفًا لهم إذ أَمَّهُمْ تقديما

صلّوا عليه وسلّموا تسليما

يا حاضرينَ بَلَغْتُمُ كلَّ المنى عن جمعكم من فضلِهِ ذَهَبَ العنا
وإليكم واللَّهِ قد وَجَبَ الهنا بمحمدٍ كرمْتُمُ تكريما

صلّوا عليه وسلّموا تسليما

قولوا برغم معاندين وحُسَّدِ كي ترغمُوا أنفًا لكلِّ مُفَنِّدِ
صلّى الإلّه على النبيِّ محمد أبدًا وزاد لقدره تعظيما

صلّوا عليه وسلّموا تسليما

يا رَبِّ يا ذا المنِّ والإحسانِ جُدْ بالرضا والعفوِ والغفرانِ
للوالدين ومنشدِ الأوزانِ والسامعين أنلهمُ تنعيما

صلّوا عليه وسلّموا تسليما

= سورة الجن ٧٢، الآية ٨.

(١) إشارة إلى قول اللّه تعالى في شأن معراج النبيّ ﷺ: ﴿ثم دَنَا فَتَدَلَّى، فكان قابَ قَوْسَينِ أو أَدْنَى﴾. سورة النجم ٥٣، الآيتان ٨، ٩.

صلّى عليه اللّه ما اجتمع المَلاَ   صلّى عليه اللّه ما قطع الفَلاَ
صلّى عليه اللّه ما انتجعَ الكلاَ   أبدًا وما رعتِ السَّوَامُ هَشِيمَا[1]

صلّوا عليه وسلّموا تسليما

ومن ذلك قولُ الإمام العالم الشهير الأديب مالك ابن المرحل المالقي ثم السبتي، وهي من غرر القصائد، وفيها لزوم ما لا يلزم من ترتيبها على حروف المعجم بجعلها بدأ ورويًا على اصطلاح المغرب: [الكامل]

ألف: أجلُّ الأنبياء نبيءُ   بضيائِهِ شمسُ النهار تضيءُ
وبه يؤمّلُ محسن ومسيءُ   فضلاً من اللّه العظيمِ عظيما

صلّوا عليه وسلّموا تسليما

باء: بَدَا في أفقِ مكةَ كوكبا   ثم اعتلى فَجَلاَ سناهُ الغيهبا
حتى أنارَ الدهرُ منه وأخصبا   إذ كان فيضُ الخير منه عميما

صلّوا عليه وسلّموا تسليما

تاء: تَبَيَّنَتِ الهدى لَمَّا أتى   فنفى الشريكَ عن القديم وأثبتا
أحَدِيَّةَ مَنْ حاد عنها قد عَتَا   وتلا كلامًا للكريم كريما

صلّوا عليه وسلّموا تسليما

ثاء: ثوى[2] في الأرض منه حديثُ   في كلِّ أفقٍ طيبُهُ مبثوثُ
داعٍ بأنواعِ الهدى مبعوثُ   يتلو نجومًا أو يهزّ نجوما

صلّوا عليه وسلّموا تسليما

جيم: جَلاَ بسراجِهِ الوهّاج   ما جنّ من ليلِ الظلامِ الداجي
وسَقَى القلوب بمائِه الثجّاجِ[3]   فأصارها بَعْدَ الغمومِ غميما

صلّوا عليه وسلّموا تسليما

---

(١) السَّوام، بالفتح: السائمة التي ترعى ما تشاء. الهشيم: النبات اليابس. لسان العرب (سوم) و (هشم).
(٢) ثوى: أقام. لسان العرب (ثوى).
(٣) الماء الثَّجّاجُ: الشديد الانصباب. لسان العرب (ثجج).

حاء: حمى دين الهدى بصفائحِ[1]   وسَمَا بِشُمٍّ كالجبالِ أراجحِ
مِنْ كلِّ أزهرَ هاشميٍّ واضحِ   لولا نَداهُ غدا النبات هشيما

صلّوا عليه وسلّموا تسليما

خاء: خَبَتْ نيرانُ جهل شامخِ   آيات علم للرسالة راسخِ
مِنْ مُثْبِتٍ ماحٍ ومُنْسٍ ناسخِ   قد خصّ بالذكر الحكيم حكيما

صلّوا عليه وسلّموا تسليما

دال: دعا فأجاب كلُّ سعيدِ   وأتى بوعدٍ صادقٍ ووعيدِ
حتى أَقَرَّ الناسُ بالتوحيدِ   وتجنّبوا الإشراك والتجسيما

صلّوا عليه وسلّموا تسليما

ذال: ذُبابُ حُسامِهِ مشحوذُ   للناكثين، وعهدهم منبوذُ
أمّا السعيدُ فبالنبيِّ يلوذُ   فينال من ذلِّ الشقاءِ نعيما

صلّوا عليه وسلّموا تسليما

راء: روينا عن ذوي الأخبارِ   أنَّ الندى والبأس مَعْ إيثارِ
بعض صفاتِ المصطفى المختارِ   كم قد تقدّم بالأنام زعيما

صلّوا عليه وسلّموا تسليما

زاي: زعيمٌ بالنزالِ عزيزُ   وبليغُ معنى في المقال وجيزُ
فلقوله من فعلِهِ تعزيزُ   ولربما عادَ الكلامُ كُلُومَا[2]

صلّوا عليه وسلّموا تسليما

سين[3]: سلامٌ كالنَّفيس تنفّسا   وقد اجتنى وردًا وصافحَ نرجسا
أهدى إليه في الصباح وفي المسا   بقصائدٍ كادتْ تكون نسيما

صلّوا عليه وسلّموا تسليما

---

(١) الصفائح: جمع صفيحة وهي السيف. لسان العرب (صفح).
(٢) الكُلُوم: جمع كَلْم وهو الجرح. محيط المحيط (كلم).
(٣) جاء النظم على حرف السين في طبعة دار صادر (جـ ٧ ص ٤٥٨) بعد النظم على حرف القاف.

شين: شمائله الكريمةُ تعطشُ من كان من سكر المحبّةِ يرعشُ
لكن أضاعَ العمرَ فيما يوحشُ فَغَدَتْ ندامتُهُ عليه نديما

صلّوا عليه وسلّموا تسليما

صاد[1]: صَفِيٌّ للإلٰهِ ومخلصُ ومقرَّبٌ ومُفَضَّلٌ ومُخَصَّصُ
ذَهَبٌ سبيك وزنه لا ينقصُ قد طاب خِيمًا في الورى وأرُومَا[2]

صلّوا عليه وسلّموا تسليما

[ضاد: ضمين نصحه ممحوضُ ضافي القراءة بالعلوم يفيضُ
إنْ غاض ماءُ البحر ليس يغيضُ لما استمرّ زلاله تسنيما[3]

صلّوا عليه وسلّموا تسليما][4]

طاء: طويلُ السيفِ متّسعُ الْخُطَا رحبُ الذراع ومن يمدّ لهم سَطَا
يردي العدا وإذا ارتدى متخمّطا يبري عذابًا إذ ألام أليما

صلّوا عليه وسلّموا تسليما

ظاء: ظهيرٌ للعباد حفيظُ حظّ له أدب[5] العبادِ حظيظُ
حقّ له التأبين والتقريظ ميتًا وحيًّا ظاعنًا ومُقيما

صلّوا عليه وسلّموا تسليما

عين: عزيزٌ ذِكْرُهُ مرفوعُ في الأنبياءِ وقولُهُ مسموعُ
مشروح صدر، حبُّه مشروعُ من لا يدينُ بذاك كان ذميما

صلّوا عليه وسلّموا تسليما

---

(١) النظم على حرف الصاد في طبعة دار صادر (جـ ٧ ص ٤٥٧) جاء بعد النظم على حرف النون.
(٢) أرؤما: أصل الكلام: «أرومة» وهي الأصل. لسان العرب (أرم).
(٣) التّسنيم: عين في الجنّة. لسان العرب (سنم).
(٤) ما بين قوسين، أي النظم على حرف الضاد، غير وارد في طبعة دار صادر (جـ ٧ ص ٤٥٧).
(٥) في طبعة دار صادر (جـ ٧ ص ٤٥٥): «حظّ لدى ربِّ العبادِ..».

غين: غزا من زاغ عنه ومن طغى وغدا يشبُّ لِمَنْ طَغَى نار الوغى
حتى أقامت من عصى بعد الصغا[1] وتُقَوِّمُ النارُ العَصَا تقويما

صلّوا عليه وسلّموا تسليما

فاء: فواتحُ سورةِ الأعرافِ وبراءةٍ والرعدِ والأحقافِ
أحْظَتْهُ بالأقسامِ والأوصافِ فمتى توفّي حقَّهُ منظوما

صلّوا عليه وسلّموا تسليما

قاف: قوافي النظمِ عنه تضيقُ أيطيقُهُ الإنسانُ؟ ليس يطيقُ
فالخلقُ في التقصير عنه خليقُ ولَوَ أنهم ملأوا الفضاء رقوما

صلّوا عليه وسلّموا تسليما

كاف: كريمُ العنصرين مبارَكُ متفرّدٌ بالجاه ليس يُشارَكُ
فهو الذي بمقامه يتدارَكُ والهولُ يغدو مُقْعِدًا ومقيما

صلّوا عليه وسلّموا تسليما

لام: له عقد اللواء الأحفلُ وله الشفاعةُ في غدٍ إذ تسألُ
وإذا دعا فدعاؤه متقبَّلُ حقّ الرحيم بأن يرى مرحوما

صلّوا عليه وسلّموا تسليما

ميم: ملائكة الإلَهِ تسلّم فَوْجًا عليه إذ بَدَا وتعظّم
ويمرُّ جبريل بها يتقدّم فيضاعف التعظيم والتكريما

صلّوا عليه وسلّموا تسليما

نون: نبيٌّ جاءنا ببيانِ وبمعجزات أبرزتْ لعيانِ
وبحسبه أن جاء بالقرآنِ يشفي قلوبًا تشتكي وجسوما

صلّوا عليه وسلّموا تسليما

---

(١) الصَّغا، بالفتح: الميل والاعوجاج. لسان العرب (صغا).

هاء[1]: هو الهادي الذي اقتدح النُّهى فتفكّرت في ملك من رفع السُّهَا
وقضى بحدٍّ للأمور ومنتهى فأفادها النظر السديد عموما

صلّوا عليه وسلّموا تسليما

واو: وَهَى ركن التجلّد، بل هوى لَمّا ثوى في الترب[2] من بعد الثّوى
فحوى الضريح الرحب نجمًا ما غوى أجرى من الدمع السجوم سجوما

صلّوا عليه وسلّموا تسليما

لام: لأجلك فاضَ دمعي جدولا فاخْضَرَّ آس أساك إذ يبس الكَلاَ
يا خيرَ من كلأ المكارم والعُلا وحمى الحمى ورمى فأعمى الروما

صلّوا عليه وسلّموا تسليما

ياء: يُحَيِّيه ويسقيه الحَيَا ربُّ العِبادِ مجازيًا وموفيا
ومشرفًا ومسلمًا ومصلّيا يا مسلمين ورتِّمُ التسليما

صلّوا عليه وسلّموا تسليما

ومن ذلك قولُ الفقيه الكاتب أبي العباس أحمد بن محمد بن عباس المغربي حسبما نقلته من المجلد الخامس والعشرين من كتاب «منتهى السول، في مدح الرسول» للحسن بن عبد الرحمن بن عبد الرحيم بن عذرة المغربي الأنصاري رحمه اللّه تعالى ورضي عنه ونفعنا بقصده! وهي أيضًا مرتّبة على حروف المعجم ما عدا الابتداء وبيوت الانتهاء، غير أنّ ترتيب حروف المعجم في آخر الأشطار ولم يلتزم صاحبها الابتداء كما التزم مالك بن المرحل، رحمه اللّه تعالى: [الكامل]

اللّه زادَ المصطفى تعظيما وقضى له التفضيلَ والتقديما
وأناله شرفا لديه جسيما فَهُوَ المُتَمِّمُ فَخْرُهُ تتميما

صلّوا عليه وسلّموا تسليما

---

(١) جاء النظم على حرف الهاء في طبعة دار صادر (ج ٧ ص ٤٥٨) بعد النظم على حرف الشين.

(٢) في طبعة عبد الحميد (ج ١٠ ص ٣١٣): «التراب».

صلّوا على مَنْ خُصَّ بالأنباءِ وأبوه ما بين الثرى والماءِ
ثم استمرَّ النور في الآباء فتوارثوه كريمة وكريما

صلّوا عليه وسلّموا تسليما

صلّوا على بدرٍ بَدَا من يثربِ فأضاء بالأنوار أقصى المغربِ
وجلا عن الدنيا دياجي الغيهبِ فبدا لنا نهج الرشاد قويما

صلّوا عليه وسلّموا تسليما

صلّوا على مَنْ بالشرائع قد أتى وأباد أحزَاب الطغاة وشَتَّتَا
وأبان أسباب النجاة ووقَّتَا للأُمّةِ التحليلَ والتحريما

صلّوا عليه وسلّموا تسليما

صلّوا على من بالغيوب يُحَدِّثُ وبروعِهِ الروح المقدس ينفثُ
محبوبنا وشفيعنا إذ تُبعثُ في يوم لا يدري الحميم حميما[1]

صلّوا عليه وسلّموا تسليما

صلّوا على صبح الهدى المتَبَلِّجِ صلّوا على بحر الندى المتموّجِ
صلوا على روضِ الجمال المبهجِ كيما تنالوا الفوزَ والتنعيما

صلّوا عليه وسلّموا تسليما

صلّوا على غيثِ الأنام السافحِ صلّوا على المِسْكِ الذكيّ النافحِ
أزرتْ روائحه بكلِّ روائحِ فالأرض طَبَّقها شذاه نسيما

صلّوا عليه وسلّموا تسليما

صلّوا على مَنْ عَهْدُهُ لا يُفْسَخُ صلّوا على مَنْ شَرْعُهُ لا يُنْسَخُ
صلّوا على مَنْ حِزْبُهُ لا يُمْسَخُ نبأ يُفهّم فضله تفهيما

صلّوا عليه وسلّموا تسليما

---

(١) أخذه من قول الله في وصف يوم القيامة: ﴿ولا يسألُ حَمِيمٌ حَمِيمًا﴾. سورة المعارج ٧٠، الآية ١٠.

صلّوا على مَنْ فَخْرُهُ لا ينفدُ ... صلّوا على مَنْ فَضْلُه لا يجحدُ
أنّى وكتب الرُّسل طُرًّا تشهدُ ... تنبي اليهود بفضلِهِ والروما

صلّوا عليه وسلّموا تسليما

صلّوا على مَنْ قد حَمَى عنّا الأذى ... ومن الغواية والضلالة أنقذا
صلّوا على من ذكرُهُ نعم الغُذا ... وبمدحه نروي القلوب الهيما[1]

صلّوا عليه وسلّموا تسليما

صلّوا بإخلاص على خيرِ البَشَرْ ... من قبلِ نشأته المباركة اشتهرْ
كم كاهن عنه أبان وكم خَبَرْ ... ولكم دليل في علاه أقيما

صلّوا عليه وسلّموا تسليما

صلّوا على من جَلَّ مولده وعزّ ... ضاءت قصور الشام لما أن بَرَزْ
وتدانت الشُّهب الثواقب كالْخَرَزْ ... أو كاللآلي نُظِّمَتْ تنظيما

صلّوا عليه وسلّموا تسليما

صلّوا على مَنْ مجدُهُ قد أسسا[2] ... والماء بين بنانِهِ قد بجسا
وأتتْ إليه سرحةٌ حتى اكتسى ... بفروعها إذ خيِّمت تخييما

صلّوا عليه وسلّموا تسليما

صلّوا على مَنْ بالملائك جيّشا[3] ... وغَدَتْ تظلّله الغمامُ إذا مشى
حرست سماء اللّه لَمّا أن نَشَا ... ليكون سرّ حبيبه مكتوما

صلّوا عليه وسلّموا تسليما

صلّوا على مَنْ بالتحيّة خُصّصا ... والقلبُ منه حين شُقَّ تخلّصا[4]
من حظّ إبليس اللعين ومحّصا ... وأعيدَ ما إن يشتكي تثليما

صلّوا عليه وسلّموا تسليما

---

(١) الهِيم: جمع أهيم وهو الشديد العطش، والقلوب الهِيم: العطشى. لسان العرب (هيم).
(٢) جاء النظم في هذه المدحة النبوية على حرف السين في طبعة دار صادر (جـ ٧ ص ٤٦٤) بعد النظم على حرف القاف.
(٣) جُيِّش بالملائكة: كانت الملائكة له جيشًا في الحرب.
(٤) جاء النظم على حرف الصاد في طبعة دار صادر (جـ ٧ ص ٤٦٣) بعد النظم على حرف النون. وجاء=

[صلّوا على من بالسيادة قد حضي وانشقَّ إكرامًا له البَدْرُ المضي
ولكم دليل كالصباح الأبيضِ فاسمعْ وكُنْ بالمعجزاتِ عليما
صلّوا عليه وسلّموا تسليما][1]

صلّوا على من يوم مولده سطا بجميع آلهة الضلالة والخَطَا[2]
وهوى له عرش اللعين وأسقطا والفرس هدَّم صرحهم تهديما
صلّوا عليه وسلّموا تسليما

صلّوا على من ليس فظًّا غالظا لأخيه في الإرضاع كان محافظا
فأعجب لذلك كيف كان ملاحظا للعدلِ فينا مرضعًا وفطيما
صلّوا عليه وسلّموا تسليما

صلّوا على مَنْ كَلَّمته ذراعُ[3] ويفضله كَفَتِ المئينَ الصاعُ
والجذعُ حنّ له وما الأجذاعُ بأرقَّ منّا أنفسًا وفُهُومَا
صلّوا عليه وسلّموا تسليما

صلّوا على من مَدْحُهُ لا يفرغُ ماذا عسى مُدّاحُهُ أن يبلغوا
فإلهنا يُثني عليه ويبلغُ فاقرأ تجدْه محكمًا تحكيما
صلّوا عليه وسلّموا تسليما

صلّوا على[4] من كان يبصر بالقفا وعليه سلّمت الجنادل والصَّفَا
والذئب قال صدقت أنت المصطفى وشكا إليه بازلٌ قد ضيما
صلّوا عليه وسلّموا تسليما

= في طبعة دار صادر: «والقلبُ منه شُقَّ حتى خُلِّصا». وهنا يشير إلى حادث شَقِّ صدر النبيّ، ﷺ، وإخراج علقة سوداء منه وهي حظّ الشيطان من ابن آدم.

(1) ما بين قوسين ساقط من طبعة عبد الحميد (جـ ١٠ ص ٣١٦).

(2) جاء النظم على حرف الطاء في طبعة دار صادر (جـ ٧ ص ٤٦٢) بعد النظم على حرف الزاي. والخَطَا: أي الخطأ، وقد حذف الهمزة للضرورة الشعرية.

(3) جاء النظم على حرف العين في طبعة دار صادر (جـ ٧ ص ٤٦٣) بعد النظم على حرف الضاد.

(4) كلمة «على» ساقطة من طبعة عبد الحميد (جـ ١٠ ص ٣١٦).

صلّوا على من قد شفى بالريقِ عين الضرير ولدغة الصدّيقِ
وأعاد طعم الماءِ مثلَ رحيقِ إذ مَجَّ فيه العنبر المختوما

صلّوا عليه وسلّموا تسليما

صلّوا على مَنْ شأوه لا يدركُ[1] صلّوا على من شأوه لا يشركُ
موسى وعيسى والخليل تبرّكوا بلقائه وعَنَوْا له تسليما

صلّوا عليه وسلّموا تسليما

صلّوا على مَنْ خَلْقَه صلّى الرسل شرف على تمكين عزّته يدل
فإذن فقل هو سيد لهم ودل لا تخش توبيخًا ولا تحشيما

صلّوا عليه وسلّموا تسليما

صلّوا على من قد سَرَى نحو السما ليلاً وعاد وما برحنا نوّما
بالروح والجسم المطهّر قد سما قُلْهُ وزاغِمْ من أبى ترغيما

صلّوا عليه وسلّموا تسليما

صلّوا على مَنْ قد رأى الرحمانا بالقلبِ أو بالعين منه عيانا
من قاب أو أدنى مكان كانا فَخُذِ الفوائدَ واحذرِ التجسيما

صلّوا عليه وسلّموا تسليما

صلّوا على مَنْ قد حَبَاه إلَهُهُ بالكوثر[2] المروي لنا أمواهُهُ
في يوم حشر الخلق يظهر جاهه إذ يقدم الرُسلَ الكرامَ زعيما

صلّوا عليه وسلّموا تسليما

صلّوا على مَنْ خُصّ بالحوض الرِّوَى وكذاك خصّص بالمقام وباللوا
نوحًا وآدم والكليم قد احتوى وابن البتول حوى وإبراهيما

صلّوا عليه وسلّموا تسليما

---

(١) جاء النظم على حرف الكاف في طبعة دار صادر (جـ ٧ ص ٤٦٢) بعد النظم على حرف الظاء.

(٢) الكوثر: نهر في الجنة؛ قال الله تعالى: ﴿إِنَّا أعطيناكَ الكَوْثَرَ﴾. سورة الكوثر ١٠٨، الآية ١. ومحيط المحيط (كوثر).

صلّى عليه اللّه ما قُطِع الفَلاَ   صلّى عليه اللّه ما اجتمعَ المَلاَ
صلّى عليه اللّه ما انْتُجع الكلا   أبدًا، وما رعت السوام هشيما
صلّوا عليه وسلّموا تسليما

صلّى عليه اللّهُ ما هطل الحَيَا   صلّى عليه اللّه ما التمعَ الضِّيا
فلقد شفى الدنيا من الداء العَيَا   ولقد حَمَى عَنَّا لظى جحيما
صلّوا عليه وسلّموا تسليما[1]

* * *

للّه سيدنا النبيُّ الأكملُ   للّه برقُ جبينه المتهلّلُ
للّه جُودُ يمينِهِ المتهطِّلُ   أَحْيَا وأغنى بالنوالِ عَديما
صلّوا عليه وسلّموا تسليما

للّه منه ذاته وحقيقتُهْ   للّه منه خلقه وخَلِيقَتُهْ
للّه منه شرعُهُ وطريقتُهْ   فلقد جلت بشموسها التغييما
صلّوا عليه وسلّموا تسليما

يا أمة الهادي النبيُّ المصطفى   باللّه لو كُنَّا نعاملُ بالوفا
متْنا عليه حَسْرَةً وتلهُّفا   حتى نؤدّي حَقَّه المحتوما
صلّوا عليه وسلّموا تسليما

ما كان أولانَا بطول نحيبنا   ما كان أوجبنا بفرط وجيبنا[2]
أفنستطيعُ الصبرَ عن محبوبنا   ما الصبرُ عن لقياه إلاّ لوما
صلّوا عليه وسلّموا تسليما

---

(١) هنا تنتهي المدحة النبوية التي نظمت بحسب الترتيب الهجائي، وعلى هذا يكون الشعر التالي من قصيدة جديدة نظمت على نسق سابقتها.
(٢) الوجيب: خفقان القلب واضطرابه. لسان العرب (وجب).

لم لا تُفِيضُ على الدوام دموعنا … لم لا نقضُّ[1] من الغرام ضلوعنا
لم لا نخلي أهلَنا وربوعنا … حتى نعاين من ذَرَاه رسوما

صلّوا عليه وسلّموا تسليما

أو لم يكن يحنو علينا مشفقا؟ … أو لم يكن متعطّفًا مترفقا
أو لم يعالجنا بأنواع الرقى؟ … حتى اغتدى منّا العليلُ سليما

صلّوا عليه وسلّموا تسليما

من مثله ما إن يضرُّ وينفع … من مثله يَدْرَا[2] العذاب ويدفع
مَنْ مثله لذوي الكبائر يشفع … مَنْ مثله بالمؤمنين رحيما

صلّوا عليه وسلّموا تسليما

يا ويح نفسي كم أرى ذا صبوة … ومسامعي عن واعظي في نبوة
فعسى الرسول يُقِيلني من كبوة … فلكمْ رجاه عاثرٌ فأقيما

صلّوا عليه وسلّموا تسليما

يا ربّ بالهادي الرفيع المحتد … اغفرْ لعبدك أحمد بن محمد
فلقد توسّل إذ رجاك بسيد … ما رُدَّ معتلقٌ به محروما

صلّوا عليه وسلّموا تسليما

ناشدتكم يا سامعي هذا الثنا … قولوا متى أسمعتموه تَدَيُّنا
اغفر لقائله المقصر ما جنى … بمديحه خير الورى المعصوما

صلّوا عليه وسلّموا تسليما

قلت: وإني لأسأل اللّه تعالى بلسان لم أعص به وهو لسان هذا المادح، إذ قال «يا ربّ بالهادي» فإني أحمد بن محمد بَلّغه اللّه أمله من غفرانه بمنّه وكرمه! آمين.

---

(١) نقضُ الضلوعَ: نحطّمها وتكسرها. لسان العرب (قضض).
(٢) يَدْرا: أصلها: «يدرأ» بالهمزة، ومعناها: يدفع. قال اللّه تعالى: ﴿وَيَدْرَأُ عنها العَذابَ أنْ تَشْهَدَ أربعَ شهاداتٍ باللّه﴾. سورة النور ٢٤، الآية ٨.

رجع. ومن ذلك قولُ الفقيه الكاتب الأديب أبي العباس أحمد بن القاسم الإشبيلي الشهير بابن القصير، وطريقه هذه مخالفة للطريق المتقدّمة من بعض الوجوه، رحم اللّه تعالى الجميع: [الكامل]

اللّهُ أكرم أحمدًا تكريما   فَغَدًا رسولاً للعبادِ كريما
فاشكر غفورًا للذنوب رحيما   أرضى النبيّ بقوله تعليما

صلّوا عليه وسلّموا تسليما

للّه منه هدى نبيّ مرتضى   بالبعث منه لنا قضى لطف القضا
ملأت فضائله المَهَارق والفضا   ودجا الوجودُ فعند مبعثه أضا[1]

صلّوا عليه وسلّموا تسليما

عجبت لنا منه ملائكة السما   أن كان بالإسراء ليلاً قد سما
ورقى البراق به وجبريل لما   قد سرّه سرًّا وجهرًا سلما

صلّوا عليه وسلّموا تسليما

أعْظِمْ به من مرسل قد بَشَّرا   بوجوده عيسى المسيح وقد سرى[2]
لليسر فهوَ أجلُّ مبعوث يُرَى   بهداه أمّته زَهَتْ بين الورى

صلّوا عليه وسلّموا تسليما

مَنْ جاء بالقرآن معجزة لَهُ   أعيا الورى مِنْ بَعْدِهِ أو قَبْلَهُ
اللّه كَرَّمَهُ وفَضَّلَ فَضلَهُ   وأجلَّ منه فَرْعَهُ وأَصْلَهُ

صلّوا عليه وسلّموا تسليما

مَنْ سَبَّحت صُمُّ الحصا في كَفِّه   والبدرُ شُقَّق نِصْفَهُ عن نصفه
ليرى به إعجاز من لم يصفه   حزنا بمفخر ذكره أو وصفه

صلّوا عليه وسلّموا تسليما

---

(١) المَهارق: جمع مُهْرَق وهي الصحيفة. محيط المحيط (هرق). أضا: أصلها: «أضاء» فسهّل الهمزة بقلبها ألفًا ثم حذفها.

(٢) في طبعة دار صادر (جـ ٧ ص ٤٦٨): «بوجوده البشر السعيد ويسّرا».

يكفيه أن يتلى اسمه ويكرَّرُ مع إسم خالقه إذا ما يُذْكَرُ
هذا الذي بمقاله لا يفجرُ أبدًا ولا لخلافِهِ يتصوّرُ

صلّوا عليه وسلّموا تسليما

العبد أسرفَ يا نبيّ اللّهِ في الذنبِ ساهٍ عن تُقَاه لاهِي
فاشفَعْ له من مذنبٍ أوّاه يرجو كريمًا منكَ جَمَّ الجاهِ

صلّوا عليه وسلّموا تسليما

أنأى الزمان وصوله أو سوله فاستصحب الأبيات منه رسوله
فأنِلْ بفضلك للمراد حصوله حسبي ثَنًا وازنت منه فصوله

صلّوا عليه وسلّموا تسليما

ابن القصير أطالَ فيكَ نظامه ليرى بذاكَ مسلّمًا إسلامه
وترى مطاوع أمره وكلامه لا زالَ يُقْريك الإلّهُ سلامه

صلّوا عليه وسلّموا تسليما

وما أَحْسَنَ قولَ جمال الدين بن جلال الدين الجوزي رحمه اللّه تعالى: [الكامل]

فَضَلَ النبيين النبيُّ محمدٌ شرفًا يزيد، وزادهُمْ تعظيما
درٌّ يتيمٌ[1] في الفخار، وإنما خيرُ اللآلي، ما يكون يتيما
سادَ النبيين الكرام وكلُّهم صلّوا عليه وسلّموا تسليما
واللّه قد صلّى عليه كرامة صلّوا عليه وسلّموا تسليما

ومن ذلك هذا التسديس البديع الذي هو من نظم الإمام العارف باللّه تعالى علاء الدين محمد بن عفيف الدين[2] الأيجي الحسني الصفوي الزينبي ـ رحمه اللّه تعالى! ـ مِمّا رتّبه على حروف المعجم والتزم الحرف أول الأشطار الأربعة وآخرها: [الكامل]

اللّه أحمد أحمدًا إذ يبرأ أوْضَى وضيءٍ نورُهُ يتلألأ

(١) دُرٌّ يتيمٌ: أي لا نظير له.
(٢) في طبعة عبد الحميد (ج ١٠ ص ٣٢١): «محمد بن العفيف الأبجي».

أنـواره كـلَّ الـعـوالـم تـمـلأ أكـوانـه لـولاهُ لـم تَـكُ تـنـشـأ
إن كـنـتُـمُ أنـقـدتُـمْ لـه تـسـلـيـمـا صـلّـوا عـلـيـه وسـلّـمـوا تـسـلـيـمـا

بَـدْرٌ بَـدَا مـن نـوره يـتـطـلّـبُ بـحـر بـحـورُ الـجـود مـنـه تـركـبُ
بـرٌّ وبـرهـان جـلا يـتـقـلّـبُ بـالـمـصـطـفى مِـمَّنْ صـفـا أتـقرّبُ
بـادرْ[1] بـمـا يـجـدي لـكـم تـنـعـيـمـا صـلّـوا عـلـيـه وسـلّـمـوا تـسـلـيـمـا

تـالـلّـه مـثـلُ مـحـمـد لا يـثـبـت تـم الـكـلام بـبـعـثـه ونـبـوّة
تـاج الـعُـلا بـالـمـصـطـفى يـتـثـبّـت تـاهـت عـقـول لـلـذي هـو يـنـعـت
تـحـف الـصـلاة بـه عـلـيـه أديـمـا صـلّـوا عـلـيـه وسـلّـمـوا تـسـلـيـمـا

ثِـقْ بـالـذي يـومًـا يـقـومُ ويُـبْـعَـثُ ثُـبَـةُ الـبـريّـة بـالـنـبـيّ تُـغَـوَّثُ[2]
ثـبـت الـشـفـاعـة لـلـورى يـتـحـدّث ثـرة الـطـوائـف لـلـذي يـتـشـبّـث
ثـبـت لـزام الـبـاب فـيـه مـقـيـمـا صـلّـوا عـلـيـه وسـلّـمـوا تـسـلـيـمـا

جـاء الـنـبـيُّ عـوالـمًـا يـتـبـلّـج جـاهٌ لـه مَـنْ جـاءه يـتـبـهّـج
جـاهٌ يـنـجّـي مـن لـظـى تـتـوهّـج جـاءت لـه الأشـجـار أرضًـا تـفـرج
جـاور نـبـيَّ الـلّـه نـلـتَ نَـعِـيـمَـا صـلّـوا عـلـيـه وسـلّـمـوا تـسـلـيـمـا

حـقًّـا هـو الـحـقُّ الـمـبـيـنُ الأوضـحُ حـبٌّ حـيـاءُ حـبّـهُ يـتـرنّـحُ
حـسـنـاتـه خَـشْـيَـاتُـهُ تُـسـتـرجـحُ حـتـى الـقـلـوب بـحـبِّـهِ تـتـرجّـحُ
حـوت الـعـلـوم لـذاتِـهِ تـكـريـمـا صـلّـوا عـلـيـه وسـلّـمـوا تـسـلـيـمـا

خـيـرُ الـبـرايـا ديْـنُـهُ هُـوَ نـاسـخُ خـيـرٌ لـه خـيـرُ الـخـيـور رواسـخُ
خَـرَّ الـذي عـن ديـنِـهِ هـو بـازخٌ[3] خـالٍ خـلـيّ عـن نـقـائـص بـاذخ
خُـذْ بـاتّـبـاع فـعـالـه تـرسـيـمـا صـلّـوا عـلـيـه وسـلّـمـوا تـسـلـيـمـا

دلَّ الأنـامَ عـلـى الإلَـهِ مـحـمـدُ دامَـتْ سـعـادة مـن بـأحـمـد يـسـعـدُ
دارٌ لـه مـأوى الـمـحـامـد تـحـمـدُ دان الـوجـود بـه ومـن هـو أحـمـدُ
داوم عـلـى بـاب لـه تـخـيـيـمـا صـلّـوا عـلـيـه وسـلّـمـوا تـسـلـيـمـا

ذكـرُ الـحـبـيـب أحـقُّ مـا يـتـأخّـذُ ذخـرًا لـيـومٍ بـالـنـواصـي يـؤخَـذُ

---

(١) في طبعة عبد الحميد (جـ ١٠ ص ٣٢٢): «بادوا».
(٢) الثُّبَةُ، بضمّ الثاء وفتح الباء: الجماعة. تُغَوَّثُ: تُغاث. محيط المحيط (ثبى) و (غوث).
(٣) البازخ: المتقاعس. لسان العرب (بزخ).

ذاكَ الشفيعُ لِمَنْ به يتعوَّذُ ... ذاكَ الذي بجنابه يستنقذُ
ذلُّوا له ولبابِهِ تغنيما ... صلّوا عليه وسلّموا تسليما
ربّ النبيِّ محمد هو يذكر ... رتّبَ الحبيبِ كتابه متذكّر
رائي محيا أحمد هو ينظر ... روح القلوب ولاؤه هو ينصر
روّح بذكراه المريح نديما ... صلّوا عليه وسلّموا تسليما
زينُ البرايا بالوجود معزّز ... زانَ العوالم حُسْنُهُ يتفوّز
زن فضله عن كلّهم يتميّز ... زدْ ذكره عن زلّة يتحرّز[1]
زلفى أنله بالمُنَى تتميما ... صلّوا عليه وسلّموا تسليما
سبقَ الأنامَ بفضله هو أنفس ... سادَ الجميعَ بسؤدد يترأس
سُبْحان من أسرى به يتأنّس ... سرُّ الحبيبِ بسرِّه يتقدّس
سمعَ الكلام من الإلَهِ كليما ... صلّوا عليه وسلّموا تسليما
شمسُ الهدى بدرُ الدُّجى يتبشش ... شرفُ الحبيبِ من الوجوه يفتش
شكرًا لمولانا عليه وأبهش ... شوقي إليه وافرٌ أتعطش
شغل للبّك بالحبيب أديما ... صلّوا عليه وسلّموا تسليما
صفةُ الكلام لذاته هو أخلصُ ... صفة الكتابِ كمالُهُ يتلخّصُ
صفةُ القلوب بحبِّه تتخلّصُ ... صفه صبا صبّ وأنّى يخلص
صِلْ بالصلاة جنابَهُ تكليما ... صلّوا عليه وسلّموا تسليما
ضَفَتِ الفيوض من الحبيب تفيَّضُ ... ضعفي إليه آملاً يتعوّضُ
ضري وضيري كلّه يتقوّضُ ... ضلَّ الذي في بابه لا ينهضُ
ضمن الحبيبُ لذاكريه زعيما ... صلّوا عليه وسلّموا تسليما
طوبى لمن بحبيبه يتنشّطُ ... طابت به أحواله والمنشطُ
طال اشتياقي طيبة أتبسّطُ ... طال الإلَه عليّ طولاً يبسطُ
طوبى بمدحته يطيبُ نسيما ... صلّوا عليه وسلّموا تسليما
ظلُّ الهدى بهُدَاه قد يتحفّظُ ... ظلمات شرك قد جلت تتدلظُ[2]

(١) تَحَرَّزَ عن الشيء: تمنّع منه وجعل لنفسه حرزًا دونه. لسان العرب (حرز).
(٢) تتدلّظ: تمضي مسرعة. لسان العرب (دلظ).

ظلّي لظلّ ودادِهِ يتحفّظُ — ظهري ظهيري حبّه أتحفّظُ
ظنّي به يغدو العقاب عديما — صلّوا عليه وسلّموا تسليما
علت المعالي بالنبيّ وترفع — عزّ عُلاه للذي هو يتبع
عَمَّتْ عطاياه لكلّ ينفع — عرش العظيم قد ارتقى يترفّع
عَرَجَ الإلَهُ به إليه عليما — صلّوا عليه وسلّموا تسليما
غوثُ[1] الورى ذا المصطفى هو سابغ — غيثُ الندى هو في البرايا سائغ
غمرُ الندى أقصى النهاية بالغ — غزر الحَيَا شمسٌ وبَدرٌ بازغ
غنمًا نما بالمؤمنينَ رحيما — صلّوا عليه وسلّموا تسليما
فخرٌ وذخرٌ بالمفاخر يشرف — فردٌ وحيدٌ في العوالم أشرف
فتح الوجود وكلّ كون مردف — فازَ الفقير بلطفه يتلطّف
فاح النسيمُ من الحبيب جسيما — صلّوا عليه وسلّموا تسليما
قسم الإلَهُ بعمرِهِ فيفوّق — قسمت وجوه الحسن منه فيسبق
قمرٌ وشمسٌ نوره متألّق — قَمِنٌ[2] بذكراه الدعاء معلق
قطب لدائرة الوجود كريما — صلّوا عليه وسلّموا تسليما
كتبَ الإلَهُ ثناءه ما يدرك — كتبَ اسْمَهُ قرب اسمِهِ يتبرّك
كلُّ الكمال له به يستدرك — كُنْهُ[3] الكمالات التي لا تدرك
كيف كفى درَّ الثناء يتيما — صلّوا عليه وسلّموا تسليما
لمعات نورِ محمدٍ هي تخجل — للشمسِ والبدرِ المنير فتخجل
لذات ذكر محمد هي أكمل — لذوي الحوائج لائذ متكفّل
لذ خذ بحد منك تُلفَ حكيما — صلّوا عليه وسلّموا تسليما
من مثله في العالمين معظّم — من مثله في العالمين مكرّم
مَنْ للإلَه لَدَى اللقاءِ يكلم — مَنَحا حَباهُ منه قد يتعلّم
مَنُّ الإلَهِ لديه صار عميما — صلّوا عليه وسلّموا تسليما

---

(١) غَوثُ الورى: مغيثهم. لسان العرب (غوث).
(٢) القَمِنُ: الخليق والجدير. محيط المحيط (قمن).
(٣) كُنْهُ الشيء: حقيقته. لسان العرب (كنه).

نـــور لـــه فـــي آدم يـــتـــبـــيّـــن		نَـــقْـــلاً إلـــى آبـــائِـــهِ يـــتـــعـــيّـــن
نـــأي الـــعـــوالـــم إذ أتـــى مـــتـــعـــيّـــن		نـــار الـــمـــجـــوس تـــخـــمّـــدت تـــتـــهـــوّن
نـــعـــمـــاه جـــمّـــتْ إذ تـــعـــمّ كـــريـــمـــا		صـــلّـــوا عـــلـــيـــه وســـلّـــمـــوا تـــســـلـــيـــمـــا
وجـــه بـــه كـــلُّ الـــوجـــوه إلـــيـــه هـــو		وَجْـــهُ الـــوجـــاه بـــكـــلـــه يـــتـــوجّـــهـــوا
ووجـــاهـــه وَجْـــهَ الـــمـــرامِ فـــوجّـــهـــوا		وجـــهُ إلـــيـــك نـــبـــيّـــنـــا فـــتـــوجّـــهـــوا
وَجِّـــهْ إلـــيـــنـــا نـــظـــرةً تـــكـــريـــمـــا		صـــلّـــوا عـــلـــيـــه وســـلّـــمـــوا تـــســـلـــيـــمـــا
هـــو مـــصـــطـــفـــى عـــنـــد الإلّـــه الأوجـــه		هَـــادٍ لـــنـــا وبـــوجـــهـــه مـــن أوجـــه
هـــا إنـــه وجـــهـــي لـــهـــذا أوجـــه		هـــيـــه هـــنـــيـــئًـــا وجـــهـــهُ بـــالأوجـــه
هـــامَ الـــفـــؤادُ بـــحـــبِّـــه تـــتـــيـــيـــمـــا		صـــلّـــوا عـــلـــيـــه وســـلّـــمـــوا تـــســـلـــيـــمـــا
لا مثل لـــلـــمـــخـــتـــار أعـــلـــى من عَـــلا		لاجـــيـــه نـــاجٍ قـــد نـــجـــا كـــلّ الـــبـــلـــى
لاذ الـــصـــفـــيُّ بـــه يـــتـــوب فـــأقـــبـــلا		لاقـــى الـــنـــبـــي مـــحـــمـــد أن يـــقـــبـــلا
لازم مـــحـــبًّـــا لـــلـــحـــبـــيـــب نـــديـــمـــا		صـــلّـــوا عـــلـــيـــه وســـلّـــمـــوا تـــســـلـــيـــمـــا
يا أكرمَ الـــخـــلـــق الذي هو مـــلـــجـــئـــي		يـــأتـــي مـــحـــمـــد الـــعـــفـــيـــفـــي الـــذي
يـــده يـــمـــدُّ إلـــيـــك مـــرتـــجـــيًـــا وفـــي		يـــقـــن بـــصـــفـــوتـــه الـــصـــفـــي ويـــكـــتـــفـــي
يـــمـــنًـــا لـــذكـــرك يَـــبْـــتَـــدي تـــخـــتـــيـــمـــا		صـــلّـــوا عـــلـــيـــه وســـلّـــمـــوا تـــســـلـــيـــمـــا

وله أيضًا رضي اللّه تعالى عنه قصيدة أخرى على طريقة هذه، وقد نظمها بعدها نفع اللّه تعالى بنيّته، وبلّغه غاية قصده وأمنيته، وهي هذه: [الكامل]

أَحْسِنْ بطلعةِ أحمدٍ هي أضوأ		أعـــلـــن بـــلـــمـــعـــتـــه الـــعـــوالـــم تـــمـــلأ
أزيـــن بـــه لـــمّـــا أتـــى يـــتـــلألأ		أبـــيـــن بـــآيـــات لـــه فـــتـــنـــبـــأ
الـــلّـــه قَـــدَّمَـــهُ بـــهـــا تـــقـــديـــمـــا		صـــلّـــوا عـــلـــيـــه وســـلّـــمـــوا تـــســـلـــيـــمـــا
بـــدأ الإلّـــهُ بِـــنُـــوره فـــيـــعـــقّـــب		بدء الـــذي بـــالـــمـــصـــطـــفـــى يـــتـــقـــلّـــب
فيه لـــذي الـــحـــاجـــات إذ يـــتـــطـــلّـــب		بـــدء بـــذكـــراه بـــه يـــســـتـــوهـــب
بل هو إلى الأَرَبِ انتفع تعميما		صـــلّـــوا عـــلـــيـــه وســـلّـــمـــوا تـــســـلـــيـــمـــا
تلت الـــعـــلامـــاتُ الـــتـــي هي تثبت		تَـــبُّ الـــعِـــدا تَـــبًّـــا وعـــنـــه تـــتـــبـــت
تـــمـــتْ لـــه الآيـــات فـــيـــك تـــبـــكـــت		توراة مـــوســـى نـــاطـــقًـــا هـــي تـــنـــعـــت
تـــوقـــيـــع حـــاجـــات صـــفـــوا تـــســـلـــيـــمـــا		صـــلّـــوا عـــلـــيـــه وســـلّـــمـــوا تـــســـلـــيـــمـــا

ثبت الكمال له ومنه يورث ثبت الورى لو لم تكن لا تحدث
ثبت بذكرى المصطفى يتحنّث ثبت الذي بجنابه يتشبّث
ثبت بذكر قد تراهُ قديما صلّوا عليه وسلّموا تسليما
جاء العوالم نورُهُ يتبلّج جاد العوالم بحرُهُ يتموَّج
جاز السموات العُلا يتعرّج جاب الجميع بسامه يتفرّج
جار له جاري له تنعيما صلّوا عليه وسلّموا تسليما
حار العقول لمدحه إذ يمدح حيا الحياء بريّه يستروح
حي له فضل به يسترجح حي له حامى حمى فتروّح
حي الحمى الحامي تصير سليما صلّوا عليه وسلّموا تسليما
خلقٌ له كلٌّ به يتشمّخ[1] خَلق له بالنقص لا يتلطّخ
خلقٌ به أحسن به هو أبذخ خلق يحقُّ له الثناء الأرسخ
خلقٌ إلّهيٌّ بذاك تميما صلّوا عليه وسلّموا تسليما
دارُ الحبيبِ أحقُّ ما يتعمَّد دارتْ بها كلُّ السعادة تسعد
دانت أهاليها بما هو يرشد دارٌ بحسنى طيبة لا تبعد
داركْ سكونًا بالسكونِ مقيما صلّوا عليه وسلّموا تسليما
ذكر الحبيب محمد هو ينقذ ذكر لما ينسى رسولاً ينفذ
ذكر الإلّه ثناؤه ويلذ ذكراهُ تنفعُ سامعًا يتلذّذ
ذيل النبيّ خذ اعتصم تعظيما صلّوا عليه وسلّموا تسليما
ربّ الورى سُبحانه هو أكبر ربّ النبيُّ محمد فيكبر
رب الرؤوف حبيبه فيدبر ربي اصطفاه من الورى فأكبر
ربّ ارتجاء للمنى تدويما صلّوا عليه وسلّموا تسليما
زانٌ العوالم إذ أتاها يبرز زاد الإلّهُ عُرُوجه فيبرُز
زادتْ معاليه عروجًا ينشز زاد لأخرى حبّه يتحرّز
زعمَ الشفاعة ذاكريه زعيما صلّوا عليه وسلّموا تسليما
سادَ الجميع إذا أتى هو أنفس سارَ السموات العُلا يستأنس

(١) يتشمّخ: يتعاظم ويتعالى. لسان العرب (شمخ).

سأل الإله وزاد ما يتنافس ... سامي ذراه للمُحِبِّ تؤنس
سارعْ إلى ذاك الذرا تخييما ... صلّوا عليه وسلّموا تسليما
شرف لأمّته به يتغابش[1] ... شرق لأشرق شرقه يتفرّش
شرقًا وغربًا فيه عقل يدهش ... شوقًا إليه قد إليه أجهش
شكرًا على النعمى تزيد نعيما ... صلّوا عليه وسلّموا تسليما
صفةٌ له ذات له هو أخلص ... صفة[2] عن الشيء الذي يتنقّص
صفةٌ له حارت عقول تفحص ... صفة شريعته النقائص تخلص
صفة له وبربّه لتديما ... صلّوا عليه وسلّموا تسليما
ضاعَ المديح لأحمد يتروّض ... ضاع الذي عن ذكره هو يعرض
ضافٍ[3] حباه كفّه ليفضفض ... ضافٍ بذكراه المنى يتعرّض
ضاعف له الآمال صِلَةُ مديما ... صلّوا عليه وسلّموا تسليما
طالَ العوالم إذ أتى هو يقسط ... طابَتْ مدائحُهُ فطابَ المغبط
طابت به النعمى وطاب المنشط ... طام له بحر الألى يتنشّط
طالب مطالب كلّها تتميما ... صلّوا عليه وسلّموا تسليما
ظهر النبيّ وربّ أحمد يلحظ ... ظهر لأمته ظَهير ملحظ
ظهروا على الأمم افتخار ملحظ ... ظلّ له ظلوا به يتحفّظوا
ظلت الظلال إذا ذكرت نديما ... صلّوا عليه وسلّموا تسليما
عَدٌّ المحاسن للنبي يستتبع ... عدّ له آياته تتنوّع
عدّاه مولاه إليه فيطلع ... عدّ لذكراه غداة يشفع
عُدْ بابَ مَنْ المؤمنين رحيما ... صلّوا عليه وسلّموا تسليما
غزرت له الآيات هُنَّ توابع ... غزر الحَيَا عزّ الورى هو سائغ
غمر الرّدا بحر الندى يترفّغ ... غمر البلاد بذكره يتفرغ[4]

---

(١) في طبعة دار صادر (جـ ٧ ص ٤٧٧): «يتغايش».

(٢) في طبعة عبد الحميد (جـ ١٠ ص ٣٢٨): «صفتا».

(٣) الضافي: السابغ. لسان العرب (ضفا).

(٤) في طبعة دار صادر (جـ ٧ ص ٤٧٨): «يستفرغ». ويترفغ: يصير عيشه رغدًا واسعًا. لسان العرب (رفغ).

غمر بذكراه الفؤاد وسيما	صلّوا عليه وسلّموا تسليما
فاض الجمال وفاض منه يوسف	فازَ المُحِبُّ بذكره لا يوسف
فاضتْ عليه فيوضه يتزلّف	فاشٍ له الآيات لا يتكلّف
فاد له كلّ بهم تقديما	صلّوا عليه وسلّموا تسليما
قمرٌ بَدَا من أفقه هو فائق	قمرٌ يجاب بذكره ويعلق
فمقام كلّ الأنبياء وسائق	فمقام جُودٍ عَمَّ كلاً[1] يرفق
قم بابه مستنجحًا ومقيما	صلّوا عليه وسلّموا تسليما
كلاً به فتحَ الوجود ويدرك	كلّ الكمالات احتوى لا يشرك
كَلَّ اللسان عن البيان ويمسك	كُلِيء الذي بجنابه يتمسّك
كِلْ[2] مرتجاكَ إليه ثق تكريما	صلّوا عليه وسلّموا تسليما
لمحمدٍ هو مصطفى ومؤمل	لمحمدٍ بن محمد ما يأمل
لمحت عليه بروقه يتحمّل	لمعان نور وداده يستكمل
لم لا أصيب من الحبيب شَميما	صلّوا عليه وسلّموا تسليما
من مثل ذاك المصطفى يتعظّم	من كلّ وجهٍ للكمال ليعظم
مَنٌّ علينا من إلَهٍ أعظم	منه العروض إليه وهو يعظم
من كان للربِّ العظيم كليما	صلّوا عليه وسلّموا تسليما
نور الإلَهِ حبيبه يتمكّن	نادى الإلّه حبيبه يتمكّن
نالَ نوالاً شرحه لا يمكن	ناد له طوبى لمن يتمكّن
نادى الحبيب بذكره تكليما	صلّوا عليه وسلّموا تسليما
واللّه مثل محمد لا يشبهُ	واللّه مولاهُ العوالم كيف هو
وجد الوجود بذاته وبه لهُ	وجد علا وبوجهه فتوجّهوا
وجدوا وجاد من النجاة مقيما	صلّوا عليه وسلّموا تسليما
هو أكمل من كلّ وجه أوجه	هو ذا الحبيب القلب منه أوجه
[...] فأولى طيبه وأوجه	هول من الأرض المُكثر أوجه[3]

(١) في طبعة عبد الحميد (ج ١٠ ص ٣٢٩): «كلّ».

(٢) كِل مرتجاك: اترُكهُ.

(٣) ما بين قوسين كلمة ساقطة لم يُشر إليها الأستاذ عبد الحميد في الجزء العاشر. وفي طبعة عبد الحميد

هانا بنار الشوق صرت سقيما | صلّوا عليه وسلّموا تسليما
لا ريب لا مثل له واللّه لا | لاحث له الآيات عرشًا قد عَلا
لاقى ارتقاء ربّه فتوصّلا | لاج به نال المُنَى إلى الألا
لازم لباب جنابه تقسيما | صلّوا عليه وسلّموا تسليما
يا أكرمًا كلٌّ إليه يَلْتجي | يأتي محمدكَ العفيفي الذي
يَقِنًا توسّل بالصفي ويحتذي | يده إليكَ يمدُّ فقرًا ترتجي
يمن افتتاح باسمه تختيما | صلّوا عليه وسلّموا تسليما

قلت: وإنما أثبتُّ هاتين القصيدتين في جملة ما سردْتُه، وإن كان فيهما من التكلّف ما لا يخفى لأوجه؛ أحدها: أنّ صاحبهما من الصالحين يسلم له ويتبرّك بكلامه، ومن اعترض على مثله يخشى عليه من تسديد السهام لملامه، الثاني: أنهما في[1] مدح النبي ﷺ وعليه من اللّه أزكى صلاته وأتمّ سلامه، الثالث: أنّ المراد جمع ما وقفت عليه في البحر والروي والمعنى؛ لأنَّ بعضًا من العلماء ذكر لي أنه لم يطلع في ذلك إلاَّ على قصيدة ابن الجنان[2]، فأحببت أن أتعرّض لتعريفه بهذا العدد وإعلامه، على أنّ القصد الأعظم ما هو إلاّ التلذّذ بذكر أمداح المصطفى ﷺ، خصوصًا المقتبس فيها قوله تعالى: ﴿صلّوا عليه وسلّموا تسليما﴾[3].

وقد كنت نويت أن أؤلف في ذلك بالخصوص كتابًا أسمّيه «روضة التعليم، في ذكر الصلاة والتسليم، على من خصّه اللّه تعالى بالإسراء والمعاينة والتكليم» واللّه تعالى المسؤول في التيسير، فلتزد عليه يسير.

ومن ذلك هذا التسديس الذي وجدته في كتاب «درر الدرر»[4] للشيخ الإمام أبي عبد اللّه محمد بن محمد بن عبد اللّه بن محمد بن محمد بن أحمد بن أبي بكر العطار الجزائري

= أيضًا: «هو من الأرض. . ».
(١) في طبعة دار صادر (ج ٧ ص ٤٧٩): «أنهما مدحٌ للنبيِّ. . ».
(٢) في طبعة عبد الحميد (ج ١٠ ص ٣٣١): «الجيان» بالياء.
(٣) سورة الأحزاب ٣٣، الآية ٥٦.
(٤) سيرد اسم هذا الكتاب بعد قليل هكذا: «نظم الدرر في مدح سيد البشر».

من جزائر بني مرغنة، وهي المشهورة الآن بالجزائر: [الكامل]

أنوارُ أحمدَ حُسْنُها يتلألأُ ... المصطفى بحلى الكمال يُحَلّأُ
الشمسُ تخجل وهو منها أضوأ ... النور منه مقسَّمٌ ومجزَّأُ
قد زان ذاك النور إبراهيما ... صلّوا عليه وسلّموا تسليما
صلّوا على المِسْكِ الفتيق الأطيبِ ... صلّوا على الورد المعينِ الأعذبِ
صلّوا على نورٍ ثَوَى في يثربِ ... صلّوا عليه بمشرقٍ وبمغربِ
ما زال في الرسل الكرامِ كريما ... صلّوا عليه وسلّموا تسليما
صلّوا على زهرِ الكمال النابت ... صلّوا على طود البهاء الثابت
صلّوا على من فاق نعت الناعت ... خير الورى من ناطق أو صامت
وأعزّهم نفسًا وأطهر خِيما ... صلّوا عليه وسلّموا تسليما
صلّوا على طيب يفوح ويمكث ... صلّوا على من عهده لا يُنكث
صلّوا على من بالهدى يتحدّث ... عنه المعارف والحقائق تورث
أضحى يعلّمنا الهدى تعليما ... صلّوا عليه وسلّموا تسليما
صلّوا على من نُورُهُ يتبلّج ... صلّوا على من عَرْفه يتأرّج
للحضرة العلياءِ لَيْلاً يعرج ... صلّوا على من حاز مجدًا يبهج
وبها على العرش المجيد مُقيما ... صلّوا عليه وسلّموا تسليما
صلّوا على البدر المُنير اللائح ... صلّوا على صبح الرّشاد الواضح
صلّوا على المِسْكِ الذكي الفائح ... صلّوا على الهادي النبي الناصح
الرشدَ فَهَّمَ والهدى تفهيما ... صلّوا عليه وسلّموا تسليما
صلّوا على من شرعه لا يُنْسخ ... صلّوا على من عهده لا يُفسخ
صلّوا على مَنْ بالثناءِ يضمخ ... علياؤه عليا الكمال تؤرخ
نالَ المفاخر والكمال قديما ... صلّوا عليه وسلّموا تسليما
صلّوا على الهادي لأعذب مورد ... صلّوا على خيرِ الأنام الأوحد
صلّوا على بَدْرِ التمام الأسعد ... بمحمد فُزْنا، ومن كمحمد
اللّهُ عَظَّمَ قَدْرَهُ تعظيما ... صلّوا عليه وسلّموا تسليما
صلّوا على مَنْ بالنبوّة ينفذ ... صلّوا عليه فللسعادةِ يجبذ

صلّوا على مَنْ حُبُّهُ لا يُنبذ أبصارنا طرًا بأحمد لوّذ[1]
في موقف يُنْسِي الحميمَ حميما صلّوا عليه وسلّموا تسليما

صلّوا على البَدْرِ المُنيرِ الزاهر صلّوا على الروض البهي الناضر
صلّوا على مُزْن العلوم الماطر[2] صلّوا على المِسْكِ الفتيق العاطر
وتَنَعَّموا بصلاتكم تنعيما صلّوا عليه وسلّموا تسليما

صلّوا على نُورٍ يلوح ويبرز صلّوا على مِسْكٍ يفوحُ ويحرز
بمحمّد حلل الكمال تُطَرّز ولمجده درزُ السيادة تُفْرز
قد نُظِّمَتْ لكمالِهِ تنظيما صلّوا عليه وسلّموا تسليما

صلّوا على الدرِّ النفيس الأنفَسِ[3] صلّوا عليه فهو روضُ الأنفُسِ
صلّوا عليه فهو زينُ المجلسِ ومُنى الجليس ونزهةُ المتأنّس
راق النفوس شَذًا وطاب شَميما صلّوا عليه وسلّموا تسليما

صلّوا على المختار أفضلَ من مشى صلّوا على النور الذي قد أدهشا
بمحمد عَرْفُ القرنفلِ قد فشا ورد لظمآن إليه تعطّشا
يُبْرِي الضنا أبدًا ويروي الهيما صلّوا عليه وسلّموا تسليما

صلّوا على من بالكمال يخصّص[4] صلّوا على مَنْ نورُهُ لا ينقص
صلّوا عليه على الدوام وأخلصوا ظلٌّ ضفا بالأمن لا يتقلّص
شمل الورى طرًا وطاب عميما صلّوا عليه وسلّموا تسليما

صلّوا على صبح تبلّج بالرضا وقضى على ليل الضلالة فانقضى
صلّوا على مَنْ بالنجاة تعرّضا صبح تذهّبَ نورُهُ وتفضضا
وعلا وخَيَّم ضوءُهُ تخييما صلّوا عليه وسلّموا تسليما

صلّوا على مَنْ بالبهاء يخطط[5] صلّوا على وَرْدٍ بمسك يخلط
للمصطفى بُسُطُ الكرامة تُبْسط وله يواقيتُ السناءِ تقسط

---

(١) اللّوّذ: جمع لائذ أو لائذة؛ يقال: لاذ به إذا التجأ إليه وتحصّن به. لسان العرب (لوذ).

(٢) في طبعة دار صادر (جـ ٧ ص ٤٨١): «صلّوا على بحر العلوم الزاخر».

(٣) جاء النظم على حرف السين في طبعة دار صادر (ص ٤٨٤) بعد النظم على حرف القاف.

(٤) جاء النظم على حرف الصاد في طبعة دار صادر (ص ٤٨٣) بعد النظم على حرف النون.

(٥) النظم على حرف الطاء في طبعة دار صادر (ص ٤٨٢) جاء بعد النظم على حرف الزاي.

وبنوره أضحى الزمان وسيما صلّوا عليه وسلّموا تسليما
صلّوا على من بالمهابة يلحظ صلّوا على من بالنبوّة يلحظ
صلّوا على من بالهداية يلفظ لِعُصاتِهِ نار الجحيم تغيظ
ورضاه هَبَّ لنا وطابَ نسيما صلّوا عليه وسلّموا تسليما
صلّوا على البدر المنير الساطع[1] صلّوا على الروض الأنيق اليانع
صلّوا على الصبح المنير اللامع صلّوا على المِسْكِ الفتيق الذائع
ووقاه في وهج الهجير مغيما صلّوا عليه وسلّموا تسليما
صلّوا على النُّور الأعمّ السابغ صلّوا على البدرِ الأتمّ البازغ
صلّوا على المِسْكِ الذكيُّ البالغ صلّوا على الوِرْدِ المَعِينِ السائغ
للواردين به غَدَا تتميما صلّوا عليه وسلّموا تسليما
صلّوا على من بالتقرّب يوصفُ صلّوا على من بالمحبّة يُعرفُ
صلّوا على من بالعُلا يتشرّفُ صلّوا عليه به الكمال يزخرفُ
المجدُ فَخَّمَ ذكره تفخيما صلّوا عليه وسلّموا تسليما
صلّوا على مسك يطيب لناشِقِ صلّوا على الروض الأنيق الرائقِ
إشراقُهُ بمغاربٍ ومشارقِ صلّوا على البَدْرِ الأتمِّ الفائقِ
بادٍ تَنَسَّمَ حُسْنُهُ تنسيما صلّوا عليه وسلّموا تسليما
صلّوا على مَنْ قَدْرُهُ لا يُدْرَكُ[2] صلّوا على مَنْ باسمه يُتَبَرَّكُ
صلّوا على مَنْ حُبُّه[3] لا يُترك صلّوا على من للهدى يتحرّك
وبه تحلى ظاعنًا ومقيما صلّوا عليه وسلّموا تسليما
صلّوا على البدرِ المنيرِ الأكملِ صلّوا على الروض البهيّ الأجملِ
صلّوا على الهادي النبيِّ الأحفلِ المصطفى الأرقى لأنزه محفلِ
فيه تقدّم وحده تقديما صلّوا عليه وسلّموا تسليما
صلّوا على زهرِ أنيقِ باسمِ صلّوا على عَرْفٍ ذكيّ ناسمِ

---

(١) النظم على حرف العين في طبعة دار صادر (ص ٤٨٣) جاء بعد النظم على حرف الميم.
(٢) جاء النظم على حرف الكاف في طبعة دار صادر (ص ٤٨٢) بعد النظم على حرف الظاد.
(٣) في طبعة عبد الحميد (جـ ١٠ ص ٣٣٤): «جسمه».

صلّوا عليه فهو بَدْرُ مواسِمِ ... من جودِهِ نلْنا بخيرِ مقاسمِ
أنوارُهُ قد تممت تتميما ... صلّوا عليه وسلّموا تسليما
صلّوا على مَنْ بالنبوّة زيّنا ... صلّوا على مَنْ بالكمال تمكّنا
صلّوا على هادٍ أبانَ وبَيَّنا ... بمحمّد فُزْنا بإدراك المُنَى
للخلقِ أرسل رحمةً ورحيما ... صلّوا عليه وسلّموا تسليما
صلّوا على الهادي النبيِّ الأنزه[1] ... بدر التّمام وروضة المتنزّه
في فضله كلّ الشهادة تنتهي ... أبدًا بلثم ثراه فخر الأوجه
في حُبِّه أضحى الغرام غريما ... صلّوا عليه وسلّموا تسليما
صلّوا على نور بطيبة قد ثوى ... فعلا وفاض على البسيطة واحتوى
صلّوا عليه فليس ينطق عن هوى[2] ... صلّوا عليه فهو يُنْجي مَنْ هَوَى
في موقفٍ يذرُ السليم سليما[3] ... صلّوا عليه وسلّموا تسليما
صلّوا على نور تلألأ واعتلى ... صلّوا على صبح مبين يجتلى
صلّوا على مسك يخالط مَنْدَلا[4] ... صلّوا على درّ تزان به الحلى
وبه المعالي خيّمت تخييما ... صلّوا عليه وسلّموا تسليما
صلّوا على مَنْ نالَ مجدًا عاليا ... وسَمَا وحازَ مفاخرًا ومعاليا
صلّوا على نور تبدّى حاليا ... وبمدحه الرحمنُ زين حاليا
وإذا سما المخدوم زان خديما ... صلّوا عليه وسلّموا تسليما

وقد توارد في بعض هذا التسديس مع بعض بيوت القصيدة السابقة التي أولها:

يا أمّةَ الهادي المبارك أحمد

حسبما يعرفه المتأمّل، والذي في ظنّي أنّ صاحب «يا أمة الهادي» متأخّر عن ابن العطار فهو الذي أخذ منه، واللّه سبحانه أعلم.

---

(١) جاء النظم على حرف الهاء في طبعة دار صادر (جـ ٧ ص ٤٨٤) بعد النظم على حرف الشين.
(٢) يشير إلى قول اللّه تعالى: ﴿وما يَنْطِقُ عنِ الهَوَى، إنْ هُوَ إلاّ وَحْيٌ يُوْحَى﴾. سورة النجم ٥٣، الآيتان ٣، ٤.
(٣) «السليم» الأول: الصحيح السالم من الأدواء. «السليم» الثاني: الذي لدغته الأفعى. لسان العرب (سلم).
(٤) المَنْدَلُ: العود الطيب. لسان العرب (ندل).

وتوارد أيضًا في عدّة أبيات مع تخميس الكاتب أبي العباس بن جمال الدين المتقدّم ذكره وأوّله:

اللّه زادَ محمدًا تعظيما

وهما على منوال واحد، غير أنّ ذلك تخميس وهذا تسديس، وابن جمال الدين أقدم من ابن العطار تاريخًا، فيحتمل أن يكون ألمّ بكلام ابن جمال الدين، أو ذاك من توارد الخاطر.

ورأيت في هذا الكتاب تسديسًا آخر لم يرتّبه على حروف المعجم، وجعل روي الشطرين الأخيرين حرف اللام، فأحببت ذكره هنا زيادة في التبرّك بمدح المصطفى عليه أجلّ الصلاة والسلام، وهو: [الكامل]

نُورُ النبيِّ المصطفى المختارِ ... أربتْ محاسنُهُ على الأنوارِ
مرآه يُخجِلُ بهجةَ الأقمارِ ... نورٌ يُنَجّي من عذابِ النارِ
قد زانَ ذاكَ النور إسمعيلا ... صلّوا عليه وسلّموا تسليما
صلّوا على البدر المُنير المشرقِ ... صلّوا عليه بمغربٍ وبمشرقِ
صلّوا على غصنِ الكمال المورقِ ... بالمصطفى المختار برق الأبرقِ
يهدي غرامًا للنفوسِ دخيلا ... صلّوا عليه وسلّموا تسليما[1]
صلّوا على مَنْ قد تناهى فخرُه ... صلّوا على مَنْ قد تعاظم قدره
صلّوا على مَنْ قد تأرّج نشرُه ... صلّوا على مَنْ قد تناسق درّه
عقد الثناء لمجده إكليلا ... صلّوا عليه وسلموا تسليما[2]
صلّوا على خيرِ الأنامِ المُرْسَل ... صلّوا على البَذرِ المَعينِ السلسل
صلّوا على أسنى سَنًا المتوسّل ... صلّوا على نور الهدى المسترسل
ظلٌّ علينا لا يزالُ ظليلا ... صلّوا عليه وسلّموا تسليما
صلّوا على النور الأتمّ الأكبر ... صلّوا على مَنْ فاق عَرْفَ العنبر

---

(١) في طبعة دار صادر (جـ ٧ ص ٤٨٥): «صَلُّوا عليه بُكْرَةً وأصيلاً». وهذا الشطر اعتمدت عليه هذه الطبعة في كل هذا التسديس.

(٢) في طبعة دار صادر (جـ ٧ ص ٤٨٥): «عقد السناءُ.. بكرةً وأصيلا».

صلّوا عليه فهو أصدقُ مخبر ... كم زان ذكر المصطفى من منبر
وأراح من دار الضَّلال عليلا ... صلّوا عليه وسلّموا تسليما
صلّوا على النور الأتمّ الأكبر[1] ... صلّوا على من فاقَ كلَّ مبشّر
صلّوا عليه هُديتمُ من معشر ... صلّوا على بَدْرٍ يُرى في المحشر
حازَ الجمال فلا يزالُ جميلا ... صلّوا عليه وسلّموا تسليما
صلّوا على النور البهيِّ المغرب ... صلّوا عليه بمشرقٍ وبمغرب
صلّوا على الوِرْدِ الشهيِّ المشرب ... بالفكرِ يُشْرَبُ وَيْحَ مَنْ لم يشرب
منه، وينقعُ بالورودِ غليلا ... صلّوا عليه وسلّموا تسليما
صلّوا على من فَخْرُهُ لا يُنْكَر ... صلّوا على مَنْ في النجاة يفكِّر
صلّوا على مَنْ بالنبوّة يُذْكر ... صلّوا على مَنْ بالهداية يُشْكر
شكرًا على مَرِّ الزمانِ حفيلا ... صلّوا عليه وسلّموا تسليما
صلّوا على من بالسيادة قد سما ... صلّوا على من في الكمال تقسّما
صلّوا على صبح بَدَا متبسّما ... صلّوا على طيب سرى وتنسّما
وغدا وراحَ معطّرًا وبليلا ... صلّوا عليه وسلّموا تسليما
صلّوا على مِسْكٍ يخالطُ عنبرا ... صلّوا عليه سرى وفاح وما انبرى
صلّوا عليه حوى الكمال الأكبرا ... لبسَ الجمال مطرّزًا ومحبّرا
وبذاك قد خصّ الجليل جليلا ... صلّوا عليه وسلّموا تسليما
صلّوا على مَنْ بالنبوّة تُوّجا ... صلّوا على صبح بَدَا وتبلّجا
صلّوا عليه لقد أضاء وأبهجا ... ومحا برونق نورِهِ ظُلَمَ الدُّجا
نورٌ يعود الطرف منه كليلا ... صلّوا عليه وسلّموا تسليما
صلّوا على نُورٍ تبلّج لائحا ... صلّوا على نَوْرٍ تبرَّج[2] واضحا
صلّوا على مسك تأرّج فائحا ... وبطيبه ملأ الوجودَ روائحا
ويحبّه يستوجبُ التبجيلا ... صلّوا عليه وسلّموا تسليما
صلّوا على مَنْ نورُهُ ملأ الفضا ... صلّوا عليه لقد أضاء وما انقضى

---

(١) في طبعة دار صادر (ص ٤٨٦): «الأنور».

(٢) في طبعة عبد الحميد (ج ١٠ ص ٣٣٨): «تبلّج».

صلّوا على من خُفَّ[1] حقًّا بالرضا لنجاتنا خيرُ الأنام تعرّضا
وهدى إلى نيل الرشادِ سَبيلا صلّوا عليه وسلّموا تسليما
صلّوا على بَدْرٍ يدومُ كمالُه باقٍ على مَرِّ الزمان جماله
صلّوا على من قد تعاظم حاله ودنا إلى وِرْدِ الرضا تَرْحَاله
وإلى الورود به أجدَّ رحيلا صلّوا عليه وسلّموا تسليما
صلّوا بأجمعكم على شمس الهدى صلّوا على بدر يزين المشهدا
صلّوا عليه فمن رآه تشهّدا صلّوا عليه به الرشاد تمهّدا
أرضى التنزيل وبَيَّنَ التنزيلا صلّوا عليه وسلّموا تسليما
صلّوا على مَنْ قد تأثّل مجدُهُ فسما به غَوْرُ الحجاز ونَجْدُهُ
ما زهرُهُ لولاه أو ما وَرْدُهُ بالمصطفى المختار يعذب وِرْدُهُ
في تربه ما أعذب التقبيلا صلّوا عليه وسلّموا تسليما
صلّوا على محبوبنا مطلوبنا صلّوا عليه فهو روضُ قلوبنا
صلّوا عليه فهو عطرُ جيوبنا صلّوا على مطلوبنا محبوبنا
لا نرتضي من حبّه تبديلا صلّوا عليه وسلّموا تسليما
صلّوا على خير الأنام الأطهر صلّوا على النور الأتمّ الأزهَرِ[2]
صلّوا على الصبح المنير الأَشْهَر صلّوا عليه باتّصال الأشهر
اللّه فضّلنا به تفضيلا صلّوا عليه وسلّموا تسليما
صلّوا على مَنْ قد تناهى في العلا صلّوا على من كان أكمل أجملا
صلّوا على درّ تُزانُ به الحلى المجدُ ألبسه الكمالَ فأجزلا[3]
واللّهُ كَمَّلَ مجدَهُ تكميلا صلّوا عليه وسلّموا تسليما

وأظن أني رأيت بعض هذه القصيدة في كتاب العروسي المغربي، وهو متأخّر.

ومن قصائد هذا الكتاب قصيدة صرّح فيها بابن المغربي، وهي: [الكامل]

أهدتْ لنا طيبَ الروائح يثربُ فهبوبُها عند التنسّم يطربُ

---

(١) في طبعة دار صادر (جـ ٧ ص ٤٨٧): «من خُصَّ».
(٢) في طبعة عبد الحميد (جـ ١٠ ص ٣٣٩): «الأبهر».
(٣) في طبعة دار صادر (جـ ٧ ص ٤٨٨): «مُكَمَّلا».

رَقَّتْ فرقٌ من الصبابة والأسى ... قلبٌ بنيران البعاد يُعَذَّبُ
شوقًا إلى أسنى نبيّ حبُّهُ ... كنز النجاة فنعم هذا المطلب[1]
المصطفى أعلى البريّة منصبًا ... قد جلَّ في العلياءِ ذاك المنصبُ
فُزْنَا به بين الأنام بديمةٍ ... أبدًا علينا بالأماني تسكب
حازَ السيادةَ والكمالَ محمدٌ ... فإليه أشتاتُ المحامدِ تُنْسَبُ
محبوبُنا ونبيُّنا وشفيعُنا ... يُدْني إلى روض[2] الرضا ويقرّبُ
بضيائه الملتاح أشرق مشرقٌ ... وبنوره الوضّاحِ أغرب مغربُ
وبه وَرَدْنا الأمنَ عذبًا صافيًا ... وبه ترقى في المعالي يَشْجُبُ[3]
صبح الهدى أنواره بنبيِّنا ... صبحًا تروق الناظرين وتعجبُ
إن طابتِ الأنفاسُ من زهر الرُّبا ... رَيَّاه أذكى في النفوس وأطيبُ
صَيَّرْتُ أمداحَ النبيِّ المصطفى ... لي مذهبًا يا حبّذاك المذهبُ
فعليَّ من أمداح أحمدَ خلعةٌ ... مَوْشِيَّةٌ ولها طرازٌ مذهب
وبمدحِهِ شمس الرضا طلعت على ... أفقي تضيء ونُورُها لا يغرب
أترى يبشرني البشيرُ بقربه ... وأبثُّ أشواقَ الفؤاد وأندب
ويُقال لي بشراك قد نلت المنى ... يا مغربيُّ إلى متى تتغرّب
هذا مقرُّ الوحي هذا المصطفى ... هذا الذي أنوارُهُ لا تُحْجَبُ
رِدْ وِرْدَ طيبة واشْفِ من ألم النوى ... قلبًا على جَمْرِ الأسى يتقلّب
كم ذا التواني عن زيارة موردٍ ... عَذُبَ المقامُ به ولَذَّ المشرب
منّا السلامُ على النبيِّ محمد ... ما أسفرت شمسٌ وأشرق كوكبُ

وقد سمّي هذا الكتاب بـ «نظم الدرر، في مدح سيد البشر» و «الورد العذب المعين، في مولد سيد الخلق أجمعين» وليس هو بابن العطار[4] المشرقي الذي كان معاصرًا لابن

---

(١) رواية عجز البيت في طبعة دار صادر هي:

يحلو على مَرِّ الزمان ويعذبُ

(٢) في طبعة دار صادر: «إلى وِرْدٍ..».

(٣) يَشْجُب: هو يَشْجُبُ بن يَعْرب بن قحطان. جمهرة أنساب العرب (ص ٣٢٩).

(٤) ابن العطار المشرقي: هو شهاب الدين أحمد بن محمد بن علي الدنيسري، وترجمته في الدرر الكامنة (جـ ١ ص ٢٨٧).

حجّة الحموي، فإنّ ذلك متأخّرٌ عن هذا، وهذا مغربي وذاك مشرقي، فلم يتّفقا لا في زمان ولا في مكان، غير أنهما اشتركا في الشهرة بابن العطار.

ووجدت على ظهر أول ورقة من بعد تسميته السابقة ما صورته: مِمّا أنشأه الشيخ الفقيه القاضي العدل الأديب البارع أبو عبد اللّه محمد بن عبد اللّه بن محمد بن أبي بكر بن يوسف العطار، رواية العبد الفقير إلى اللّه تعالى محمد بن أحمد ابن الأمين الأقشهري، قرأتُ هذا الكتاب وقصائده على حروف المعجم وقصيدتين غيرها على ناظمها القاضي المذكور قراءة ضبط وتصحيح ورواية مقابلة بأصله بموضع الحكم في مدينة الجزائر من أقصى إفريقية ـ حُرِسَتْ ـ في دول متفرّقة، وآخرها يوم الثلاثاء لليلة بقيت من ذي القعدة أواخر عام سبعة[1] وسبعمائة، ونَصُّ ما كُتب على نصّ قراءتي عليه: صحيحٌ ذلك، وكتبه محمد بن عبد اللّه بن محمد بن العطار، والحمد للّه رب العالمين؛ انتهى.

ورأيت أثر ما تقدّم بخطّ الأقشهري ما صورته: سمع من لفظي جميعَ «نظم الدرر، في نسب سيّد البشر» لجامعه[2] القاضي المذكور أعلاه القاضي شمسُ الدين محمد ابن المرحوم عبد المنعم الشيبي وولدُه أبو محمد عبد الدائم وابنُ أخيه أبو محمد عبد الباقي بن تاج الدين بن حفص بن أبي بكر البوري وغيرهم، نحو سماعي قراءة مني على مؤلّفه أبي عبد اللّه محمد بن محمد بن عبد اللّه بن محمد بن محمد بن أبي بكر العطار سنة سبع وسبعمائة، قالَهُ راسمُه الأقشهري؛ انتهى.

ومن قصائد هذا الكتاب قوله: [الكامل]

أبـدًا تَشـوقُكَ أو تروقُكَ يشربُ ... فإلى متى يقصيك عنها المغربُ
هي جنّةٌ في النفس يعذبُ ذكرُها ... والقربُ منها والتداني أعذبُ
المِسْكُ معترفٌ بأنَّ نسيمَها ... أسمى وأسرى[3] في النفوس وأطيبُ
والعنبر الورديُّ دانٍ لطيبها ... منه التعطّرُ والتأرّجُ يطلبُ
جيشُ الصبابة شنَّ غاراتِ الأسى ... من بعدها فالصبرُ منها ينهب

---

(١) في طبعة عبد الحميد (ج ١٠ ص ٣٤١): «سبع».
(٢) في الطبعة نفسها: «الجامعة».
(٣) أسرى: أشدُّ سريانًا.

والشوقُ يُثْنينا إليها كلّما ... وقف الحَمام على الأراكة يخطب
حتى النسيمُ إذا سرى من ربعها ... يثني من الروض الغصون ويُطرب
حَيًّا فأَحْيا المستهامَ بطيبه ... فنفوسُنا بهبوبه تستطيب[1]
يا حبّذا في رَبْعِ طيبةَ وقفةً ... بين الركائب والمدامع تُسْكَبُ
حتى يرقَّ للوعتي وصبابتي ... ودموع عيني كُلُّ مَنْ يتغرّبُ
شوقًا لمن زانَ الوجودَ، وحبّه ... يدني إلى رتب[2] الرضا ويقرّبُ
سادَ الأنامَ المصطفى بكماله ... فإليه أجناسُ السيادة تُنْسَبُ
بالنور زادَ حُلًى على آبائه[3] ... وبحسن ذاكَ النور أعرب معربُ
الشمسُ يغربُ نورها وضياؤها ... أبدًا ونورُ المصطفى لا يغرب
اللَّه أرْسَلَهُ إلينا رحمةً ... فبجاهه عنًّا الرضا لا يُحْجَبُ
بمحمدٍ فُزْنا بإدراك المُنَى ... فالوقتُ طابَ لنا وطابَ المشرب
خيرُ الورى محبوبنا ونبيّنا ... حُزْنا به الجاهَ الذي لا يُسْلَبُ
روضُ النفوسِ محمدٌ ونعيمها ... وبه يُفَضَّضُ حَلْيُها ويُذَهَّبُ
شرفٌ تقادم قبلَ آدمَ عهده ... للنور أطنابٌ عليه تطنَّبُ
منّا عليه مدى الزمانِ تحيّة ... يثني عليها المندليُّ ويطنب

ومنها قوله رحمه اللَّه تعالى: [الكامل]

طَلَعَتْ، وقارنَها البهاءُ، بُدورُ ... أبدًا على قطبِ السعود تدورُ
من نورِ أحمدَ يُسْتَمَدُّ ضياؤها ... وبهاؤها، يا حبّذاك النور
ويزيدُ ذاك النور حسنًا فائقًا ... يومَ القيامةِ والأنامُ حضور
محبوبنا أسمى البريّةِ منصبًا ... يومَ النشورِ لواؤه منشور
فُزْنا بخير العالمين محمدٍ ... وجرى بوفق مرادنا المقدور
لاحَتْ لنا أنوارُهُ فزماننا ... نورٌ، وأُنْسٌ دائمٌ وسرور
بالمصطفى المختار قابلنا الرضا ... بين الأنامِ فَسَعْيُنا مشكور

---

(١) في طبعة دار صادر (ج ٧ ص ٤٩٠): «تتطيّب».
(٢) في الطبعة نفسها: «إلى ربِّ الرضى».
(٣) في طبعة دار صادر (ج ٧ ص ٤٩١): «زان حلى علا آياته».

اللّه فَضَّلَهُ على كلِّ الورى	فهو الحبيبُ، وفضلُهُ مشهور
القربُ خَصَّصَهُ وعظَّم قَدْرَهُ	فسما ببهجةِ نورِهِ ناحور
خيرُ النبيِّين الكرام نبيُّنا	بالنور في العرش اسمه مسطور
يا صاحبيَّ نداءَ صَبّ مغرمٍ	قلبي بحبِّ المصطفى معمور
عُوْجا عليَّ بوقفةٍ وبعطفةٍ	إني على ألم الفراق صبور
إن لم أَزُرْ بالجسم قَبْرَ المصطفى	فالقلبُ من بُعْدِ المزار يزورُ
نيرانُ قلبي بالبعادِ تَوَقَّدَتْ	ومدامعي خَدِّي بها ممطور
فمن الفراقِ الحتم[1] نيرانٌ لها	لهبٌ، ومن فيض الدموع بحور
فمتى أفوزُ بوقفة في طيبة	والقلبُ مني فارحٌ مسرورُ
ويقال لي إنْزِلْ بأكرم منزلٍ	وأبشرْ فأنتَ على النوى منصور
إن جاد دهري بالوصول لطيبة	بعد المطال فذنبُهُ مغفور
هي جنّة مَنْ حَلَّها نال المنى	وسما وسادَ وصافحته الحور
حتى النسيم إذا سرى من نحوها	يصبو إليه المِسْكُ والكافور

ومنها قوله رحمه اللّه تعالى: [البسيط]

أمّا النسيمُ فقد حَيَّاك عاطرُهُ	وبارق المُنْحَنَى أحياك ماطرُهُ
خاطِرْ بروحك في نيل الوصالِ فكم	من نازح نال طيب الوصل خاطرُهُ
زهرُ الرُّبا باسِمٌ تَنْدَى كمائمُهُ	رقَّ النسيمُ بها إذ راق ناظرُهُ
ما حَلَّ روض المنى الغضّ الجنى دنفٌ	فاستضحكتْ فيه من عُجبٍ أزاهرُهُ
والنهرُ أبرز للبدر الأتمّ حلَى	والبدرُ طرّز ماء النهر زاهرُهُ
والغصن تلعبُ أنفاسُ الرياحِ به	والطلُّ قد نُثرتْ منه جواهرُهُ[2]
والليلُ قد رقمت بالشُّهب حلّته	والبرقُ يبسم في الظّلْماء ساهرُهُ
والنورُ مَحْضُ جنًى فوق الندى درر	وعقدها زَيَّنَ الأغصان[3] دائرُهُ

(١) في طبعة عبد الحميد (ج ١٠ ص ٣٤٣): «الحدم».
(٢) في طبعة عبد الحميد: «أزاهره».
(٣) في الطبعة نفسها: «الأبصار».

وملبس الروض قد زانته خضرته
والليل بالفجر قد شابَتْ[1] غدائرُهُ

والصبح سَلَّ على جيش الظلام ظُبًا
وعندما سلَّها ولَّتْ عساكرُهُ

للزهر سِرٌّ وعَرْفُ الروض فاضحه
والمِسْكُ إن فُضَّ لا تخفى سرائرُهُ

هل زار طيبة[2] ذاك العرفُ حين سرى؟
فتربها أبدًا مِسْكٌ يخامرُهُ

طابتْ بطيبِ رسولِ اللّه فهي به
سَمَتْ وفاقَتْ بمن فاقتْ مفاخرُهُ

به مَعَدٌّ تَسَامى للعُلا، وبه
حازَ المكارمَ واعتزَّتْ عشائرُهُ

أسنى النبيِّين قدرًا نورُهُ أبدًا
يزيدُ حسنًا على الأقمار باهرُهُ

وأفضلُ الخلقِ من عُرْبٍ ومِنْ عجم
أَرْبَتْ على الرمل أضعافًا مآثرُهُ

إن كان للرُسْل عقدٌ وَهْوَ آخرهمْ
نظمًا فقد زان عقدَ الرُسل آخِرُه

روضٌ من الحلم غضٌّ راقَ منظرُهُ
بحرٌ من العلم عَذْبٌ فاض زاخرُهُ

إن جاد صَاحِ بلقياهُ الزمانُ فَمِلْ
إلى مَقامِ حبيبٍ أنتَ زائرُهُ

وصِفْ له حال صَبٍّ مغرمٍ دنفٍ
رامَ الدنوَّ فأَقْصَتْهُ جرائرُهُ[3]

واذكرْ هناك بعيدَ الدار غُرْبَتَهُ
غربٌ فما غائبٌ من أنت ذاكرُهُ

أهدى السلام بلا حدّ ولا أَمَدِ
إلى مَحَلِّ رسولِ اللّهِ عامرُهُ

ومنها قوله رحمه اللّه تعالى: [الطويل]

أمنزلَنا جادت ثَرَاكَ السحائبُ
وإلاّ فجادتْه الدموعُ السواكبُ

ووشَّاك وَسْمِيُّ الغمام بدرِّه
وحَلَّى محلاً حلَّ فيه الحبائبُ

وحيّا نسيمُ الريح بالجزع آنسًا
فما عاب ذاك الأنسَ بالجزع عائبُ

فيا عهدنا بالخيفِ هل أنتَ عائدٌ؟
ويا أُنسنا بالجزعِ هل أنت آئبُ

وهل راجعٌ عصرُ الشَّبَابِ الذي انقضى
وقد شيبتْ سود الشعورِ الشوائبُ

وهيهات أن يُقْضى[4] لنا برجوعه
كما كان غصنًا مورقًا وهو ذاهب

وقد سلب الدهرُ المفرقُ أُنسنا
وأودى به والدهرُ للأنس سالب

---

(١) في طبعة عبد الحميد: «قد زالت».

(٢) في طبعة عبد الحميد: «طيبه».

(٣) الجرائر: جمع جريرة وهي الذنب والإثم. لسان العرب (جرر).

(٤) في طبعة عبد الحميد (جـ ١٠ ص ٣٤٤): «تقضى».

فما وهبَ الأنفاس[1] إلاَّ مغالطًا وأيّ بخيلٍ للنفائسِ واهب
أُطالبُ أيام العقيق بعَوْدة وقد عزَّ مطلوبٌ له أنا طالب
فيا صاحبي كن مُسْعِدِي في صبابتي وإلاَّ فما أنت الصديقُ المصاحب
إذا ما بَدَا برقُ الحجازِ فأدمعي تفيضُ إلى الورّاد منها المشارب
أُعاتبُ أيامَ البعاد، وقلّما يُبَرِّدُ حَرَّ الشوقِ بالعتب عاتبُ
وأبخلُ بالصبر الجميل، وإنه لينهبه من وارد البين ناهب
ولمَّا بَدَتْ أعلامُ طَيبة قَصَّرَتْ من الشوق ما قد طولته السباسب
وقفْنا وسلَّمْنا وفاضتْ دموعنا وحَنَّتْ إلى ذاك الجناب الركائب
نَزَلْنا وقَبَّلنا من الشوق تربها وطابَتْ بذاك التربِ منّا الترائب
فللعين من تلك المعاهدِ نزهةٌ وللقلب في تلك الرسومِ المآرب[2]
حَوَتْ سيد الرسل الذي جلّ قدره له في مقام القرب تقضى المطالب
به غالبٌ حاز المفاخرَ سالفًا ولا شرفٌ إلاَّ الذي حاز غالب[3]
بهادي الورى طُرًّا مَنَاصبُهُ سَمَتْ وراقتْ بخير الرُّسل تلك المناصب
محمدٌ الهادي بإشراقِ نورِهِ تمزّقَ من ليل الضلال غياهب
ترقَّى إلى السبع الطباق وما بَدَا له في ترقِّيه من الحجب حاجب
وخاطبه في حضرة القدس ربُّهُ وأدناه في حال الخطاب المخاطب
نبيٌّ بَدَتْ أنوارُهُ وتلألأتْ فمنها تضيء النيراتُ[4] الثواقب
لقد أشرقتْ شمسُ النهار بنوره وبدر الدُّجى لمَّا بَدَا والكواكب
أُعَلِّلُ قلبي بالوصول لقبره وإن غبتُ ما قلبي وحقّك غائب
وإني أناديه وإن كنت نازحًا نداءَ غريبٍ غَرَّبَتْهُ المغارب
إذا كنتَ لي يا سيدَ الرُّسلِ شافعًا فما أنا من نيلِ السعادة خائب
بمدحك يا من جلَّ قدرًا وحظوة وجاهًا وتمكينًا تُنَالُ المواهب
فيا معشرَ الأحباب إنَّ نبيَّنا إلى فوزنا داعٍ وساعٍ وخاطب

---

(١) في طبعة دار صادر (ج ٧ ص ٤٩٣): «الإيناس».
(٢) في طبعة دار صادر (ج ٧ ص ٤٩٤): «مآرب».
(٣) غالب: هو غالب بن فِهر بن مالك بن مَعَدّ بن عدنان. جمهرة أنساب العرب (ص ١٢).
(٤) النيّرات الثواقب: النجوم.

أَلاَ فاذكروه كلَّ حين وسلّموا		عليه، بذاك الذكر تَسْمُ المراتب
وقوموا على أقدامكم عند ذكره		فذلك في شرع المحبّة واجب

ومنها قوله رحمه اللّه تعالى: [الكامل]

شمسُ الهدى وضحت بأشرف مرسلِ		وزجتْ[1] دُجَى ليل الضلال المسبلِ
من وجه عبد اللّه كان ظهورُها		للخَلْقِ طُرًّا في ربيع الأول
خلعتْ على الآفاق أشرفَ ملبس		وبَدَتْ فأيُّ دُجُنَّةٍ لم تنجل
فالنيِّرانِ المشرقانِ كلاهما		للمصطفى اعترفا بعجز مجمل
فالشمسُ لمَّا أنْ بَدَتْ أنوارُهُ		أَوْمَتْ إليه بالسلام الأحفل
والبدرُ قابله بحسنٍ كاملٍ		فانشقَّ للبدرِ الأتمِّ الأكمل
ولليلة الإسراءِ أجملُ منظر		بجمال إسراء الحبيب الأجمل
فضلتْ على الأيام من شرفٍ لما		حازته من شرف النبيِّ الأفضل
وبها[2] بدا نورُ النبيِّ المصطفى		وبَدَتْ لنا نار الكليم المصطلي
إذ جاءه الروح الأمين مسلِّمًا		ومبشِّرًا بورود أعذب منهل
فسرى إلى أسنى محلّ وارتقى		والجفنُ منه بنومه لم يكحل
رفعتْ له حجبُ الجلال بأسرها		فرأى جلالاً لم يكن بممثَّل
حتى انتهى الروحُ الأمينُ لحده		وبحيثُ يذهلُ عقلُ من لم يذهل
ناداه لمَّا أن ترقَّى وحده:		لك يا محمدُ ذا التقرّبُ ليس لي
ارقا إلى الأُفُقِ السنيِّ[3] مشاهدًا		واترك حظوظك بالحضيض الأسفل
وأَسعد بزورة من تعاظم ملكُهُ		واصعدْ إلى عَرْش الحبيب الأول
فسما فشاهد حضرةَ القدسِ التي		سَبُحَاتُها تغشى حِجَا المتأمِّل
وبَدَا الكمالُ له ونودي مقبلاً:		أهلاً وسهلاً بالحبيب المُقْبل
أنت المُرادُ لسرِّنا ولوحينا		أقبلْ إلينا يا محمد تقبل
وٱلْبَسْ بحضرة قد سَنَا خِلع الرضا		منَّا وجُرَّ الذيلَ منها وارفل

---

(1) في طبعة دار صادر (جـ ٧ ص ٤٩٥): «ودحتْ».
(2) في طبعة دار صادر: «وبدا بها..».
(3) في الطبعة نفسها: «الأفق المبين».

ولك الوسيلة يا محمد عندنا وبها نجيب وسيلةَ المتوسّل
فاحكم بما يوحى إليك من الهدى وانزلْ بأنوارِ الكتاب المنزَل
فيه شفاءٌ للصدور فبرؤها بمفصَّلٍ منه وغير مُفَصَّلِ
يا نَفْسُ هل تشفيك زورةُ طَيبةٍ فرسومُها برءٌ لكلِّ مُقَبِّلِ
وَلَّى زمانك في التصابي والمُنى فدعي التصابي والأماني وارحلي
يا قلبُ، روعاتُ الجوى هل تنقضي عني؟ ولوعاتُ الجوى هل تنجلي
وأزور قبرَ الهاشمي محمد قبل الرحيل وقبل عذل العُذَّلِ
إني وإن بخلَ الزمانُ بقربه فبلوعتي وبدمعتي لم أبخل
أسقي الثرى تسكابها، فَمَعِيْنُها يهمي، ونارُ صبابتي ما تأتلي
لهفي على بعد المزار متى أرى يقضي الزمان بقرب ذاك المنزل
ومتى أُبَشَّر بالمُنى، ويقال لي: هذا مقرُّ الوحي دونك فانزل
وتهبُّ تلقائي نواسمُ طَيبةٍ إني أجودُ بها إليك وحقّ لي
فلقد بليت بلوعةٍ وبدمعةٍ وهبوبك الأزكى شفاءُ المبتلي
خيلت قربك برءَ داء صبابتي ضنّ البعاد به فطال تخيّلي
شوقًا إلى خير الأنام بأسرهم سؤلي وأسنى مقصدي ومؤملي
فبه أنا متوسّل في مقصدي أسنى التوسّل بالرسول المرسلِ
وبجاهه عند الأنامِ مآربي ووسائلي تُقْضَى وإن لم أسال
وبه الأماني قد حللن بساحتي وحوادثُ الحدثانِ صِرْنَ بمعزل
بشراكِ نفسي فالأماني أعجلت نحوي تبشّرني بخير معجَّل
بمديحه أضحى الزمانُ مُسَالمي تندى أسرَّة وجهِهِ المتهلِّل
فبه إلٰهي قد رجوتك راغبًا دون الأنام فبابُ جودك موئلي
وإليك ربي رغبتي وتوسّلي وعليك في كلِّ الأمور توكُّلي

وثبت في آخر هذا الكتاب ما صورته: قال محمد بن عبد اللّٰه بن محمد بن محمد بن أبي بكر بن يوسف بن العطار نفعه اللّٰه تعالى بالعلم: كان الفراغ من إكمال هذا الفصل وإتمامه، حسب نثره ونظامه، ضَحْوة يوم الجمعة الثاني من شعبانَ المكرم سنة ست وتسعين وستمائة، ما عدا أربع قصائد اشتمل عليها، فإنها تقدّمت على إنشائه، أودعتها فيه،

والله سبحانه المستعان، وذلك بمدينة الجزائر ـ جزائر بني مرغنة ـ من أقصى إفريقية من أرض متيجة، صانها الله تعالى! انتهى.

وثبت في آخره بخطّ بعض الأكابر ما نصُّه: تأليف الفقيه العالم الأديب البارع أبي عبد الله محمد بن العطار الجزائري؛ انتهى.

وهو كتاب نفيس جمع فيه بين حُسْنِ النظم والنثر، فالله تعالى يجازي صاحبه أفضل الجزاء! بمنّه وكرمه.

ولا بأس أن نورد هنا من كلام أهل الأندلس بعض الأمداح النبوية زيادة على ما ذُكر هنا فنقول:

قال العارف بالله تعالى ابن العريف في كتاب «مطالع الأنوار، ومنابع الأسرار»: [الوافر]

وحَقِّكَ يا محمدُ إنَّ قلبي ... يحبّك قربة نحو الإلَهِ
جَرَتْ أمواهُ حبّك في فؤادي ... فهامَ القلبُ في طيب المياه
فصرتُ أرى الأمورَ بعين حقّ ... وكنتُ أرى الأمورَ بعين ساهي
إذا شغف الفؤادُ به ودادًا، ... فهل ينهاهُ عن ذكراه ناهي
يهيمُ بذكره ويحنُّ شوقًا ... حنينَ المستهامِ إلى الملاهي
يخامره ارتياحٌ منه حتى ... يقول أولو الجهالة: ذاك لاهي
وما هو حقٌّ فضلٍ قد رآه ... فصار يجدُّ في طلب الملاهي
فسوف ينال في الدنيا سرورًا ... وفي الدار الأخيرة كلَّ جاه
ويعطى ما تمنّى من أمانٍ ... كما قد حبَّ محبوبَ الإلَهِ

وقال أيضًا رحمه الله تعالى: [المجتث]

يا عاذلي في طلابي ... دعني من العذل دعني
سأُعْمِلُ العِيسَ شوقًا ... بالعزمِ دون التأني
إلى ضريح رسول ... مصدِّقٍ حسن ظنّي
أشدو على كلِّ فَجّ ... حين الحمامُ يغنّي
يا أطهرَ الخلقِ إني ... بذِلّتي عبدُ قِنّ

فأعتقِ اليومَ رقّي | وانظرْ بعطفك منّي
فأنتَ أنتَ ملاذي | إياكَ إياكَ أعني
إن غبتَ عن عين جسمي | ما غبتَ عن عينِ ذهني
لولاك كُنّا أناسًا | أشرَّ من كلِّ جنٍّ
فإذ بُعِثْتَ رسولاً | فخيرُ فضلٍ ومَنٍّ
لله خالصُ شكري | عساه يصفحُ عني
فإنني عبدُ سوءٍ | قلبتُ ظهرَ المِجنِّ[١]

وقال في خاتمة ذلك الكتاب: [الطويل]

صَلَّى الإِلَهُ على النبيِّ الهادي | ما لاذتِ الأرواحُ بالأجسادِ
صلّى عليه اللّهُ ما اسودَّ الدُّجى | فكسا مُحَيَّا الأُفق بُرْدَ حِدادِ
صلّى عليه اللّهُ ما انبلج السنا | فأبيضّ وجهُ الأرض بعد سوادِ
صلّى عليه اللّهُ ما همع الحَيَا | فسقى البلادَ برائحٍ أو غادي
صلّى عليه اللّهُ ما هَفَتِ الصَّبَا | وشَدَا على فننِ الأراكةِ شادي
صلّى عليه اللّهُ ما ألفَ الكرى | جفنٌ فخامره لذيذُ رقادِ
صلّى على المختار أحمدَ ربُّه | ما استمسكتْ نارٌ بطَيِّ زنادِ
صلّى على خيرِ الأنامِ محمدٍ | مَنْ خصَّهُ بالنورِ والإرشاد
صلّى الإلَه على رسولٍ حاشرٍ | حُشِرَ الأنامُ لديه في الميعاد
صلّى الإلَه على رسولٍ عاقبٍ | في الدهر وهو بفضله كالهادي
صلّى الإلَه على رسولٍ خاتمٍ | خَتَم النبوّةَ بالكتابِ الهادي
صلّى الإلَه على المُقَفِّى ما اقتفى | بشرٌ نبوّتَهُ بغيرِ عناد
صلّى على ماحي الضلال إلَهه | ما غرّدتْ طيرٌ على الأعوادِ
صلّى الإلَهُ على رسولٍ فاتحٍ | فتح الظلام بنوره الوَقّادِ[٢]

---

(١) المِجَنُّ: التُّرس لأن صاحبه يستتر به، والجمع مجانّ. ومنه المثل: «قلب له ظهر المِجَنّ»، ويضرب لمن كان لصاحبه على مودّة ثم حال عن العهد. مجمع الأمثال (جـ ٢ ص ١٠١) ومحيط المحيط (جنن).

(٢) هذا البيت والبيتان التاليان غير واردين في طبعة عبد الحميد (جـ ١٠ ص ٣٥٠).

صلّى الإلَهُ على نبيّ راحمٍ بالمِلّة الغرّاء، بعد فسادِ
صلّى الإلَهُ على نبيّ طالعٍ رحمَ الإلَهُ به من الإبعادِ
صلّى الإلَه على نبي طالعٍ بملاحمٍ قَصَمَتْ فؤادَ العادي
صلّى عليه اللَّه فهو نبيُّه ناداهُ بالإرشاد خيرُ منادِ
صلّى عليه اللَّه فهو رسولُهُ أعطاه رايةَ عزمةٍ ورشاد
صلّى عليه اللَّه فهو خليلُهُ أسدى إليه منه كلَّ سداد
صلّى عليه اللَّه فهو صفيُّهُ صَفَّى سريرته من الأحقاد
صلّى عليه اللَّه فهو وليُّهُ والاه في الإصدار والإيراد
صلّى عليه اللَّه فهو المصطفى من كلِّ حُضَّارِ العبادِ وبادي
صلّى عليه اللَّه فهو المجتبى يُجْبَى إليه الخيرُ دون نَفَاد
صلّى عليه اللَّه فهو المنتقى نورُ الزمان وواحدُ الآحاد
صلّى عليه مَنْ بَرَاه مطهَّرًا واختاره طودًا من الأطواد
صلّى عليه مَنْ براه بفضلِهِ وأعاده حَيًّا لغير مَعادِ
صلّى عليه مَنْ أراه جلاله وأناله من ذاك كلَّ مرادِ
صلّى عليه مَنْ أحلَّ فؤاده في ظلّ عرشٍ ثابتِ الأوتاد
صلّى عليه مَنْ غَذاه بنعمةٍ فتضاعفتْ كتضاعفِ الأعداد
صلّى عليه مَنْ كساه عوارفًا واختصّه منه بخيرِ أياد

وقال الشيخ أبو عبد اللَّه بن عمران مادحًا لرسول اللَّه ﷺ مرتّبًا على حروف المعجم باصطلاح أهل المغرب، كما تقدّم: [الكامل]

ألفٌ: أيا خيرَ البريّةِ هٰذِي مِدَحِي، وما أنا في مقالي[1] هاذي
باء: بها أظهرتُ صدقَ محبتي وبذلك الجاه الكريم لِيَاذي
تاء: تَخِذْتُ وسيلةً ما حُكْتُهُ وجعلته يومَ المعادِ عياذي
ثاء: ثنائي ليس يحصرُ فضلك الـ زاهي ولا يحويه باستحواذِ
جيم: جلالك جلَّ طورُ فخاره عن شبهِ مثلٍ أو لحاقِ مُحَاذي

---

(١) في طبعة عبد الحميد: «مقامي».

حاء: حُبِيتَ بمعجزاتٍ ذكرها يولي ذوي الإيمان كلَّ لذاذ
خاء: خصصتَ بها بفضلٍ عنايةٍ منها لجأتَ إلى أجَلِّ ملاذ
دال: دحضتُ بحقِّها مستقريًا إبطالَ زورِ مشعوذٍ ملاّذِ[1]
ذال: ذراع الشاة أفصحَ مخبرًا عمّا يحاذرُ ضرّه بنفاذ
راء: رميتَ عصائبًا قد ألّبوا فَعَمُوا ولمّا يُنْصروا بلواذِ
زاي: زعيم بالوجاهة أنتَ إذ كلٌّ بجاهكَ عاذ كُلَّ عياذِ
سين[2]: سبقتَ بكلّ فضل يغتدي جفنُ المعالي منه ليس بقاذِ
شين: شأوتَ مفاخرًا كلَّ الورى وتركتهمْ غرقى بلجّةِ آذي
صاد[3]: صعدتَ ذُرَى لموقف زلفة تركَ السعود مقطّع الأفلاذِ
ضاد: ضويتَ إلى جلالٍ كافلٍ لك بالرضا دَرَّ الجلالةِ غاذِ
طاء: طلابهم لديكَ شفاعةٌ فيها بذذتَ الجميع أيَّ بذاذِ[4]
ظاء: ظماؤهم بحوضك سُوِّغوا ريًّا كأنَّ به مذاقةَ ماذي
عين[5]: علا ذكر افتخاركَ وارتقى عن غمرِ مغتابٍ وزورِ الباذي
غين: غمام قد علاك مظلّلاً يمشي بمشيكَ دائمًا ويحاذي
فاء: فصاحتك البليغة أعجزت للقومِ من قربى ومن شُذّاذِ
قاف: قواعد صرح كسرى زلزلت لولادةٍ أوهتْ قوى ابن قباذِ
كاف[6]: كفلت بما تلته (والضحى)[7] لجماعةِ الجارين باستنقاذِ
لام: لدعوتك المجابة أسبلت ثرواتُ هتّانِ الحَيَا بهماذِ

---

(١) في طبعة عبد الحميد (جـ ١٠ ص ٣٥١): «زور مشعر بملاّذ». والملاّذ: المتصنّع الذي لا تصحّ مودّته بل يُظهر النصح ويُضمر غيره. محيط المحيط (ملذ).

(٢) النظم على حرف السين في طبعة دار صادر (جـ ٧ ص ٥٠١) جاء بعد النظم على حرف القاف.

(٣) النظم على حرف الصاد في طبعة دار صادر (ص ٥٠٠) جاء بعد النظم على حرف النون.

(٤) جاء النظم على حرف الطاء في طبعة دار صادر (ص ٥٠٠) بعد النظم على حرف الزاي. وفي طبعة عبد الحميد (جـ ١٠ ص ٣٥١): «طلابيك لديك..».

(٥) النظم على حرف العين في طبعة دار صادر (ص ٥٠٠) جاء بعد النظم على حرف الضاد. وجاء في الطبعة المذكورة: «غمزِ مغتابٍ..».

(٦) النظم على حرف الكاف في طبعة دار صادر (ص ٥٠٠) جاء بعد النظم على حرف الظاء.

(٧) قوله: «والضحى»: أي في سورة الضحى.

ميم: مَعين يديك إذ غلب الظَّما | أروى الـورى مـن تـوأمٍ وفـذاذ
نـون: نِـجَـارُكَ أصـلُـهُ مـتـخـيَّـرٌ | من بطنِ ذاتِ علاً وأطْهُرِ[1] حاذي
هاء: هتفتُ على تنائي شُقَّتي | بعلاك هٰذِي، ما نحلتك[2] هٰذِي
واو: ولو أني استطعت لسابَقَتْ | قلمي خطا قدميَّ بالإغذاذِ
لا: لا أُكَيِّفُ قَدْرَ شوقٍ باعثٍ | لعزائمي مستنهضٍ شَحّاذِ
ياء: يمينًا لو قدرتُ إذَنْ لما | أَخَّرْتُ سعيَ مبادرٍ حذحاذ
دامتْ عليك صلاة ربّك ما هَمَتْ | ديمٌ بوبلٍ هاطلٍ ورذاذ

رجع إلى الكاتب أبي عبد اللّه بن الجنان[3] الأندلسي:

قال ـ تقبّل اللّه تعالى منه! ـ يمدح النبيّ ﷺ: [المجتث]

يا مَنْ تقدَّس عن أن | يحيطَ وَصْفٌ بذاتِهْ
ومَنْ تعالى جَلالاً | عن مُشْبِهٍ في صفاتِهْ
ومَنْ قبولُ ثنائي | إليه أسنى هِباتِهْ
صلّى[4] على مَنْ تبدّى | نور الهدى من سِماتهْ
ومَنْ علا الفخرَ لمّا | نمى إلى مَعْلُواتِهْ
محمدٌ خيرُ هادٍ | بحلمِهِ وأناتِهْ
محمدٌ خيرُ داعٍ | بالصدقِ مِنْ كلماتِهْ
محمدٌ خيرُ مُبْدٍ | لنا سَنَا معجزاتهْ
أَكْرِمْ به من نبيٍّ | هَمَتْ سما مكرماتهْ
أعزِزْ به من رسولٍ | سَمَتْ عُلاً درجاتِهْ
وخَصَّهُ اللّهُ منه | بالفضلِ مِنْ تكرماتهْ
لمّا حباه بأوفى | صِلاته في صَلاتِهْ

---

(١) في طبعة عبد الحميد (جـ ١٠ ص ٣٥١): «وأظهر».
(٢) في طبعة عبد الحميد (جـ ١٠ ص ٣٥٢): «نجلتك».
(٣) في طبعة عبد الحميد: «الجيان» بالياء.
(٤) في الطبعة نفسها: «صلّ».

وقال: [المجتث]

يا ربّ بَلِّغ سلامي | لأحمدِ ذي الشفاعَهْ
لخاتمِ الرُّسلِ أعني | إمام تلك الجماعهْ
لأبهرِ الخلقِ مجدًا | يحكي الصباحَ نَصَاعَهْ
لمنْ صفاتُ علاهُ | تُعجِزُ أهلَ البراعهْ
لسيّدٍ لِسَنَاهُ | يُزْهَى السَّنا واليَراعَهْ
شمسُ النبوّةِ مُغطٍ | شمسَ السماءِ شُعاعهْ[1]
لمرشدٍ بِهُداهُ | قد فاز عبدٌ أطاعَهْ
وناظم الحسنِ نظمًا | قد ضمَّ منه شَعاعَهْ[2]
وسرُّ سرّكَ يا مَنْ | أرى العيون اطِّلاعهْ
ومَنْ حبا بذكاء | خِلالَهُ وطباعهْ
ومَدَّ في كلِّ فضلٍ | لصفوةِ الرُّسل باعهْ
فَزِدْهُ يا ربّ فضلا[3] | وزدْ محبِّيه طاعهْ

وقال أيضًا غيره: [الوافر]

لقد رفع الإلَهُ عن البرايا | ببعثِ محمدٍ مِحَنَ الصروفِ
أتى والناسُ في الآفاقِ نَهْبٌ | لِسُمرِ الخَطِّ أو بيضِ السيوفِ
فأنقذهمْ، ولولاهُ لكانوا | لَقًى بين الضلالةِ والحتوف
نبيٌّ لا يغلُّ عليه إلاّ | سخيفُ العقلِ ذو رأيٍ مَؤُوفِ
كأغمارِ اليهودِ أو النصارى | أو الفلكيِّ أو كالفيلسوفِ
فبعضٌ للتجاهل والتعامي | وبعضٌ للتحيُّرِ والوقوفِ
زعانفُ لا يُهْلكَ لها رُوَاءٌ | فإنَّ الجهلَ مائحةُ الظروف
إذا جارى بمختلٍّ ضعيفٍ | فإنَّ صحاحنا فوقَ الألوف
فبرهانُ النبوّةِ مستفيضٌ | ندلُّ به على رغم الأنوف

---

(١) هذا البيت ساقط من طبعة عبد الحميد (جـ ١٠ ص ٣٥٣).
(٢) في طبعة عبد الحميد: «ثعاعه».
(٣) في طبعة دار صادر (جـ ٧ ص ٥٠٢): «فخرًا».

شفوفُ الرُّسلِ متّضحٌ ولكن لأحمدِ الشفوفُ على شفوف[1]
حروفُ الخطِّ أصلٌ للمعاني وللألفِ التقدُّمُ للحروفِ

وما أحسن قول القائل [رحمه اللّه تعالى][2]: [مجزوء الكامل]

لولا النبيُّ محمدٌ هلكَ الورى في سوء حالَهْ
أعلى الورى قدرًا وأكـ ـرمهم وأظهرهم دَلالَهْ
ختمَ الإلّه به النبوّة والطهارةَ والرسالهْ
واختصّه دون البريّة بالمكانةِ والجلالهْ
بَدْرُ الرسالةِ والصحا بةِ حَوْلَ ذاك البدر هَالَهْ
قَذَفَ الحصا في أعين الـ كُفّار فاعتنقوا الجدالَهْ[3]
وتدرّعوا ثوبَ الكآ بة بعد إظهار الجزالهْ[4]
فأصخ إلى أنبائه تَعْلَمْ بأنَّ المنتهىٰ لَهْ
وإذا ابتغيتَ وسيلةً ومَدَحْتَهُ ومَدَحْتَ آلَهْ
فاقطعْ بأنك آمنٌ يومَ القيامةِ لا مَحَالَهْ

وقال أبو القاسم سعد بن محمد [رحمه اللّه تعالى][2]: [الكامل]
أطلقْ لسانكَ بالصلاة على النبيِّ الأبطحيّ الهاشميّ محمدِ
واجعلْ شعارك ذاك تَنْجُ به غدًا إنَّ النجاةَ بذكرِ يومِ للغدِ

ولأبي اليمن بن عساكر [رحمه اللّه تعالى][2]: [الكامل]

يا ربُّ صلِّ على النبيّ وآله صلواتنا ما دامتِ الأيامُ
واخصص ختومَ سلامِنا بجنابه كالمسك يعبق فُضَّ عنه ختامُ
واحرس شريعَتَه وأوضح سبلها تبدو بها للسالك الأعلامُ

---

(١) في طبعة دار صادر: على الشفوف».
(٢) ما بين قوسين ساقط من طبعة عبد الحميد (جـ ١٠ ص ٣٥٤).
(٣) الجَدالة، بالفتح: الأرض.
(٤) في طبعة عبد الحميد (جـ ١٠ ص ٣٥٤): «الجذالة».

وأَدِمْ كـرامـتـه وأعْـلِ مـنـارَهُ وأَنِـلْـهُ أعـلـى مـا لـديـكَ يُـرامُ
وارفع له الدرجات في رُتَبِ العُلا فـهـو الـذي لـلـمـرشـديـنَ إمـام
وأَقِمْهُ بين يديك زلفى موقفٍ لـلـحـمـد ما لـسـواه فـيـه مـقـامُ
وأنِـلْ شـفـاعـتـه وأوردْ حَـوْضَـهُ مَنْ لو أتاه يشتكي[1] منه أُوام
يـشـتـاقُـهُ ويـعـوقُـهُ عُـلَـقٌ بـه لـزمـانِـهِ وزمـانـةٌ وسـقـامُ[2]
وأتِـح لـه مـا لا يُرَامُ حصولُه[3] إلاَّ بـلـقـيـاه، وعَـزَّ مـرامُ
وله عليه في الأصائل والضحى تُـهْـدَى إلـيـه تـحـيَّـةٌ وسـلام
وبـه إلى تقبيلِ موطىءِ نَعْلِهِ وَجْـدٌ لـه بـيـن الـضـلـوعِ أُوامُ

وله أيضًا رحمه اللّٰه تعالى: [الوافر]

أَلاَ إنَّ الـصـلاة عـلـى الـرسـولِ شـفـاءٌ لـلـقـلـوبِ مـن الـغـلـيـلِ
فَـصَـلِّ عـلـيـه؛ إنَّ الـلّٰـهَ صـلَّـى عـلـيـه ولا تـكـونَـنْ بـالـبـخـيـلِ
وصَـلِّ عـلـيـه قـد صـلَّـتْ عـلـيـه مـلائـكـةُ الـسـمـاءِ بـجـبـرئـيـلِ
أَلاَ إنَّ الـصـلاة عـلـيـه نـورٌ لدى الظلمات في اليوم المهولِ
وتـثـقـيـلٌ لـمـيـزانٍ خـفـيـفٍ وتـخـفـيـفٌ من الـوزر الـثـقـيـل
إذا صَـلَّـيـتَ صـلَّـى الـلّٰـه عـشـرًا بـواحـدة عـلـيـك عـلـى الـرسـولِ
وتحظى بالشفاعة يوم تضحى[4] ومـا لـك مـن مـقـيـلٍ أو مـنـيـلِ
فـأكـثـر أو أقِـلَّ فـأنـت تـجـزى بـذلـك مـن كـثـيـرٍ أو قـلـيـل
فصلِّ عليه تُجْزَ جَزَاءَ ضعفٍ وتـجـز مـضـاعـف الأجـر الـجـزيـلِ
وأولـى الـنـاس أكـثـرهـم صـلاة عـلـيـه بـه وأحـرى بـالـقـبـولِ
وأنـجـاهـم مـن الأهـوال عـبـدٌ بـهـا لـهـجٌ بَـدَلْ[5] قـالٍ وقـيـلِ

---

(١) كلمة «يشتكي» ساقطة من طبعة دار صادر (ج ٧ ص ٥٠٤) ووضع المحقّق مكانها ثلاث نقط ضمن قوسين مركنين.

(٢) هذا البيت ساقط من طبعة عبد الحميد (ج ١٠ ص ٣٥٥).

(٣) رواية صدر البيت في طبعة دار صادر (ص ٥٠٤) هي:

فـبـه إلـيـه غُـلَّـةٌ مـا تـشـتـفـي

(٤) في طبعة عبد الحميد: «تجفى».

(٥) بَدَلْ: هكذا بالتسكين؛ لئلاَّ ينكسر الوزن، وفي هذه القصائد تسامح في اللغة لم نُشر إليه.

فكنْ لهجًا بذكراه حفيًّا بلقياهُ ومنصبِهِ الجليلِ
وصلْ صلاة مشتاقٍ إليه وداوِ بذكره سقَمَ العليلِ[1]
وصَلْ مدى الزمانِ على رسول كريم مصطفى بَرّ وصول
وصلْ على حبيبٍ فاق فضلاً مدى شأوِ الكلام مع الخليل[2]
فصلّى اللّهُ أفضلَ مَنْ يُصَلِّي عليه في الصباحِ مع الأصيلِ[3]
وآتاه الوسيلةَ مستجيبًا وبلّغه نهايةَ كلِّ سُولِ
وأزلفه وشَفَّعَهُ ليأوي إليه الناسُ في ظلّ ظليل
وأطّدَ شرعه وحمى حماه وأيّده بواضحةِ الدليلِ
وشَرَّفَه ولم يبرح شريفًا فيجمع جملة المجدِ الأثيلِ
وزادَ محبَّهُ شرفًا وفخرًا بتفضيلٍ وتنويلٍ جزيلِ
وزاد علاه منه بطول عمرٍ قصيّ من مواهبِهِ طويلِ
وأوردنا عليه الحوض وَفْدًا لنروى بالرَّوَى من سلسبيل

وله رحمه اللّه تعالى: [الكامل]

أدمِ الصلاةَ على النبيِّ المصطفى تخلصْ بذاك من الجحيم ونارِها
وتولَّ إقبالاً عليها كلّما هتف المؤذنُ مشعرًا بشعارها
فالفخرُ أجْمَعُهُ له فَتَلَقَّهُ من نوبةِ الأسحارِ فوق منارِها

فهذه عدة قصائد في مدحه ﷺ، أرجو من اللّه سبحانه أن تكون مكفرة لما ارتكبته على وجه الفخر والشهرة من الهَزْل واللهو[4]، فإنّ ذلك واللّه قول لا فعل له، وإنما هو على نهج أهل الأدب كالحافظ شيخ الإسلام ابن حجر وغير واحد مِمَّنْ ألّف في الأدب وجمعه.

---

(١) هذا البيت ساقط من طبعة عبد الحميد.
(٢) في طبعة عبد الحميد: «حاز فضلاً.. مع الجليل».
(٣) هذا البيت ساقط من طبعة عبد الحميد.
(٤) في طبعة دار صادر (جـ ٧ ص ٥٠٥): «واللغو».

ولا بأس أن نعزِّزَها بمقطوعات تكون للتكفير زيادة، وحُقَّ لمن توسّل بسيدِ ﷺ أن لا تضيع وَسَائله، وكيف وهو صاحب المقام المحمود والشفاعة والسيادة، قول ابن الجنان[1] المذكور آنفًا رحمه الله تعالى: [الطويل]

إلى أحمدَ المختارِ نُهْدي تحيَّةً ... تفاوحُ روضَ الحَزْن[2] بَلَّلَهُ المزنُ
إذا نافحتْ مغناه زاد تأرّجًا ... وإن لثمتْ يمناه قابله اليُمْنُ
أُسَيِّرُ أشواقي رسولاً بِعَرْفِها ... لِتُسْعِدَها منه العوارفُ والمن
وأرجو إليه الفضلَ فهو مُنِيلُهُ ... وما خاب لي فيه الرجاءُ ولا الظنّ
عليه اعتمادي حين لا ليَ حيلةٌ ... إليه استنادي حين ينبو بيَ الركن
به وثقتْ نفسي الضعيفةُ بعدما ... أضرَّ بها من ضعف قوتها الوهن
إليه صلاتي قد بعثتُ مُشَفَّعًا[3] ... سلامًا به الإحسان ينساق والحسن

وقوله رحمه الله تعالى: [الطويل]

أيذهبُ يومٌ لم أُكَفِّرْ ذنوبه ... بذكرِ شفيعٍ بالذنوب[4] مشفَّعِ
ولم أقضِ في حقِّ الصلاةِ فريضةً ... على ذي مقام في الحساب مرفَّعِ
أُرَجِّي لديه النفعَ في صدق حبِّه ... ومن يرتج المختارَ لا شكَّ ينفع
وأهدي إلى مَثْوَاه مني تحيّةً ... إذا قصدت باب الرضا لم تُدَفَّعِ

وقوله رحمه الله تعالى: [البسيط]

يا أرحمَ الخلقِ يوم الحشرِ والندمِ ... ارْحَمْ عبيدَكَ يا ذا الطَّوْلِ والنعمِ
إني توسَّلْتُ بالمختار سيدنا[5] ... الطاهر المجتبى من خيرةِ الأممِ
إليك مِنْ سيئاتي إنها عظمتْ ... يا واحدًا لم يزلْ فَرْدًا ولم ينم

---

(١) في طبعة عبد الحميد (جـ ١٠ ص ٣٥٦): «الجيان» بالياء.
(٢) في طبعة عبد الحميد: «روض المزن».
(٣) في الطبعة نفسها: «ومشفّعًا»، وهكذا ينكسر الوزن.
(٤) في طبعة دار صادر (جـ ٧ ص ٥٠٦): «في الذنوب».
(٥) في طبعة دار صادر: «ملجأنا».

عليه منك[1] صلاةٌ كلّما طلعتْ ... شمسٌ وما خطَّ في الأوراق بالقلم
فهو الشفيعُ الذي أرجو النجاةَ به ... من الجحيم إذ الكُفّارُ كالحُمَمِ[2]

وقوله أيضًا رحمه اللّه تعالى: [الخفيف]

بحبيبِ القلوبِ معتمد الخلـ ... ـقِ أبي القاسم النبيِّ الشفيعِ
قد تَشَفَّعْتُ يا خاتمَ الرّسل يوم الـ ... حشرِ والمشهدِ العظيمِ الفظيعِ
لِظَلُومٍ لنفسه قد تناهى ... في الخطايا وكلِّ فعلٍ شنيعِ
فإذا ما تذكّر الذنبَ فاضتْ ... مُقْلتاه واغرورقتْ بالدموعِ
لا تُخَيِّبْ رجاءه إنه مِنْ ... ربِّه خائفٌ كثيرُ الخشوعِ
وعليكَ الصلاةُ بدءًا وعودًا ... ما أضاءت ذُكَاءُ[3] عند الطلوعِ

وقوله أيضًا عفا اللّه تعالى عنه: [البسيط]

يا ربّ إنَّ شفيعي من ذنوبي في ... يومِ القيامةِ خيرُ الخلقِ والنسَمِ
محمد خاتم الرُّسل المبلِّغ للـ ... ـدينِ الحنيفي والإسلام للأممِ
عليه مني صلاةٌ كلّما سجع الـ ... ـحمامُ فوق غصونِ البانِ والسَّلَمِ
وبعد ذلك أعدادُ الجبال ورمـ ... ـل الأرض والطير والحيتان والنِّعم
كذاك أيضًا سلامي طيّبٌ عَطِرٌ ... عليه ما قام عبدٌ في دُجَى الظُّلَمِ
للّه وهو كئيبٌ خائفٌ وَجِلٌ ... من الذنوب حزينُ القلبِ ذو ألم

وقول الشيخ الإمام أبي زيد الفازازي رحمه اللّه تعالى: [الكامل]

كملتْ بنعتِ محمدٍ خيرِ الورى ... غُرَرُ القصائد كلُّها وحجولُها
واختصَّ دون الأنبياء بدعوة ... وسع العبادَ عمومها وشمولها
فاضتْ على الثَّقَلين منه أشعّةٌ ... طلعتْ وما عقبَ الطلوعَ أفولُها
فالإنسُ تعلمُ أنه مقصودُها ... والجنُّ توقنُ أنه مأمولها
كم آيةٍ بالصدق كان ظهورها ... كم آيةٍ بالسّبْقِ كان نزولها

---

(١) في الطبعة نفسها: «منه».
(٢) الحُمَمُ: جمع حُمَّة وهي اسم بمعنى السواد. محيط المحيط (حمم).
(٣) ذُكاء، بضمّ الذال: اسم الشمس. محيط المحيط (ذكا).

وكفاك هذا الوحيُ فهو شهادةٌ لمحمدٍ لزمَ العبادَ قَبُولها
جَمَعَ الإلَهُ المكرماتِ لأمّةٍ هذا النبيُّ الهاشميُّ رسولها

وقوله رحمه اللّه تعالى: [الرمل]

أيُّ نورٍ كشف اللّه به سُدَفَ الباطلِ عنّا أجمعينْ
خَتَمَ اللّهُ به أنوارَهُ عندما أكمل سنَّ الأربعينْ
وأتانا بدليلٍ بَيِّنٍ عجزت عنه دواعي المدعينْ
فهو للناسِ جميعًا مرشدٌ وهو باللّه تعالى مستعينْ
تركتْ دعوتُه وَهْو الرضا سائرَ الخلقِ إليها مُهْطعينْ[1]
فأعِدْ أنباءه فهو مُنَى أنفُسِ القائلِ والمستمعينْ
والذي يهدى إلى شرعته فهو مجّاج من العذب المعين[2]
والذي يرغب عن سنَّتِهِ فهو من شيعةِ إبليس اللعينْ

وقوله وهو كما قبله لُزُومي: [الطويل]

أصخْ فلخيرِ العالمين مناقب تدلُّ على التمكين والشرف الأسرى
أتى والورى أسرى فكان غياثهم بنور سماء ينقلوه عن الإسرا
وعَفَّى رسوم الكافرين وأهلها فلا قيصر من بعد ذاك ولا كسرى
تقدّمَ كلَّ العالمين إلى مَدًى تظلُّ به الأوهام ظالعةً حسرى
وخُصَّ بتشريف على الناس كلِّهم ومن لم يقل هذا تقوّله قَسْرَا
ترقَّى إلى السبع الطباق ترقّيًا حقيقًا ولم يعبر سفينًا ولا جسرا
وبالجسم أسرى اللّه وهو دلالةٌ يمحّلها من لا تَيَسَّرَ[3] لليسرى
فسبحان من أسرى إليه بعبدِهِ وبورك في الساري وبورك في المسرى
وكم عجب أوحى إلى عبده به فدونك تجميلاً ولا تطلب الفَسْرَا

---

(١) المهطع: من ينظر في خشوع وذلّ. لسان العرب (هطع).
(٢) في طبعة عبد الحميد (جـ ١٠ ص ٣٥٨): «عن العذاب المعين»، وهكذا ينكسر الوزن.
(٣) في طبعة دار صادر (جـ ٧ ص ٥٠٨): «لا يُيَسَّرُ».

وقوله رحمه الله تعالى: [الرمل]

هاك عن هذا النبيِّ المصطفى   خَبَرًا يَقْبَلُهُ مَنْ سَمِعَهْ
سَبَّحَتْ صُمُّ الحصا في كفِّه   ثم في كفّ الهداة الأربعة
وإذا أبدى نبيٌّ عبرةً   فهو لا ينكر فيمن تبعه
أيّ نطقٍ قد روى إعجازه   عن سماع كلُّ مَنْ كان معهْ
حُجَجُ الرُّسلِ التي قد سلفتْ   أصبحتْ في أحمدٍ مجتمعهْ
فاعتقدْ صحّتها واعملْ بها   فدعاوى ضدّها منقطعهْ
ممكناتُ العقلِ لا يجحدُها   غيرُ أهلِ الطبعِ والمبتدعهْ

وقوله رحمه الله تعالى: [الوافر]

إذا أمّلْتَ من مولاك قربًا   فجدِّدْ ذِكْرَ خيرِ الأنبياءِ
وصَلِّ عليه أولَ كلِّ قولٍ   وآخره بصبحٍ والمساء
فإنَّ محمدًا أعلى البرايا   محلاً في السيادةِ والعلاء
لواءُ الحمدِ في يمنى يديه   وكلُّ الناسِ من دون اللواء
فَحَدِّثْ عن دلائله ففيها   شفاءٌ للنُّهَى من كلِّ داء
ولستُ بناقلٍ للعشر منها   وهل تفنى الزواخرُ بالدلاء
فقلْ للسامعين قفوا فهذا   محالٌ ليس يحصرُ بانتهاء
براهين البسيطة ليس تحصى   فدُونَكُمُ براهينَ السماء

وقوله رحمه الله تعالى: [مجزوء الكامل]

أمّا يمينُ محمدٍ   ويسارُهُ فهما سماءُ
كلتاهما إن صَوّح الـ   ـمرعى لنا طعمٌ وماء
وإذا أضَرَّ بنا السقا   مُ وغيره فهما شفاء
فأعجب لكف في الورى   فيها عن المزن اكتفاء
فاقطعْ بأنَّ محمدًا   في الخلق ليس له كفاء
فإذا أصختَ لآيةٍ   فالنورُ فيها والضياء
هذا الصباحُ الهاشمِيْـ   ـيُ بدا فليس له خفاء
فالأرض قد فتِحَتْ بمبـ   ـعثِهِ وفُتِّحَتِ السماء

وقوله رحمه اللّه تعالى: [الكامل]

بركاتُ رُسْلِ اللّه غير خفيّةٍ ومحمدٌ خيرُ البريّةِ أبركُ
هذا النبيُّ الهاشميُّ هو الذي هُدِيَ الأنامُ به وبان المسلكُ
كم آيةٍ لمحمدٍ كم حجّةٍ عزَّ الوليُّ بها وذلَّ المشرك
دعواتُهُ مسموعةٌ مرفوعةٌ والحس ليس يصحُّ فيه تشكك
لا شيءَ أعجب من دليل واضح يحيًا به بعضٌ وبعضٌ يهلك
أَمْسِكْ بحبلِ محمدٍ خيرِ الورى تظفرْ بقصدك أيها المستمسك
وإذا عجبتَ لغايةٍ في رفعةٍ فمحلُّ أحمدَ غايةٌ لا تُدْرَكُ

وقوله رحمه اللّه تعالى: [مجزوء الكامل]

قَبَحَ الإلّه الملحديـ ـنَ فإنهمْ جحدوا الضرورهْ
والمعجزاتُ تواترتْ عن أحمدٍ في كلِّ صورهْ
واللّه أعلى كَعْبَهُ في خلقه وأتمّ نورهْ
كثر الطعامُ مع الشرا بِ بكفِّه عند الضرورهْ
وتَكَنَّفَتْهُ عنايةٌ من ربّه أعلتْ أمورَهْ
نادى البريّةَ فالقلو بُ إلى أجابته مَصورهْ
وحمى الشريعةَ بالدليل فَدَعْ معاندها وزُورَهْ
قُلْ للمشكِّك حين يبـ ـدي في تشكّكه قصورهْ
بيني وبينكم الكتا بُ فدونكم فأتوا بسورَهْ

وقال رحمه اللّه تعالى: [الطويل]

إذا بهرتْ للهاشميِّ دلالةٌ فكم حجج في طيُها ودلائلِ
فكم مرة آتى الغنى كَفَّ سائلٍ وكم مرة أعطى المنى فكر سائلِ
له تحتَ أستارِ الغيوبِ شهادةٌ مُعَدَّلَةٌ لم تُبْقِ قولاً لقائل
يحدثُ عمّا كان أو هو كائنٌ فقس آخرًا من صدقه بالأوائلِ
إذا الصدق لم يعوزك في غدواته فلا شكَّ في تصديقه بالأصائلِ
وحسبك في الأنباء بالغيب أنه ستسمعها بالنقلِ من قول قائلِ

وقوله رحمه الله تعالى: [البسيط]

يا ذا المعنّى بهذا الذكر تسمعُهُ — في المدح تأثره في سيد الناسِ
هذا النبيُّ، ومَنْ آياتُ أثرته — في الطيب والطُّوْل لا تجري بمقياس
قد انقضتْ معجزات الغيب وافيةً — صحيحةً باستفاضاتٍ وإحساس
وهاكَ نوعًا من الإعجاز منتزهًا — عن نقد منتقدٍ أو صفح قرطاس
لا تعدم النقل عن آثار سيدنا — فإنما نحن فيها بين أغراس[1]
تَنَقُّلَ الأنف في النوّار ينشقُهُ — من ياسمينٍ إلى وردٍ إلى آس
إنَّ القلوب إذا اعتلّتْ خواطرها — فذكر أحمدَ فيها المبرىءُ الآسي

وقوله رحمه الله تعالى: [المتقارب]

تأدَّبْ إذا ذُكِرَ المصطفى — بصمتِ اللسانِ وغضِّ البَصَرْ
فإنَّ التأدّبَ عند السماعِ — يفهّم في النطقِ أو في النظرْ
وردِّدْ أحاديثها إنها — دليلٌ على صدقِ خيرِ البشرْ
وصَلِّ عليه مدى ذكره — فذلك أفضلُ ما يُدَّخَرْ
ولا تسترِبْ في براهينه — فتسلكَ مسلك قوم أُخَرْ
فكم آيةٍ ظهرتْ للنبيِّ — وكم أثر عنده قد ظهرْ
ومَنْ شَكَّ في نورِ برهانه — على أنَّ برهانه قد بهرْ
فَكَبِّرْ على عقله أربعًا — وقلْ فوق طورك هذا الخبرْ

وقوله رحمه الله تعالى: [مجزوء الكامل]

اعملْ بآثار النَّبِيْـ — ـيِ فإنها النورُ المبينُ
واقْبَلْ نصيحتها ففيـ — ـها العزُّ والشرفُ المكينُ
واشدد يمينك بالشريـ — ـعة إنها السببُ المتينُ
خيرُ البريّةِ أحمد — والحقُّ يصحبه اليقينُ
ذو قوّةٍ عند الإلـ — ـه مقرَّبٌ منه مَكِينُ

---

(١) في طبعة دار صادر (جـ ٧ ص ٥١١): «لا نعدم النقل... أعراسِ».

زانَ النبيّون الورى ومحمدٌ لهمْ مزين
هادٍ إلى طرقِ النجا ةِ مؤيّدٌ فيها أمين
والهجْ بمدح الهاشِمِيْـ ـيِ فإنه الحصن الحصينُ
ولئن فعلت فلن تفو تك بعد ذا دنيا ودين

وهذا تسديس[1] جعلته للكتاب مسك الختام: [الطويل]

وللناس أعمالٌ فخيرٌ وضدّه وما يحسنُ الأعمالَ غيرُ الخواتمِ

وإلاّ فالأمداح النبوية بحرٌ لا ساحل له، وفيها النثر والنظام، زاده اللّه شرفًا وحباه أفضل الصلاة وأزكى السلام!.

وهذه القصيدة من نظم الفقيه الأجلِّ أبي الحجاج يوسف بن موسى المنتشاقري[2] الأندلسي ـ نفعه اللّه تعالى بنيّته، وبلغه غاية أمنيته! ـ وترتيبها على حروف المعجم باصطلاح أهل المغرب فيما عدا الروي فإنه على حرف الميم، وكذا آخر الشطر الذي قبله فإنه أيضًا، وهذا نصُّه بحروفه ما عدا حرف الواو، فإني لم أجدْه وكملته على منواله: [الخفيف]

حَلَّ في طَيبةٍ رسولٌ كريمُ فعليه الصلاةُ والتسليمُ
صفوةُ الخلقِ خاتمُ الأنبياءِ مرشدُ الناس للطريق السَّوَاءِ
والعمادُ الملاذُ في اللأواءِ وشفيعُ العصاة يوم الجزاءِ
يوم يبدو لديه جاه عظيم فعليه الصلاةُ والتسليمُ
أذْهَبَ الغيَّ نورُهُ والغياهبْ فأضاءت مشارقٌ ومغاربْ
وغدا الحقُّ غالبًا للأكاذبْ وبَدَتْ منه للأنامِ عجائبْ
صِدْقُ أقواله بها معلومُ فعليه الصلاةُ والتسليمُ
لبراهينِ صدقه معجزاتُ حيثما[3] حلَّ حَلَّتِ البركاتُ
وسَمَتْ أربُعٌ به وجهاتُ فبه قد تعرفتْ عرفاتُ
وبه تاهَ زمزمٌ والحطيمُ فعليه الصلاةُ والتسليمُ

(1) في طبعة عبد الحميد (جـ ١٠ ص ٣٦٣): «تستديس».
(2) في طبعة عبد الحميد: «المنتشافري».
(3) في الطبعة نفسها: «حينما».

لم يزل هاديًا صدوقَ الحديثِ وَوفيًّا بالعهدِ غير نكوثِ
ومجيبًا لدعوةِ المستغيثِ وكريمًا نداهُ فوق الغُيُوثِ
ويداه[1] بالجود جَودٌ سَجُومُ فعليه الصلاةُ والتسليمُ
بهج الحقّ أوضح الابتهاجِ سيد نوره أضاء الدياجي
خَصَّهُ اللّهُ ليلةَ المعراجِ باصطفاء ورفعةٍ ونتاجِ
وبتكليمه له التكريمُ فعليه الصلاةُ والتسليمُ
مصطفى مجتبى كريمٌ صَفُوحُ للنبيّينَ جاهُهُ ممنوحُ
فلإكرامِهِ أُجير الذبيحُ ونجا آدم وخُلِّصَ نوحُ
وكذاك الخليلُ إبراهيمُ فعليه الصلاةُ والتسليمُ
[كلُّ دينٍ بدينه منسوخُ فسوى ما قضى به مفسوخُ
لهداهُ بكلِّ قلبٍ رسوخُ فالورى مادحٌ له ومصيخُ
كلّهم في هوى النبيِّ يهيمُ فعليه الصلاةُ والتسليمُ][2]
بعثه كان رحمة للعبادِ دلّهم بالهدى طريق الرشادِ
ونفى كلَّ باطلٍ وعنادِ ودعا للإلّه دعوة هادي
فإذا الحقُّ واضحٌ مستقيمُ فعليه الصلاةُ والتسليمُ
أمَّهُ بالشَّكَاةِ ظَبْيٌ أخِيذُ مُسْتجيرًا بجاهِهِ يستعيذُ
وبِهِ كانتِ الوحوشُ تَلُوذُ وله خاطَب الذراعُ الحَنِيذُ[3]
لا تَذُقْني فإنني مسمومُ فعليه الصلاةُ والتسليمُ
أشبع الجيشَ والطعامُ يسيرُ ودعا نخلةً فجاءت تسيرُ
وهَمَى من يديه عذب نميرُ وله البدرُ شُقَّ وهو منيرُ
معجزاتٌ تحارُ فيها الفهومُ فعليه الصلاةُ والتسليمُ
حجب النور في السموات جازا فاحتوى الفضل والعَلاَءَ وحازا

---

(١) في الطبعة نفسها: «ونداه».
(٢) ما بين قوسين ساقط من طبعة عبد الحميد (ج ١٠ ص ٣٦٤).
(٣) الحنيذ: يقال: حَنَذَ الشاةَ إذا شواها في حفرة من الأرض وجعل فوقها حجارة محماةً لتنضجها فهي حنيذ. محيط المحيط (حنذ).

فبه في غدٍ ننال المفازا — وكفى أُمَّةَ الرسولِ اعتزازا
أن تمنى يكون منها كليمُ — فعليه الصلاةُ والتسليمُ
إنما الحكمُ منه عدل وقسطُ — لم يَجُرْ في القضاء والحكم قَطُّ
حبّه في بلوغ قصديَ شرطُ — وبأمداحِهِ ذنوبي تحطُّ
ويزولُ العنا وتجلى الهمومُ — فعليه الصلاةُ والتسليمُ
قد حمى ديننا برعيٍ ولحظِ — ونفى روعنا بأمنٍ وحفظِ
وحبانا بما لدى الربِّ يُحْظِي — هاديًا راحمًا لنا غير فظِّ(١)
مثل ما نصّه الكتابُ الكريمُ — فعليه الصلاةُ والتسليمُ
نور برهانِهِ جلا كلَّ شركِ — وهداهُ أجار من كلِّ هلكِ
أخْيَرُ العالمين من غير شكِّ — فلكم رامَهُ العُداة بشكِّ
وهو في كلِّ حالةٍ معصومُ — فعليه الصلاةُ والتسليمُ
ما لخيرِ الأنامِ منهم عديلُ — إنه مُجْتَبًى نبيٌّ رسولُ
ما عسى مادح الشفيع يقولُ — وبأمداحه أتى التنزيلُ
وثناهُ خلالَهُ مرسومُ — فعليه الصلاةُ والتسليمُ
نحن لولا اتِّباعه لشقينا — نورُ برهانِهِ أرانا يقينا
وغدا ما نخاف منه يقينا — وكؤوسا بحوضه قد سقينا
من رحيقٍ مزاجُهُ مختومُ — فعليه الصلاةُ والتسليمُ
أحمد عند ربّه ذو اختصاصِ — جاهُهُ كاملٌ بغيرِ انتقاصِ
عدة للمسيء يوم القصاصِ — وشفيعٌ لكلِّ جانٍ وعاصي
يوم يجفو الحميمَ فيه الحميمُ — فعليه الصلاةُ والتسليمُ
بيديه حوائجُ الكلِّ تُقْضى — ويجازي الذي أجاز وأمضى
وينادي الحبيب أنتَ المرضَّى — سوف نعطيك ما تحبّ وترضى
فتحكّم يمضى لك التحكيمُ — فعليه الصلاةُ والتسليمُ
فاق بالمولد السعيد ربيعُ — إنَّ فيه بَدَا الجلالُ الرفيعُ
من هو الذخر والعماد المنيعُ — فملاذ للمذنبين شفيعُ

---

(١) الفَظّ: الغليظ الجافّ. لسان العرب (فظظ).

ورؤوف بالمؤمنين رحيمُ فعليه الصلاةُ والتسليمُ
أفصح الناس في حديثٍ وأبلغ بَيَّنَ الوحي للأنام وبلّغ
طيب الحلّ قد أباح وسوّغ ولكم نعمة من اللّه سوّغ
فَلَإِحسانُهُ علينا عميمُ فعليه الصلاةُ والتسليمُ
كان بالحقّ والهدى معروفا أجود الناس بالندى موصوفا
شرّف اللّه قدره تشريفا هاديًا مرشدًا رسولاً شريفا
مجده في العلاء مجدٌ صَمِيمُ فعليه الصلاةُ والتسليمُ
وَجْهُهُ بالبها أضاء وأشرقْ مَجْدُهُ في صميم الأصل أعرقْ
مَسَّ في كَفِّه قضيبًا فأورقْ بأصبع قد أشار للبدر فانشقّ
ثم قد عادَ وهو بَدْرٌ سليمُ فعليه الصلاةُ والتسليمُ
جاءه الوحي أنت خير الناسِ بلّغ الأمر لا تخفْ من باسِ
وخُذِ العفوَ للأنامِ وواسِ واحمهمْ مِنْ مكايدِ الوسواسِ
فعليك البلاغ والتعليمُ فعليه الصلاةُ والتسليمُ
كان في اللّه أثبت الناس جاشا ليس من غيره يخافُ ويخشى
فبكفّ من الحصا فَلَّ جيشا وعيونَ العُداة بالتربِ أعشى
فنجا المصطفى وخابَ الظلومُ فعليه الصلاةُ والتسليمُ
قد سما قَدْرُهُ بغير تناهي وعلا جاهُهُ على كلِّ جاهِ
آمرٌ بالتقى عن الشَّرِّ ناهي مَنْ يُطِعْهُ يَنَلْ ثوابَ الإلّهِ
وله عنده النعيمُ المقيمُ فعليه الصلاةُ والتسليمُ
عمدة الخلقِ للمفاخر حاوي بحماهُ يلوذُ كلٌّ وياوي
مبلغ المعتفي الذي هو ناوي كيف يحصي ثناء أحمد راوي
وعليه أثنى الكتابُ الحكيمُ فعليه الصلاةُ والتسليمُ
حُسْنُهُ كالصباحِ بل هو أجلى ونَدى كَفِّه من الشهد أحلى
واعْتِلاً قدرهِ من السبع أعلى مدحه في الكتاب ما زال يُتْلَى
فله الفخرُ والثناءُ العظيمُ فعليه الصلاةُ والتسليمُ
خَصَّه اللّهُ من رسولٍ نبيٍّ في جميع الورى بقدر عليٍّ
وحَباهُ منه بنورٍ بَهِيٍّ فهدى الخلق للصراط السَّوِيِّ

وصراط الهدى سَوِيٌّ قويمُ   فعليه الصلاةُ والتسليمُ

قال مؤلف هذا الكتاب، العبد الفقير أحمد بن محمد المقري المالكي - وفّقه اللّه تعالى إلى حسن المتاب، وحباه الدخول في زمرة من رفع عنهم بشفاعة المصطفى الإصر والعتاب:

هذا آخر ما سمح به الخاطر الكليل، من هذا المقصد الجليل، الذي يكون إلى ما وراءه من الطُّرَف الأدبية خير دليل، ووضعته والقلب حليف شجن وغربة، والفكر أليف حزن وكربة، وأنا أسأل اللّه تعالى الذي لا يرجى سواه، أن يجعل بناءه ثابتًا بحسن النيّة حيث البناء الذي فيه حظّ النفس واه، وأن يكون ما طلبته[1] فيه من الهَزْل بالجِدِّ المذكور فيه مكفرًا، وأن ينفع به من وجّه إليه وجهته، فإني قد جمعت فيه ما يندر جمعه في غيره وكلّ الصيد في جوف الفَرَا: [المجتث]

يا مَنْ عليه اتكالي   ومن إليه مَتَابي
جُدْ لي بعفوك عنّي   إذا أخذتُ كتابي

واعلمْ أنَّ هذا الكتاب معين لصاحب الشعر، ولمن يعاني الإنشاء والنثر من البيان السحر، [وفيه من حكايات الأولياء والعلماء، ما نظمت في لبة السطور منه السلوك][2].

وفيه من الوعظ والاعتبار، ما لم ينكره المنصف عند الاختبار، وكفاه أنه لم يُرَ مثله في فنّه فيما علمت، ولا أقوله تزكية له، ويعلم اللّه تعالى أني تبرّأت من هذا العارض ومنه سلمت، ولو لم يَحُزْ من الشرف إلاَّ ختمه بهذه الأمداح النبوية الشريفة، ذات الظلال الوريفة، لكان كافيًا شافيًا، وها أنا أجعل آخره تنبيهًا للَّبيب، قول ابن حبيب: [السريع]

يا خيرَ مبعوثٍ له طلعةٌ   نورُ الهدى منها أقرَّ العيونْ
جئتُ إلى ناديكَ أرجو القِرى   من غيث كَفَّيْكَ المغيث الهَتُونْ
كُنْ لي شفيعًا فارتكابُ الهوى   أوقعني بين الشَّجَا والشجونْ
صلّى عليك اللّه سبحانه   ما هَزَّتِ الريحُ قُدُودَ الغصونْ

---

(١) في طبعة دار صادر (جـ ٧ ص ٥١٨): «ما جلبته».
(٢) ما بين قوسين ساقط من طبعة عبد الحميد (جـ ١٠ ص ٣٦٧).

وقال النواجي: [الوافر]

لقد أفرطتُ في حُسْنِ ابتداء   ورمتُ تخلُّصي يومَ الزحامِ
فبالمختار أرجو عفو ربِّي   ليرشدني إلى حُسْنِ الختامِ

وكان الفراغ منه عشية يوم الأحد المُسْفِر صباحُها عن السابع والعشرين لرمضان سنة ثمانٍ وثلاثين وألف، بالقاهرة المحروسة، والحمد للّه وكفى، وسلام على عباده الذين اصطفى، وألحقت فيه كثيرًا في السنة بعدها؛ فيكون جميعه آخر الحجة تتمة سنة تسع وثلاثين وألف، وصلّى اللّه على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلّم، دائمًا أبدًا إلى يوم الدين، آمين.

ثبت بأسماء المصادر والمراجع

١ ـ الإحاطة في أخبار غرناطة (١ ـ ٤). تحقيق الأستاذ محمد عبد اللّه عنان. مكتبة الخانجي بالقاهرة، الشركة المصرية للطباعة والنشر، ١٩٧٣ ـ ١٩٧٧.

٢ ـ أزهار الرياض في أخبار عياض للمقري (١ ـ ٣). تحقيق الأساتذة مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي. مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٤٠.

٣ ـ أشعار أولاد الخلفاء وأخبارهم لمحمد بن يحيىٰ الصولي. وهو جزء من كتابه «الأوراق». طبع بمصر سنة ١٩٣٦.

٤ ـ الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر العسقلاني (١ ـ ٨). ط. مصر، ١٣٢٣ هـ.

٥ ـ الأعلام للزِّركلي (١ ـ ٨). دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٠.

٦ ـ الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني. شرحه وكتب هوامشه الدكتور يوسف طويل والأستاذان عبد علي مهنا وسمير جابر. دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٦.

٧ ـ إمتاع الأسماع بما للرسول من الأبناء والأموال والحفدة والمتاع لتقي الدين المقريزي (الجزء الأول). تحقيق الأستاذ محمد شاكر. ط. القاهرة، سنة ١٩٤١.

٨ ـ أنس الفقير وعز الحقير لابن قنفذ القسنطيني. تحقيق الأستاذين محمد الفاسي وأدولف فور. ط. الرباط، سنة ١٩٦٥.

٩ ـ البيان المغرب لابن عذاري (القسم الخاص بتاريخ الموحدين). تحقيق الأستاذ أمبروسيو ويسي ميراندا ومساهمة محمد بن تاويت ومحمد بن إبراهيم الكتاني. ط. تطوان، سنة ١٩٦٠.

١٠ ـ التعريف بابن خلدون ورحلته شرقًا وغربًا لابن خلدون. تحقيق الأستاذ محمد بن تاويت الطنجي. ط. لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٥١.

١١ ـ التكملة لكتاب الصلة لابن الأبار (١ ـ ٢). طبعة مصر، ويشار إليها بأرقام الصفحات، وإذا أشير إلى رقم الترجمة كان الاعتماد على طبعة مجريط من المكتبة الأندلسية.

١٢ ـ جمهرة أنساب العرب لابن حزم. تحقيق الأستاذ عبد السلام محمد هارون. دار المعارف بمصر، سنة ١٩٦٢.

١٣ ـ الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة لابن حجر العسقلاني (١ ـ ٥). ط. مصر، سنة ١٩٦٧.

١٤ ـ الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة لابن حجر العسقلاني (١ ـ ٤). ط. حيدر أباد الدكن.

١٥ ـ ديوان ابن خفاجة. دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، سنة ١٩٨٠.

١٦ ـ ديوان ابن سهل الأندلسي. دراسة وتحقيق يسري عبد الغني عبد الله. دار الكتب بيروت، سنة ١٩٨٨.

١٧ ـ ديوان ابن سهل الأندلسي. قدم له الدكتور إحسان عباس. دار صادر، بيروت، ١٩٦٧.

١٨ ـ ديوان أبي تمام. شرح وتعليق الدكتور شاهين عطية. دار صعب، بيروت.

١٩ ـ ديوان أبي الحسن التهامي. الإسكندرية ١٨٩٣.

٢٠ ـ ديوان الحطيئة. دار صادر، بيروت، سنة ١٩٦٧.

٢١ ـ ديوان المتنبي (العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب). شرحه الشيخ ناصيف اليازجي، دار القلم ببيروت.

٢٢ ـ ديوان النابغة الذبياني. حققه وقدم له الأستاذ فوزي عطوي. دار صعب، بيروت، سنة ١٩٨٠.

٢٣ ـ الروض المعطار في خبر الأقطار (معجم جغرافي) للحميري. تحقيق الدكتور إحسان عباس. مؤسسة ناصر للثقافة، بيروت، سنة ١٩٨٠.

٢٤ ـ الرياض النضرة في مناقب العشرة للمحب الطبري (١ ـ ٢). مصر، سنة ١٣٢٧ هـ.

٢٥ ـ شرح الحماسة للمرزوقي (١ ـ ٤). نشر الأستاذين أحمد أمين وعبد السلام هارون. الطبعة الأولى، ط. لجنة التأليف والترجمة والنشر. القاهرة، ١٩٥١ ـ ١٩٥٣.

٢٦ ـ الشعر والشعراء لابن قتيبة (١ـ ٢) دار الثقافة، بيروت، سنة ١٩٦٩.

٢٧ ـ صحيح مسلم (١ ـ ٢). ط. القاهرة، ١٢٩٠.

٢٨ ـ طبقات الشعراء لابن سلام. دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٢.

٢٩ ـ عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية لأبي العباس الغبريني. الطبعة الأولى، الجزائر، ١٩١٠.

٣٠ ـ عيون الأنباء في طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة. تحقيق الدكتور نزار رضا. دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٦٥.

٣١ ـ القاموس المحيط للفيروز آبادي. مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٦.

٣٢ ـ قرآن كريم. دار الفكر، بيروت، ١٤٠٣ هـ.

٣٣ ـ الكتيبة الكامنة في من لقيناه بالأندلس من شعراء المائة الثامنة لابن الخطيب. تحقيق الدكتور إحسان عباس. دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٣.

٣٤ ـ الكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة لنجم الدين الغزي (١ ـ ٣). تحقيق الدكتور جبرائيل جبور. ط. بيروت، ١٩٤٥ ـ ١٩٥٨.

٣٥ ـ لسان العرب لابن منظور (١ ـ ١٥). دار صادر، بيروت.

٣٦ ـ مجمع الأمثال للميداني (١ ـ ٢). تحقيق الأستاذ محمد محيي الدين عبد الحميد. مطبعة السنة المحمدية، ١٩٥٥.

٣٧ ـ مجمع الزوائد ومنبع الفوائد لابن حجر الهيثمي (١ ـ ١٠). نسخة مصورة بدار الكتاب العربي عن الطبعة المصرية.

٣٨ ـ محيط المحيط للمعلم بطرس البستاني. مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٧٧.

٣٩ ـ مختار الصحاح للرازي. مؤسسة الرسالة، دار البصائر، بيروت، ١٩٨٥.

٤٠ ـ معجم البلدان لياقوت الرومي (١ ـ ٥). دار صادر، دار بيروت، ١٩٨٤.

٤١ ـ معجم ما اسْتُعْجم للبكري (١ ـ ٤). تحقيق الأستاذ مصطفى السقا. دار عالم الكتب، بيروت، ١٩٨٣.

٤٢ ـ المعلقات العشر. شرح الدكتور مفيد قميحة. دار العلوم العربية، بيروت، ١٩٨٩.

٤٣ ـ نثير فرائد الجمان في نظام فحول الزمان لابن الأحمر. تحقيق الأستاذ محمد رضوان الداية. دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٧.

٤٤ ـ نفاضة الجراب في عُلالة الاغتراب لابن الخطيب. تحقيق الدكتور أحمد مختار العبادي. دار الكاتب العربي للطباعة والنشر بالقاهرة.

٤٥ ـ نيل الابتهاج بتطريز الديباج لأحمد بابا التمبكتي. ط. فاس.

* * *

فهرس الجزء العاشر من كتاب
نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب للمقري

الباب السابع من القسم الثاني من الكتاب، في ذكر تلامذة لسان الدين بن الخطيب ... ٣
الوزير أبو عبد الله محمد بن يوسف بن زمرك، الصريحي، ترجمة عن «الإحاطة» ٣
نماذج من قصائد ابن زمرك المطولة ٦
قصيدة له يصف فيها «الزرافة» وقد وفد بها الأحابيش على أبي سالم ملك المغرب .. ١٠
قصيدة أخرى لابن زمرك أنشدها السلطان ١٢
من شعره في غير المطولات ١٦
تقريظ لكتاب الشفاء عندما شرحه ابن مرزوق ١٧
تعليقات من كلام علي بن لسان الدين على ما كتبه أبوه في ترجمة الوزير ابن زمرك .. ١٩
ترجمة ابن زمرك عن الأمير ابن الأحمر ٢١
قصيدة لابن زمرك في التهنئة بالعيد ٢٨
لابن زمرك في الشكر ٣٣
مقطوعات لابن زمرك في وصف زهر القرنفل ٣٤
قصيدة له يمدح فيها ابن الأحمر ويهنئه ٣٤
قصيدة له في المولد النبوي ٣٦
قصيدة له في التهنئة، وفيها يصف الجند ٤٠
قصيدة أخرى في التهنئة، وفيها يصف دار الملك ٤٤
تخميس له يهنىء فيه ابن الأحمر بعوده من سبتة ٥١
قصيدة لابن زمرك يهنىء فيها بالعيد ٦٥
قصيدة له في التهنئة أيضًا ٦٩
قصيدة له يصف فيها نزهة لابن الأحمر ٧٤

مقطوعات له في الشكر ٧٦
مقطوعات في معان مختلفة ٧٨
مما أنشده على لحد ابن الأحمر ٩١
له يستعطف السلطان أبا الحجاج ٩٢
من شعره في أبي الحجاج ٩٣
له يراجع الكاتب أبا زكريا بن أبي دلامة ٩٥
موشحة لابن زمرك، يتشوق فيها إلى غرناطة ٩٥
موشحة أخرى له ٩٧
موشحة كتب بها إلى الغني بالله ١٠٠
موشحة أخرى عارض بها موشحة ابن سهل ١٠٢
من موشحاته في الصبوحيات ١٠٥
موشحة له في مالقة ١١٣
موشحة أخرى له في مالقة ١١٤
موشحة له في الشفاء ١١٦
موشحة له يهنىء فيها السلطان موسى بن أبي عنان ١١٩
موشحة له أخرى في وصف غرناطة ١٢٠
ترجمة أبي العباس أحمد بن جعفر، السبتي، الخزرجي، وذكر بعض أحواله ١٢٢
رجع إلى ترجمة ابن زمرك ١٣٣
بعض فوائده، عن الشاطبي ١٣٣
موشحة لابن زمرك في مدح الرسول ١٣٤
من تلامذة لسان الدين الطبيب ابن المهنا شارح ألفية ابن سينا ١٣٦
ومنهم الأديب أبو بكر بن جزي الكلبي ١٣٦
ومنهم أبو عبد الله الشريشي ١٣٦
ومن تلامذة لسان الدين بن الخطيب القاضي الكاتب أبو محمد عطية بن يحيىٰ بن عبد الله بن طلحة، المحاربي ١٣٧
ومنهم الكاتب أحمد بن سليمان بن فركون ١٤١
الباب الثامن من القسم الثاني من الكتاب، في ذكر أولاد لسان الدين ١٤٢
عدة أولاد لسان الدين ١٤٢
- محمد بن لسان الدين ١٤٢
- علي بن لسان الدين ١٤٢
- عبد الله بن لسان الدين ١٤٢

ترجمة بقلم لسان الدين لابنه عبد الله ١٤٣
من شعر عبد الله بن لسان الدين قصيدة له في مولد الرسول، سنة٧٦٤ .... ١٤٣
ومنه قصيدة يمدح بها السلطان أبا عبد الله محمد بن يوسف بن نصر ١٤٦
وله في إعذار ابن السلطان ١٤٨
وله، وأنشدها السلطان ليلة الميلاد في سنة ٧٦٥ .... ١٥١
بين لسان الدين وابنه عبد الله ١٥٢
علي بن لسان الدين ١٥٤
تذييلات له على كتاب «الإحاطة» لأبيه ١٥٥
في ترجمة محمد بن أحمد الهواري، الشهير بابن جابر ١٥٥
من شعر ابن جابر الذي لم يذكره لسان الدين ١٥٦
مقصورة عجيبة من شعر ابن جابر رتبها على حروف المعجم فيما قبل الألف
المقصورة، وأتى من كل حرف بعشرة أبيات ١٦٠
قصيدة لابن جابر تتضمن التورية بأسماء سور القرآن الكريم ١٧٦
معارضة لقصيدة ابن جابر، على وزنها ورويها ١٧٩
قصيدة للشيخ القلقشندي جرى فيها مجرى ابن جابر ١٨٠
معارضة أخرى لقصيدة ابن جابر ١٨٣
خطبة نثرية للقاضي عياض تتضمن التورية بأسماء السور ١٨٥
خطبة لسعيد بن أحمد المقري عم المؤلف عارض بها خطبة القاضي عياض ١٨٦
من نظم ابن جابر ١٨٨
وفي معناه لشمس الدين الدمشقي ١٨٩
من شعر ابن جابر أيضًا ١٨٩
رجع لأولاد لسان الدين، من ترجمة علي بن لسان الدين ١٩٠
خطبة الكفعمي في التورية بسور القرآن الكريم ١٩١
قصيدة في نسق سور القرآن للكفعمي أيضًا ١٩٢
ترجمة إبراهيم بن علي الكفعمي ١٩٤
رجع إلى نظم ابن جابر ١٩٧
من شعر أبي جعفر، رفيق ابن جابر ١٩٨
بين ابن عنين والملك المعظم ١٩٩
مقطعات من شعر ابن جابر أيضًا ١٩٩
قصيدة لابن جابر في فضائل الصحابة ٢٠٩
مقطوعات من شعر ابن جابر أيضًا ٢١٦

من شعر أبي جعفر، رفيق ابن جابر ٢٢٠
عود إلى ذكر علي بن لسان الدين ٢٢٦
نصيحة من إنشائه كتبها على لسان السلطان، وفيها عجائب مما أوصى به الولاة ٢٢٦
وله أيضًا على لسان السلطان ٢٣٢
كتاب من إنشاء علي بن لسان الدين عن لسان السلطان الغني بالله ٢٣٧
وصية لسان الدين لأولاده ٢٣٨
وصية من إنشاء ابن الجنان المرسي، كتبها عن ابن هود ملك الأندلس إلى أخيه ٢٥١
من شعر ابن الجنان المرسي ٢٥٩
من ترجمة ابن الجنان عن «الإحاطة» ٢٦٠
من نثر ابن الجنان رسالة كتب بها إلى رسول الله ﷺ ٢٧٠
ترجمة ابن الجنان عن «عنوان الدراية» ٢٧٧
من بديع نظم ابن الجنان تخميس في مديح النبي ﷺ ٢٧٧
قصيدة مخمسة لبعض أهل المغرب ٢٨١
قصيدة مخمسة لمؤلف هذا الكتاب ٢٨٣
قصيدة في مديح الرسول الأكرم لابن الجنان المرسي ٢٨٣
قصيدة مخمسة في المديح لإدريس بن موسى القرطبي ٢٨٤
تقريظ لابن الجنان على قصيدة إدريس بن موسى السابقة ٢٨٧
قصيدة مخمسة لابن سهل الإشبيلي ٢٨٨
قصيدة مخمسة لبعض الوعاظ ٢٩٠
قصيدة مخمسة لبعض أهل المغرب ٢٩١
قصيدة مخمسة لمالك بن المرحل المالقي السبتي ٢٩٤
قصيدة مخمسة في مدح النبي، لأبي العباس أحمد بن محمد المغربي ٢٩٨
قصيدة مخمسة في مدح الرسول الأكرم، لابن القصير ٣٠٥
لجمال الدين بن جلال الدين الجوزي في مدح النبي ٣٠٦
تسديس في مدح الرسول، لمحمد بن العفيف، الحسني، الصفوي ٣٠٦
تسديس آخر لابن العفيف الحسني الصفوي ٣١٠
تسديس آخر في مدح النبي المصطفى لأبي عبد الله بن العطار، الجزائري ٣١٤
تسديس آخر في مدح الرسول ٣١٨
قصيدة في مدح الرسول لابن العطار ٣١٩
حديث عن كتاب لابن العطار في مدح الرسول ﷺ ٣٢٢
من قصائد كتاب ابن العطار في المديح ٣٢٣

لابن العريف، في مدح الرسول ٣٣٠
لأبي عبد الله بن عمران، في مديح الرسول ٣٣٢
مدائح في رسول الله ﷺ مما نظمه ابن الجنان المرسي ٣٣٤
لأبي القاسم سعد بن محمد ٣٣٦
لأبي اليمن بن عساكر ٣٣٦
قصيدة أخرى لأبي اليمن بن عساكر ٣٣٧
مقطوعات لابن الجنان المرسي ٣٣٩
مقطوعات للإمام أبي زيد الفازازي ٣٤٠
تسديس في مدح الرسول من نظم أبي الحجاج يوسف بن موسى المنتشاقري الأندلسي .. ٣٤٥

تمّ فهرس الجزء العاشر من كتاب

«نفح الطيب، من غصن الأندلس الرطيب»

وبه تمّ جميع الكتاب، والحمد لله رب العالمين


